مصر فى عصرنا الحديث

أناتولى زاخاروفيتش بيجورين

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة



ترجمة : على فهمى عبد السلام

مراجعة : أوليج إيفانوفيتش فومين

1039





كانت مصر وستبقى فى ذاكرة الروس بكل أفراحها وأحزانها،
بالحب وبالخلافات، بالتشابه المذهل فى العقلية وبالقدر التاريخى غير المتماثل.

ولكن سيبقى الزمن الذى عاشته مصر معنا أو من دوننا فى القرن العشرين،
سوف يبقى إلى الأبد.
سيبقى بالنسبة للمعاصرين وللأحفاد.
سيبقى للتاريخ.

لوحة الغلاف: النصب التذكارى للصداقة السوفيتية العربية
تصميم الغلاف / حسن كامل

مصر فى عصرنا الحديث

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٣٩

- مصر فى عصرنا الحديث

- أناتولى زاخاروفيتش ييجورين

- على فهمى عبد السلام

- أوليج إيفانوفيتش فومين

- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

ЕГИПЕТ НАШЕГО ВРЕМЕНИ

А.З.ЕГОРИН

Москва
ИВ РАН
1998

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084

المشروع القومى للترجمة

مصر فى عصرنا الحديث

تأليـف : أناتولى زاخاروفيتش
ترجمة : على فهمى عبد السلام
مراجعة : أوليج إيفانوفيتش فومين



٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زاخاروفيتش ، أناتولى
مصر فى عصرنا الحديث / تأليف أناتولى زاخاروفيتش ؛ ترجمة على فهمى عبد السلام ؛ مراجعة : أوليج إيفانوفيتش فومين ؛ إشراف جابر عصفور - ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٤٥٦ ص ، ٢٤ سم - (المشروع القومى للترجمة) - العدد ١٠٣٩)
١ - مصر - العلاقات الخارجية - روسيا .
٢ - مصر - تاريخ - مقالات ومحاضرات .
(أ) زاخاروفيتش ، أناتولى (مؤلف) .
(ب) عبد السلام ، على فهمى (مترجم) .
(جـ) فومين ، أوليج إيفانوفيتش (مراجع) .
(د) عصفور ، جابر (مشرف) ، (هـ) العنوان ٣٢٧,٦٢٠٤٧

رقم الإيداع ٢٠٠٦/١٩٥١٤
الترقيم الدولى I.S.BN. 977 - 437 - 047 - 3
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتــويات

تقديم المترجم

كانت مصر و ستبقى فى ذاكرة الروس، بكل أفراحها وأحزانها،
بالحب و بالخلافات، بالتشابه المذهل فى العقلية وبالقدر التاريخى غير المتماثل.
سوف يزول كل شيء ، ولكن سيبقى الزمن الذى عاشته مصر معنا أو من دوننا فى القرن العشرين،
سوف يبقى إلى الأبد.
سيبقى بالنسبة للمعاصرين و للأحفاد.
سيبقى للتاريخ.

ختم المؤلف كتابه بالفقرة الموضحة أعلاه والتى توضح علاقته بمصر التى عشقها وعمل بها وخصص لها أكثر من ٣٠ سنة من حياته.

لقد تم اختيار هذا الكتاب لترجمته إلى اللغة العربية ، حيث إن مؤلفه مستشرق روسى متميز، يعتبر خبيراً فى الشئون العربية. وقد منحته الفترة الطويلة التى عمل فيها ممثلاً لوكالة "أنباء نوفوستى" السوفييتية فى مصر ثم مستشاراً بسفارة الاتحاد السوفيتى فى ليبيا وعمله الأكاديمى فى "معهد الاستشراق" بأكاديمية العلوم فى روسيا الاتحادية ، منحته الفرصة لكى يكون شاهد عيان للكثير من الأحداث التى مرت على منطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، ومصر بصفة خاصة.

يتميز هذا الكتاب بأنه موجه للقارئ الروسى و ليس للقارئ العربى، مما يعطيه ميزة التعبير عن الرأى بحرية دون مواراة ولا مجاملة لنا نحن المصريين. وقد وردت انتقادات فى هذا العمل لبعض جوانب الحياة والتصرفات فى بعض المواقف للمصريين (وقد أطلق عليهم المؤلف فى جزء كبير من كتابه "العرب" ، حيث إنه عاش فى

مصر عندما كانت تحمل اسم "الجمهورية العربية المتحدة")، وكذلك للروس، بالإضافة إلى تحليلات سياسية. وبالطبع يمكن أن نتفق أو لا نتفق مع المؤلف فى رؤيته وآرائه وفهمه لما رآه فى مصر وما يتوقعه للمستقبل، آخذين فى الاعتبار أنه عاشق لمصر ومتخصص فى الشئون العربية.

يتناول المؤلف فى هذا العمل الذى نشرته أكاديمية البحث العلمى الروسية بموسكو فى عام ١٩٩٨ الكثير من الموضوعات المتعلقة بالتاريخ المصرى، وبالعلاقات المصرية مع الاتحاد السوفييتى، ثم روسيا فى نهاية القرن العشرين. وقد قسم كتابه إلى أبواب مختلفة ركزت كثيراً على العلاقات السوفيتية (الروسية) المصرية فى مختلف الحقبات التاريخية كما يلى :

يمثل "الباب الأول" جولة فى تاريخ مصر القديم بدءاً من الحقبة الفرعونية، وصف فيها أهم الآثار المصرية والأماكن التاريخية بكل من القاهرة والأقصر. وفى هذا الباب الذى كُتب بديلاً عن المقدمة استعرض المؤلف الاكتشافات العلمية الحديثة لعلماء الآثار والمصريات الفرنسيين واليابانيين والأمريكيين والروس بالطبع ، وقدم تحليلاً وافياً لهذه الإنجازات.

أما "الباب الثانى" فقد خصصه المؤلف لعرض حياة ونشاط اثنين من أهم وأشهر أبطال التاريخ المصرى بعد الفراعنة، و هما:"الإسكندر الأكبر" و "الملكة كليوباترا" اللذان ما زال فى تاريخهما الكثير من الصفحات المجهولة.

ويوضح فى"الباب الثالث" صفحات مصرية فى تاريخ روسيا، بداية العلاقات التاريخية بين مصر وروسيا منذ القرن الخامس عشر وامتدادها حتى القرن العشرين.

وفى "الباب الرابع" يتناول المؤلف الجانب الدينى فى هذه العلاقات التى تمثل أهمية كبرى للمسيحيين الروس الذين يعتبرون شبه جزيرة سيناء كلها أرضاً مقدسة، فكانوا يحجون إليها فى طريقهم إلى القدس. وقد تتبع المؤلف أثر الحجاج الروس فى سيناء واصفاً المواقع التى كان يزورها هؤلاء الحجاج (الطور، ووادى فيران، وسانت كاترين، ونويبع، وطابا ...) وقارنها بالأماكن التى يزورها الروس حاليا (شرم الشيخ ورأس محمد).

أما "الباب الخامس" فقد خصصه لعرض "مصر والحرب العالمية الثانية". فتم فيه استعراض المعارك فى شمال إفريقيا ودور الجنود الروس فيها. كما قام بزيارة للعلمين ومقابرها التذكارية.

يستعرض"الباب السادس" الملابسات التى سبقت العدوان الثلاثى الذى قامت به إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر، ويوضح المؤلف هنا دور الإنذار الروسى الذى أدى إلى إنهاء هذه الحرب.

وفى "الباب السابع" قدم دراسة للعلاقة بين "عبد الناصر" و "خروشوف" التى تأرجحت مابين الإعجاب والصداقة والخلاف وتبادل الاتهامات ، فى فترة مهمة فى تاريخ مصر ، وتاريخ العلاقات المصرية السوفيتية الذى شهد الكثير من الإنجازات المشتركة.

يركز "الباب الثامن" على قصة بناء السد العالى ودور الاتحاد السوفيتى فيها، ويقدم ذكريات الخبراء الروس والمصريين الذين شاركوا فى هذا العمل و رأيهم فيه.

"الباب التاسع" يعرض الجهود التى بذلت لإنقاذ آثار النوبة قبل غرقها بسبب بناء السد العالى، مركزًا على نقل معبد "أبو سمبل".

ويعرض المؤلف فى " الباب العاشر" مجموعة من أهم الرسائل التى أرسلها إلى الاتحاد السوفيتى، والمتعلقة بعمل مواطنيه فى المشاريع المختلفة التى ساعد الاتحاد السوفييتى على إنشائها فى مصر.

أما "الباب الحادى عشر" فهو مخصص لسرد نماذج من التعاون العسكرى بين مصر والاتحاد السوفييتى فى الفترة من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٢ .

عُرضت المادة الصحفية التى كتبها المؤلف ونشرت فى الصحف السوفيتية فى "الباب الثانى عشر" عن المعارك التى تمت فى مصر فى الفترة من ٦ يونية ١٩٦٧ حتى ٨ أغسطس ١٩٧٠ .

أما "الباب الثالث عشر" فهو مخصص لحرب أكتوبر ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل ونتائجها.

ويقدم "الباب الرابع عشر" تحليلاً لتحول مصر من أسلوب الإستراتيجية العسكرية إلى إستراتيجية السلام مع إسرائيل.

ويحلل "الباب الخامس عشر" سباق التسلح في منطقة الشرق الأوسط التي تتسابق فيها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي لبيع السلاح لها، وهنا يبين المؤلف رأيه في خطورة ذلك على مبادرة السلام التي ظهرت في مدريد عام ١٩٩١ .

"الباب السادس عشر" عبارة عن نظرة المؤلف إلى المدن الجديدة التي أقيمت فيها مناطق صناعية في الصحراء، بالإضافة إلى تقييم للعامل الإسلامي الذي يقوى في البلد.

يصف المؤلف في "الباب السابع عشر" الحياة اليومية للمصريين في العاصمة كما رآها.

أما في "الباب الثامن عشر" فهو يستعيد ذكرياته في أقدم مدينة مصرية "الإسكندرية" في الستينيات، وفي التسعينيات، ويصف حياة مواطنيها الذين استقروا فيها منذ زمن بعيد.

يسرد المؤلف في الباب "التاسع عشر" لقاءاته مع المسئولين و مع الشخصيات العامة المهمة في مصر، وكذلك مع المصريين البسطاء ومع العلماء المشهورين. وهذا الباب مخصص لتحليل حالة العلاقات بين روسيا ومصر ومستقبلها.

وفي النهاية يرى المؤلف أن مصر تكتب صفحات عظيمة في تاريخها، وأنه ليس من المتأخر حتى الآن بدء علاقات عظيمة بين مصر وروسيا للمستقبل.

مرة أخرى أذكر بأن هذا الكتاب يقدم رؤية خبير روسي في الشئون المصرية وعلاقتها بروسيا، يمكن أن نتفق أو نختلف معها، ولكنها في النهاية رؤية أحد مواطني شعب صديق عظيم ارتبط تاريخيا بمصر منذ زمن بعيد.

علي فهمي عبد السلام

الباب الأول

أرض الفراعنة

ندعوكم اليوم إلى هذا البلد الرائع على ضفاف النيل؛ لكى نشاهد أقدم وأكبر الآثار التاريخية فى العالم، والتى ترتفع فى الصحراء إلى السماء بين الرمال الصفراء التى يميل لونها إلى الفضى، ونهر النيل العظيم الزيتونى اللون المائل للبنى. لقد مرت حتى الآن آلاف السنين على أرض مصر المتدثرة بعبير المتوارثات من الحقائق ومن الخرافات التى ألهبت خيالات الرحالة، وحيرت العالم. ولا يمكن أن يشعر أى شخص باللامبالاة عند مشاهدة التماثيل الصخرية التى أقامها الفراعنة أو الابتسامات الدافئة لأحفادهم. فقد أعجب بمصر كل من "هيرودوت" و "بلينوس" و"سترابون" و "بلوتارك"، كما يعجب بها ملايين السائحين الذين يزورون هذه الواحة المضيافة فى كوكبنا.

أطلق المصريون القدماء على بلدهم اسم "كيمين" - أى السوداء طبقًا للون الأرض فى وادى النيل - لتمييزها عن الأرض الحمراء فى الصحارى المجاورة. وفيما بعد أطلق على هذا البلد كل من البابليين والآشوريين اسم "موصرى". وقد تحول هذا الاسم فى اللغة العربية فيما بعد إلى "مصر". أما اليونانيون القدماء فقد أطلقوا عليها اسم "أيجبتوس" حيث غيروا الاسم السابق للدولة العظيمة بجنوب مصر "حتكابتاح" وكانت عاصمتها "ممفيس". كان يقدس فيها إله الحرفيين والفنانين الإله "بتاح". وبهذه الطريقة أصبحت "كيميت" تعرف باسم مصر بالنسبة للعرب و"إيجيبت" لباقى سكان الأرض.

عند الأهرام

مصر قبل أى شىء آخر هى الأهرام ، تلك الكتل الحجرية الشامخة والموزعة بالتساوى ما بين منطقتى "أبو رواما" فى الشمال و"دهشور" فى الجنوب ، حيث يبلغ عددها أكثر من مائة هرم، وتختلف عن بعضها البعض من حيث اللون، فمنها الأبيض والأسود والأحمر، وتقف شهوداً صامتة على التاريخ.

يعتبر الهرم المدرج المشيد فى سقارة (من ضواحى القاهرة) - والذى بناه "زوسر" منذ أكثر من ٥٧٠٠ عام - أقدم وأكبر الآثار المصنوعة من الأحجار فى العالم. وقد تراكمت رمال الصحراء بواسطة الرياح بحيث غطت درجاته الست الحادة، كما أن أجيال المخربين المتتالية قامت بنزع كسوته الخارجية. وتبلغ فى الوقت الحالى أبعاد قاعدته ١٠٩ × ١٢١ متراً وارتفاعه ٥٩ متراً. يظهر هذا الهرم وكأنه خارج من الرمال، ولكنه فى الواقع يرتكز على صخور الحجر الجيرى الصلبة، ويضم بداخله العديد من الدهاليز، يصل إجمالى طولها إلى كيلومتر واحد.

يعتبر الصعود على هرم "زوسر" أمراً صعبًا وخطراً؛ لذلك يمنع تسلقه. ولكن يمكن الدخول إلى دهاليزه التى تحت الأرض بمصاحبة دليل، كما يمكن أيضًا التجول بجانب حدوده الحجرية، والدخول إلى قاعة الأعمدة على يسار الهرم وإلى الساحة الموجودة عند الركن الأيمن لهذا العملاق ، حيث نظمت الاحتفالات فى الماضى بمناسبة مرور ثلاثين عامًا على حكم الملك "زوسر".

وبالمناسبة فإن "أمحوتب" المهندس المعمارى هو الذى شيد هرم سقارة.

كان "أمحوتب" اسم الوزير الرئيسى للفرعون "زوسر". كان هذا الاسم يرمز للحكمة فى مصر القديمة، وقد اشتهر "أمحوتب" فى عصره بقدراته طبيبًا، مما أدى إلى اعتباره "إله الطب" بعد عدة قرون، أما فى وقتنا الحالى فهو يشتهر أكثر بأنه المهندس الذى بنى الهرم المدرج. وقد استخدم "أمحوتب" لأول مرة فى التاريخ الكتل الحجرية الكبيرة للبناء بدلاً من قوالب الطوب. وتوجد تماثيل مختلفة لهذا المهندس والطبيب العبقرى موزعة فى متاحف الدول المختلفة، ولكن لم يعثر بعد على مقبرته.

يعتقد عالم الآثار البولندى الأستاذ "كارول ميسليفتش" أن البعثة التى يرأسها وجدت مقبرة "أمحوتب". وقد أشار إلى ذلك "بلياكوف" (فلاديمير بلياكوف – صحفى وكاتب روسى مشهور) فى جريدة "ترود" الروسية واسعة الانتشار (فى ٥ فبراير ١٩٩٧) . كان "ميسليفتش" يقوم بأبحاثه فى غرب هرم "زوسر" فوجد ساحة يحيط بها جدار، وبها بئران عمقهما أربعة أمتار، كانت أبعاد الساحة تتطابق مع مقابر الفراعنة، وعند تنظيف الساحة وجد العمال قطعًا من أوانٍ فخارية وأوانٍ تشبه تمامًا تلك التى تزين غرفة مقبرة الفرعون "زوسر" نفسه. وما زالت البعثة تبحث عن مقبرة "أمحوتب".

حاولنا أن نذهب إلى المنطقة التى كانت توجد بها "ممفيس" عاصمة مصر الموحدة منذ حوالى ٥٠٠٠ سنة. توضح الخرائط أن هذه المنطقة تبعد ٣٠ كيلومترًا عن القاهرة، فى الحقيقة لم تعد هذه المدينة توجد الآن فى هذه المنطقة، بل توجد مكانها فقط غابة من أشجار النخيل المميزة بجمالها وكبر مساحتها، تشهد غابة وقرية "ميت رهينة" على وجود العاصمة العظيمة للعالم القديم.

وها هى أشهر الأهرام واقفة فى الجيزة على أطراف القاهرة، يبلغ عمرها نحو أربعة آلاف وخمسمائة سنة. تقف هذه المقابر الخاصة بالفراعنة "خوفو" و "خفرع" و"منقرع" جنودًا فى طابور واحد خلف بعضها البعض. يؤدى هذا الترتيب على خط واحد وبناؤها الهندسى الدقيق الرائع إلى الإحساس باختلاط الأبعاد والنسب، كما يؤدى خداع بصر خاص إلى ظهور هذه الأهرام وكأنها ملساء، ولكنها فى الحقيقة ترتفع إلى أعلى على هيئة درجات، يصل ارتفاع كل درجة منها إلى حوالى متر. تعطى لهذا الشكل الهندسى بساطة ليس لها حدود، بالإضافة إلى ذلك تدفعك الأبعاد الضخمة إلى الإحساس بالخلود والعظمة. "الإنسان يخاف من الزمن والزمن يخاف من الأهرام" ، هذا ما يقوله مثل مصرى، ويبدو أن ذلك صحيح. يجب أن نضيف أيضًا أنه لا تتكون تقريبًا للأهرام ظلال كما تنعكس عليها الأصوات، وبالإضافة إلى ذلك فإن كتل الأحجار تتنفس البرد فى الجو الحار وتسخن بالحرارة فى الشتاء. وجدير بالذكر أن الأهرام لا تعرف ما الزلازل، كما أن العواصف لم تتمكن من كسحها ولم تدفنها الرمال على مدى التاريخ. فهى قابعة فى صمت فى هيئتها البيضاء المائلة إلى اللون الذهبى تفخر بتجاعيد عمرها الذى يصل إلى آلاف من السنين.

لماذا بنيت هذه الآثار المعروفة بالأهرام ؟... ربما اعتقد الفراعنة أنهم يمثلون إله الشمس فسرح بهم خيالهم لكي يبنوا الأهرام، لأن أشعة الشمس تسقط على الأرض على شكل مخروط وتنتشر تقريبًا بالشكل نفسه الذى بنيت عليه الأهرام. ويتمتع هذا المخروط بالخلود تمامًا مثل الأهرام. أكثر ما يثير الدهشة هو ملاحظة أنه إذا تم ضرب ارتفاع الهرم الأكبر – هرم خوفو – على سبيل المثال فى رقم مليار نحصل على رقم يعادل تقريبًا المسافة الفاصلة بين الأرض والسماء. ويبدو أن القاعدة الأساسية للحسابات كانت تعتمد على نسب "المقطع الذهبى" والتى استخدمت لتحديد العناصر الأساسية لهذا المجمع من الأبنية بالجيزة (بما فى ذلك النسبة بين أبعاد القاعدة إلى ضعف الارتفاع، أى زاوية ميل أبعاد الهرم).

إلى وقت قريب كان الأقرب إلى المنطق عند شرح كيفية بناء الأهرام يتلخص فيما يلى: كانت توضع الرمال حول المكـان الذى سوف يبنى فيه الهرم بحيث تكون مائلة، ثم كانت توضع الكتل الحجرية على زحافات فوق جنوع الأشجار وتسحب بالحبال. وكان يتم رش الماء عليها حتى تنزلق بسهولة.

إذا صدق علماء التاريخ فإنه قد تم بناء هرم "خوفو" فى عشرين عامًا. وطبقًا لحسابات العلماء فإن جسم الهرم يضم ٢,٣ مليون كتلة حجرية، أى أنه كان على العمال إن يرصوا كل يوم ٣٠٠ كتلة فى جسم الهرم. على الأرجح كان ذلك يتم فى ضوء الصباح الذى يمتد فى المتوسط إلى ١٢ ساعة، أى أنه كان يتم رص ٢٥ كتلة فى الساعة. لذلك فمن المشكوك فيه جدا أن يكون ذلك قد تم بواسطة زحافات.

يقدم "ديك ببرى" أستاذ الميكانيكا بجامعة "كمبريدج" الإنجليزية نظرية جديدة لطريقة بناء الأهرام، حيث يعتقد أنه لم يتم استخدام زحافات على الإطلاق، بل استخدمت بدلاً منها طريقة" البكر والحبال". فقد لاحظ "ببرى" أن علماء الآثار قد وجدوا بين الآلات التى عثروا عليها أقواسًا خشبية تماثل تلك المستخدمة فى المقاعد الهزازة. لذلك يفترض أن هذه الأقواس كانت تثبت حول الكتل الحجرية بحيث يتكون شكل إسطوانة، ثم يتم لف حبل طويل حول الكتلة. وقد تمكن بناة الأهرام من تحريك الكتل الثقيلة بسهولة عند شد هذه الحبال.

قام المهندسون اليابانيون باختبار نظرية "بيرى"، وقد بينت تجاربهم في طوكيو أن هذه الطريقة فعلاً تتميز بالكفاءة العالية ، حيث تمكن عشرون عاملاً من أن يستخدموا هذه الطريقة لرفع كتلة يصل وزنها إلى طنين ونصف على سطح مائل طوله ١٥ متراً في خلال دقيقة واحدة. أما عند محاولة سحبها بواسطة زحافات فقد احتاج الأمر إلى ٨٠ شخصاً ووقت أطول بكثير. وبالمناسبة فقد بينت عمليات التنقيب بالقرب من أهرام الجيزة العظيمة أن عدد العمال لم يتعد ٣٦ ألف فرد. وهذا الرقم يمثل ثلث ما ذكره هيرودوت (١٠٠ ألف)

يترك الدخول في الدهاليز داخل هرم "خوفو" انطباعًا يصعب نسيانه، فتوجد على أجناب هذه الدهاليز آثار مختلفة تركها من حاول منذ عصر الفراعنة العثور على مقبرة الفرعون والاستيلاء على كنوزها. وإلى الآن لم يتمكن أحد من اكتشاف كل أسرار دفن قدماء المصريين. وصلنا إلى مكان ما إلى أعلى أولاً عن طريق ممرين طولهما أربعون مترًا، ثم زحفنا تقريباً على بطننا مسافة ستين متراً في ممر ونحن نستند على درج خشبي تم تركيبه في عصرنا. عند الزحف إلى أعلى في داخل الأهرام تبدو هذه الدهاليز أكبر وأكثر اتساعًا، كما ينتابك إحساس بأن هذه الكتل الباردة المكونة لهيكل البناء سوف تسحقك، ويكون التنفس أكثر صعوبة مع كل خطوة، كما يستحيل التوقف والعودة إلى الخلف، حيث يكون هناك خلفك مهووسون يزحفون مثل كاتب هذه السطور، لأنهم يتصورون أنهم سوف يستنشقون شيئًا جديداً من عبق التاريخ. وصلنا إلى مكان ما إلى أعلى به حجرة، رأينا بها صندوقًا حجريا مخصصا لوضع التابوت داخله. ولكن للأسف هذا المكان مزيف، لأنه توجد أكثر من عشر حجرات مماثلة ليس بها أية دفائن، كما توجد أيضاً فراغات وأماكن مملوءة بالرمال، وبالإضافة إلى ذلك تم اكتشاف متاهة كاملة من الدهاليز تحت الأرض تصل حتى "أبو الهول". ولكن بقيت الكثير من الأسئلة المتعلقة بالأهرام دون إجابة حتى الآن.

كانت الفراغات التى اكتشفها العلماء الفرنسيون في جسم هرم "خوفو" تهدف إلى حماية هذا البناء الضخم القديم من الزلازل. توصل إلى هذه النتيجة العلماء اليابانيون الذين قاموا بعمل دراسات على الهرم باستخدام أجهزة إليكترونية معقدة، فقد توصلوا

إلى معرفة أن هذه الفراغات مملوءة بالرمال، ولكن لم تكشف المعدات المعقدة عن وجود أية أشياء أخرى. وفى عام ١٩٨٧ تمكن علماء جامعة "فاسيدا" بطوكيو من اكتشاف أشياء مصنوعة من الخشب عند أساس الهرم نفسه داخل البناء الحجرى فى مكان غير عميق نسبيا، ويشبه شكل هذه الأشياء "مركب الشمس".

تبقى من هذا العمل القليل فقط الذى يتلخص فى الدخول إلى هذه الحجرة واكتشاف المركب القديمة. أخذت البعثة الأمريكية جماعة "ناشيونال جيوجرافيك" على عاتقها القيام بذلك، وكان يرأس هذه البعثة العالم المصرى ذو الشهرة العالمية الدكتور "فاروق الباز" المتخصص فى علم جيولوجيا الفضاء، وهو يرأس مركز دراسات الفضاء فى جامعة "بوسطن"، وبالمناسبة فقد ساهم بجهد وفير فى المشروع السوفيتى الأمريكى للطيران "سيوز – أبولون".

على مدى عدة ساعات دخل جهاز ثقب مزود بطرف خاص من الماس من خلال كتلة من الحجر الجيرى سمكها متران تقريبًا إلى الحجرة الحجرية، وتم إدخال جهاز تصوير تليفزيونى صغير من خلال الثقب الذى كان قطره تسعة سنتيمترات، وتمكن هذا الجهاز من نقل شكل المركب إلى الخارج.

يرقد "أبو الهول" الشهير عند قاعدة الأهرام كما لو كان يحرسها. وهو كائن غامض يتكون من جسم أسد ورأس إنسان ينظر إلى الشرق، وقد تم نحته من قطعة واحدة من الحجر، ويبلغ طوله من أطراف أرجله إلى نهاية ذيله ٥٧.٣ مترًا، أما ارتفاعه فهو ٢٠ مترًا، ويعبر وجهه الشبيه بالفرعون "خفرع" عن الحكمة والقوة، وكان يوجد فى الماضى معبد بناه خفرع عند قدمى "أبو الهول" ولكنه لم يحفظ حتى الآن.

وقد غطت الرمال "أبو الهول" الجالس فى هذا المكان لعدة آلاف من السنوات عدة مرات فحفظته الطبيعة تمامًا، ولكن أزال الناس الرمال عنه عدة مرات، كانت آخر مرة فى بداية القرن العشرين. اكتشف علماء المصريات الاسم الحقيقى لأبو الهول وتبين أنه "حريميت" أو "حورس الذى عند انحراف الشمس". وكان اسم حورس يطلق على الفرعون الذى تم تأليهه. أما انحراف الشمس فهو المكان الذى اندمج فيه بعد الموت مع إله الشمس "رع" وبدأ منه رحلته إلى السماء.

كان دائمًا ما يعتبر العلماء هذا التمثال الغريب شيئًا يأتى فى المرتبة الثانية من الأهمية بالمقارنة بالمقابر القديمة، ولكن هناك أساس للاعتقاد بأن أبو الهول أقدم بكثير من الأهرام، كما أنه ليس فقط حارسًا على كنوز الفراعنة ولكنه هو نفسه يخفى كنوزًا ليس لها حدود. وقد كتب عن ذلك كل من "ج. مالينوفسكى" و "أ. تساريف" فى جريدة "ترود" فى ١٩٩٥/١١/١ .

يشكو أبو الهول فى هذا الزمن من مرض قديم، حيث لم يرحمه كل من الزمن والإنسان، وقد آذاه الناس أكثر؛ فقد أمر أحد حكام مصر بكسر أنف التمثال الحجرى. وفى بداية القرن الثامن عشر أطلقت مدافع "نابليون بونابرت" قذائفها فى وجه التمثال، كما أطلق الجنود النيران من أسلحتهم على عينيه. وقطع اللوردات الإنجليز ذقنه الحجرية ونقلوها إلى المتحف البريطانى...

فى إحدى ليالى صيف عام ١٩٨٨ انفصل جزء من رقبة أبى الهول وسقط جزء كبير من الحجر إلى أسفل مسببًا ضجيجًا. أصيب الجميع بالفزع بعد وزن هذا الجزء، فقد تبين أنه يمثل ٣٥٠ كيلوجرام بالكامل، بعد ذلك أصاب القلق كلا من العلماء والحكومة خوفًا من هذا الأمر، كما أصاب خبراء "هيئة اليونسكو"؛ فأنشئ بجانب الأثر معمل متنقل مزود بمعدات مختلفة حديثة للتحليل وحاسب آلى قوى، واجتمع خبراء من مصر والولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا وفرنسا لعمل "كونسولتو" فريد من نوعه، وبدأ العمل بدراسة تمت عن طريق مسح سطح الرأس بواسطة الموجات فوق الصوتية، فتبين من ذلك وجود شروخ داخلية خطيرة. وكان الرأى الذى خلص إليه الخبراء هو أن "أبو الهول" قد عانى من الضرر فى خلال القرن العشرين أكثر مما عاناه خلال السنين أربعة الآلاف السابقة، وأنه تلزم مبالغ مالية كبيرة لإنقاذ هذا التمثال من الانهيار.

بعد ذلك رحل أعضاء الكونسولتو كلٌّ إلى بلده، وأخذ المصريون على عاتقهم مسئولية تنفيذ الترميم بإمكانياتهم الذاتية، فتمت معالجة الشقوق الكبيرة باستخدام مواد اصطناعية جديدة، كما تمت تقوية القاعدة. وعثر على القطع التى انهارت وأعيدت إلى مكانها، كما طلبوا من الإنجليز إن يعيدوا فورًا ذقن "أبو الهول" لتثبيتها فى

مكانها؛ بهدف تقوية رأسه التى يصل وزنها إلى ٩٠٠ طن. وقد قام اليابانيون بعمل أكثر الدراسات إثارة، فقد قام فريق من علماء الآثار من طوكيو تحت رئاسة الأستاذ الدكتور "س. يوشيمورا" بعمل مسح كامل لهرم خوفو باستخدام معدات حديثة ثم اتجهوا إلى دراسة أحجار "أبو الهول"، وقد توصلوا بعد عدة أيام إلى إن "أحجار تمثال أبو الهول أقدم من كتل أحجار الهرم". ومن الضرورى أن نوضح أن العلماء اليابانيين لم يقصدوا العمر الجيولوجى للأحجار التى صنع منها الأسد ذو وجه الإنسان ولكن عمر التمثال نفسه ؛ أى الزمن الذى تم فيه نحت الحجر الطبيعى.

بعد ذلك أعلن العلماء اليابانيون عن اكتشاف آخر:"لقد بينت الأجهزة الإليكترونية أنه يوجد تحت القدم اليسرى للتمثال الحجرى ممر ضيق يوصل إلى اتجاه هرم "خفرع"، وهو يبدأ من عمق مترين ثم يمتد إلى أسفل بميل. وبذلك تم التأكد من الأقاويل التى كان يتداولها العرب فيما بينهم، يوجد تحت "أبو الهول" دهليز مدفون كان يمكن غمره بالماء عند محاولة نهب حجرة الدفن فى هرم خفرع...

بعد فترة قليلة حضرت مجموعة من خبراء الهيدروليكا إلى قاعدة الأسد القديم حيث حققوا كشفًا جديدًا ؛ وجدوا عند قاع القاعدة آثارَ نحرٍ نتيجة تدفق قوى للماء. وبمجرد الإعلان عن هذا الخبر فى جريدة "أنباء واشنطن المتخصصة فى الطرائق الجديدة لدراسة الطبيعة" نشر فى الصحف ما يفيد أن النيل كان فى السابق أكبر عرضًا بحيث كان يلامس دائمًا الصخرة التى نُحِتَ فيها "أبو الهول" الغامض.

أفاد خبراء "الهيدروليكا" بأن هذه الآثار ناتجة على الأرجح بسبب طوفان، وهذا الرأى قوى ولا يرى أنه بسبب النيل، ولكنه يرى أن هذا الطوفان قد تدفق من الشمال إلى الجنوب. لذلك فعلى الأرجح لم يكن ذلك فيضان النيل، ولكن كارثة تم ذكرها فى الكتاب المقدس. وبعد عمل العديد من الدراسات والتشاور مع علماء الجيوفيزياء تم تحديد الوقت الذى يحتمل أن يكون قد حدث فيه الطوفان، وهو ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد...

كرر الإنجليز هذه الدراسة وحركوا هذا التاريخ إلى ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد لاحظوا أن آثار النحر بالماء وجدت على جزء الصخرة الذى تم نحته. وقد لاحظ

علمـاء الآثار الفرنسيون أن تاريخ حدوث الطوفان فى مصر يتطابق مع تاريخ اختفاء قارة "أطلانطيك" الأسطورية طبقًا لما ذكره "أفلاطون".

يقـول مثـل قـديم : "عندما يتحدث أبو الهـول سوف تخرج الحياة على الأرض من دائرتها المعتادة". لقد تذكرنا ذلك عندما عدنا إلى جانب "أبو الهول" مرة أخرى فى يناير ١٩٩٧ ، فقد بدا فى حالة جيدة ورائعة كما لو كان قد ولد من جديد. كان يوجد عند أبو الهول الذى تم ترميمه عدد كبير من الزوار المعجبين به كما هو معتاد فى مختلف العصور، وفى الحقيقة بدا لنا أن "أبو الهول" سـوف يتحدث من لحظة إلى أخرى، ولكنه كان صامتًا، كما كان فى الماضى، ينظر إلى الشرق، مدركًا أن القرن الواحد والعشرين الذى على الأبواب سيكون عام عظمة الشرق. فلنعش لنرى.

يوجد بجانب "أبو الهول" بئر يلقى فيها الزوار قطعًا من العملات المعدنية؛ على أمل شفائهم وحمايتهم رأفةً من حامى التاريخ، كما يعتبر هذا التمثال الحجرى للأسد - الإنسان. أصدرت عملات الروبل التى ألقيناها أصواتًا وهى تقفز ثم رقدت هناك فى قاع البئر.

نظرنا مرة أخرى إلى الأهرام وتذكرنا رغمًا عنا أنه فى مكان ما بينها تعمل عالمة المصريات الروسية التى تدرس مجمع المعبد فى الجيزة "إليونورا كورميشوفا".

تمثل "كورميشوفا" تخصصًا نادرًا الآن فى روسيا، فهى متخصصة فى المصريات والآثار، وهى تعمل فى منصب كبير باحثين بمعهد الاستشراق بأكاديمية العلوم الروسية. وقد حصلت على الدكتوراه فى شتاء عام ١٩٩٥ ، وهى بالطبع ليست فى مصر لأول مرة ، حيث إنها عملت من قبل مع البعثة الفرنسية للتنقيب عن الآثار فى مجمع معبد سقارة. وبعد ذلك منحها المجلس الأعلى لآثار مصر تصريحًا يسمح بعملها وحدها لعمل دراسة تفصيلية للمقابر الموجودة بمجمع مقابر الجيزة.

منذ زمن بعيد لم يوجد أحد من الروس ضمن الجيش الدولى من علماء الآثار العاملين فى مصر، منذ الستينيات من القرن العشرين، عندما عملت بعثة الآثار السوفيتية فى النوبة تحت رئاسة المرحوم الأكاديمى "بوريس بيوتروفسكى".

فى ذلك الوقت احتل "علم المصريات" السوفيتى موقعًا رائدًا. وقد حصلت أعمال العلماء السوفييت مثل "فلاديمير جولينيشيف" و"ألكسندر بيانكوف" و"ميخاييل كوروستوفسوف" على تقدير عالٍ من العالم كله. وتعتبر مجموعة الآثار المصرية فى كل من متحف "بوشكين" فى موسكو و "الأرميتاج" فى مدينة "سانت بيترسبورج" من أحسن المجموعات فى العالم. وبعد ذلك ولسبب غير مفهوم بدأ علم المصريات السوفيتى يتخلى عن موقعه.

عندما أنهت كورميشوفا عملها مع الفرنسيين فى سقارة، وبدأت تستعد للانتقال إلى الجيزة، وصلها خبر غير سار من موسكو، حيث امتنع المولون فى آخر لحظة عن دفع المبالغ التى وعدوا بها. ولكن لله الحمد أن العالم لا يخلو من الناس الكرام، فقد تم إسكان "إليونورا" مجانًا فى أحد المبانى المملوكة لروسيا فى مصر، كما أعطاها زملاؤها الفرنسيون العاملون فى سقارة مصورًا ومعدات مجانًا، وقد ساعدها مفتش الآثار الذى ضمه إليها المجلس الأعلى للآثار "حميد عرابى" بإخلاص؛ حيث إنه حل بشكل ما مكان زميلها "م. تشيجودابييف" الذى لم يتمكن من الحضور بسبب نقص التمويل. وقد اضطرت رئيسة البعثة أن تدفع مرتبات الأفراد الخمسة الذين عملوا مع البعثة من جيبها الخاص.

كانت المقبرة تخص أحد نبلاء المصريين اسمه "خفرع – أنخ"، وهو أحد المقربين من الفرعون ومن أفراد عائلته. ولكن من كان هو بالضبط ؟ كان يجب اكتشاف ذلك والحصول على مفتاح هذا السر عن طريق دراسة غرفة الدفن. كانت توجد أربع من هذه الغرف، وكانت توجد أبيار دفن تؤدى إلى هذه الغرف، أبعادها متر فى متر. كانت ثلاث منها غير عميقة جدا، حيث إن عمقها كان لا يزيد على ثلاثة أمتار، أما الرابعة التى فى أقصى الشمال فقد كان عمقها يزيد على عشرة أمتار، ويبدو أن هذه البئر بالذات هى التى كانت تؤدى إلى غرفة دفن صاحب المقبرة. وبجانب هذه البئر يوجد له تمثال منحوت فى الجدار.

نزل العمال إلى الأبيار بناءً على طلب "كورميشوفا" لكى يحددوا ولو مبدئيا مكان غرف الدفن وأبعادها.

وجد أن الجدارين الشرقى والجنوبى مغطيان برسوم كثيرة، على كل منها ستة صفوف من الرسوم البارزة. كانت الرسوم تمثل صاحب المقبرة وأفراد عائلته ومراكب كبيرة بها عدد كبير من المجدفين وعدد من الكتبة مع سيدهم، بالإضافة إلى ورق البردى والريش والحيوانات والطيور المنزلية ومناظر لعملية صيد السمك. تم تصوير كل ذلك بدقة ونقله على ورق شفاف، وكذلك الكتابات الهيروغليفية.

بالإضافة إلى "كورميشوفا" ، يعمل كل من "ميخائيل تشيجودابيف" من معهد الاستشراق و"أولجا توماشيفا" من جامعة موسكو الحكومية فى بعثة أجنبية روسية واحدة عند الأهرام منذ عام ١٩٦٦ . هذا شيء سار فقد تمكن علماء المصريات الروس من وضع أقدامهم على الأرض المصرية مرة أخرى حتى يقوموا بعد ذلك برفع راية علم التاريخ الروسى ثانية.

ولقد قام فريق آخر من العلماء الروس بعمل اكتشافات مهمة، وهو من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية البحث العلمى الروسية، ويتكون من"د. جالينا بيلوفا" المتخصصة فى علوم التاريخ و"تاتينا شيركوف" الحاصلة على الدكتوراه أيضًا فى علوم التاريخ. لقد عملتا معًا فى شمال شرق الدلتا فى محافظة الشرقية (فى مكان اسمه "تل إبراهيم عوض" يقع على بعد ٢٠ كيلو مترًا من مدينة فاقوس)، وقد اكتشفتا أثرًا فريدًا يحتوى على مخلفات من عهود مختلفة بدءًا من ثقافة العصر الحجرى الحديث حتى عهد المملكة المتوسطة الثانية (من القرن الخامس إلى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد). وقد وجدتا مئات من الأعمال الفنية فى المعبد الذى عاش ما لا يقل عن ألف وخمسمائة عام، تماثيل الآلهة القديمة، والحيوانات التى تمثلها، ونماذج لرموز سلطة الملك، بالإضافة إلى رموز دينية، كلها مصنوعة من أوانٍ مصرية ومن العاج ومن الأحجار نصف الكريمة. وقد حفظت هذه الأشياء التى قدمت قرابين فى المعبد فى كنوز خاصة مدفونة، صنعت عند بناء المبنى الجديد للمعبد الذى ينتمى للمملكة القديمة، دلت الأشياء القديمة التى عثر عليها على أن دلتا النيل كانت تنتمى إلى مصر فى فترة حكم الفراعنة الأوائل. بناء على ذلك فإن علماء المصريات الروس يرون أن النظرية القديمة

التى تقول : "إن القبائل المنفصلة بدأت فى سكن وامتلاك منطقة الدلتا، المميزة بأرضها الكريمة، فى فترة متأخرة، قد سكنت هذه الأرض على الأقل قبل حكم الفراعنة الذين فتحوا المملكة الجديدة" يجب أن توضع فى الأرشيف (كما قالت بيلوفا فى كتاب ملاك إفريقيا، موسكو، سنة ١٩٩٨).

القاهرة التى لا تنام أبدًا

فى الحقيقة تبدو أيضًا القاهرة من عند "أبو الهول"، مدينة حية خالدة لا تنام أبداً، يزيد عمرها عن ١٠٠٠ سنة. عاصمة مصر الحالية عبارة عن خليط عجيب من الأحياء الحديثة المليئة بناطحات السحاب والفيلات القديمة بالإضافة إلى الأسواق الشرقية والشوارع القديمة المتعرجة التى ما زالت منتشرة بكثرة بها.

القاهرة تمثل عظمة الشرق وفقرة، هى عدم انتظام التصميم، كما هى التاريخ الحى للماضى. يعيش فيها حاليا ١٦ مليون مصرى، أى ربع تعداد البلد، بالإضافة إلى أكثر من مائتى ألف أجنبى. وهى مليئة بالإعلانات المرحة وبالتماثيل القديمة.

القاهرة هى النيل الجميل العظيم بكباريه وشواطئه الجذابة. وأبنيتها المميزة "على الطراز الشرقى" وفنادقها الضخمة "على الطراز الغربى"، توجد هنا أحياء وشوارع لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر. لا تعرف ما الأكثر بهاءً، هل هى المحلات أو البضائع أو الانطباعات؟...

القاهرة فى النهاية حرية الديانة ؛ حيث توجد بها الديانات المختلفة جنبًا إلى جنب، من قبل التاريخ. فيها الإسلام بمذاهبه المختلفة والمسيحية الكاثوليكية والأرثوذكسية. بالطبع غالبية سكان هذا البلد مسلمون ، لذلك فقد قررنا أن نزور أولاً أحد شواهد الإسلام فى هذا البلد وهو "القلعة" التى تعتبر بطاقة تعارف القاهرة.

بنيت القلعة فى عام ١١٧٦ فى عهد "صلاح الدين الأيوبى" عند جنوب شرقى أحياء وسط البلد. بقى من البناء الأصلى – حتى يومنا – هذه الأسوار الخارجية الجنوبية

والشرقية فقط. يمكن الدخول إلى الساحة الرئيسية للقلعة من بوابتين. على اليسار يوجد مسجد السلطان "الناصر" وفى الأمام جامع "محمد على" الذى صنع بالكامل من "الألبستر" المصرى فى عام ١٨٥٧ ، يوجد على يمين مدخل الجامع قبر "محمد على" موحد مصر العظيم. إنه هو الذى دعا فى يوم أول مارس من عام ١٨١١عدد ٤٨٠ من أكبر المماليك النبلاء إلى حفل أقامه فى القلعة وأعطى أوامره بقتلهم بالسيوف. وقضى بذلك على الحروب الداخلية بينهم داخل البلد.

يوجد منظر رائع للمدينة عند الجدار الغربى للقلعة، ويمكن رؤية جامعين إلى الأسفل بالقرب من القلعة – على الشمال جامع "السلطان حسن" الذى بنى منذ ٦٠٠ عام، وعلى اليمين بجانبه جامع "الرفاعى"، وعلى مسافة غير بعيدة يوجد مسجد "ابن طولون"، من أقدم المساجد فى القاهرة. وبعد ذلك يظهر "تل الطاحونة" وبحر من أبنية المدينة القديمة والتى يظهر خلفها عند صفاء الجو كل من أهرام الجيزة وسقارة.

فى هذا المكان نفسه، أى فى المدينة القديمة، بقيت جزر من القاهرة القبطية (المسيحية) خلف جدران سميكة، فقد دخلت المسيحية إلى مصر فى القرن الثالث أى قبل الإسلام بكثير. فى البداية حاربها كل من كان يؤمن بآلهة النيل، ثم بعد ذلك ، وبدءاً من القرن السابع أخذ الإسلام فى الانتشار هنا بسرعة بعد أن أدخله العرب الذين فتحوا مصر. وعلى الرغم من ذلك فقد حافظ "الأقباط الأرثوذكس" المصريون على وجودهم وعلى دينهم، واعتنوا بكنائسهم، حتى إنهم كانوا يضعون علامات خاصة على هيئة وشم صغير معين الشكل على رسغ يدهم اليسرى.

"الكنيسة المعلقة" أقدم كنائس القاهرة، حيث تم بناؤها "للسيدة العذراء" فوق البوابة الجنوبية لحصن بابليون الواقف على ضفة النيل. تبدو الكنيسة كما لو كانت "تبخر" فوق الماء ؛ حيث إن أساساتها ترتكز على جذوع نخيل، ويمكن رؤية هذا الماء من خلال فتحة مقفولة بالزجاج فى أرضية الكنيسة، كما توجد على جدران الكنيسة رسوم فريدة من القرن الرابع عشر، وتمارس هنا بانتظام شعائر الصلوات الكنائسية، أما فى وقت الفراغ فيحضر إلى هنا الزوار يجلسون ويتحدثون مع بعضهم البعض عن أحوالهم،

ويتلقون النصائح ويفتحون روحهم للقس، تقريبًا كما يحدث فى روسيا فى الكنائس الأرثوذكسية.

وبالطبع المتحف المصرى فخر القاهرة، حيث يوجد فى ميدان التحرير، فى قلب العاصمة المصرية. تم تأسيس المتحف فى عام ١٨٥٨ بواسطة عالم المصريات الفرنسى "أوجوست مرييت" وتم تشييد مبناه فى عام ١٩٠٠ . يضم المتحف أكبر مجموعة فى العالم من آثار مصر القديمة. فى الحقيقة يتوه المرء هنا، حيث يحتار: إلى ماذا يوجه آلة التصوير؟ فأمام الأعين يُعْرَض كل تاريخ بلد الأهرام القديم.

تتصفح القاعات المختلفة، بمعنى الكلمة، صفحات التاريخ طبقًا لتتابعه.

تجد نفسك فورًا عند المرور من المدخل الرئيسى فى قاعة تعرض بها أحدث الاكتشافات الأثرية، ثم تعرفك القاعات التسع التى فى الدور الأرضى على معروضات العصور القديمة (٣٢٠٠ - ٢٢٧٠ سنة قبل الميلاد). المعروضات عبارة عن توابيت وتماثيل ولوحات وكل ما هو ممكن من القطع المنحوتة البارزة، ومن أشهر المعروضات فى هذا الطابق تمثال "خوفو" الذى عُثِر عليه فى الجيزة، وتمثال "زوسر" المصنوع من الحجر الجيرى والذى وجد فى سقارة، وتمثال الفرعون "بيبى الأول" النحاسى مع ابنه، وهو يعتبر الأقدم، وكذلك تماثيل الكتبة ومعهم لغة ورق البردى وتماثيل العمال بناة الأهرام.

وتوجد أربع قاعات مخصصة للمملكة المتوسطة (٢٠٦٠ - ١٧٨٥ قبل الميلاد)، تعرض بها مقابر وتماثيل فراعنة مدينة "طيبة" القديمة والتى عثر عليها فى الأقصر، ومن بينها تمثال خشبى للملك "سنوسرت الأول" بالإضافة إلى أربعة تماثيل "أبو الهول" من الجرانيت الأسوانى.

بعد ذلك توجد عشر قاعات تعرف الزائر على المملكة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٨٥ قبل الميلاد)، بها عدة تماثيل منها تمثال "أبو الهول" المصنوع من الحجر الجيرى الملون والذى عُثِر عليه فى معبد "حتشبسوت" بالأقصر، بالإضافة إلى تمثال "تحتمس الثالث" الذى وُجِد فى معبد "الكرنك"، وتمثال البقرة المقدسة (الإلهة حتحور)، كما توجد قاعة

مخصصة لفترة حكم "أخناتون" (زوج نفرتيتى الشهيرة). يوجد فى هذه الحجرة تمثال ضخم لهذا الفرعون تم نقله من الكرنك، وكذلك تماثيل محفوظة فى فترينات لنفرتيتى التى يعرفها اليوم العالم كله.

أما الطابق العلوى فبالطبع تشغل الجزء الأكبر منه كنوز الملك "توت عنخ أمون"، الذى حكم فى الفترة بين عامى ١٣٥٤ و ١٣٤١ قبل الميلاد، والتى عثر عليها فى الأقصر فى عام ١٩٩٢ . أهم هذه المعروضات هو أحد التوابيت الذهبية الثلاثة الذى صنع من الخشب وتمت تغطيته بالذهب والزجاج، وكذلك القناع الذهبى الذى كان يغطى رأس الملك، حيث صنعت حواجبه ورموشه وشعره من أحجار لازوردية، ويخرج من جبهته شعار السلطة الملكية – صقر وحدأة – وللفرعون ذقن اصطناعية ويمسك بيديه صولجان ورمز السلطة. كما توجد صناديق ضخمة تعتبر فى حد ذاتها معرضًا رائعًا. هذه الصناديق توضع داخل بعضها البعض مثل "الماتريوشكا" الروسية (عرائس خشبية مختلفة المقاسات توضع داخل بعضها البعض). وتوجد على كل منها رسوم توضح حياة الفرعون الذى يعتبر الأصغر سنا وآخر فرعون عبد إله الشمس "آمون"، ولقد أخرجت من هذه الصناديق كنوز فريدة حفظت حتى يومنا هذا، حيث لم يتم نهبها فى الماضى القديم.

بالطبع كان من المستحيل عدم الوقوع فى حب ليل القاهرة، خاصة أننا كنا هناك فى عام ١٩٩٧ فى أثناء شهر رمضان، وهو شهر يصوم فيه المسلمون وهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتنزهون إلا بعد غروب الشمس بناءً على ما جاء فى القرآن الكريم، وقد تجولنا فى "خان الخليلى"، وهو سوق مغطاة كبيرة أنشأها السلطان "أشرف الخليل" منذ حوالى ٧٠٠ عام، كان الزحام هنا شديداً جدا لدرجة أننا تصورنا أن كل سكان القاهرة والزوار الأجانب يقضون وقتهم هنا. هذا المكان الفريد من القاهرة القديمة له ستة مداخل وتوجد به ١٢ سوقًا مستقلة تُتَاجر فى كل ما تنتجه أو تستورده مصر، تمتد فيه سلسلة من المحال لمسافة عدة مئات من الأمتار، ويبدو وميض البضائع والناس ورنين الآنية وصياح البائعين وأصوات كلاكسات السيارات ، كلها معًا، كما لو كانوا فى أسطورة من أساطير الشرق السحرية.

أما فى داخل السفينة ذات الاسم الرنان "كليوباترة" فقد كان الوضع مختلفًا تمامًا : بوفيه مفتوح وموسيقى غربية بالإضافة إلى الموسيقى الشعبية و "رقص البطن" المصحوب دائمًا بموسيقى إيقاعية، فى هذه المرة كانت الراقصة شابة مصرية تعرض موهبتها على المشاهدين. رأينا من خلال زجاج المطعم العائم العديد من الإعلانات المضيئة متعددة الألوان، وكأن عبير الماضى الذى تفخر به مصر يخرج من الماء ذى الوميض.

بماذا يمكن إدهاش الرحالة بعد القاهرة ؟... هذا سؤال وجهناه لوزير السياحة بجمهورية مصر العربية "د. ممدوح البلتاجى" الذى استقبلنا فى مكتبه مع مجموعة من الصحفيين الروس وقال الكثير من كلمات المديح موجهة إلى مواطنينا.

قال السيد الوزير : إن مصر ما زالت تدهش العالم بتاريخها وبأسرار المملكة الحديثة (١٥ قرنًا قبل الميلاد) والتى لم يتم فهمها بعد، كما أن مقبرة الإسكندر الأكبر لم تكتشف بعد.. ابتسم الوزير وأشاح بيديه.. أتمنى لكم النجاح.

مدينة طيبة القديمة فى الأقصر

زرنا عدة معابد من عصر المملكة الحديثة فى الأقصر، هذه المدينة الصغيرة الريفية التى كان يوجد مكانها فى يوم ما مدينة طيبة العظيمة بسكانها الذى وصل تعدادهم إلى مليون، والتى تنافس فيها الفراعنة بقوتهم وثرواتهم. الآن تعيش الأقصر ماضيها، حيث تعرض معالمها الأثرية على السائحين، فى هذه المنطقة تقع "مدينة الأحياء" على الجانب الأيمن من النيل، أما مدينة الأموات فتقع على الجانب الأيسر منه.

كان معبد "الأقصر" عند تشييده منذ أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة أجمل المعابد فى مصر، كانت تمتد من عنده طريق لخمسة كيلومترات حتى معبد "الكرنك"، وكان يقف على جانبى هذه الطريق أكثر من ١٥٠٠ تمثال حجرى لأبى الهول تعرض حاليا أمام مدخل المعبد، صنعت كل من هذه التماثيل بدقة عالية نسخةً مماثلةً للتمثال الأصلى المقام فى الجيزة، مع ملاحظة أن الفترة الزمنية بينهما ألف وخمسمائة عام.

بنى هذا المعبد لعبادة إله الشمس "آمون" وزوجته "موت" وابنهما إله القمر "خونسو"، وقد تم بناء الجزء الجنوبي من المعبد في عهد الفرعون "أمنحوتب الثالث" أي ١٤٠٠ سنة قبل الميلاد، أما الجزء الشمالي فقد بني في عهد الفرعونين "حورمحب" و"رمسيس الثاني". هنا كانت ستة تماثيل للفراعنة تقف فيما مضى بجانب البوابة الشمالية الضخمة، أما الآن فقد تبقى منها ثلاثة تماثيل فقط جالسة يبلغ ارتفاعها ٢٢ متراً، بينما يقف تمثال واحد "لرمسيس الثاني"... كانت تحيط بكل ذلك حديقة كبيرة تمت زراعتها بأمر فرعون.

ترك كل فرعون في هذا المكان قصراً له، أكبر هذه القصور "بانتيون" رمسيس الثاني الذي تصل أبعاد كل جانب من جوانبه إلى واحد وخمسين متراً ، كما يبلغ ارتفاع أعمدته ستة عشر متراً. لعب الزمن دوره في هدمها بالإضافة إلى دور من جاء بعد ذلك. فعلى سبيل المثال استبدل باسم "توت عنخ آمون" الذي كان مكتوباً على جدران قصر رمسيس اسم الفرعون "حورمحب". أما معبد "أمنحوتب الثالث" فقد تبقى منه فقط عدة أعمدة في الجانبين الغربي والشرقي، وفيما بعد بنيت كنيسة مكان الجزء القديم من المعبد ، الذي كانت تتم فيه طقوس عبادة إله الشمس "آمون"، أما الجزء الشمالي من المعبد فقد بني فيه مسجد "أبو حسن"، وقد أزال أتباع الأديان الجديدة الكثير من أجزاء الجدار المنحوتة والمرسومة، وعلى الرغم من ذلك ما زال معبد الأقصر – حتى الآن – يعتبر عملاً فنيا خلاباً.

أما معبد الكرنك فهو قطعة فنية أكثر روعة ؛ حيث إنه يعتبر مدينة تضم عدة معابد. كان الفراعنة في الماضي يركبون المراكب في النيل حتى يصلوا إلى البر عند الكرنك، ثم يسيرون عبر طريق الكباش إلى معبد "آمون"الذي تم بناؤه منذ ألف سنة قبل الميلاد، وهو المعبد الرئيسي في الكرنك. تبلغ أبعاد ساحة هذا المعبد ٨٤ × ١٠٢ متراً وهي أكبر ساحة في أي من معابد مصر. تتصل بهذا المعبد عدة معابد أخرى بناها الفراعنة "سيتي الأول" و "رمسيس الثاني" و"تحتمس الأول" و"أمنحوتب الثالث"، وقد ترك كلٌّ منهم بوابة من الجرانيت الأسواني ما زالت قائمة، أما الملكة "حتشبسوت" فقد شيدت

مسلة ارتفاعها ٣٠ متراً احتفظت بحالتها حتى يومنا هذا بشكل رائع. تنتهى هذه المدينة الحجرية عند بقايا معبد "تحتمس الثالث" الذى ما زال به ٢٠ عموداً. أما الركن الجنوبى فقد عثر به على لوح صغير نقشت عليه أسماء ٦٢ فرعوناً.

تقع "البحيرة المقدسة" البديعة جنوب مجموعة معابد الكرنك، ويقف عند شاطئ البحيرة تمثال ضخم حجرى لجعران (رمز الحياة والموت) ينظر إلى الشرق، وقد شيد "أمنحوتب الثالث" هذا التمثال. أما عند الجانب الآخر للبحيرة فقد بنى حديثًا مسرح مفتوح تُقدم فيه عروض "الصوت والضوء" فى كل مساء، مما يعطى انطباعًا بأن المصريين يلتقون بأرواح أجدادهم التى تحمى الكرنك. ويقول سكان هذه المنطقة إنه يمكن رؤية مركب مرة فى السنة تعبر البحيرة المقدسة، ولكننا لم نتمكن من رؤية هذه المركب. وقد جَعَلَنَا العرض الشيق للصوت والضوء نتذكر الفراعنة بكلمات جميلة.

عبرنا النيل الذى يصل عرضه فى الأقصر إلى كيلومتر حتى نصل إلى الجانب الغربى، حيث بنى فيه الفراعنة معابدهم الجنائزية ومقابرهم تحت الأرض طبقًا لمعتقداتهم الدينية. يقدر عدد التماثيل القديمة تاريخيا والتى نقلت من هذه المنطقة إلى جميع أنحاء العالم بالعشرات، أما فى العصر الحالى فقد بدأت السلطات المصرية فى التشديد على حفظ النظام فى هذا المكان، لدرجة أنه لا يسمح باستخدام آلات التصوير التليفزيونية لتصوير كل شىء.. ولكن سُمح لنا بتصوير أهم الأشياء.

بعد عدة دقائق من انتقالنا من المركب إلى السيارة كنا بالقرب من تمثالين للملك "أمنحوتب الثالث" جالسين، ارتفاعهما ٢٠ متراً، وهذان التمثالان مشهوران باسم التماثيل الضخمة "لمنون". وقد صُنع هذان التمثالان منذ ١٤٠٠ سنة قبل الميلاد أمام معبد تم بناؤه بالحجر الجيرى ولم يتبق منه شىء، أما التمثالان أنفسهما فقد صنع كل منهما من قطعة حجرية واحدة ، ولكنهما الآن يتكونان من عدة قطع بعد تحطمهما، كما أنهما يعانيان من "الملل" فى هذه الساحة المقفرة. وقع زلزال فى عام ٢٧ قبل الميلاد أسقط الجزء العلوى من التمثال الأيمن (الشمالى)، عندئذ أصبح الجزء المتبقى منه يصدر صوتًا يشبه بكاء الإنسان، ولم يتم تفسير ذلك حتى الآن، إلا أن الحجاج كانوا يحضرون إلى هذا المكان من جميع أنحاء العالم للاستماع إلى هذا البكاء، كما تؤكد

الكتابات الموجودة عند قدمى التمثال. وقد تبين وجود ٧٢ كتابة باللغتين اليونانية واللاتينية فقط بين هذه الكتابات من النثر ومن الشعر، تنتمى أقدمها إلى عصر الإمبراطور الرومانى "نيرون"، أما أحدثها فمن عهد "سبتيميوس" (من ١٩٣ إلى ٢١١ عام قبل الميلاد). وقد اختفى هذا الصوت حاملاً معه سره عندما تم تجميع أجزاء التمثال بناءً على أوامر "سبتيميوس".

على الرغم من تهدم معبد رمسيس الثانى "الراميسيوم" فمازال مبهراً، وقد بنى هذا الفرعون لنفسه هذا المعبد ليكون شاهداً على مقبرته كما تدل كثير من الكتابات القديمة على جدرانه. طول المعبد ٢٧٠ متراً وعرضه ٦٦ متراً، يرقد تمثال ضخم من الجرانيت الأسوانى لرمسيس طوله سبعة عشر متراً ونصف فى القاعة الأولى، وزن هذا التمثال ١٢٠٠ طن، أسقط هذا التمثال وتهشم فى أثناء الغزو الفارسى إلى ثلاثة أجزاء وتم تشويه وجهه. أما القاعة الثانية فليست بحالة جيدة ، ولكن حفظت جدرانها الصورة التى نعرفها جيداً من الكتب المدرسية ، والتى تمثل "رمسيس" يركب عربته ويسحق أعداءه. القاعة الثالثة تضم ثمانية أعمدة ما زالت واقفة يثير شكلها الأنيق إعجاب من يراها. توجد هنا أيضاً رسوم تمثل أبناء الفرعون العظيم السبعة والعشرين الذين يبدو أنه اشتاق إليهم ، حيث إنه شغل بحملاته الحربية حتى فترة متأخرة من حياته مما صنع له مجداً فى إمبراطوريته.

وفى النهاية يعتبر معبد الملكة "حتشبسوت" الذى نحت فى الصخر منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة تحفة للأعمال المعمارية، بنى هذا المعبد على ثلاثة مستويات مفتوحة مرتبة واحدة فوق الأخرى وتربطها انحدارات مائلة. فى الماضى كانت هناك حديقة أمام المبنى كما زُرعت أشجار خضراء على المستويات الثلاثة، ولكن هذا المكان تحول إلى صحراء مقفرة يندر بها الماء؛ نتيجة لتحول مجرى فرع النيل بعيداً عن هذا المكان بعشرات من الكيلومترات لسبب لم يعرف حتى الآن. كانت حياة الملكة "حتشبسوت" معقدة، حيث إنها دخلت تاريخ مصر قبل "رمسيس الثانى" بثلاثمائة سنة، وقد أشركها والدها "تحتمس الأول" فى حكم المملكة الحديثة، ثم تزوجت أخاها "تحتمس الثانى" واستمرت فى الحكم، وبعد ثلاث عشرة سنة توفى زوجها؛ فنصبت نفسها حاكمة لمصر

فى عهد ابنهما "تحتمس الثالث"، وقد استمرت فى الحكم لمدة عشر سنوات أخرى إلى أن توفيت فى ظروف غامضة. كانت هذه المرأة تتمتع بشخصية قوية، وتم فى عهدها غزو كل من سوريا وفلسطين والسودان حتى العتبة الرابعة للنيل.

قام المهندس "سننموت" بتصميم وبناء هذا المعبد بناءً على أمر الملكة، حيث كان حبيبها وأقرب الناس إليها، فأصبغ على هذا الإنشاء الفريد من نوعه إحساسًا بالضوء والبراح والحرية. كانت "حتشبسوت" تحب هذا الفنان ولكنها كانت تحب السلطة أكثر، لذلك اختفى فجأة "سننموت" بعد ست سنوات قضاها بالقرب من الملكة، وتم محو اسمه من على جدران المعبد، وقد فعل الشىء نفسه "تحتمس الثالث" مع أمه "حتشبسوت" بعد موتها، كما كان يحدث كثيرًا على مدى التاريخ المصرى القديم كله. يعتبر معبد "حتشبسوت" بديلاً لكل معابد الأقصر، ويبدو معبرًا عن شخصية الملكة نفسها المتعجلة والتى لا تعرف أية حدود.

للأسف تسبب آخر زلزال حدث فى مصر فى بعض الأضرار لمعبد "حتشبسوت"، ولكن تم ترميمه على عجل حتى لا تتوقف السياحة فى هذا المكان، وقد قامت السلطات المصرية بعمل كل الإجراءات اللازمة للمحافظة على كل العناصر التى تهشمت ووعدت بإعادة هذه التحفة الفنية إلى حالتها التى كانت عليها أصلاً.

يعمل فى مصر كل عام نحو ١٥٠ بعثة آثار قادمة من دول مختلفة، كل منها يعثر على شىء ما يكون عادة مهما للعلم ، وقد لا يمثل أهمية كبيرة لعرضه على الجمهور العريض. ولكن شد الكشف الذى تم فى عام ١٩٩٥ بواسطة الأستاذ الجامعى الأمريكى "كنت فيكس"، انتباه العالم كله، فقد اعتبر الكثير من الخبراء أن هذا الاكتشاف الأهم منذ اكتشاف الأثرى الإنجليزى "هوارد كارتر" لكنوز الملك "توت عنخ آمون" فى عام ١٩٢٢ . يدور الحديث هنا عن اكتشاف مقبرة أبناء رمسيس الثانى.

توجد هذه المقبرة فى وادى الملوك الذى دفن فيه فراعنة المملكة الحديثة التى كانت عاصمتها طيبة. اكتشفت هذه المقبرة أول مرة فى عام ١٨٢٠ ، ولكن وجد أن الحجرة كانت مليئة بالأحجار وكانت جدرانها خالية من النقوش ؛ لذلك فهى لم تتحدث عن أى شىء،

وساد اعتقاد بأن هذه المقبرة المجهولة الاسم لا تحظى بأية أهمية، وتم منحها رقم ٥ لتمييزها، ثم غلفها النسيان. ولكن بعد مائة عام فحص "هوارد كارتر" المقبرة من الداخل، ولكنه أيضًا لم يعثر على أى شىء ملفت للنظر، حتى إنه أغلق مدخلها بالحجارة وهو ينظف مقبرة "توت عنخ آمون".

ولكن أخطأ "كارتر" هو الآخر، فقد تبين أن هذه المقبرة الأكبر فى وادى الملوك، وتختلف عن كل المقابر الأخرى. قضى "كنت فيكس" عدة سنوات يرسم فيها خريطة أثرية لمدينة الموتى فى مصر القديمة، وفى نهاية الثمانينيات جاء الدور على المقبرة رقم ٥ ، بحث "فيكس" لمدة عام عن مدخلها، كما استغرق تنظيف المقبرة ثلاث سنوات تخللتها بعض التوقفات، هنا كان ينتظره اكتشاف مدهش.

وَجد ممراً فى الجزء الخلفى لإحدى الغرف طوله ثلاثون مترًا، كما وَجد على جانبى هذا الممر عشرين غرفة صغيرة مقاس كل منها ثلاثة فى ثلاثة أمتار، ووجد فى آخر الممر تمثالاً لإله العالم الآخر "أوزوريس"، كما يمتد على جانبى التمثال ممران آخران بحيث كونت الممرات الثلاثة شكل حرف "تى" T . كما وُجدت هنا أيضًا عشرون غرفة على جانبى كل ممر؛ لذلك وصل إجمالى عدد غرف المقبرة بما فيها الجزء الأمامى ٦٧ غرفة. وهو شىء ليس له مثيل فى وادى الملوك.

وجد "فيكس" أيضًا وفريقه كتابات على الجدران التى تم اكتشافها مؤخرًا تدل على أن هذه المقبرة بنيت لأبناء "رمسيس الثانى"، ووجدت فى غرف المقبرة قطع من موميات وتوابيت وتماثيل وأدوات زينة وأثاث ومأكولات، وكان من الواضح أن هذه المقبرة قد تم نهبها منذ قديم الزمن بخلاف ما حدث لمقبرة "توت عنخ آمون"، وقد احتفظت جدران الغرف المكتشفة حديثًا ببعض النقوش والكتابات.

وفى عام ١٩٥٥ أعاد "فيكس" وفريقه تنظيف المقبرة، وحصلوا مرة أخرى على مكافأة؛ فقد اكتشفوا ممرين جديدين بكل منهما ١٢ غرفة. يؤمن الأستاذ الجامعى "فيكس" بإمكانية عمل اكتشافات أخرى فى هذه المقبرة، يرجع السبب الأول فى ذلك إلى إن هذه الغرف لا تشبه غرف الدفن، ولكنها أقرب إلى شكل مخازن حفظت بها كل

الأشياء التى كان المصـــريون القـدماء يعتقدون أنها ستكون مفيدة فى الحيـاة التالية بعد الدفن. كما أنه وجد فى الممرات الجانبية ما يشبه درجًا يؤدى إلى مسـتوى أكثر انخفـاضًا.

يعتقد "فيكس" أن الاكتشافات التى وجدتها بعثته كبيرة، لدرجة أنه قد يقضى بقية حياته فى دراسة مقبرة أبناء رمسيس، ولكن الأهم من وجهة نظره أن هذا الاكتشـاف يثبت أن أرض مصر ما زالت تخفى الكثير من الأسرار.

يقول المثل المصرى : "إن من يشرب من النيل مرة سوف يعود إليه مرة أخرى"، لذلك يعود إلى مصر ليس من يقوم بالأبحاث فى مصر فقط، ولكن كل من التقت حياته بطريقة أو بأخرى مع نـهر النيل العظيم، وبالمناسبة هو قد التقى مع حياة الكثير من الروس، ويمكن فى نهاية القرن العشرين استخلاص بعض النتائج، ونترك الصفحات التى تعبر عن الانطباعات التى بقيت فى ذاكرتنا لحكم القراء، ونحن مقتنعون بأن ذلك سوف يكون مفيداً للقراء المعاصرين وللتالين.

الباب الثانى

الأسرار الغامضة للإسكندر المقدونى وكليوباترا

بدأت مصر الفرعونية فى الاضمحلال بعد مرور ألفى سنة من سيادتها التى تركت لأحفادها ما يدعو للإعجاب، بانتصاراتها وأهرامها وقصورها ومعابدها وقوتها الجبارة وفنها الخالد ، حيث أصابتها أمراض مستعصية لا شفاء منها ، بسبب العنف الداخلى والترف الدائم واللامبالاة ، عندما انطلق فراعنة مصر فى الفترة الأخيرة لهم (أعوام ١٠٨٥ – ٣٣٢ قبل الميلاد) فى "آخر خط مستقيم " لوجودهم فى التاريخ، وقد تميزت هذه الفترة بحروب مستمرة مع العديد من الأعداء القادمين من خارج الحدود حتى دخل الفرس فى النهاية إلى البلد منتصرين، فاضطر آخر فرعون مصرى "نقطامب الثانى" إلى الهرب للحبشة وترك بلده ينهبها ويخربها الغرباء.

كره المصريون الفرس بسبب قسوتهم ونهبهم ، لدرجة أن مصر استقبلت "الإسكندر المقدونى" منقذاً لهم – عندما قضى على الفرس واستولى على سلطتهم – ومنحوه احترام الآلهة...

يحظى أول إمبراطور تولى الحكم بعد مصر الفرعونية وآخر ملكة لمصر، الحسناء "كليوباترا"، باهتمام كبير فى كل من مصر وروسيا ، حيث إن حياتهما مليئة بالأسرار التى لم تكتشف حتى الآن على الرغم من أنهما تحولا إلى أسطورة حتى فى حياتهما.

وقد درس هاتين الشخصيتين مؤلف هذه السطور، ويقدم بعضًا من مفاهيمه عنهما إلى القارئ.

مصر الإسكندر المقدونى

كان الإسكندر المقدونى (٣٥٦ - ٣٢٣ عام قبل الميلاد) ابن الملك "فيليب الثانى"، وقد تتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير "أرسطوطال" ، الذى استطاع أن يُدخل فى رأس قائد المستقبل كل المعارف الحديثة التى توصل إليها. أصبح "الإسكندر" فى عمر العشرين عامًا ملك "مقدونيا" بعد مقتل والده بطريقة غامضة، عندئذ أظهر فوراً موهبته الحربية فى معركة "شارونيا" الشهيرة مع الفرس، وقد وضع حكام الاتحاد اليونانى - اتحاد بلدان اليونان القديمة - ملك مقدونيا الشاب على رأس قيادة الجيوش الموحدة، وبدأت فتوحاته ومعاركه العظيمة فى وجود معاناة كبيرة من الأزمة السياسية الفارسية لحكم الملوك الأحمديين.

تمكن "الإسكندر المقدونى"، وهو يمتلك تحت قيادته جيشا يتكون من ثلاثين ألفًا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان فى موقعة نهر "جرانيك" - الآن بيجة أو تشانتشاى - فى تركيا (٣٣٤ سنة قبل الميلاد)، من أن يسحق تمامًا جيش الملك الفارسى "داريا الثالث" الذى كان يقود جيشا يتكون من خمسة وثلاثين ألفًا من المشاة، بالإضافة إلى خمسة آلاف من الفرسان، وقد فتح الانتصار فى موقعة "جرانك" الطريق تمامًا أمام الجيش المقدونى لفتح آسيا الصغرى بالكامل.

ولكن الملك "داريا الثالث" أحس بالذل من هزيمته بواسطة جيش يقوده شاب فى العام الثانى والعشرين من عمره، لذلك فقد جمع بسرعة جيشا من ١٣٠ ألف فرد وتوجه لملاقاة "الإسكندر"، ودارت معركة أخرى عند مدينة "أيس" القديمة فى "كيليك" - آسيا الصغرى - فى خريف عام ٣٣٣ قبل الميلاد. وجه جيش "الإسكندر المقدونى" الذى كان يتكون من أربعين ألف جندى، ضربة من الفرقة الأمامية على الجبهة، وهاجم الفرسان من الجانبين، فحاصر مركز عمليات جيش "داريا". نتيجة لذلك فرَّ جيش الفرس من أرض المعركة وطارده الفرسان المقدونيون، وكانت مطاردة جيش الأعداء المنكسر ظاهرة جديدة لفن الحرب فى ذلك الوقت.

في هذا العام نفسه (٣٣٢ قبل الميلاد) وصل "الإسكندر المقدونى" إلى مدينة "تير"، التى كانت تمثل الدولة والميناء والقلعة فى "فينيقيا" - لبنان الآن - وحاصرها من جهة البر ومن جهة البحر. وبعد سبعة أشهر من الحصار سقطت مدينة "تير"، مما فتح الطريق أمام الجيش المقدونى إلى مصر.

تحرك "الإسكندر المقدونى" فى البر بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط ووصل بعد ستة أشهر إلى أرض الفراعنة القديمة حيث لم تقابله أية مقاومة. وقد أعجب المقدونى العظيم، الذى ولد على شاطئ البحر، بدلتا النيل ، كما أعجب بالخليج وبزرقة البحر وبكثرة النخيل الذى استقر تحته معسكر الجيش.

صاحت صديقة القائد التى صاحبته فى فتوحاته"روكسانا"قائلة: هنا سوف تقام مدينة تسمى الإسكندرية. فرد عليها "الإسكندر" بقوله: و هنا سوف يعقد قراننا".

فى عام ٣٣١ قبل الميلاد تم وضع حجر الأساس للمدينة الجديدة "الإسكندرية" التى أصبحت عاصمة لمصر فى ذكرى تحرير البلد القديم موطن الأهرام من "الفرس الطغاة النهمين". لم يخطط "الإسكندر المقدونى" للبقاء فى مصر مدة طويلة، فقد وصلته أنباء عن استعداد "داريا الثالث" مرة أخرى للحرب، ولكنه كان يرغب فى أن يلتقى مع كهنة المعبد القديم "لآمون رع" فى واحة "سيوة"، التى تبعد ٦٠٠ كيلومتراً جنوب غرب مدينة الإسكندرية فى حضن الصحراء الرملية الكبرى. كان "الإسكندر" يكن لإله الشمس "رع" حبا خاصا، وكان يشتاق إليه، كما أنه كان يعتبره حاميه، ومثيلاً للإله اليونانى القديم "زويس".

توجه إلى هناك فى فبراير عام ٣٣١ ق.م. يصاحبه خمسة آلاف من الفرسان وثلاثون ألفًا من المشاة. كان لهذه الواحة تأثير كبير عليه بما تضم من بحيرات وغابة للنخيل ووفرة للحياة، بالإضافة طبعًا لمعبد إله الشمس "آمون" - إله الآلهة - ، حيث أخفتها الآلهة فى الصحراء التى يصعب عبورها. وطبقًا للمعلومات التى وصلت إلينا فقد بقى القائد لمدة طويلة فى المعبد، وتحدث فى عزلته مع "وحى حكيم"، وسأله عن حملاته الحربية القادمة وعن قاتل والده الملك "فيليب". سمع الإسكندر فى الإجابة أنه أصبح ابن الإله "آمون زويس"،

ورسوله فى الأرض، وإمبراطور المناطق التى يفتحها، لذلك فإن كل ما سيفكر فى عمله سوف يحظى بتأييد الكهنة وسوف يكفل له النجاح.

كتب فى المخطوطات إنه عندما خرج الإسكندر من المعبد تعلو وجهه علامات الانتصار أكد لرفاقه أن: "الوحى قال لى فى السر كل ما كنت أريد أن أسمع منه". كتب مؤرخ تاريخ هذا القائد "كالسنياس" إن الإسكندر أبدى أكثر من مرة رغبته فى أن يدفن بعد موته فى "سيوة" بجانب معبد "آمون رع" بعد لقائه مع الوحى "فى واحة فى آخر العالم". رسخت هذه الفكرة بصفة خاصة عند القائد الذى كان قد فتح حتى الآن كل آسيا الصغرى وجزءًا من شمال إفريقيا.

عقد قرانه على صديقته المحاربة "أوكسانا" هناك بين بحيرتين تعرفان حاليًا بواحة "سيوة" وواحة "المراقى". وتم تنظيم احتفال ضخم استمر لعدة أيام بهذه المناسبة، شرب ومرح للجنود الذين كانوا يحبون قائدهم الشاب وقد أقسموا بالإخلاص له، كما باركه الكهنة لتحقيق انتصارات جديدة.

أخذ الإسكندر جنوده مرة أخرى إلى الحروب وترك أحد ضباطه نائبًا عنه ليحكم الإسكندرية، كان هذا الضابط "بطليموس". قطع جيش "الإسكندر المقدونى " نصف المسافة بين "سيوة" والبلدة الصغيرة "جفجميلة" - تل جومل حاليًا بالقرب من مدينة أربيل فى العراق - حيث وقعت معركته الأخيرة مع جيش الملك "داريا الثالث". ركزت فيها قوات الإسكندر المقدونى هجومها على "الجناح المهاجم" للعدو، واستخدمت سلاح الفرسان فى القتال، كان جيش الفرس يتكون من نحو ثمانين ألفًا من المشاة ، وخمسة عشر ألفًا من الفرسان ، ومائتين من العربات الحربية ، و خمسة عشر فيلاً مدربًا على الحرب. أظهر محاربو الملك الشاب تفوقهم الكبير على أعدائهم فى القيام بالمناورات ، وفى التنسيق بين المشاة والفرسان ، وفى القدرة على مقاتلة الفيلة والعربات الحربية. قُهرت القوة العسكرية الفارسية نهائيا فى موقعة "جفجميلة" ، بحيث إنه قُضى عليها.

فتح "الإسكندر المقدونى" الهند الغربية فى عام ٣٢٧ قبل الميلاد، ولكن اصطدمت محاولاته للتقدم للأمام بمقاومة جنوده الذين أصابهم الإرهاق، وطلبوا العودة إلى بابل عاصمة الإمبراطورية ، وتمت الاستجابة لهم.

بعد أربع سنوات مات القائد العظيم في ظروف غامضة في يوم ١٢ يونية سنة ٣٢٣ قبل الميلاد، فلم يُعش حتى يبلغ عمره ٣٣ سنة.

تلقى ذكرى "الإسكندر المقدونى" احترامًا بالغًا على ضفاف النيل ، حيث إنه فتح مصر بأسلوب مسالم – لو صح القول – وقد اختلف عن الفرس ، فى أنه تعامل مع عادات وتقاليد البلد باحترام، ثم أنه زار معبد الآلهة المصرية بتقدير بالغ؛ لذلك رممت له عدة معابد تم فيها رسم الآلهة المصرية والآلهة اليونانية بطريقة متطابقة. تم فى عصره بناء أول إستادات ومدارس موسيقية فى "ممفيس"، نتيجة لذلك اعتبر المصريون "الإسكندر المقدونى" ابنًا لإله الشمس كما كان يحدث مع الفراعنة العظام، وقد تم رسم "الإسكندر" على وجه العملات التى كانت تستخدم فى ذلك الوقت وعلى رأسه قرنان يرمزان للحمل المقدس الإله "خنوم".

أصبحت المدينة التى تحمل اسم "الإسكندر المقدونى" أكبر نصبًا تذكاريا له فى مصر حتى الآن. كان موت الإسكندر المبكر نذير سوء على إمبراطوريته المتسعة المتعددة السمات، فى ذلك الوقت كان ابنه يبلغ من العمر أربع سنوات فقط، لذلك ورث الحكم "فيليب أرخيدبس" الأخ غير الشقيق للإسكندر، وكان من المعروف أنه قليل الذكاء، بعد فترة وجيزة تم قتل ابن "الإسكندر" و"فيليب أرخيبتس" وقسمت الإمبراطورية بين جنرالات الجيش. بعد ذلك حصل "بطليموس الأول" – وهو أحد ضباط الإسكندر – على تاج ملك مصر وأسس أسرة البطالسة فيها.

لم يهزم "الإسكندر المقدونى" أبدًا فى خلال حياته؛ لذلك اعتبرت جثته حجابًا واقيًا بعد موته يهب النصر، واعتقد الناس أن البلد التى سوف تدفن فيها جثة البطل سوف تتم حمايتها من الغزاة. كانت النية متجهة لدفن الإسكندر الأكبر فى مكان غير مسكون بواحة "آمون". عند نقل جسده من بابل إلى الجنوب عن طريق سوريا وفلسطين ومصر إلى الواحة، جمع "بطليموس" جيشه وخرج لملاقاته بطقوس جنائزية، كما لو كان يقدم التحية إلى إمبراطوره الذى توفى، ولكن عندما وصل الموكب الجنائزى إلى مصر استولى "بطليموس" على جسد "الإسكندر" ودفنه فى جنازة فاخرة فى "ممفيس" ثم فى الإسكندرية.

تؤكد بعض المصادر أن قبر هذا القائد العظيم موجود فى الإسكندرية، حيث تم دفنه فى مقبرة رائعة بنيت له خصيصًا بالقرب من قصر الملك. سكن جسده فى أول الأمر تابوتا من الذهب مزينًا بالحجارة الثمينة، وشيدت عدة أعمدة عند المقبرة؛ ولكن أحد حكام البطالسة مر بضائقة مالية فاستبدل بالتابوت الذهبى تابوتا من الزجاج، واستولى على الحجارة الثمينة التى تزينه، تتهم مصادر أخرى "كليوباترا" بهذه السرقة. بعد ذلك بكثير كتب المؤرخون العرب عن مقبرة الإسكندر فى القرون الوسطى، فهم يؤكدون أنه تم بناء مسجدٍ فوق مقبرة "الإسكندر" مما أكسبها قدسية خاصة، وكان الناس يحجون إلى هذا المكان، ولكن عند التنقيب تحت هذا المسجد وجدت فقط بقايا شيخ مشهور.

ما زال سر دفن "الإسكندر المقدونى" يحير الجميع حتى الآن، ففى خلال ١٠٠ عام وحتى تسعينيات القرن العشرين قد جرت على الأقل ١٣٠ محاولة لفك هذا السر، ولكن حتى الآن فشلت كل المحاولات فى ذلك، فعلى سبيل المثال، فى عام ١٩٩٤ وجد العلماء البولنديون دلائل أكيدة على أن "ابن الإلياذة القديمة" مدفون فى الإسكندرية، ولكن أبحاثهم لم تثبت.

بدأ الخبراء اليونانيون التنقيب فى "واحة سيوة" على أساس أن هذه الواحة كانت تسمى منذ عدة مئات من السنوات "سنتاريا"، وقد فسر خبراء اللغات القديمة هذه الكلمة بأنها تعنى "المكان المدفون فيه الإسكندر"، وقد ركزوا قواهم فى المكان الذى يسمى "الميراكى"؛ حيث إن هذا الاسم جاء من اللغة اليونانية القديمة من كلمة "ميراكيان"، التى تعنى "الشاب الذى مات قبل الأوان بكثير"، أو "الشخص الذى مات وهو تقريبًا شاب".

وصل التنقيب فى عام ١٩٩٥ إلى نتائج مبهرة، فقد عثر على خبيئة فى أطلال معبد "آمون - رع" فى سيناء بها جسد "الإسكندر الأكبر" كما يؤكد اليونانيون، ولإثبات ذلك قدموا مخطوطين يؤكدان ذلك.

من حيث المبدأ فإن هذا الأثر القديم جدا نصف مهدم، وهو عبارة عن مجموعة تتكون من معبد ومقابر يحيطها جدار ارتفاعه متران مزين بالرسوم، البوابة الرئيسية تؤدى إلى مبنى متسع وتحرسها تماثيل لأسود، ثم يؤدى الطريق - بعد عدة ممرات معقدة - إلى قاعة متصلة بحجرات صغيرة، تسد مدخلها ألواح ضخمة من الجرانيت، ويعتقد أن بقايا "الإسكندر الأكبر" محفوظة فى إحداها.

لا يتلخص برهان هذه النظرية فقط فى أن المجمع نفسه كبير لدرجة أنه لم يعثر على مثيل له بعد سواء فى اليونان أو فى مقدونيا أو فى مصر نفسها، كما يرى الخبراء أن كل الإنشاءات والرسوم تختلف عن الأسلوب المميز لعمارة مصر القديمة، ولكن على عكس ذلك وجد فيها الكثير من سمات تنفيذ المقابر المقدونية، وهى بصفة خاصة تشبه مقبرة والد الإسكندر "فيليب الثانى"، بالإضافة إلى نماذج النقوش المبينة لزهور وأشجار، وكذلك الرسوم المنحوتة التى ثبتت فيما مضى على مدخل المقبرة وتمثل النجمة الثمانية، التى تعتبر الرمز الشخصى "للإسكندر المقدونى"، والتى لا يستطيع تنفيذها أحد إلا الفنانون المقدونيون، كما عثر على قطعة فنية فريدة لأسد، نادراً ما عثر على مثيل لها من قبل، حيث وجدت فقط فى المعابد اليونانية القديمة.

وجدت البعثة اليونانية برئاسة عالمة الآثار"ليانا سوفاليس" فى عام ١٩٩٥ ثلاث بلاطات تحمل نقوشًا مكتوبة باللغة اليونانية القديمة، كتب على الأولى منها - وهى الأهم - "الإسكندر، آمون رع. باسم الإسكندر ذى الحظوة، أقدم هذه الضحايا بناءً على طلب الله وأحضر إلى هنا الجسد الخفيف لدرجة أنه مثل أصغر درع - فى الوقت نفسه الذى كنت فيه حاكم مصر. لقد كنت حاملاً لأسراره ومنفذا لأوامره. لقد كنت شريفًا فى علاقتى معه ومع كل الناس، وبما أنى آخر من بقى على قيد الحياة حتى الآن، فإنى أعلن هنا أننى قمت بكل ما هو مبين أعلاه فى سبيله." كتب هذا النص تقريبًا فى عام ٢٩٠ قبل الميلاد، والذى كتبه هو "بطليموس الأول" المستشار الأقرب إلى الإسكندر والذى أوصاه القائد بنقل رفاته إلى سيوة.

توضح كتابات أخرى أنه كان يحرس هذه المجموعة ثلاثون ألف جندى، مما يؤكد الأهمية الخاصة للمقبرة. أما البلاطة الثالثة فكانت تحمل نصا مؤثرًا يقول : "الأول الذى لا مثيل له بين الجميع، حيث إنه قد تجرع السم، ولم يشك للحظة واحدة". أى إن الإسكندر المقدونى قد سمم ولم يمت من الحمى كما تؤكد النظرية المتعارف عليها.

تعتقد "ليانا سوفاليس" أن رفات القائد ما زالت موجودة فى سيوة، ولكنها لا تستبعد احتمالات أخرى ممكنة، فعلى سبيل المثال ليس من المستبعد أن يكون جسد الإسكندر قد تم حرقه طبقًا للتقاليد المقدونية، وأن رماده وضع فى إناء قد يكون قد تهشم تمامًا واختفى إلى الأبد بفعل الزمن والظروف الجوية. لا يتمنى ذلك حتى أكثر المتشائمين، الذين غالبًا توقفت قلوبهم للحظة عند سماعهم هذه الأخبار لأول مرة.

تم فى القاهرة تشكيل لجنة علمية على أعلى مستوى لمراجعة اكتشافات البعثة اليونانية، وقدمت هذه اللجنة تقريرًا نهائيا عن صحة "الأنباء المهمة السيوية". فأخيرًا، وجدت فى سيوة شيئًا ما يمت بصلة للإسكندر الأكبر، علمًا بأنه لم يتبق شىء آخر يدل عليه على الإطلاق فى الإسكندرية. أعلن ممثلو اليونان الذين حضروا إلى موقع التنقيب أن هذه الأطلال تنتمى إلى فترة لاحقة، وأنه من المحتمل أن يكون مدفونًا هنا الشخص المعنى نفسه.

وقد سحبت السلطات المصرية من "ليانا سوفاليس" تصريحًا لاستكمال التنقيب فى نهاية عام ١٩٩٦، نظرًا لأنها قد أثارت بلبلة حول التنقيب فى سيوة دون أساس، أما عالمة الآثار نفسها فقد بقيت فى القاهرة، وأعلنت أنها تعمل على دراسة المعلومات التى حصلت عليها، وأنها تنوى الاستمرار فى أبحاثها.

كان كاتب هذه السطور موجودًا فى القاهرة فى ذلك الوقت فى يناير ١٩٩٧، وحصل من وزارة السياحة على الكثير من المطبوعات عن سيوة، كان من بين المعلومات الواردة بها قصة تغيير اسم هذه الواحة. يؤكد المصريون أن الاسم الحالى منح لها فى القرن الثامن عشر، قبل ذلك كانت تسمى "إدفو" على اسم المعبد الذى بنى فى القرن الثانى قبل الميلاد فى هذه الواحة، أما فى العصر اليونانى – الرومانى – فكانت تحمل اسم "جوبيتر– آمون"، وقد سميت هذه الواحة، فى القرن الخامس عشر "سنتاريا"،

ولكن فى القرن السابع عشر بدأ سكانها فى الاعتراض على أصل هذه الكلمة، فأصبحت الواحة تحمل اسم سيوة منذ القرن الثامن عشر.

على الرغم من أى شىء ، أصبحت بلد الأهرام - مصر القديمة - منذ أن حررها "الإسكندر المقدونى" من الفرس فى عام ٣٣٢ قبل الميلاد، جزءاً من إمبراطوريته العظيمة لفترة قصيرة، ولكن بعد موت القائد أصبحت دولة "هيلينية" مستقلة، حكمتها عائلة البطالسة المقدونية (اللاجيديون) ، التى أسسها "بطليموس لاج" ، وهو أحد ضباط جيش "الإسكندر" وتم الإعلان عن الإسكندرية عاصمةً لها.

تحولت الإسكندرية فى ذلك الوقت إلى مركز صناعى وتجارى وثقافى لكل منطقة البحر الأبيض المتوسط. كان "بطليموس" فى مصر الهيلينية، كما فى مصر الفرعونية، يعتبر المالك الوحيد للأرض، وكانت أجزاء من الأرض تمنح للنبلاء وللمحاربين ذوى الأصول اليونانية المقدونية، أو كانت تلحق بالمعابد، وكانت باقى الأراضى تستثمر، كما كان ورثة المستأجرين يقومون بالعمل فى جزء من الأراضى (الفلاحون الملكيون). وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك أعمال يقوم بها موظفو الملك أو القطاع الخاص - المالك للأراضى - باستخدام العبيد والعمال الأجيرين.

كان "بطليموس الأول" سياسيا نشيطًا متمتعًا بالذكاء، وقد أعاد للمصريين ملكياتهم الخاصة وعين ممثلين له من المصريين فى الأرياف، ولكنه - أيضًا - عين مراقبين لهم تميزوا قليلاً عن العبيد، وكانت الأمور المالية كلها فى يد اليونانيين، وزادت القوة الحربية للبلد بشكل ملحوظ، كما كان الجيش يستخدم إستراتيجية جديدة ومناورات وتكتيكًا للدفاع من ابتكار "الإسكندر المقدونى". وأصبح الجيش متعدد الجنسيات، فكان فيه جنود يونانيون ومقدونيون ومصريون وغيرهم، وكانت تستخدم فى الحروب معدات يونانية وأفيال، وظهر أسطول بحرى كبير يتكون من نحو ٣٠٠ مركبٍ فى عهد "بطليموس الثانى - فيلادلفيوس". فى ذلك الوقت حاربت مصر النوبة وسوريا ودول أخرى، أى مارست سياسة استعمارية.

وقد وُضع نظامٌ دقيقٌ داخل البلد لتحصيل الضرائب والرسوم، كما أُدخل نظام الرسوم الجمركية، ولم تتلخص الضرائب فقط فى الهدايا الملكية، فكان هناك فريق كبير من الموظفين لتحصيل الضرائب، وكان المتقاعسون عن تسديدها ينالون عقاباً صارمًا. أُدخل نظام احتكار حكومى فى البلد، وأنشئت الوزارات التى باشرت الأعمال المتنوعة فى مختلف جوانب الحياة العامة، تطور نظام التعليم وظهرت المدارس والكليات، كما تم عمل الكثير فى مجال البناء ، حيث تم بناء العديد من المعابد فى "أدفو" و "كوم أمبو" وجهات أخرى، بالإضافة إلى مكتبة ومتحف الإسكندرية، وفى عام ٢٨٠ قبل الميلاد تم بناء "فنار فاروس" الشهير فى الإسكندرية.

اهتم البطالسة الأوائل بجعل الإسكندرية مركزًا للحياة الثقافية لكل شرق البحر الأبيض المتوسط، فقد أسس بطليموس الثانى" فيلادلفيوس" متحفًا كبيراً ومكتبة الإسكندرية العظيمة التى عمل فيها الكثير من العلماء الكبار فى ذلك الوقت. كانت المدينة نفسها إحدى أجمل المدن فى ذلك الوقت، وكانت تحظى بإعجاب كل زوارها، كانت الأعمال العلمية والأدبية تنفذ فى المتحف، وكانت المكتبة هى الأعظم فى العالم، حيث كانت تضم أكثر من نصف مليون مجلد.

تم ترميم معابد مصر العليا فى عهد البطالسة الأوائل، وبالإضافة إلى ذلك أنفقت مبالغ كبيرة لكسب ثقة الكهنة، ثم بدأ ملوك هذه الأسرة فى التدهور وغرقوا فى الترف والفساد، وفى نهاية عصر البطالسة أصبحت الإمبراطورية الرومانية – التى تنامت قوتها بسرعة – تمثل خطراً على مصر.

"كليوباترا" آخر ملكات مصر

تعتبر فترة حكم آخر ملكة مصرية "كليوباترا" إحدى أهم حقبات التاريخ المصرى؛ حيث إنها لقيت اهتماماً كبيراً من الشعراء والرسامين والنحاتين والروائيين على مدى مئات السنين، لذلك سوف نتناول هذه الفترة بشىء من التفصيل.

عرف والد "كليوباترا" بطليموس الحادى عشر باسم "أفليت"، لأنه كان يحب العزف على آلة "الفلوت" الموسيقية، كما أنه منح أهم مركز مالى لمرابٍ رومانيٍّ، أدى ذلك إلى ثورة الإسكندريين عليه مما أجبر الملك على الهرب، ولم يتمكن من استعادة العرش إلا بمساعدة الجيوش الرومانية التى قادها "مارك أنطونيو" الذى كان لا يزال فى مرحلة شبابه، لذلك فقد أصبح "بطليموس أفليت" مدينًا لروما وأصبح عليه أن يدفع لها مبلغًا ماليا ضخمًا بمعايير ذلك الزمن، لذلك فقد أصبح مصير مصر التى كانت لا تزال مستقلة شكليا، وثيق الصلة بمصير روما.

ولدت "كليوباترا" فى عام ٦٩ قبل الميلاد، أما والدها "بطليموس الحادى عشر" فقد توفى فى عام ٥١ قبل الميلاد. كانت "كليوباترا" قد بلغت الثامنة عشر فى ذلك الوقت، وأصبح من الضرورى طبقًا لوصية الملك وطبقًا للتقاليد المصرية القديمة أن يتشارك كل من ابنة الملك الكبرى "كليوباترا" وابنه "بطليموس ديونيس" الحكم وأن يتزوجا، ولكن فى ذلك الوقت كان "بطليموس" صغيرًا جدا فى السن وكان دائمًا واقعًا تحت تأثير معلمه المخصى "بوتين" الذى كان يرأس الحزب الملكى، وقرر هذا الحزب استبعاد "كليوباترا" عن الحكم حتى يستطيع أن يحكم مصر باسم "بطليموس الثانى عشر ديونيس" الصغير السن.

اضطرت "كليوباترا" إلى الهرب من الإسكندرية إلى "سوريا"، حيث كان هناك جيش مصرى قريب من الحدود، استطاعت "كليوباترا" أن تضم هذا الجيش إلى جانبها وأن تتحرك به فى اتجاه قلعة "بلوزيو"، كما جمع "بطليموس" أيضًا جيشًا واستعد لمواجهة زوجته الملكية وأخته. كان هذا هو الوضع فى مصر عندما وصلت أخبار عن معركة فاصلة بين القائدين الرومانيين "جنى بومبى" و"جاى يوليوس قيصر" عند مدينة "فارسالا" فى اليونان. كانت هذه المعركة فاصلة فى حل الخلاف، وتحديد من يكون حاكم الإمبراطورية الشاسعة، انتصر فيها "قيصر" وهرب عن طريق البحر كل من "بومبى" وزوجته وابنه وعدد من أصدقائه المخلصين من ملاحقة المنتصر إلى مصر، حيث كان يأمل فى الحصول على العون من أبناء "بطليموس أفليت" الذى قدم له مساعدة كبيرة فى الماضى، ولكن كان للقصر الإسكندرى - الذى كان يتحكم فيه المخصى

"بوتين" - رأى آخر، فعندما ألقت مركب "بومبى" مرساتها بالقرب من الشاطئ المصرى اقترب منها قارب كان بها - بجانب المجدفين وقائد الجيش المصرى اليونانى "أخيل" - بعض المحاربين من الرومان الذين خدموا تحت قيادة "بومبى" فى الماضى. دعا أحد المحاربين من معارف "بومبى" الأخير للانتقال إلى القارب زاعماً أن قلة عمق الماء لا تسمح برسو المركب على الشاطئ تماماً، وبمجرد أن انتقل القائد الرومانى إلى القارب مطمئناً هاجمه المحارب وعاجله بطعنة بخنجره من الخلف فى ظهره، شاهد كل من زوجة "بومبى" وابنه ما جرى من على سطح المركب، ولكنهما لم يستطيعا التدخل. عندما حضر "قيصر" بعد ذلك على رأس جيشه وقواته البحرية إلى الإسكندرية أُحضر له طبق من الذهب عليه رأس عدوه السابق التى تم تحنيطها. يقال إن "قيصر" أدار رأسه مشمئزاً عند رؤيته هذه الهدية الفظيعة.

لعب "قيصر" فى أثناء إقامته فى مصر دور الحكم فى الخلاف بين الأخ وأخته، وبالإضافة إلى ذلك طلب أن يسدد له الدين الضخم الذى على "بطليموس أفليت"، فطلب "قيصر" من "بطليموس ديونيس" ومن "كليوباترا" أن يصرفا جيشيهما وأن يحضرا إليه فى الإسكندرية لكى يحكم بينهما، ولكن "بوتين" وضع خطة خبيثة، فلم يخطر "كليوباترا" باستدعائها إلى الإسكندرية، ولكنه أخبرها فقط عن طلب "قيصر" منها صرف الجيش، أطاعت "كليوباترا" هذا الأمر فى الوقت نفسه الذى احتفظ فيه أخوها بجيشه عند الحدود الغربية وحضر إلى الإسكندرية. شرح "بطليموس ديونيس" رأيه لقيصر، حيث أدان "كليوباترا" تماماً. كان "بوتين" يسعى بهذه الطريقة إلى تضليل قيصر واستفزازه ضد "كليوباترا"، بما أنها هى التى - كما يظهر - لم تستجب لطلب قيصر ولم تحضر إلى الإسكندرية.

خمنت "كليوباترا" فى ذلك الوقت أن دسائس "بوتين" هى ما يعطل لقاءها بالناصر الرومانى، كما أنها فهمت أن ذهابها علناً إلى الإسكندرية سيسهل قتلها فى الطريق، لذلك فقد فكرت فى تحقيق اللقاء مع قيصر بطريقة أخرى. استقلت مع أحد المخلصين لها -"أبولودور الصقلى"- مركباً صغيراً ودخلت إلى بوغاز الإسكندرية فى الليل ووصلت

إلى إحدى بوابات القصر الملكى، ثم لفت حول نفسها كيسًا كبيرًا من النسيج الخشن ربطه "أبولودور" بالأحزمة، ثم رفعه على كتفه، ودخل القصر دون أية عوائق حتى وصل إلى الحجرة التى يشغلها "قيصر"، وهناك كشف حمله أمام "قيصر".

دهش "قيصر" وأعجب بهذا الأسلوب الفريد لظهور "كليوباترا"، لم يقف غير مبالٍ بجمال الملكة الشابة. كان "قيصر" فى ذلك الوقت فى العقد السادس من عمره بينما كانت "كليوباترا" فى السنة ٢٢ من عمرها. وصف "بلوتارخ" شكل "كليوباترة" كما يلى: "جمال هذه المرأة لم يكن من النوع الذى لا مثيل له من أول نظرة، ولكن كان التعامل معها يتميز بسحر خاص، لذلك فإن مظهرها مع أسلوب كلامها المقنع، وجاذبيتها الشديدة التى كانت تظهر فى كل كلمة من كلماتها، وفى كل حركة من حركاتها كانت تتغلغل كلها بقوة فى الألباب، كان صوتها نفسه يهدهد ويسعد السمع. كانت "كليوباترا" تتميز بجانب جمال الشكل بذكاء حاد وكانت تتمتع بمستوًى عالٍ من التعليم، حيث كانت تعرف عشر لغات، كما كانت تتميز أيضًا بالطموح وبالمكر وبالقدرة على حساب كل خطواتها، وكانت تهتم - بالإضافة إلى المغامرات العاطفية - "بالسياسة العليا" أيضًا.

أصبح "قيصر" بعد لقائه الأول بكليوباترا حاميًا متحمسًا لها، فطلب أن يترك كل من وريثى "أفليت" فى الحكم معًا. لم يعجب هذا القرار حزب الزوج الاسمى لكليوباترا "بطليموس" وقام بتمرد فى الإسكندرية. أصبح وضع "قيصر" صعبًا، حمل سكان الإسكندرية السلاح، ووقف أيضًا جيش مصر المؤلف من ١٠ آلاف جندى ضده. لم يكن تحت يده إلا كتيبة من ٣٢٠٠ فرد من المشاة و٨٠٠ من الفرسان، بالإضافة إلى بحارة الأسطول الرومانى المحجوز فى البوغاز.

خشى "قيصر" من سقوط الأسطول فى أيدى الأعداء فأمر بحرقه، امتد الحريق إلى الشاطئ ودمر عدة مبانٍ، ففقد فى الحريق العديد من المبانى المهمة ومنها مكتبة الإسكندرية الشهيرة، وفى النهاية تمكن الرومان من صد هجوم الأعداء.

أوفد المصريون الرسل إلى "قيصر" لإبلاغه بأنهم سوف يتوقفون عن القتال إذا أطلق سراح ملكهم "بطليموس" من الأسر، فسمح "قيصر" لبطليموس بالخروج من القصر

ولكن لم يفِ المصريون بوعدهم واستمرت الحرب. دخلت قوات رومانية فى ذلك الوقت مصر من الغرب لنجدة "قيصر" وواجههم المصريون، بعد عدة أيام اتحدت قوات "قيصر" مع القوات الرومانية الوافدة ودخلت فى معركة ثانية انهزمت فيها القوات المصرية تمامًا وغرق "بطليموس ديونيس" فى النيل، عاد "قيصر" بعد هذا النصر إلى الإسكندرية وفتحها.

كان يمكن لقيصر أن يعتبر هذا البلد إحدى المقاطعات الرومانية، ولكنه لم يفعل ذلك، نقل السلطة إلى "كليوباترا" لأنه كان مسحوراً بالملكة الشابة، ولأهداف سياسية معينة. طبقًا للتقاليد المصرية تم إعلان "بطليموس نستيروس"الأخ الأصغر لكليوباترا ذى التسعة عشر عامًا زوجًا لها وشريكًا لها فى الحكم ومنح اسم "بطليموس الثالث عشر". ولكن فى الحقيقة لم يكن الزوج ولا الملك، فقد حكمت "كليوباترا" وحدها منفردة بعد أن أصبحت صديقة لقيصر، على الرغم من صعوبة الظروف السياسية (كان لا يزال فى شمال إفريقيا وفى إسبانيا حلفاء أقوياء "لبومبى"). بقى "قيصر" فى مصر، حيث قام برحلات نيلية مرحة مع كليوباترة، وكان السبب الوحيد الذى اضطر "قيصر" لترك الإسكندرية ظهور خطر فى آسيا الصغرى بسبب تحرك القوات العسكرية لملك البوسفور بونتيك "فارناك". كان الانتصار على "فارناك" سبب كتابة "قيصر" خطابه الشهير "حضر، رأى، انتصر". ولدت "كليوباترا" طفلاً فى غياب "قيصر" أطلق عليه اسم "سيزاريون".

بعد أن سحق "قيصر" البومبيين فى إفريقيا وفى إسبانيا أصبح حاكمًا للإمبراطورية الرومانية بأكملها، ثم فى عام ٤٦ قبل الميلاد سافرت "كليوباترا" إلى روما بصحبة زوجها الاسمى "بطليموس الثالث عشر" وابنها "سيزاريون" وحاشية كبيرة.

لم يراع "قيصر" غضب الرومانيين واهتم بصورة متزايدة بكليوباترا، وأعطى أوامره بوضع تمثال ذهبى لكليوباترا فى معبد "فينوس"، كما انتشرت شائعة تقول: إن قيصر سوف يعلن رسميا أن "سيزاريون" وريثه، وأنه سوف ينقل العاصمة إلى الإسكندرية. أدى كل ذلك إلى زيادة غضب الشعب، وسهل بقدر ما عملية اغتياله فى عام ٤٤ قبل الميلاد بواسطة الجمهوريين بزعامة كل من "بروتس" و "كاسيو".

هز مقتل "قيصر" "كليوباترا" بشكل كبير، وظلت لبعض الوقت تعتقد أن القنصل "مارك أنطونيو" صديق قيصر وحليفه سيتمكن من الإعلان عن "سيزاريون" وليا للعهد بعد أبيه. ولكن اقتنعت "كليوباترا" أخيراً باستحالة تحقيق ذلك فغادرت روما، كانت فى ذلك الوقت قد بلغت الخامسة والعشرين من عمرها.

بدأت مرحلة جديدة من حياة "كليوباترا"، ففى عام ٤٢ قبل الميلاد هُزمت قوات كل من "بروتس" و"كاسيو" فى معركة "الفليب". كان الحاكم الجديد لشرق البحر الأبيض المتوسط "مارك أنطونيو" فى آسيا الصغرى بمدينة "تارس"، حيث استقبل ملوك الشرق وحكامه الذين تسابقوا لمبايعته، وحضرت "كليوباترا" أيضًا إليه فى هذا المكان بناءً على دعوته.

لم تظهر أمامه "كليوباترا" فى صورة الخاضعة له المطالبة بالأمان، ولكنها بدت فى صورة "إلهة الحب والجمال، أفروديت"، التى حضرت لمقابلته ومعها حبيبها "ديونيس". كانت المسرحية مخططة بدقة لإثارة إعجاب القائد العسكرى الفظ "مارك أنطونيو" الذى كان يتصف بموهبة القدرة على القيادة العسكرية، ولكنه كان سياسيا سيئًا وسكيرًا شرهًا وزير نساء.

سُحر "أنطونيو" بجانبية "كليوباترا" ، ونسى كل شىء فى الوجود، فتبعها إلى الإسكندرية. فهمت "كليوباترا" بسرعة المستوى الروحى لمحبها الجديد، وداعبت رغباته بمكر شديد. فإذا كان "قيصر" قد تميز بثقافة عالية ومواهب كثيرة، فقد كانت تسعى لكى تنال إعجابه بحدة ذكائها، ولكن حساباتها مع "مارك أنطونيو" كانت تتلخص فى السيطرة عليه عن طريق شهواته، استخدمت مختلف الحيل الممكنة بلا توقف، فكانت تنظم له السهرات المتنوعة دون توقف، وفى كثير من الأحيان كان يتنكر كل من "أنطونيو" و "كليوباترا" فى ملابس البسطاء ويتجولان فى شوارع الإسكندرية ويتعاملان مع المارة مما كان يؤرق السكان، وكان أحيانًا يتم استفزاز "أنطونيو" فى بعض هذه الجولات، ولكنه كان راضيًا تمامًا. اكتشف الإسكندريون سريعًا الشخصية الملكية للمتخفين اللذين يتجولان فى مدينتهم، ولكنهم لم يتعرضوا لهما بأذى، على العكس فقد اكتسب هذا الرومانى غير المتعجل شعبية.

اضطر "أنطونيو" إلى مغادرة الإسكندرية، والتوجه إلى روما بسبب المشاكل السياسية فى إيطاليا، ثم تزوج من أخت "أوكتافيان أوكتافى" لأسباب سياسية، وعاش معها فى سلام لعدة سنوات. بعد فترة تذكر "أنطونيو" "كليوباترا" مرة أخرى عندما خرج لمحاربة "البارفيان" فاستدعاها إليه فى سوريا، وأهداها بكرم بالغ أراضى استولى عليها الرومان هى "جزيزة قبرص وفينيقيا وفلسطين وناباتكا العربية" فتم ضمها لتصبح تحت سيطرة مصر، غضب الرومان بشدة عندما اعترف "أنطونيو" بصراحة بأبوته لتوأمين من "كليوباترا" – الطفل "الإسكندر" والطفلة "كليوباترا" بالإضافة إلى ابن آخر هو "بطليموس".

لم يُدِرْ "أنطونيو" الحرب مع "البارفيان" بنجاح حيث لم ينتصر، فقد سقط تمامًا تحت تأثير "كليوباترا" وانفصل عن "أوكتافيا" وانتقل إلى الإسكندرية وتحول كليةً من قائد عسكرى رومانى إلى ملك مصرى. أصبح هذا التغيير واضحًا تمامًا عندما تم تنظيم احتفال كبير فى الإسكندرية نصب فيه "أنطونيو" "كليوباترا" ملكة على كل من مصر وقبرص وسوريا الجنوبية بالمشاركة مع ابنها "سيزاريون". بذلك تم إعادة سلطة البطالسة فى صورتها الأولى وهو ما كانت ترنو إليه "كليوباترا"، وقد وعد "أنطونيو" بمنح ابنه الأكبر"الإسكندر" الأراضى الشرقية أى أرمينيا وميديا وبارفيا، أما ابنه الأصغر فقد ترك له سوريا وفلسطين. أصبح الصدام حتميا مع روما ومع "أوكتافيا" لذلك أعلنت روما الحرب على كل من "كليوباترا" و "أنطونيو".

التقى الجيشان فى خريف عام ٣١ قبل الميلاد، وعلى الرغم من ميل ميزان القوة ناحية "أنطونيو"، فقد كانت قراراته خاطئة تمامًا، حيث قرر نقل المعركة بعيداً عن البر، فقد فضل أن يلاقى "أوكتافيان" فى البحر، ولكن لم تتمكن سفنه الكبيرة من المناورة وأصبحت لا حول لها ولا قوة أمام أسطول الأعداء المدرب جيداً . بالإضافة إلى كل ذلك ففى اللحظة الحاسمة انحرف فجأة المركب الذى كانت به "كليوباترا" إلى عرض البحر؛ فاندفع "أنطونيو" بمركبه وراءها وبقيت قواته دون قائد فاستسلمت، هنا تقرر مصير "أنطونيو وكليوباترا".

سمحت "كليوباترا" "لأنطونيو" بالصعود إلى سطح مركبها، ويقال إنه ذهب منهاراً ومحبطاً إلى مقدمة المركب، حيث جلس وحيداً ممسكاً برأسه لفترة طويلة، فقد فهم أنه قد فقد كل شيء بسبب جبنه، أو بسبب أنانية "كليوباترا". بقى "أنطونيو" على هذه الحال لمدة ثلاثة أيام، ثم ذهب إلى "كليوباترا" فى اليوم الرابع.

لم يكن "الأوكتافيون" متعجلون لدخول مصر، مما سمح لأنطونيو بالتقاط أنفاسه، فاقترب من جديد من "كليوباترا"، وبدأ مرة أخرى فى ممارسة حياة السكر والعربدة.

بدأت "كليوباترا" تختبر أنواع السم المختلفة على السجناء، لأنها كانت ترغب فى موتة دون أن تتعذب، ولكنها وجدت أن كل السموم القوية تتسبب فى آلام شديدة. وفهمت أن لدغة الحية وحدها التى يمكن أن تميت دون ألم.

فى الوقت نفسه بعثت "كليوباترا" الرسل إلى "أوكتافيان" لكى يسمح لأولادها بحكم مصر بعدها، ولأن يسمح لأنطونيو بتمضية ما بقى من حياته بعيداً عن أى سلطة، فليكن ذلك فى اليونان على سبيل المثال. أجابها "أوكتافيان" برفض هذه الطلبات ونصحها بقتل "أنطونيو". كان "أوكتافيان" يرغب فى أسر "كليوباترا" حية وفى إحضارها إلى روما مقيدة بالأغلال على عربته للاحتفال بالنصر، أدركت "كليوباترا" ذلك بسرعة.

دخلت فى ذلك الوقت قوات الرومان مصر من الجانبين، فاستسلم جنود "أنطونيو" بالقرب من الإسكندرية دون أية مقاومة، وأصاب "كليوباترا" الرعب فاختبأت فى حجرة نومها مع اثنتين من خادماتها المحببات إليها وأرسلت لأنطونيو من أبلغه بموتها. هزه هذا الخبر الفظيع فقرر الانتحار، كان لديه عبد مخلص اسمه "إبروت" فطلب منه تحقيق رغبته الأخيرة. خلع "أنطونيو" رداءه، وأشاح العبد بالسيف كما لو كان سيضرب به سيده، ولكن عندما أدار الأخير وجهه جانباً ضرب العبد نفسه بالسيف ضربة مميتة وسقط عند قدمى "أنطونيو" ملطخاً بالدماء. قال "أنطونيو": "شكراً يا إبروت"، لأنك علمتنى ما علىَّ أن أفعله بنفسى بما أنك لم تستطع تنفيذ ما طلبته منك". طعن نفسه بالسيف فى بطنه وهو يقول هذه الكلمات وسقط، ولقد عاد "أنطونيو" إلى وعيه بسرعة، وهو يعانى من آلام مبرحة وطلب من خادمه التخليص عليه، ولكن لم يرغب أحد فى القيام بهذا العمل.

صاح "أنطونيو" وأصيب بالوجم عندما أخبروه أن "كليوباترا" على قيد الحياة وأنها ترغب في رؤيته. حُمل "أنطونيو" إلى باب حجرة نوم "كليوباترا"، ولكنها لم تفتح الباب، حيث خشيت أن يدخل معه إلى مخبئها جنود "أوكتافيان". أنزلت من نافذة الحجرة حبلاً تم ربط "أنطونيو" الذى كان يحتضر فيه، سحبت "كليوباترا" بمساعدة اثنتين من خادماتها "أنطونيو" إلى أعلى بصعوبة بالغة إلى حجرة النوم وهو ينزف بشدة، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة بين يدى "كليوباترا".

أرسل "أوكتافيان" أصدقاءه لإخراج "كليوباترا" من مخبئها واعداً إياها بالمحافظة على حياتها ومنحها حريتها، وفى أثناء تحدث أحدهم معها من خلال شبكة حديدية استطاع آخر أن يتسلل من خلال نافذة صغيرة، وألقى بنفسه على الملكة فجردها من سلاحها، وتم حبسها في القصر ووضع الحرس على باب حجرتها. مرضت "كليوباترا" بسبب كل ما عانته ورفضت في البداية تناول أية أدوية، ولكن تم تذكيرها بأن أبناءها في قبضة "أوكتافيان"، كسر ذلك عنادها وجعلها تستسلم لعلاج الأطباء وشفيت بسرعة، بل تمكنت من الحصول على موافقة لمقابلة "أوكتافيان"، زارها الرومانى الماكر لكنه لم يتمكن من خداعها، كانت تعرف مصيرها واستعدت للقاء الموت.

تظاهرت "كليوباترا" باستسلامها لقدرها وطلبت من "أوكتافيان" أن يتم عمل مراسم ملكية لدفن "أنطونيو"، ثم قامت بإعداد إفطار شهى واغتسلت وارتدت الملابس الملكية، ثم جلست إلى المائدة، عندئذ أحضر أحد الفلاحين سلة مغطاة بأوراق الشجر، عندما فتش الحرس السلة لم يجدوا بها إلا تيناً ناضجاً فلم يشكوا في شيء وسمحوا للفلاح بالمرور إلى حجرة "كليوباترا".

أمسكت "كليوباترا" سلة التين وأرسلت إلى "أوكتافيان" رسالة جهزتها مسبقاً منذ فترة طويلة وأقفلت على نفسها باب حجرتها بالقفل. فهم "أوكتافيان" عند تسلمه رسالة "كليوباترا" أن تخطيطه فشل تماماً، أراد في البداية الإسراع لإنقاذ "كليوباترا" بنفسه، ولكنه قرر بعد ذلك أن يرسل خدمه. حطم الخدم الباب واندفعوا داخل حجرة الملكة الأسيرة فرأوا أمامهم "كليوباترا" التى فارقت الحياة ترقد في مقصورة ذهبية مرتدية ملابس بيضاء ثمينة للإلهة "إيزيس" وتضع على رأسها تاجاً ذهبياً.

تبين أنه تم إحضار حية مع التين، فقد كانت الملكة ترغب فى أن تلدغها الحية فجأة عندما تمد يدها لتناول التين، ولكن الحية كانت تغط فى نوم عميق فى قاع السلة، ولم يكن عندها أية رغبة فى اللدغ، اضطرت "كليوباترا" إلى استثارتها باستخدام دبوس حتى لدغت الملكة أعلى رسغها، كما توجد قصة أخرى تقول إن "كليوباترا" انتحرت بغرس دبوس ذهبى مسموم.

تم بذلك تجريد "أوكتافيان" من أهم ما كان يخطط فى مراسم احتفاله بالنصر، فاستخدم فى احتفالات النصر فقط تمثالاً "لكليوباترا" مع حية تعض يدها بأسنانها، كما قرر "أوكتافيان" أن تدفن "كليوباترا" فى مراسم ملكية بجانب "أنطونيو". سلم مربى أطفالها كلاً من ابنها الأكبر الذى أنجبته من "قيصر" وكذلك ابنها الأول من "أنطونيو" وتم إعدامهما. أما باقى الأطفال فقد أخذتهم إلى بيتها أخت "أوكتافيان" زوجة "أنطونيو" "أوكتافيا" التى هجرها. أصبحت مصر إحدى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية ومن الممتلكات الخاصة لأول إمبراطور "أوكتافيان - أغسطس"، حدث ذلك فى عام ٣٠ قبل الميلاد.

* * *

تبين أن نير الرومان مالكى العبيد أشد من العهد اليونانى المقدونى، فقد تم سحق الحركات الشعبية فى مصر بقسوة (على سبيل المثال ثورة "بوكوليا" فى عام ١٧٢ قبل الميلاد). بدأ "أصحاب الأراضى الملكية" المحطمون فى التمسك بالأراضى فى القرن الثالث بعد الميلاد، وبدأ ينتشر نظام تأجير الأراضى لصغار المستأجرين، مما أدى إلى المساواة بين الفقراء الأحرار والعبيد، وبدأت المسيحية فى الانتشار فى عهد الروم فى مصر.

ولكن لم يعترف المسيحيون المصريون - الأقباط - ببابا روما، حيث إنهم كانوا يعتقدون فى أن كلاً من البداية الألوهية والإنسانية للسيد المسيح تكوِّن وحدة واحدة.

دخلت مصر ضمن الإمبراطورية الرومانية الغربية (البيزنطية) عند تقسيم الإمبراطورية الرومانية فى عام ٣٩٥ بعد الميلاد. كان العهد البيزنطى مرحلة فى تاريخ مصر، تم فيها استقرار النظام الإقطاعى فى مصر نهائيا واندثار الحضارة المصرية القديمة. أصبحت الديانة السائدة فى مصر فى القرن الرابع بعد الميلاد المسيحية، واستبدلت بالكتابة الهيروغليفية التى كانت تستخدمها مصر القديمة الحروف الأبجدية القبطية التى أدخلها المسيحيون. كانت التقاليد المصرية تحترم فى العهود التى سبقت العصر البيزنطى، ولكن تم هدم كل ذلك بمعرفة الحكام البيزنطيين على مدى قرنين ونصف قرن، تم هدم المعابد وتكسير التماثيل التى كانت تذكر بحضارة أربعة آلاف عام أو تم تحويلها إلى أديرة وكنائس مسيحية، استغلت بيزنطة مصر لأغراضها الخاصة متجاهلة تماماً مصلحة هذا البلد.

فتح العرب مصر فى سنة ٦٤١ ميلادية، وأعادوها مرة أخرى إلى الحضارة الشرقية.

هنا أيضاً لم تكن هناك أية فرصة عند المصريين للاختيار، كما حدث عندما فتح "الإسكندر المقدونى" مصر. بالطبع كان حكم العرب بالنسبة لهم أحسن كثيراً من حكم البيزنطيين القاسى والوحشى، قد يكون فتح العرب العالم الشرقى بنجاح تام نتيجة لأن الفتح تم دون إراقة الدماء وبطريقة سلمية، كانت حضارة العرب فى ذلك الوقت متقدمة بكثير عن حضارات الأمم التى فتحوها، بالطبع كانت هذه الحضارة مختلفة تماماً عن الحضارة المصرية فى بداية الفتح الرومانى، كانت مصر فى عام ٦٤١م. بلداً آخر تماماً، فقدت حريتها. منذ عام ٦٤١ حتى عام ١٥١٧ بعد الميلاد حكم مصر كل من "الأمويين" و "العباسيين" و "الطولونيين" و"الفاطميين" و "الأيوبيين" ثم "المماليك".

أصبحت مصر مقاطعة تركية منذ عام "١٥١٧م" حتى عام "١٨٠٥م"، بعد ذلك وفى أثناء حكم "محمد على" (١٨٠٥ – ١٨٤٩) كانت مصر تتبع سياسة انفصالية عن تركيا، ولكن منذ عام ١٨٤٩م وقعت فريسة لاستعمار جديد هو الاستعمار الإنجليزى الذى استمر حتى انتصار الثورة فى عام ١٩٥٢م .

الباب الثالث

صفحات مصرية فى تاريخ روسيا

من المعروف أنه بعد انهيار "الإمبراطورية البيزنطية" فى القرن الخامس عشر أخذت روسيا على عاتقها العناية بالديانة "الأرثوذكسية". بدأ الروس يتوجهون لزيارة الأماكن المقدسة فى شبه جزيرة سيناء التى كانت تدخل فى نطاق السيادة المصرية منذ زمن بعيد، على سبيل المثال كان أول روسى يزور أقدم دير على أرض سيناء "دير سانت كاترين" (فى عام ١٩٦٦ احتفل الدير بمرور ١٤٠٠ سنة على إنشائه) هو "الأرشمندريت جريفينى" (سنة ١٤٠٠) من مدينة "سمولنسك". بعد ذلك زار هذه المنطقة الشماس "زوسيما" قادمًا من دير "ترويتسى - سيرجيفوى". ونشر كتابًا فى مدينة "سانت بيترسبورج" فى روسيا أصبح دليلاً للحجاج الروس الذين سافروا إلى سيناء بعد ذلك يرتدون ملابسهم التقليدية وأحذيتهم الكبيرة وقمصانهم الحمراء، ويحمل كل منهم صرة بها أشياؤه على كتفه. هكذا وصف الرحالة الروسى "أ. إ. يلبسيف" فى عام ١٨٨٣ رفاقه الروس فى كتابه"الطريق إلى سيناء"، كان عشرات الآلاف من الروس يسافرون فى ذلك الوقت إلى الأماكن المقدسة متحملين المشقات والتعب، وكان بدو سيناء يستقبلونهم بالعطف وبالصداقة، بسبب هذا الإيمان الشديد بالله وبقواهم الخاصة.

كُتب الكثير عن العلاقة بين "الكنيسة الأرثوذكسية الروسية" وسيناء، وهى تمثل جزءًا بسيطًا من العلاقة بين حضارتين عظيمتين - الحضارة الروسية والحضارة المصرية . أهدت الأميرات الروسيات دير "سانت كاترين" غطاءً ذهبيا فى عام ١٨٦٠ ليوضع على التابوت فى مقبرتها. وفى عام ١٨٧١ أرسلن هدية أخرى تتكون

من تسعة أجراس مصنوعة من الحديد الزهر. كما يوجد العديد من الأيقونات الروسية بين الأيقونات الألفين التى يفخر بها الدير، والتى تمثل مدارس فن رسم الأيقونات المختلفة، منها أيقونة "السيدة العذراء الإفرية" وأيقونة "الله مالك كل شىء" التى رسمتها ريشة رسام الأيقونات الروسى العظيم "أندريه روبلوف"، كما تحتوى مكتبة الدير على ثلاثة آلاف وخمسمائة مخطوط وخمسة آلاف كتاب قديم، وقد اكتشف بين هذه الكتب أحد كتب " العهدين القديم والجديد" مكتوبًا باللغة اليونانية القديمة فى القرن الرابع عشر. فنسب اسم هذا المخطوط "لسيناء" التى عثر عليه بها، وتم إرساله بناءً على طلب روسيا التى تولت هذا الاكتشاف إلى "سانت بيترسبورج"، حيث تم نشره، ومنح الإمبراطور "ألكسندر الثانى" الدير مبلغ تسعة آلاف روبل مقابل ذلك.

نجد "الأثر الروسى" فى كنائس مسيحية أخرى، حيث إنها كثيرة فى مصر. على سبيل المثال يوجد عند مدخل الكنيسة الروسية فى الإسكندرية جرس ملكى ضخم وزنه ٤٠٠ بود (البود وحدة وزن تعادل ١٦كيلوجرام و ٣٠٠ جرام)، مكتوب على هذا الجرس : "تحت رعاية القيصر ومحافظ مدينة "نوفوروسيسك" الجنرال الكونت "ميخائيل سيمينوفيتش فورونتسوف" يهدى هذا التذكار الرنان "أرشيستروتيد ميخائيل" يوم ٢٥ شهر يونية، عام ١٨٣٨، مولانا الإمبراطور "نيكولاى الأول" هدية، تم صب الجرس من المدافع التركية مثل الأجراس المقامة فى الكنيسة المسيحية "إيسمايلسكايا".

تجب الإشارة إلى أنه بدأت فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين علاقات لا يمكن نسيانها بين مصر وروسيا، فقد حضر بلا استثناء إلى مصر كل سفراء روسيا الذين اعتمدوا فى ذلك الوقت فى الإمبراطورية العثمانية، الكونت "نيكولاى بافلوفيتش إيجناتييف" سفير فوق العادة لروسيا فى أعوام ١٨٦٤-١٨٧٧ ، ثم حل محله فى الفترة من ١٨٧٨ إلى ١٨٧٩ الكنياز (دوق بالروسية) "أ.ب. لابانوف - روستوفسكى". أما فى أعوام من ١٨٧٩ إلى ١٨٨١ جاء "إ.ب. نوفيك وف". أما فى الفترة من عام ١٨٨٢ حتى ١٨٨٧ فقد كان سفير روسيا المفوض فوق العادة فى تركيا "أ.إ. نيليدوف". أما فى الفترة

من ١٨٩٨ إلى ١٩٠٨ فكان "إ.أ. زينوفييف". كان كل هؤلاء من رجال الدولة قد وجهوا نظر قيصر روسيا إلى البلد البعيد "مصر"، ولكن القريب إلى القلب، والذى كان يمر بفترة قاسية ليست الأحسن فى تاريخه. كان الدبلوماسيون الروس المنفذون لرغبة القيصر المباشرة فى بلد الأهرام الذين تم اعتمادهم بها هم : المستشار "أ.إ. ليكس" القنصل العام لروسيا فى مصر منذ عام ١٨٦٦ حتى ١٨٨٢ ، وقبله كان"أ.إ. لاجوفسكى" من عام ١٨٦٢ إلى ١٨٦٣، ثم فى الفترة من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٦ "ف.ن. خيتروفو"، ومنذ عام ١٨٨٧ حتى ١٩٠٢ رأس الدبلوماسيين مستشار الدولة الأول "ب.ب.ماكسيموف"، ومنذ أبريل ١٩٠٥ مستشار الدولة "أ.أ. سميرنوف" الذى مثل مصالح روسيا فى مصر حتى نهاية عام ١٩٢٦ .

تعبر تركيبة البعثة الدبلوماسية الروسية فى مصر عن اتساع العلاقات الدبلوماسية، فى عام ١٩٠١ كانت الصورة كما يلى : وكالة وقنصلية عامة فى القاهرة (١٦ شارع عماد الدين)، ونائب قنصلية فى القاهرة أيضًا (٢ شارع المغربى)، وقنصلية فى الإسكندرية (٦٨ شارع رشيد). وبالإضافة إلى هاتين الهيئتين الرئيستين كان هناك قنصل فى بورسعيد (فى عام ١٩٠١ كان "جنريخ برونى")، ونائب قنصل فى السويس (نيقولاس كوستا)، ونائب قنصل فى دمياط (سلامة رازوق)، ورئيس فرع قنصلية فى المنصورة (عزيز جريس)، ورئيس وكالة قنصلية فى الزقازيق (بازانيللا)، ووكالة قنصلية فى طنطا (إسكندر عبد الله)، وفى أسيوط (إليا بشاى)، وفى جرجا (سرجيوس بطرس)، وفى يونا (بقطر بشارة)، وفى قنا (أ. ستيفانوس)، وفى الأقصر (السيد عياد)، وفى سوهاج (جرجس بك بطرس)، وفى بنى سويف (عازر روفائيل)، وفى المنيا (بشرى حنا).

مكنت هذه الشبكة لهيئات التمثيل الروسية الرسمية من توسيع وتعميق علاقات روسيا فى مصر بنشاط كبير، وأصبحت بالتدريج معروفة.

لم يتجه إلى مصر فى ذلك الوقت كبار رجال الدولة من حاشية القيصر فقط، ولكن أيضًا شخصيات من المجتمع الروسى ومن السائحين والحجاج، فعلى سبيل

المثال في نوفمبر عام ١٨٩٠ زار مصر ابنا القيصر "ألكسندر الثالث": "نيكولاى" (الذى أصبح فيما بعد قيصر روسيا اعتباراً من ١٩٨٤)، وجيورجي.

وصلا إلى بورسعيد على السفينة "بأميات أزوفا"، ثم سافرا إلى الإسماعيلية عن طريق قناة السويس، ومنها توجها إلى القاهرة. وقد مكثا فى العاصمة المصرية حتى ١٤ نوفمبر، ثم زارا بعد ذلك الأقصر وأسوان، وعاد إلى السويس ثانية فى ٢٧ نوفمبر.

ثم زار مصر فى عام ١٨٩٨ أخو "ألكسندر الثالث"، وفى العام نفسه زار روسيا الشاب الذى أصبح فيما بعد الخديو "عباس حلمى (الثانى)"، ومعه شقيقه "محمد على" بناءً على دعوة من القيصر. وفى صيف عام ١٩٠٠ زار "عباس الثانى" مدينة أوديسا، أما فى عام ١٩٠٩ فقد عبر الأمير "محمد على" كل روسيا فى طريقه إلى اليابان مستخدمًا طريق "ترانس سيبيريا"، وفى صيف عام ١٩١٠ قام برحلة إلى وسط آسيا والقوقاز.

أدت العلاقات السياسية النشطة ومن بعدها العلاقات التجارية مع مصر إلى جذب انتباه الأدباء والفنانين الروس إلى مصر، (هنا يكفينا التذكير بإحدى الشركات المساهمة الروسية الكبيرة للنقل البحرى والتجارة، التى تم تأسيسها فى عام ١٨٥٦ ولعبت دوراً كبيراً فى تنمية العلاقات التجارية والاقتصادية مع مصر، خاصة أن هذه الشركة كانت تملك خطين للاتصال السريع بمصر وخط سكة حديد وسفن). يمكن أن نستدل على ذلك من مؤلفات "بوشكين"، و "ليرمنتوف"، و "جريبايدوف"، و "دوستويفسكى"، و "دوبرولوبوف"، و "جومتشاروف"، و "تولستوى"، و "تشيخوف"، والعديد من الكتاب والشعراء والصحفيين والعلماء وصفوة رجال المجتمع الآخرين، فى القرن التاسع عشر. وقد انتشرت الأعمال والمذكرات المختلفة عن الرحلات إلى مصر فى الجرائد والمجلات المختلفة مثل "مذكرات وطنية"، و "الإنسان المعاصر"، و "نشرة بحرية"، و "مقدم الأخبار الروسى"، و "مكتبة للقراءة"... إلخ.

وقد درس الروائى الشهير "ليف تولستوى" فى جامعة "كازان" بقسم "الأدب العربى - التركى" وتعلم اللغة العربية وتاريخ إفريقيا، وتعرف على كتب عن الشعوب العربية

وتاريخهـم وثقافتهم، ولم يعجب "تولستوى" كتاب "رحلة حول العالم" - تأليف الفرنسى "جاك أراجو" - الذى أحدث دويا عند نشره فى ذلك الوقت (١٨٤٤ - ١٨٤٥)، حيث لم يلمس الروائى الروسى فى هذا العمل "الاحترام المستحق لشعوب الشرق"، ولم تعجبه أبدًا رحلة "أراجو"، وكتب فى مذكراته "إنها مشبعة بالثقة بالنفس الفرنسية فى كل جوانبها العلمية والأخلاقية"، فإن الكاتب الفرنسى كان مولعًا بما هو غير مـألوف، ولكنه لم ينظر فى عينى أى مصرى؛ لذلك فقد تم انتقاده فى بلد الأهرام أيضًا .

فيما بعد عرف عن المراسلات بين كل من "ل.ن. تولستوى" والشخصية المصرية المرموقة ، المفتى الأول لمصر "الشيخ محمد عبده" الذى تزعم فى الفترة الأخيرة من حياته تيار التحديث المتعلق بتجديد مفاهيم الإسلام، ففى ربيع عام ١٩٠٤ انزعج الشيخ "محمد عبده" من طرد "تولستوى" من الكنيسة فأرسل له خطابًا وصله فى مقره "ياسنايا بليانا" قيَّم فيه فلسفة "تولستوى" تقييمًا عاليًا وحدثه عن تأثيره الكبير على "كل المثقفين". رد عليه "تولستوى" فى ١٣ مايو ١٩٠٤ بخطاب طويل أوضح فيه الأسس التى يبنى عليها آراءه، وقد سره التعامل مع شخصية مثقفة من الشرق العربى مثل الشيخ "محمد عبده" الذى كان - كما يرى "تولستوى" - يؤيد المثل الإنسانية نفسها التى كان يؤيدها الأديب الروسى. كان "تولستوى" مهتما بالحركة "البابية" بين العرب؛ فطلب من الشيخ "محمد عبده" أن يكتب له عن هذه الحركة، ولكن لم يصل له أى رد، حيث إن الشيخ "محمد عبده" توفى بعد ذلك بفترة قصيرة فى عام ١٩٠٥ .

كذلك زار الشاعر الروسى الشهير "ن.س. جوميليف "مصر عدة مرات (أعوام ١٩٠٨، ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٣)، وكتب عنها الكثير من الأشعار صدرت فى دواوينه المختلفة : "الشعلة" (١٩١٨)، و"الخيمة" (١٩٢١)، و"أشعار رومانسية" (١٩٠٨)، وقد تم نشر العديد من أشعاره التى تتحدث عن مصر فى الجرائد المصرية مثل "الضبع" (فوق عيدان قصب النيل البطىء....)، و"عدوى" (تقترب المركب من القاهرة...).

يمكن أن نتذكر أيضًا عالم المصريات "فلاديمير سيميونوفيتش جولينيشيف" (١٨٥٦ - ١٩٤٧)، يعتبر من النجوم التى تحتل المكانة الأولى فى علم المصريات، فبعد مرور أكثر من خمسين عامًا على وفـاة "فلاديمـير سيميونوفيتش" فى مدينـة "نيس"

فى فرنسا فى ٩ أغسطس ١٩٤٧، ما زال هذا العالم يعتبر أعظم الخبراء المتميزين فى اللغة المصرية القديمة، وقد كتب "جولينيشيف" أكثر من خمسين عملاً علميا، أغلبها ترجمات لوثائق مصرية قديمة وتعليقات عليها. وقد أسس قسم "علم المصريات" فى جامعة القاهرة حيث تلقى العلم الكثير من العلماء العظام، وتمثل المجموعة المعروضة بالقاعة المصرية فى "متحف بوشكين" فى موسكو تقريبا مائة فى المائة من المقتنيات الخاصة "بجولينشيف".

و قد كتب العالم الفرنسى "سان فار جارنو" وهو يتحدث عن "فلاديمير سيميونوفيتش" : "هل يوجد أحد آخر من علماء المصريات اكتشف ونشر وترجم مثل هذا العدد الكبير من الأعمال المتميزة ؟ هل يوجد أحد آخر من علماء الآثار أو من حماة المتاحف يمكن أن يعتبر أكثر اطلاعًا، أو يتمتع بخبرة أكبر فى جمع المقتنيات مثل هذا الخبير فى علم الكتابات المنقوشة؟". ومن الجدير بالذكر أن "جولينيشيف" قد أورث العالم الفرنسى "جارنو" أرشيفه الخاص، وبعد وفاة "جوليشيف" تم نقل هذا الأرشيف إلى باريس، حيث أصبح نواة معهد الأبحاث المعروف باسم "فلاديمير جولينيشيف".

ولكن كان هذا الإنسان معروفًا فى وطنه فى وسط العلماء فقط. وكان السبب فى ذلك أنه قد تزوج فرنسية قبل قيام الحرب العالمية الأولى، وانتقل للسكن فى "نيس" بفرنسا، من مدينة "بيتربورج"، حيث كان مسئولاً عن مجموعة معروضات مصر القديمة بمتحف "الإرميتاج". ولم يرجع أبدًا إلى روسيا بعد الثورة ولو مرة واحدة لأنه أصبح مهاجرًا، ولم يكن ينشر فى بلدنا أى شىء عن المهاجرين إلى وقت قريب، حتى لو كانوا من المشاهير.

لقد كان "جولينيشيف" محظوظًا فى حياته، حيث إنه كان غنيا، فقد كان والده من تجار مدينة "تساركوسيلسكى" وترك له ثروة ضخمة؛ لذلك كان "جولينيشيف" يستطيع إن ينشغل بأى عمل دون أن يقلق على طعام يومه. وقد استهوته مصر القديمة منذ أن كان عمره أربعة عشر عامًا، كان يسافر تقريبًا كل عام إلى مصر، وجمع مقتنياته العظيمة على نفقته الخاصة، حتى إنه عمل فى "الإرميتاج" دون مرتب، ولكن فجأة

أفلست عائلة "جولينيشيف" فى عام ١٩٠٧، فلم يكن أمامه إلا مخرجٌ واحدٌ هو : بيع مقتنيـاته. عندئذ توجه العلمـاء العظام بطلب إلى القيصر لشراء مقتنيات "جولينيشيف" (أكثر من ستة آلاف قطعة) لتكون ملكًا للدولة، ولكن لم تتوفر نقود كافية لذلك، وبعد الكثير من المناقشات التى استمرت لمدة عامين وجد مخرجًا مناسبًا للطرفين يتلخص فى نقل ملكية مجموعة المقتنيات للدولة، على أن تقوم الأخيرة بدفع ٢٤ ألف روبل سنويا لصاحبها. وعندما تم افتتاح معرض الفنون الجميلة (المعروف الآن باسم متحف بوشكين) فى موسكو فى عام ١٩١٢، أصبحت مجموعة مقتنيات "جولينيشيف" هى أبرز زيناته.

كتب عن ذلك بحماس شديد الصحفى المستعرب "فلاديمير بلياكوف" فى جريدة "ترود" (العمل) فى ٢٨ أغسطس ١٩٩٧ فى مقالته "كتابات على الصخور".

وقد زار "بليـاكوف" وادى الحمامات فى عام ١٩٩٧، وهو عبارة عن وادٍ ضيقٍ بين الجبال فى الصحراء الشرقية المصرية، حيث كان الفراعنة فيما مضى يشكلون التماثيل والتوابيت من البازلت الأسود مخلفين كتابات مختلفة على قطع الحجر تتحدث عن ذلك. كان "جولينيشيف" يرأس بعثة علمية فى عام ١٨٨٤، وتمكن من فك شفرة هذه الرسائل الحجرية التى تركها الأجداد مما أكسب هذا الروسى شهرة عالمية.

يشهد تفاعل المصريين مع أحداث ثورة عام ١٩٠٥ فى روسيا على قوة الروابط المصرية - الروسية فى بداية القرن العشرين، فقد ظهر خبر "ثورة فى روسيا" فى كل الجرائد تقريبًا، حيث تمت تغطية أحداث عام ١٩٠٥ بالتفصيل. وقد تم جمع التبرعات فى كل من القاهرة والإسكندرية "لضحايا الاضطرابات فى روسيا". وفى هذا العام ١٩٠٥ نفسه، تم تأسيس لجنة فى مصر "لمساعدة ضحايا الاضطرابات فى روسيا"، جمعت ١٦٠٠ جنيه إسترلينى فى الفترة حتى بداية عام ١٩٠٧ ، تم إرسال ١٠٠٠ جنيه منها إلى الصندوق المركزى فى لندن، وخصصت ٦٠٠ جنيه للقادمين إلى مصر مطرودين من روسيا. فى خلال أعوام الثورة الروسية الأولى تم فى مصر إنشاء لجنة "من أجل روسيا الحرة"، و "الصندوق الروسى للمساعدة المتبادلة"، ولجنة "خزينة التضامن مع المهاجرين الروس". وقد نظمت هذه اللجان حفلاتٍ و "ياناصيب" وعروضًا مسرحية

خيرية لجمع التبرعات. وبلغ حجم التبرعات رقماً كبيراً، فطبقًا لخبر جريدة "مورننج بوست" في الإسكندرية، فقد تم جمع مبلغ ١٦٠٠ جنيه إسترليني في حفل خيري واحد في أغسطس ١٩٠٦ ، كما نظمت اجتماعات للتضامن منها اجتماعات نظمت في يومي ١٩ و٢٠ يناير ١٩٠٥ في الإسكندرية شارك فيها أكثر من خمسة آلاف فرد. وقد احتجت المظاهرات على تسليم الثوار الروس المهاجرين للقنصلية الروسية، ثم تم حرق العلم الملكي والقيصري عند سفارتي بريطانيا وروسيا، وقد استخدمت القوات العسكرية وقوات المطافئ لتفريق المتظاهرين، وعلى الرغم من ذلك ففي يوم ٢٧ يناير ١٩٠٧ تم إرسال عدد من المقبوض عليهم على متن السفينة "كورنيلوف" من "بورسعيد" إلى روسيا في سرية تامة.

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن وجود الجالية السياسية الروسية استمر في مصر، على الرغم من عمليات المطاردة والترحيل، ويشير إلى ذلك على وجه الخصوص ما جاء في مذكرات "ليسا أوكرايينكي" (الشاعرة الأوكرانية المشهورة) التي أقامت لمدة ثلاث سنوات في حلوان (١٩١٠ - ١٩١٢). وقد نشطت في مصر في الفترة ١٩١١ - ١٩١٤ نقابة بحارة أسطول البحر الأسود التجاري "رجيستراتسيا"، والتي احتجت على القبض على رئيسها "م. أداموفيتش"، وقد لقي ذلك تأييداً من المجتمع المصري، حتى إنه صدرت جريدة "مورثاك" الناطقة باسم هذه النقابة في الإسكندرية. ولكن على الرغم من استمرار إقامة الثوار الروس أو ممثلي المجتمع الديمقراطي الروسي في مصر، فقد كان تأثيرهم على حركة التحرير الوطنية في هذا البلد محدوداً، كما أن تأثير ثورة ١٩٠٥ لم يكن مدويا، كما يقول بعض الباحثين. وقد كتب عضو الحركة الشعبية الروسي "س.ى. إيلباتفسكي" الذي زار مصر في عام ١٩٠٦، يقول : "أنا أعرف كم كان هناك تأثير قوي لعاصفة الثورة الروسية على مصر، وعلى كل الشرق". ولكن للأسف كانت رغبته أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن لم يكن الوضع على هذا الشكل في حقيقة الأمر، لقد وجدت دون شك علاقات بين المجتمعات الديمقراطية والتحررية في البلدين، وقد ظهر ذلك بوضوح في القرن التاسع عشر، واستمر من كانوا يديرون أمور الحكم، يتابعون بدقة مناخ السياسة الكبرى، وقد شاركت الجيوش المصرية في "حرب القرم"

ضد روسيا (١٨٥٣ - ١٨٥٦) وفى الحـرب الروسيـة - التركية (١٨٧٦ - ١٨٧٧)، وقد عمت السعادة فى مصر عند هزيمة روسيا فى حربها مع اليابان فى عام ١٩٠٥ . كانت هذه معركة ضد قوة عظمى، معركة الشرق ضد الغرب، وقد انحازت روسيا فيها إلى الجانب الغربى، وقد كان ذلك جنوحًا زائدًا لروسيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

فى الوقت نفسه استقبلت مصر العديد من السياسيين ورجال الثقافة والعديد من السفراء الروس الذين - دون شك - أثروا بشكل ما على ما كان يحدث فى هذا البلد، فقد استقبل بتقدير كبير المغنى الروسى العظيم "ف.إ. شاليابين" فى مارس - أبريل عام ١٩٠٣ ، وقد كتب "ن.أ. سوكولوف" عن ذلك فيما بعد فى عام ١٩١٤ ، ولكن تبين كذلك أن "ف.إ. شاليابين" جاء إلى مصر مرة أخرى فى عام ١٩٣٣ كما ذكر "ف. بلياكوف" فى عام ١٩٩٤ فى كتابه الرائع عن الروس فى مصر "على أثر السفينة بيريسفيتا"، فإذا كان الروس سافروا إلى مصر فى القرن التاسع عشر للتمتع بسحر الشرق، فإنه بعد ثورة ١٩٠٥، وخاصة بعد ثورة ١٩١٧، قد أصبحت مصر وطنًا لكثير من الروس.

بدأت أول مجموعات من المهاجرين الروس فى الوصول إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٩١٩، وتم إسكانهم فى مدينة من الخيام فى "التل الكبير" فى منتصف الطريق بين القاهرة والإسماعيلية، وقد عاشت فى هذا المعسكر ابنة المؤلف الشهير "أ. شيريكوف" منذ شبابها، وكتبت فيما بعد عن ذلك كتابًا كاملاً. وفى العشرينيات من القرن الماضى نقلت قوات الاحتلال الإنجليزى مكان إقامة المهاجرين الروس، فتم إسكانهم فى ثكنات خشبية فى منطقة "سيدى بشر" شرق مدينة الإسكندرية. كان هذا المكان عبارة عن مدينة كاملة لسكن رجال الجنرالين الروسيين "دنيكين" و "فرانجل"، الذين عاشوا خلف سور من الأسلاك الشائكة. وقد علق سكان المعسكر علم روسيا المكون من ثلاثة ألوان على مدخله، وتم تحويل مبنيين إلى كنيسة، وأنشئت ثلاث مدارس وصالة ألعاب رياضية ومسرح، وتم تكوين فرقة موسيقى خفيفة، وفريق غنائى مكون من أربعين فردًا قدم حفلاته فى الإسكندرية، كما وجدت "دار حضانة" خاصة، وفريق من الكشافة، بل إنه تم أيضًا إصدار مجلة "ناتشوجبينى" (أى فى الغربة). وقد صفى الإنجليز المعسكر الروسى فى "سيدى بشر"

فى مايو ١٩٢٢، وعاد عدد من الروس (نحو ١٣٠) إلى روسيا فى نهاية عام ١٩٢٠ . أما الآخرون فقد استقروا فى مصر وانصهروا فى الحياة المحلية. كانت مجلة "زا تشوجينى" تعتبر سجل يوميات تاريخية، كتب فيه عن كل المناسبات السعيدة وغير السعيدة للمستعمرة الروسية، وعلى سبيل المثال فقد كان العرض الأخير فى فى مسرح "سيدى بشر" مسرحية "كفيتكو - أسنوفانينكو" المسماة " عسكرى المراسلة شيلمنكو - دينشيك"، والتى عكست الحالة النفسية للمستعمرة.

استقر المهاجرون الروس الذين تركوا معسكر "سيدى بشر" فى القاهرة وفى الإسكندرية وفى بورسعيد. وقد تجمعوا فى القاهرة حول القنصل العام الروسى السابق "أ.أ. سميرنوف" الذى امتنع عن خدمة السلطة السوفيتية ورفض تنفيذ أوامر "اللجنة الشعبية للعلاقات الخارجية"، فتم طرده من وظيفته فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، وبعد حصول مصر على الاستقلال الصورى فى ٦ أكتوبر ١٩٢٣ قررت القاهرة عدم الاعتراف بالمثليات الدبلوماسية والقنصلية الروسية السابقة والتوقف عن دفع الراتب الشهرى "لسميرنوف" وأعوانه، ولكن بقى "أ.أ. سميرنوف" حتى موته الزعيم غير الرسمى "للمستعمرة البيضاء" الروسية فى مصر.

تم فى عام ١٩٢٨ إنشاء مكتب لشئون المهاجرين الروس فى وزارة الداخلية المصرية، وقد رأس هذا المكتب أحد رجال "أ.أ. سميرنوف" العقيد السابق فى جيش القيصر "سكورياتن"، فقد المهاجرون الروس جنسيتهم، وتم إعطاؤهم بطاقات شخصية خاصة، وسمح لهم بالحصول على الجنسية المصرية، ولكن بقى عدد قليل منهم مواطنين مصريين، لأن الكثير منهم توفوا قبل الستينيات أو سافروا إلى أوروبا، حيث أصبح من الممكن فى نهاية القرن العشرين اعتبار أنه ليس هناك وجود للمستعمرة الروسية.

أما فى الإسكندرية فقد تجمع الروس حول ممثلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية والقنصلية العامة التى احتلت حيًا كاملاً فى وسط المدينة، عمل الكثير منهم أطباء وموظفين بالميناء وفى المطاعم وسائقى سيارات أجرة، وقدم بعضهم عروضًا فى النوادى الليلية أو كونوا فرقًا فنية جوالة حتى توفوا.

على أية حـال عاش فى مصر عدد من المبدعين الذين لم يمكنهم الاستـفادة من مواهبهم فى روسيا، كان أحدهم الرسام "إيفان بليبين" الذى حضر إلى مصر من ميناء "نوفوروسيسك" على متن السفينة "ساراتوف". كان قد بلغ فى ذلك الوقت خمسًا وأربعين سنة، حصل على مبلغ مقدم من أحد اليونانيين الأغنياء واستأجر منزلاً فى وسط مدينة القاهرة وبدأ يعمل، كان يسافر إلى مختلف أنحاء بلد الأهرام فى فترات الراحة، ثم انتقل فى صيف ١٩٢٤ للسكن فى الإسكندرية، وفى يناير ١٩٢٥ نظمت له جمعية "محيى الفن" معرضًا خاصـا له ولزوجته الفنانة "أ.ف. شيـخوتيـخينايا - بوتوسكايا". وقد ذهبت تقريبًا كل الأعمال التى عرضت فى هذا المعرض إلى أمريكا وإلى اليونان ، كما ذكر "م.ن. بوتوسكى" ابن "إيفان ياكوفليفيتش" بالتبنى فى كتاباته فيما بعد. وقد قدمت الصحافة السكندرية لهذا المعرض تقييمًا كبيرًا ، وكانت ضمن الأعمال التى نفذها "بليبين" فى مصر "بانوهات" زخرفية فى قصور اليونانيين الأغنياء، بالإضـافة إلى المناظر الطبيعية والبورتريهات، كما كان يرسم رسومًا للزخرفة وملابس لفرقة الباليه الخاصة بالبالرينا المشهورة "أنا بافلوفا"، والتى قدمت عرض باليه "ن.ن. شيريبنينا" الشهير "قصة روسية" على مسرح أوبرا القاهرة. وفى أغسطس عام ١٩٢٥ انتقلت عائلة "بليبين" من الإسكندرية إلى باريس بعد قيامها بجولة طويلة أخرى فى صعيد مصر، وقد قام "بليبين" برسم عدة أيقونات للكنيسة الأرثوذكسية السورية بالإسكندرية ولكنيسة البشارة بناءً على طلبيهما على سبيل الوداع، ونقش على هذه الأيقونات الحروف الأولى من اسمه ورمز ورشته الذى يمثله ميزان.

وقد حفظ الخطاب الذى كتبه لأحد أصدقائه فى عام ١٩٢١، فقد كتب من القاهرة لباريس "أحيانا أشتاق جدا للسفر إلى روسيا.. لقد أصبحت وطنيا جدا أكثر من أى وقت مضى، عندما شاهدت كل حاملى مشعل الحضارة ، هؤلاء الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين، فقد بدأنا الآن فقط ندرك كم خسرنا...". ويبدو أن هذا الفنان بدأ رحلة العودة إلى وطنه بهذا الإحساس بالمرارة، وقد وصل فى ١٦ سبتمبر إلى ميناء" لنينجراد" على السـفينة "لادوجا"، وبعد ست سنوات مات هنـاك فى أثنـاء حصـار الفاشـيست لهذه المدينة.

مما لاشك فيه أن الروابط بين الأدباء والمفكرين والفنانين والشعراء فى كل من روسيا ومصر قديمة وراسخة بدرجة كبيرة، وهى تثرى كلاً من الثقافة الروسية والعربية، وقد سردنا هنا فقط بعض الأمثلة التى تؤكد ذلك. ولكن يوجد مجال آخر ظهر فيه هذا التفاعل بتميز خاص ومفيد، هذا المجال هو التقاليد الموسيقية فى الثقافة الروسية والمصرية، فمدرسة الموسيقى العربية معروفة فى روسيا لمجتمع عريض من المستمعين منذ زمن "الاستشراق الموسيقى" عن طريق معالجتها فى إبداعات المؤلفين الموسيقيين الروس، وقد دخلت مكوناً مهما فى "التوجه الموسيقى" الذى ساد فى الثقافة الموسيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، فقد استخدم المؤلفون الموسيقيون الروس "أ.ب. بورودين"، و "م.أ. بالاكيريف"، و "ن.أ. ريمسكى – كورساكوف" وغيرهم مواضيع من الأدب العربى وألحاناً غنائية منفصلة تعاملوا معها بأسلوبهم، ولكن على أية حال فقد بقيت هذه الأعمال فى إطار الموسيقى الغربية عند الشرق، على الرغم من أنها تتمتع بخصائصها المميزة. بعد ذلك وفى فترة تكوين مدرسة التأليف الموسيقى القومية المصرية ساعدت الأعمال المماثلة للسيمفونيات الشعرية لـ "ريمسكى كورساكوف" منها "عنتر" و"شهرزاد" على التعامل مع كتابات الموسيقى الروسية.

وقد ظهر فى مجال الاستشراق الموسيقى مظهر أسطورى جميل للموسيقى العربية تم تزويقه بالأسلوب الأوروبى بعيداً عن نغمته الأصلية، ولكنه مفهوم لكثير من المستمعين. لم توجد فى هذه الموسيقى شبه العربية فروق فى التقاليد أو البلاد، ولكن يحظى الشكل العام للموسيقى العربية، على الصورة التى يراد سماعها عليها من ناحية المبدأ، بشعبية وقبول. كانت الطريقة الأخرى للتعرف على الموسيقى العربية عن طريق الكتابات، تم ذلك فى الغالب بواسطة النوتة الموسيقية للموسيقى العربية والتى قام بها الرحالة والمؤلفون الموسيقيون والعسكريون الذين حضروا إلى مصر وإلى الدول الأخرى فى الشرق الأوسط. وصلت بهذه الطريقة المعلومات الأساسية للعلم الوليد للموسيقيين الروس المستعربين، وكذلك للمؤلفين الموسيقيين الروس، وعلى سبيل المثال سافر الباحث الموسيقى الروسى "ألكسندر خريستيانوفيتش" فى الستينيات فى

القرن التاسع عشر إلى شمال إفريقيا، ثم نشر كتابه "كروكى تاريخى للموسيقى العربية القديمة" ضمنه رسومات للأجهزة الموسيقية وأربعين نوتة للألحان تمت معالجتها بمعرفته، وقد سبقت هذا العمل الروسى الدراسة التى قام بها الموسيقى الفرنسى "سلفاتور دانييل"، وقد استخدم كل من "أ.ب. بورودين"، و "ن.أ. ريمسكى - كورساكوف" ألحانه بنجاح، ولكن كانت لهذه الصلة قيمة غير مباشرة للربط الواسع بين الموسيقى العربية والروسية.

أصبحت العلاقة الدينية أهم من ذلك، فقد أرست مناطق روسيا التى اعتنقت الإسلام فى الفترة من القرن التاسع إلى القرن التاسع عشر، تقاليدها الخاصة التى أثرت على الثقافة الموسيقية، وأصبح أتباع هذه العقيدة يحصلون على التعليم الدينى فى مصر، وأصبح أسلوب التجويد المصرى فى قراءة القرآن منتشراً فى روسيا.

لذلك فإن جذور العلاقات الروسية المصرية ترجع إلى ماضٍ بعيدٍ لكل من البلدين، وهذه العلاقات تشمل الجوانب السياسية والاقتصادية والروحية التى لم تنقطع أبداً، بل حصلت على دفعة جديدة فى عام ١٩٤٣ عندما بدأ الاتحاد السوفيتى علاقة دبلوماسية مع مصر الحرة، وقد بلغت هذه العلاقة أقصى مدى لها بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ على النظام الملكى، ووصول الضباط الأحرار إلى الحكم بزعامة "جمال عبد الناصر".

وعلى سبيل المثال فقد دافع "الخولى أمل متولى حميد إبراهيم"، وهو شخصية عامة معروفة، فى عام ١٩٩٥، عن رسالة للدكتوراه موضوعها "التحول الثقافى فى مصر والعلاقات السوفيتية - المصرية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٩)" فى معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية، وقد قدم فى هذه الرسالة دراسة عميقة لدور ممثلى الثقافة الروسية فى تأسيس وتطوير السيرك والباليه المصرى والاتجاهات الوطنية الأخرى.

ومما لاشك فيه أن عناصر التحديد الطبقى وتأثير النظرة السياسية الاجتماعية وظهور النظرة الشخصية، قد أعاقت ممثلى المجتمع الروسى عن تقبل وتحليل الواقع الشرقى، وتمييز الخيال الشرقى عن الواقع. ولكن بشكل عام يمكن أن نؤكد على وجود الديمقراطية والمجتمع الثقافى الروسى، بالإضافة إلى مساندة المضطهدين والاحتجاج على الظالمين والذى وصل، كما يؤكد "ليف تولستوى" ورواد الثقافة الروسية، إلى التضامن الكامل، ومساندة الشعوب الشرقية فى معركة التحرير. ويعتبر التقييم العالى للحضارة العربية مهما، وخاصة المصرية، وما أضافته إلى كنوز الحضارة العالمية من خصائص التعامل والتلامس مع الشرق والعالم العربى ومع الحضارة المصرية الممتدة إلى عدة قرون طويلة.

الباب الرابع

على طريق الحجاج الروس

تظهر شبه جزيرة سيناء من أعلى كما لو كانت محشورة بين قارتين ضخمتين، آسيا وإفريقيا اللتين تبدوان مثل جبلى ثلج كبيرين لكنهما من الأرض، تطفوان على محيط من البلازما السائلة الحارقة، التى تضم مركز الكوكب، وتكاد تحتكان بعضهما بالبعض. قد يكون هذا هو السبب فى شكل سيناء التى تحتل مساحة ٢٥ ألف كيلومتراً مربعاً ، تضغط كتل أرض القارتين بقوة على سيناء حيث تدفعانها إلى أعلى، أما رمال صحراء شبه الجزيرة العربية فتغطى منخفضات وشروخ شبه الجزيرة.

وقد وصف أجدادنا سيناء بالذات، تلك الخمسة والعشرين ألف كيلو متر مربع الصحراوية، بأنها بوابة توصل إفريقيا بآسيا، وجسر بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وطريق مباشر من أوروبا إلى المحيط الهندى وإلى جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى.

لعبت شبه جزيرة سيناء منذ زمن بعيد دوراً مهما فى الاتصالات الدولية، فمنذ القرن السادس عشر قبل الميلاد أنشأ الفراعنة طريقًا من "شور" إلى "برشيبا" و"أورشليم"، ثم بنوا طريقًا سريعًا عبر سيناء ربط وادى النيل ببلاد ما بين النهرين، ثم اشتركت بعد ذلك "الإمبراطورية الرومانية" مع "المملكة النبطية" فى إصلاح هذا الطريق الذى لعب دوراً كبيراً فى استيلاء الرومان على أرض الأنباط وتحويلها إلى ضاحية "العربية"، بعد ذلك أطلق العرب على هذا الطريق اسم "درب الحج" أى طريق الحجاج إلى مكة.

أرض شبه جزيرة سيناء ليست متجانسة، فالجزء الشمالى الممتد من العريش إلى قناة السويس عبارة عن صحراء مستوية استحقت "مجدًا حزينًا" لكونها مسرحًا تاريخيا للعمليات الحربية، وقد ارتجت هذه الأرض من جيوش الفراعنة المصريين والسوريين والفرس واليونانيين والعرب والأتراك وجيوش الغزاة الآخرين، ثم بعد ذلك فى القرن العشرين من الحروب العربية الإسرائيلية.

الجزء الأوسط من شبه جزيرة سيناء "هضبة التيه" عبارة عن جبال حجرية مستوية محفور فيها مجارى ماء جفت منذ زمن بعيد، ولا توجد بها مياه، ويسكنها عدد قليل من السكان.

أما الجزء الجنوبى فكثير من معالمه تذكرنا بسطح القمر. تتكون سلسلة الجبال الشامخة "الأجمة" ذات القمم الحادة من الجرانيت، ومن أحجار أخرى صلبة، يعتبر كل من "جبل موسى" (ذكر فى الكتاب المقدس باسم جبل "حورف"، ويبلغ ارتفاعه ٢٦٣٧ مترًا)، وجبل "سربال" (٢٠٧٠ مترًا)، وجبل "أم شامار" (٢٠٧٠ مترًا) أعلاها وأشهرها، وهى مرتبطة بالعديد من القصص التى وردت فى الكتاب المقدس. توجد مملكة فريدة تحت الماء للأسماك وللنباتات فى أقصى طرف شبه الجزيرة عند "رأس محمد"، وفى المكان الذى يتصل عنده كل من خليج السويس وخليج العقبة بالبحر الأحمر، وعلى عمق يصل إلى ٢٠٠٠ متر بالقرب من الشاطئ، وقد أُعلنت هذه المنطقة محمية بحرية عالمية. ويوجد فى هذه المنطقة سمك الحجر المفترس الخطير الذى يشبه فعلاً تماثيل حجرية للسمك ويقوم بحراسة هذه المملكة، ويتحول فى لحظة من حجر إلى سمك أسد.

يغرم الباحثون والمستكشفون فى العصر الحديث بدراسة أسرار سيناء الشيباء، فمنهم من يهتم بالبدو الذين يمكنهم الحياة على أرض تشبه تضاريسها سطح القمر دون تقويم زمنى أو "بطاطس"(*). أما الآخرون فيهمهم أماكن سيناء التى ورد ذكرها فى الكتاب المقدس وبقيت حتى الآن، ومنهم من تهمه ظاهرة "دير سانت كاترين" الذى بناه الإمبراطور البيزنطى "يوستينيان الأول" (فى ٥٢٧ - ٥٦٥م)، وهو يشهد على تاريخنا

(*) يمثل نبات "البطاطس" أهمية شعبية كبيرة فى روسيا. (المترجم)

منذ ذلك الوقت. ومن الجدير بالذكر أنه منذ بناء الدير لم يستولِ عليه أى جيش حربى، ولم يتعرض للأذى، ولم يدمر، وتمتع بحماية دائمة من الأمراء قبل الإسلام وبعده، ومن رجال الدين الأوروبيين والآسيويين الذين اكتسبوا مجداً لحمايتهم "لموطن الكتاب المقدس". وفى النهاية توجد وجهة نظر بديلة تقول إن ملاك سيناء الحقيقيين هم الذئاب والثعالب والضباع والعنزات البرية والصقور والغزلان، الذين حافظوا على توازن الطبيعة فى سيناء منذ زمن مصر القديمة. أما إذا تغير فى يوم ما ذلك بسبب أولويات تاريخية، أو اقتصادية أو دينية أو لأسباب شائعة حديثة؛ فسوف تفقد سيناء صفتها باعتبارها جزءاً من "أرض الميعاد"، ولن تكون بعد ذلك "مكاناً مقدساً" يجب السير فيه بعد خلع النعال كما أوصى به...

يوجد اهتمام كبير فى روسيا بسيناء، حيث إن الآلاف من مواطنينا قد عبروا شبه الجزيرة هذه، خاصة فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، للوصول إلى الأماكن المسيحية المقدسة "بأرض الميعاد".

قررنا أن نسلك الطريق نفسه فى نهاية القرن العشرين حتى نستطيع أن نرسم صورة لسيناء على الطبيعة. يستطيع من زار سيناء من قبل أن يتذكرها مرة أخرى، أما من لم يزرها فيمكنه التعرف على الأماكن المقدسة فى شبه الجزيرة وفى غيرها من الأماكن...

إلى الجنوب بمحاذاة خليج السويس

اندفعنا فى الصباح الباكر بالسيارة من القاهرة إلى الشرق عبر الصحراء الحارقة فى اتجاه السويس، قطعنا ١٠٠ كيلومتر ثم انحرفنا بشدة لليسار إلى النفق الذى تم حفره تحت قناة السويس، فظهر أمامنا منظر عام لسيناء خلف قناة السويس . على اليمين منظر مصفر لمدينة السويس، ورمادى لعدد من السفن التى تستعد لعبور القناة، وفى الأمام تمتد صحراء حجرية بيضاء اللون بها أكوام من كور الأعشاب المحترقة المتدحرجة، أما على اليسار فتمتد هضبة "التيه" عن بعد.

تفرع الطريق فى اتجاهين، وقد أشارت العلامات أن الطريق إلى اليسار يؤدى إلى "نويبع" التى تبعد عن هنا بمقدار ٣٥٠ كيلومتراً، أما الطريق الأيمن فطوله ٢٥٠ كيلومتراً ويوصل إلى "الطور". قررنا أن نعود عبر الطريق الأيسر الذى يخترق سيناء عبر هضبة التيه، أما الآن فإننا ندور إلى اليمين بمحاذاة خليج السويس فى اتجاه الجنوب، هدوء تام، وهواء ساكن، وشمس، وماء الخليج أزرق اللون ساكن كما لو كان نصف نائم، تبدو السفن الساكنة فى هذه المياه كما لو كانت معروضات عملاقة موضوعة على الأرض، وهى لا تسير ولكنها واقفة عليها...

أصبح كل شىء بسرعة خلفنا، وبدأنا فى إحصاء العلامات التى على الطريق. بينت علامة الطريق أنه تبقى ٢٣٦ كيلومتراً إلى "مركز عيون موسى"، (وهى المسافة نفسها التى تفصلنا عن مدينة "الطور"). توجد على الطريق بضعة منازل من الطين، وتنمو فى المنخفضات التى بجانبها حشائش شائكة فى مجموعات. يقال: إن النبى "موسى" أخرج اليهود من مصر فى هذا المكان بالذات، وإنه فى أثناء بحثه عن الماء بواسطة عصاه انفجرت عيون تخرج ماء تبين أن له خصائص علاجية للأمراض المختلفة، مثله مثل الأعشاب التى تنمو فى هذا المكان، وقد أصبح المرضى يشفون باستخدامها من مرض السكر، وقرح المعدة، والأمراض الأخرى. بدأ ذلك سكان المناطق القريبة، أما الآن فيحضر المرضى إلى هذا المكان من جميع أنحاء مصر، بل ومن خارج حدودها.

تذكرنا اللوحة الضخمة التى على الجانب الأيمن من الطريق بأن "على الأجانب أن يسلكوا الطريق الرئيسى فقط". تتكرر هذه اللافتة كثيراً على طول الطريق، فالنظام هو النظام، لذلك فقد تابعنا رحلتنا فقط على الطريق الرئيسى، خاصة أن السلطات تعرفنا، فإن المحافظ ينتظرنا فى نهاية وجهتنا فى الطور... لذلك فإذا انحرفنا إلى أى اتجاه...

تظهر معلومة أخرى على الطريق تشير إلى أنه بقيت عشرون من الكيلومترات إلى أقرب المدن الكبيرة "رأس سدر". ظهرت "القرى السياحية" واحدة بعد الأخرى تومض أنوارها عند البحر، وهى أبنية ملك القطاع الخاص ومخصصة لذوى الدخل المتوسط

ومزودة بالحد الأدنى من الاحتياجات. فلنتوقف عند إحداها التى تحمل اسم "دجشلاند"، عبارة عن منازل صغيرة من التاريولين بجوار البحر تمامًا. كانت تسير بالقرب منا امرأة ترتدى ملابس سوداء تقود حمارًا مربوطًا بحبل، أما صاحب المنزل فقد خرج مبتسمًا لمقابلتنا، كان مرتديًا جلبابًا وعلى رأسه عمامة بيضاء. ترحيب معتاد ونظرة ثاقبة. تكلفة الاستراحة فى "دجشلاند" ٣٠ جنيهًا مصريا (كان الدولار فى ذلك الوقت يعادل ثلاثة جنيهات وثلاثين قرش) للفرد الواحد شاملة وجبتين فى اليوم. ويطلب هنا فقط مستند "لتحقيق الشخصية" ممن يدفع، ومن الممكن عمل تخفيض... قدمنا شكرنا واستأنفنا طريقنا.

الكيلومتر ١٧٣ من الطريق محاجر جبس، وبعده بقليل توجد عند الشاطئ تمامًا كهوف "حمام فرعون" (عيون فرعون للماء الساخن) التى تقريبًا لا تتم الإشارة إليها، ولكنها تتمتع بشهرة كبيرة، تخرج من هذه الكهوف مياه كبريتية دافئة (درجة حرارتها نحو ٣٠ درجة مئوية)، والجو حار داخل الكهوف مثلما فى حمام "الساونا"، لذا يطلق على هذه العيون اسم "حمام"، ويحكى أنه كان يتم علاج الكثير من الفراعنة ممن اشتكوا من أمراض التهاب العصب الجذرى والمفاصل بهذه المياه، تبعد هذه الكهوف مئات من الأمتار عن الطريق، ويسمح بزيارتها ولكن نظير رسوم. توجد بالقرب من الكهوف قرية "مون بيتش" (أى قرية القمر) السياحية عند طرف الخليج، تتميز هذه القرية ببيوتها الصغيرة المريحة ذات الأسطح البيضاء، وتوجد أمامها الصخور التى تخرج منها المياه. فلندخل أولاً فى الكهوف، دخلنا إلى عمق ثلاثين مترًا وبعد ذلك كان علينا أن ننحنى ثم قد نضطر للزحف، هل يستحق الأمر؟ كلما تعمقنا أكثر زادت السخونة. يجلس سكان المنطقة بمحاذاة الجدران مع عائلاتهم وأولادهم، بعضهم يطبخ الطعام باستخدام مواقد الكيروسين، وبعضهم يغسل الملابس. يجلسون على الحصائر فى النهار، وينامون عليها فى الليل، ويحبون عليها بعضهم البعض ويلدون عليها الأطفال، ويقضون الوقت جالسين عليها، وهم يعيشون بطريقتهم. يمد الأطفال أيديهم طلبًا للبقشيش ويعرض الرجال الذين اكتسبت بشرتهم لون الصخر بفعل الشمس خدماتهم مثل غسل السيارة، والقيادة إلى المكان الذى تتفجر منه المياه، كل ذلك طبعًا نظير بعض النقود.

ليس من المفهوم سبب عدم الإعلان عن هذا المكان، قد يكون لأنه لم يتم إعداده بعد كما يجب، ولم تتم الاستفادة منه، فهذا المكان يحتاج إلى رءوس أموال لتجهيزه، عندئذ سوف يتدفق إليه السائحون والمال. أما الآن، فيتكدس الحراس والرحالة فى الكهوف بسبب دفئها، ويأسف صاحب قرية "مون بيتش" لتسرعه فى بنائها...

يقترب الطريق بدءًا من عند الكيلومتر ١٥٥ (وهى المسافة المتبقية إلى الطور) من سلسلة جبال "الإيجما"، ولكننا لسنا متسرعين لتسلقها. على اليمين يوجد طريق أرضى، ولكننا نعلم أيضًا أنه توجد على بعد أربعة كيلومترات من هنا ينابيع ماء وكهوف أخرى. اقتربنا من صخور أخرى سوداء قميئة الشكل تقف أمامنا، بينما تضرب الرياح التى هبت فى أثناء سيرنا ظهورنا بحجارة صغيرة. ظهرت تموجات بيضاء على سطح الماء الثائر، تغير الطقس فى ومضة عين. على أية حال فإننا نتجه إلى كهوف أخرى، ولكنها هنا أكبر، حيث إن أبعادها ٦٠ × ١٥ مترًا تقريبًا، وهى دافئة كما فى الحمامات الحقيقية، وتصل درجة حرارة المياه التى تنساب إلى أسفل إلى ٨٠ درجة مئوية. تجرى المياه إلى أسفل فى اتجاه البحر مكونة "دلتا" مكتملة تنمو عليها الحشائش، ويبدو أن الينبوع مشبع بكبريتيد الهيدروجين، حيث إننا أحسسنا برائحته المميزة من على بعد كيلومترين، أما فى داخل الكهوف فلا يمكن التنفس طبقًا لمفهومنا طبعًا. كان العرب الجالسون على الحصائر يبتسمون ؛ فهم قد تعودوا على ذلك، فهذا المكان مثل بيت العائلة، أما هذه العيون فهى للأسف غير مريحة أبدًا و "تسكب" فى البحر ملايين من الدولارات كان يمكن أن تبقى هنا لو تم بناء "حمامات" فى هذا المكان، ولكن لم تمتد أية يد إلى هنا بعد...

يرتفع الطريق إلى الجبال ويصل إلى الشاطئ. أمامنا الآن المنجم المصرى الشهير "أبو زنيمة"، ويمثل أهمية للصناعة المصرية، حيث يتم استخراج المنجنيز فى جباله، أما "أبو رديس" فهى على بعد عشرين كيلومترًا، ويتم استخراج البترول فيها بالقرب من الشاطئ.

كانت الرياح التى اشتدت تدفع فى أثرنا سحابات من الأتربة، مما كان يدفع الناس كما رأينا إلى أن تلتحف بغطاء من رأسها إلى قدميها، ورأينا تصاعد الأدخنة خلف غشاوة الأتربة من المصنع الذى يستخرج المنجنيز من الخام، وهناك فوق موجات المياه النشطة تظهر فى الضباب الأخضر منصات استخراج البترول، وعلى الشاطئ توجد صهاريج ضخمة جرحتها الرمال والرياح، وهى تنتظر هذا البترول لحفظه، أما عند رصيف الميناء فهناك ناقلات البترول لنقله. بدأ كل ذلك يعمل فقط منذ بداية الثمانينيات من القرن العشرين عندما أعادت إسرائيل لمصر سيناء بناءً على اتفاقية السلام بين البلدين.

تذكرنا بذلك نقطة مراقبة الأمم المتحدة المتمركزة فى "أبو رواس"، وتوجد الكثير من هذه النقاط فى شبه جزيرة سيناء. تراقب هذه النقاط تنفيذ كل من مصر وإسرائيل لشروط اتفاقية السلام، يمكن رؤية بعض الجنود ذوى "البيريهات" الزرقاء، وهم يتحدثون وراء سور من الأسلاك الشائكة المحيط بنقطة المراقبة، وظهر علم الأمم المتحدة يرفرف على صارية فى أرض المركز. وضعت فوق البيوت الخشبية خزانات للماء لتوفير دش الاستحمام، كما تقف سيارة "جيب" على بعد مكتوب على جانبيها حرفى "يو إن" UN بخط كبير، ويقوم مندوبو الأمم المتحدة بالمراقبة لمدة أسبوع بالسير بسيارتهم فى مسارات محددة، ثم يستريحون لمدة أسبوع، وهم لم يصطحبوا عائلاتهم معهم إنما تركوها فى القاهرة. ولا يفضل أن يتصل ضباط الأمم المتحدة بأهل البلد، ولا بمواطنى بلدهم، ويوجد بينهم ١٨ ضابطًا روسيا ممنوع الالتقاء بهم أيضًا، ولكن يمكن تحيتهم بالإشارة بالأيدى فهم منا ونحن منهم.

عند محافظ جنوب سيناء

انتظرنا محافظ جنوب سيناء اللواء - على المعاش - "عبد المنعم سيد" فى منتصف اليوم، حيث كان عليه الذهاب إلى القاهرة فى المساء، وقد حضرنا إليه فى الموعد المحدد تمامًا.

الطور مدينة قديمة، كانت ميناءً كبيرًا فى العصر البيزنطى، أمـا فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد فقد أصبحت أحد المراكز المهمة للمسيحية، وما زالت توجد هنا أطلال الدير الذى تم بناؤه فى عهد الإمبراطور "يوستنيان" (٥٢٧ - ٥٦٥ م)، بالإضافة إلى حمام آخر لموسى تصب فيه مياه شافية قادمة من الجبال المجاورة فى حوض سباحة مجاور للحمامات فى غابة من أشجار النخيل. كان الحجاج القادمون من روسيا يغادرون السفن فى هذا المكان بالذات فى الطور، ويركبون الجمال، ويتجهون أولاً إلى "دير سانت كاترين" الذى يبعد ١٠٠ كيلومتر عن الطور، وهم ممسكون بأغصان من سيناء فى أيديهم. هناك كانوا ينحنون "للعليقة الملتهبة" (الشجيرة المشتعلة ذات الأشواك التى لم تحترق) التى ظهر فيها الملاك "يحيى" للنبى "موسى"، كما يقول الكتاب المقدس، ودعاه للخروج بقومه إلى أرض الميعاد، ثم يستمر الروس فى السير بعد ذلك إلى "فلسطين". وقد وصف مواطننا "أ. يليسينيف" ذلك بدقة منذ قرن مضى فى كتابه "الطريق إلى سيناء"، وبعد مقابلة المحافظ سوف نمضى نحن أيضًا فى الطريق نفسه الذى سار عليها المسيحيون القادمون من روسيا، ولكن دون أن نمسك أغصان سيناء فى أيدينا...

استقبلنا "عبد المنعم سيد" فى منزله مرحبًا بحفاوة شرقية. هو لواء محارب، فقد شارك فى كل الحروب العربية الإسرائيلية، وقد درس فى موسكو فى الفترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٦٨ بأكاديمية "م.ب. فرونزيه" (أكاديمية حربية عليا فى روسيا ، وقد درس فيها الرئيس حسنى مبارك، وتحمل اسم "فرونزى" قائد الجيش الأحمر خلال الحرب الأهلية بعد ثورة أكتوبر)، وما زال يتذكر أصدقاءه وصديقاته الموسكوفيين، ولكن لم تمكنه ظروف عمله والحرب من زيارة روسيا مرة أخرى، وهو الآن محافظ ويجب عليه إعادة تعمير سيناء المحررة. يشعر كما لو كان فى الحرب مرة أخرى .

يقول المحافظ. "إنه توجد فى سيناء محافظتان: الجنوبية والشمالية، وقد تم إنشاؤهما فى ٢٥ أبريل عام ١٩٨٢ فى يوم استرجاع مصر لسيناء، ومنذ ذلك الحين تم تنفيذ ثلاث خطط خماسية، وبدأت الرابعة فى ٤ يونية سنة ١٩٩٥ ، فقد كان الواجب إعادة بناء كل شيء : الطرق والمنازل ومصادر الماء وخطوط الكهرباء والمدارس والمستشفيات والمراكز الثقافية والرياضية.

يحظى جنوب سيناء بأهمية إستراتيجية، حيث يلتقى هنا خليجان هما خليج السويس وخليج العقبة، ويمتد الشاطئ على طول ٦٠٠ كيلومتر، وبالقرب منه قارتا آسيا وإفريقيا، وكذلك مدخل البحر الأحمر، كما توجد فى الجبال بعض الخامات المعدنية مثل المنجنيز والجبس والمرمر والجرانيت ومواد البناء... إلخ. ويوجد بترول فى البحر بالإضافة إلى مخزون هائل من السمك، كما توجد هنا مجموعة من الآثار تهم العالم كله، أما السياحة فهى تعنى الدولارات اللازمة لتطوير المنطقة.

تنتج سيناء للبلد حاليا ٢٥٪ من البترول الذى يستخرج فى مصر، و ٢٨٪ من الخامات المعدنية، كما يسافر نحو مليون سائح فى العام إلى منتجعاتها السياحية الخمسة والخمسين. وفى الحقيقة يتم الآن بناء المدن التى دمرتها الحروب مثل "رأس سدر" و"أبو رديس" و"طور سيناء" و"شرم الشيخ" و"دهب" و"نويبع" و"سانت كاترين"، وقد تضاعف عدد سكان سيناء لكى يصل إلى نحو نصف المليون، منهم ما لا يزيد على خمسة عشر ألفًا من البدو الرحالة، وفى عام ١٩٨٠ كان إجمالى طول الطرق فى سيناء ٣٠٠ كيلومتر (وقد وصل الآن إلى ١٥٠٠ كيلومتر) وعدد المدارس ١٥ (الآن ٩٠)، ولم توجد بها أية مستشفيات (الآن توجد ٩)، كما توجد مراكز اجتماعية فى كل تجمع سكانى، بالإضافة إلى برامج تعليمية للشباب وللمرأة ومراكز رياضية ومعسكرات للأطفال. يؤكد المحافظ بفخر "لقد أعدنا بناء مئات من الآبار القديمة وأوصلنا الماء من السويس إلى أبو رديس". كما يضيف: "يمكن الآن الاتصال تليفونيا من أى مكان بأية نقطة فى جمهورية مصر العربية ومشاهدة أى من برامج التليفزيون المصرى".

"يوجد أمامنا العديد من الأهداف للمستقبل" أخذنا اللواء إلى الحجرة المجاورة وأشار لنا على الخريطة : ١ - زيادة الإنتاج الصناعى والزراعى. ٢ - تنمية مصادر الماء والكهرباء والرعاية الطبية، خاصة تلك اللازمة لحياة السكان والسائحين . ٣ - زيادة ثقافة وإعداد الشباب.

كيف يمكن تحقيق ذلك ؟ باستخدام استثمارات الدولة والقطاع الخاص، ويجذب القوى العاملة ورءوس الأموال الأجنبية، وقد تم وضع برنامج حكومى لتطوير المنطقة

وكذلك برنامج إقليمى، كما تم تنفيذ إجراءات تشجيعية لكل من يذهب للعمل فى سيناء. نحن نقف مع كل من يبنى مصنعًا باستخدام رأسماله الخاص، فنمنحه إعفاءات وفترات سماح لتسديد القروض التى حصل عليها لمدة عشر سنوات يعفى خلالها من الضرائب، وفى الوقت نفسه تقوم الدولة ببناء المساكن، وتقوم بتأجيرها أو بتمليكها بالتقسيط على مدى ثلاثين عامًا لمن سوف يعمل فى هذه المصانع، والمحافظة تتابع بدقة تنفيذ كل ذلك، فالقوانين واحدة للجميع. وهو نوع من التقارب بالأسلوب المصرى.

يعتقد المحافظ أن تنمية السياحة تحتاج رءوس أموال يتم استردادها ولكن ليس فى الحال، فالفنادق الموجودة حاليًا قليلة وغير جيدة. ويلاحظ أنه لم تكن توجد هنا أية فنادق جيدة قبل الحرب العالمية الأولى وحتى الحرب العالمية الثانية، على الرغم من أن عدد السائحين كان بالملايين، فقد حضر من روسيا وحدها حتى عام ١٩١٧ مئات الآلاف. هذا يعنى أن الأمر لا يتوقف فقط على الفنادق، ولكن أيضًا على نوعية السياحة نفسها. سوف ننعش طرق قوافل الجمال، وننشئ المعسكرات والقرى السياحية، وسوف نبنى أيضًا الفنادق من نوعية "المريلاند" فى رأس سدر، كما أننا سوف نرمم الآثار القديمة. ومن الجدير بالذكر أنه توجد محميتان فى سيناء من المحميات العشر الموجودة فى مصر، هما محميتا "سانت كاترين" و"رأس محمد". وفى الوقت الحالى يدرس مشروع "فهد" (بالاشتراك مع المملكة العربية السعودية) لإنشاء كوبرى يربط بين جنوب سيناء والسعودية عبر مضيق "تيران"، وسوف نبنى نحن الكوبرى إلى جزيرة "تيران" طوله ٨ - ٩ كيلومترات، وقد وعد السعوديون ببناء كوبرى طوله ٨ - ٩ كيلومترات من جزيرة تيران. ابتسم المحافظ وهو يقول: "نحن فى الانتظار"..

بعد انتهاء المقابلة مع المحافظ شاهدنا معالم مدينة الطور، وهى عبارة عن مجموعة مدهشة متناسقة من الصلبان التى كانت تعلو فى يوم ما كنائس، ومن أهلة الجوامع الحالية. وبعد أن زرنا واحدة من السفينتين الشراعيتين اللتين كانتا تتأرجحان فوق المياه الهائجة، توجهنا من ميناء صيادى السمك إلى حمامات أخرى من "حمامات موسى". كان من الواضح أن يد المحافظ لم تصل بعد إلى هذه الحمامات، كانت المياه الكبريتية التى تصل درجة حرارتها إلى أربعين درجةً مئويةً تتدفق من نبع فى الجبل أمام حافة

بنية صخرية فى تجويف فى الصخر مقاس محيطه ٤ × ٤ أمتار وعمقه نحو ٣ أمتار. يمكن علاج الأمراض الجلدية بالاستحمام هنا، أما الماء الزائد فينزل إلى أسفل الوادى القريب. تجولنا حول الفجوة وشممنا رائحة الطمى الأخضر العكر الذى بها ، الماء دافئ ورائحته كبريتية، ولكننا لم نرغب فى أن ندخل إلى هذا الحمام، على الرغم من رغبتنا فى تجربة الإحساس الغريب فيه.. لم نقابل هنا أى أجنبى ولا أيًا من سكان المنطقة، ولا فى الحمام، ولا بالقرب منه، ولا فى حوض السباحة الذى يلمع بين النخيل فى الوادى. عدد أشجار النخيل هنا كبير لدرجة أنه خُيل لنا إمكانية السير بسهولة فوق قممها بلا خوف من السقوط إلى أسفل، وقد ارتفعت إلى أعلى فوق كل ذلك جبال محترقة تقريبا سوداء اللون تغطى قاعدتها الرمال، وتطل من تحتها جذور بمعنى الكلمة انطمست بفعل تراكم الصخور.

فى زيارة للأماكن المسيحية

بدأ انتشار المسيحيين فى مختلف أنحاء صحراء سيناء منذ العصر الرومانى محاولين العثور على مكان للطمأنينة وللخلوة فى شبه الجزيرة هذه، غير المأهولة فى ذلك الوقت. وقد نشط بشكل خاص الجوالة الأوروبيون للحضور إلى سيناء اعتبارًا من القرن الثالث قبل الميلاد، واستقروا فى مجموعات من النساك عند سفوح الجبال، وبشكل أكبر عند الجنوب فى واحة "فيران" حول الجبل المقدس"حوريف"، فى أماكن غير بعيدة عن "العليقة الملتهبة". تحمل الرهبان النساك الصعوبات بصبر وأقاموا الصلاة وعاشوا حياة تقشفية انتشرت بسرعة فى المنطقة، و أصبحت سيناء بالتدريج مركزًا مسيحيا للحج، وفى سنة ٣١٣م، أمر الإمبراطور البيزنطى باعتبار سيناء "أرض الكتاب المقدس". ثم وضعت الإمبراطورة "هيلينا" هذا المكان تحت حمايتها الخاصة، وأمرت فى عام ٣٣٠م ببناء سور حجرى حول "العليقة الملتهبة" التى أصبحت فى حماية الرهبان. أصبح حجاج القرن الرابع يعتبرون هذا المكان مقدسًا، وبدأوا فى السفر إليه للعبادة،

وبدأ بناء الأديرة فى وادى "فيران" واحداً بعد الآخر، خاصة فى القرن السادس بعد أن وضع الإمبراطور "يوستينيان" (٥٢٧ - ٦٦٥م) برنامج "البنـــاء المقـدس" لسيناء، وفى هذه السنوات تم بناء دير سُمى فى البداية باسم حاميته الإمبراطـورة "هيلينا" فى المكان الذى حمى فيه السور الحجرى "العليقة الملتهبة"، وقد رسمت لها أيقونة وأصبحت مقدسة.

سرنا على الطريق نفسه الذى قطعه "أ. يليسييف "مع الحجاج الروس فى الأرض المقدسة. توجد على اليمين جبال مغطاة بضباب من الأتربة، يلقى الهواء المقـابل لنا على زجاج السيارة حجارة صغيرة وحفنات من الرمال، كما يرعى قطيع من الجمال عند الطريق ولا يكترث لضجيج السيارة، كان أحد هذه الجمال أبيض تماماً.

يتحول وادى "فيران" (بالعربية الفصحى فئران) إلى نهر صاخب عند هطول أمطار غزيرة، وهذا نادراً ما يحدث، وقد شيدت أديرة النساك المسيحيين فى هذا الوادى المحاط بالجبال.

انفرجت الجبال، وظهرت أمامنا بيوت منخفضة صغيرة تحيطها جدران خشبية، فهذا دير راهبات تعيش فيه "فئران "هادئة، راهبات عددهن الآن ٦، ويملكن مزرعة صغيرة، وهن يصنعن النسيج، ويعالجن سكان المنطقة بالأعشاب المختلفة. توجد على اليسار أطلال مقر للأساقفة أعلى الصخور. كانت لهذا المقر فيما مضى سلطة، وقد شيد هنا منذ القرن السابع، ولكن هدمه العرب فيما بعد. طبقًا للأسطورة اختبأت هنا الفتاة "هاجر" وابنها بعد أن طردها "إبراهيم" من منزله. توقفنا ونزلنا من السيارة، كانت تصل إلينا أصوات أطفال من داخل مزرعة النخيل الكثيف، وكانت عدة سيارات أوتوبيس تقف، بها سائحون يونانيون عند مدخل الدير، كانوا يلتقطون صورا للراهبات ويشترون الأعشاب الطبية وتذكارات عن الدير، وكان بعض الأطفال يضايقوننا مثل الذباب بإلحاحهم طلبا للبقشيش، ويعرضون علينا بعض المنتجات الحجرية البسيطة لكى نشتريها. ولكن ماذا تفعل هنا تلك الراهبات؟ يقال إنهن ظهرن هنا منذ عشر سنوات،

فقبل ذلك كان يعيش هنا راهب واحد فى خلوة. الإجابة بسيطة، وهى أنه تجب المحافظة على تأثير المسيحية "فى المكان المقدس"، ولكن فلنقل بصراحة : إن هذا التأثير "تأثير بنات المسيح" يتحقق فى ظروف صعبة جدا دون أية معاونة من الخارج. المنظر العام للوادى الذى يعشن فيه بتقشف له شكل خلاب خاص : تشبه الجبال المجاورة التى تتكون من الطوب الرملى "القصور" كما لو كان أحد ما قد قام ببنائها أماكن مقدسة .

يدعونا الطريق للذهاب أبعد من ذلك، وهو يتلوى بين الصخور ويلف حول جلمود ثم يرتفع ببطء إلى أعلى، إلى السماء. منحنى ثم مرتفع، وما هذا؟ ظهرت كنيسة صغيرة ذات قبة صخرية بيضاء وجدران من الصخر يميل لونها إلى الأبيض عند الطريق على التل الصغير، مدخلها على شكل قوس نصف دائرى فوقه أربع نوافذ، كما توجد أربع نوافذ أخرى على كل من الأجناب الأربعة لقاعدة القبة. أردنا أن ندخل إلى الكنيسة ولكن لم نتمكن من ذلك لوجود قفل على الباب.

يرتفع الطريق بعد الكنيسة بطريقة أكثر حدةً. ظهرت قمم النخيل الخضراء فى الأسفل كما لو كانت لوحة مرسومة، فى الحقيقة وادى "فيران" عبارة عن سلسلة من الوديان الصغيرة تقطع كل جنوب سيناء أفقيا، ويمر بجانب "دير سانت كاترين" وينتهى عند مدينة "دهب" التى تقع على شاطئ خليج العقبة، تبدو الجبال ذات اللون الأحمر الداكن جميلة وقاسية، وترتفع جبال "سيربل" (٢٠٧٠ متر فوق سطح البحر) فى اليمين على البعد دليلاً لكل من يتوجه إلى الهدف المقدس. لقد سار هنا فى الماضى حجاجنا راكبين الجمال أو على الأقدام إلى الأمام فى خط مستقيم عبر الجبال، وهم يعتبرون "سيربل" نوعًا من الفنارات. الجو بارد نسبيا فى الجبال، لدرجة أن الثلج يسقط فيها فى الشتاء، ولكن بعد هذا المنخفض يصبح كل شىء فى الخلف، وتفصلنا عشرة كيلومترات من هنا عن الدير.

فـى دير سـانت كـاترين

تعرف السـيـدة التى سُمى الدير باسـمـهـا فى العـالم كله باسم "دوروثى"، وقد ولدت فى الإسكندرية فى عام ٢٩٤م، كانت جميلة ومن أسرة أرستقراطية، درست علم البلاغة والفلسفة والشعر والموسيقى والفلك والطب، وكان الإمبراطور يعرفها شخصيا، ولكن حكى لها راهب سورى ذات مرة عن "يسوع المسيح"؛ فأصبحت من المتعصبين للمسيحية، حتى إنها أطلقت على نفسها اسم "كاترين". أرسل إليها عدد كبير من الوجهاء ذوى المناصب العليا فلم يثنوها عن عقيدتها، بل أقنعتهم بالدخول فيها، أصبحت بذلك بالتدريج تمثل خطرًا على هذا المجتمع، فتم إعدامها علنًا، ولكن لم يستطيعوا دفنها فقد اختفى جسدها.

بعد ثلاثة قرون وجد رهبان الدير الذى تم بناؤه بأمر من "يوستنين" عند سفح جبل "حوريف" على ارتفاع ١٧٢٠ مترًا فوق سطح البحر، فوق قمة الجبل المجاور وهى الأعلى فى سيناء ، جسد "كاترين" محنطًا. أنزل الرهبان الرفات إلى أسفل ووضعوه فى تابوت من الذهب فى الكنيسة، واعتبر اسم "كاترين" من الأسماء المقدسة، كما سمى الجبل الذى وجد فيه جسدها باسمها، ثم أطلق فى القرن الحادى عشر اسمها على الدير الذى دفن فيه جسدها، وهنا بدأت جحافل من الحجاج الأوروبيين من أوروبا تصل إلى هنا، ولم تتوقف حتى اليوم. فى عام ١٨٦٠ أهدت الأميرات الروسيات الدير غطاء ذهبيا للتابوت المقدس مقاسه ٢٧ × ٦٩ فيرشوك (الفيرشوك وحدة قياس قديمة روسية، وهو يساوى ٤.٤ سم)، وقد اعتبر آلاف من الروس الأرثوذكس أن من واجبهم زيارة الدير وهم فى طريقهم إلى الأماكن المقدسة فى القدس، وفى عام ١٨٧١ أحضروا إلى هنا هدية أخرى، عبارة عن تسعة أجراسٍ مصنوعة من الحديد الزهر، أصبحت منذ ذلك الوقت تنبئ عن بداية الطقوس الكنائسية الإلهية.

شىء لا يصدق ولكنه واقع، وهو أنه توجد قوة غير مرئية قامت على مدى عدة قرون بحماية الدير الذى احتفل بمرور ١٤٠٠ سنة على إنشائه. ففى العهود التى سبقت الإسلام لم يؤذ أحد من المسيطرين على سيناء سكان الدير، وفى بداية عصر

الفتوحات الإسلامية فى عام ٦٢٥ زار وفد من رهبان الدير "المدينة" وحصل من يدى النبى "محمد" نفسه على "تعهد بالحماية"، وما زالت هذه الوثيقة محفوظة فى الدير حتى اليوم. أما فى فترة الحروب الصليبية فقد صدر "مرسوم سيناء" الذى كان يلزم رجال الكنيسة مساعدة المسافرين الذين يحضرون من أوروبا إلى الدير، وبعد ذلك حافظ المحتلون الأتراك للدير على كل حقوقه، ومنحوه وضعًا خاصا حدده أمر عالٍ للسلطان "سليم الأول" فى عام ١٥١٧ ، حتى "نابليون بونابرت" الذى احتلت جيوشه مصر فى الأعوام ١٧٩٧ - ١٨٠٤م، فقد وقع بيانًا فى ١٩ ديسمبر ١٧٩٨ به فقرات تحدد حقوق الدير وواجباته، وقد تمكنا من الإمساك بهذه الوثيقة بأيدينا. ومن المعروف أنه بعد انهيار الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الخامس عشر أخذت روسيا على عاتقها الوصاية على العقيدة الأرثوذكسية وأتباعها، وأصبح الدير الواقع فى الأماكن المقدسة يتلقى الهدايا السخية، وكان أول زائر رسمى روسى له الأرشيمنديت "جريفينى" القادم من مدينة "سمولنسك" الروسية (عام ١٤٠٠)...

وأخيراً وصلت سيارتنا التى عبرت الجبال إلى" وادى الراحة". يوجد فى الأمام جبل عالٍ جدا مماثل تماماً للجبل الذى جاء وصفه فى الكتاب المقدس، أما على اليسار، وعلى بعد كيلومتر واحد تقريبًا من مفترق الطرق، تظهر جدران الدير البيضاء المصفرة بين الجبال، وعلى اليمين توجد قرية سياحية تتكون من منازل ذات دور واحد مبنية بالحصب ينزل فيها المسافرون.

يجب أن نشير إلى أن حجم الدير لا يلفت النظر سواء كان ذلك من بعد أو من قرب، فهو مستطيل الشكل، أبعاد أجنابه ٧٠ × ٨٥ متراً، وجدرانه عالية غير متناسقة، يصل ارتفاعها فى بعض الأماكن إلى ١٥ متراً، يتم فيه استقبال الزوار حتى قبل موعد الغداء. وصلنا متأخرين عن ذلك الموعد، فوجدنا أن باب مغزل الجدار الأمامى موصد. طرقنا على الباب ففتح قليلاً وهو يصدر أزيزًا، وألقى منه بواب بدوى نظرة علينا وسألنا من نكون ؟ كان البواب جادا جدا ونظرته حادة. "مسافرون من موسكو، معنا خطاب لأبينا ميخائيل". - "انتظروا".

يرأس إدارة أعمال الدير يونانى بشوش متوسط العمر، استمع إلينا وأمر البواب: "أدخلهم، إنهم أرثوذكس من موسكو". وأضاف موجهًا كلماته إلينا : "شاهدوا ما تريدون ولكن الرهبان يصلون فى الكنيسة الآن، فأرجو ألا تزعجوهم"، وكتب على قصاصة من الورق لشخص ما نوعًا من التصاريح المكتوبة للسماح بالزيارة، حتى لا يضعوا لنا العراقيل.

أسعد الحظ مؤلف هذه السطور فى أنه قد زار الدير من قبل، لذلك فإن الرسالة التى كتبها للأب "ميخائيل" أصدقاؤه من القاهرة لعبت دورها، حيث إنه ليس بإمكان كل مسافر أن يحصل على فرصة لكى يكون ضيفًا عند الأب "ميخائيل" رئيس الأعمال، خاصة أن رئيس الدير الأرشى أسقف "دميانوس" يعتبر رئيس كنيسة سيناء الأرثوذكسية المستقلة. لا تختلف هذه الكنيسة فى أى شىء عن الكنيسة الروسية، حتى من ناحية ملابس القسس فهى نفسها، ولكن يخدم هنا يونانيون، وتتم كل الطقوس الدينية باللغة اليونانية، وكذلك التعاملات اليومية.

لقد أسعدنى الحظ أن أزور هذه الكنيسة فى عيد الفصح عندما كانت تُقام الطقوس مهيبة وجميلة، أما فى هذه المرة فقد كانت الطقوس عادية، تحترق الشموع فى النجف البرونزى الضخم المتدلى من السقف، وتنعكس ألسنتها على الأيقونات القريبة المقدسة، ويقوم أربعة من الرهبان بالصلاة، كما يتلو شماس نصوصًا مقدسة برتابة.

اقترب منًا شخص ما دون صوت، أومأ برأسه وسأل "من هؤلاء؟" أعطينا الراهب قصاصة الأب "ميخائيل"، وجاء الرد بإشارة يده تعطى تصريحًا : "يمكن أن تبقوا، فلتصلوا." وفى الوقت نفسه وضع إصبعه على فمه قائلا " ولكن لا تثيروا ضجة". وبعد انتهاء الصلاة قادنا راهب إلى حجرة صغيرة خلف المذبح، خلع حذاءه أمام بابها ففعلنا مثله، دخلنا خلف الراهب من باب ضيق ووضعنا قدمنا على "أرض مقدسة"، فى مكان الشجيرة المقدسة، تحت جذورها. تنمو الشجيرة نفسها فى الخارج، حيث ابتعدت بمرور القرون عن الكنيسة عدة أمتار، ثم شاهدناها فى الخارج، يفصلها عن الأرض حوض زهور ارتفاعه متران، رأينا الأوراق الخضراء للعضاهة التى لا تحترق، والتى ظهر لموسى من بين لهبها ملاك، طبقًا للأسطورة، لكى يخبره بأنه يقف على "أرض مقدسة". وقفنا وانحنينا وصمتنا.

يوجد فى الدير مجموعة فريدة من الأيقونات عددها ألفان، وهى تمثل مدارس مختلفة لرسم الأيقونات. توجد أيقونات روسية بينها الأيقونات الشهيرة بأسماء "عذراء إيفريا"، و"الله مالك كل شيء"، وهى مؤرخة ٢١ ديسمبر ١٧٥٤ ، و "عيد الميلاد للسيدة العذراء" (القرن السابع عشر)، و"البشارة" (القرن الثامن عشر) وغيرها. تتفوق فقط مكتبة الفاتيكان بما تملكه من مجموعة الكتابات الدينية على مكتبة الدير التى تحتوى على ثلاثة آلاف وخمسمائة وثيقة ومخطوط وخمسة آلاف كتاب قديم. أقدم المخطوطات فيها عبارة عن نسخة من الكتاب المقدس مكتوبة فى القرن الخامس، وهى معروفة باسم "القانون السورى". وفى عام ١٨٦٥ اكتشف العالم الألمانى "تيشندورف" مخطوطًا عبارة عن نسخة من " العهد القديم والعهد الجديد" مكتوبة باللغة اليونانية فى القرن الرابع، وعرف هذا المخطوط باسم المكان الذى عثر عليه فيه، أى "السينائى"، وتم إرسال المخطوط إلى مدينة "بيتربورج" بناءً على رغبة روسيا التى مولت البحث، حيث تم نشره فى عام ١٨٦٢ . منح الإمبراطور "ألكسندر الثانى" الدير مبلغ ٩٠٠٠ روبل نتيجة ذلك، ولكن الثورة الروسية عاكست رد المخطوط لأصحابه، وبالإضافة إلى ذلك فقد قامت السلطات السوفيتية فى عام ١٩٣٣ ببيع المخطوط للمتحف البريطانى فى لندن مقابل ١٠٠ ألف جنيه إسترلينى، وكان هذا هو الحدث الوحيد الذى أساء إلى العلاقات الجيدة التى استمرت لعدة قرون بين الدير وروسيا.

وطبقًا للأسطورة عاد "موسى" إلى العليقة الملتهبة بعد عدة شهور بناءً على أمر من الرب وتسلق قمة الجبل المجاور، حيث منحه الله "لوحات الإيمان الحجرية الصغيرة"، وأملاه "الوصايا العشر" الشهيرة. سرنا فى المساء على هذا الممر نفسه المنحدر قليلاً فى البداية والذى يكاد يكون رأسيا فى نهايته حتى نستقبل أشعة الشمس على القمة. طول هذا الممر ٣٧٥٠ خطوة أو ١٣ كيلومتراً، وهو محدد بواسطة حجارة قام برصها الرهبان على مدى عدة قرون فى أثناء صعودهم إلى قمة الجبل المقدس.

استمر تحركنا من القرية السياحية لمدة ليلتين تقريبًا فى ظلام دامس، ظهرت على الطريق إضاءة مصابيح الكافتريات المبنية على كل ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر إذا

أمكن تسمية هذه المبانى الحجرية بهذا الاسم. يمكن الاستراحة فيها بالجلوس على قطع سجاد صغيرة تم وضعها على قواعد حجرية، وشرب البيبسى كولا أو الشاى عند العطش، يقدمها تجار من البدو متدثرين بمناديل، ويمكن أن يستأجر المسافرون الجمال التى يبين قوادها الطريق. يرتفع الثلث الأخير من هذا الطريق ليكون رأسيا تقريبًا، وهو شاق حتى بالنسبة للجمال.

وصلنا إلى القمة فى الخامسة والنصف صباحًا. المنظر لا ينسى : الليل والشروق على قمة الجبل المقدس، السماء سوداء فى الشرق تزرق وتضاء بالتدريج، أما القمر فيستمر فى الشحوب، تنطفئ أضواء النجوم، وتبدأ عين الشمس الذهبية تظهر كأنها عين إلهية، ثم تبدأ أشعة الضوء المصفرة فى السقوط على المنطقة، ويبدأ شكل الجبل يتغير بسرعة دافعًا خط الأفق الكئيب إلى مكان ما بعيد، تنسكب أشعة الشمس على القمة ويبدأ نهار جديد.

هنا تنمو الزهور على الصخور فى جبل موسى ولا تذبل أبدًا، الصخور فى حد ذاتها غير عادية، يظهر عليها رسم واضح لغصن أخضر فى سراب النار تمامًا، شجيرة تستمر فى الاشتعال ولا تحترق، كل الصخور التى مررنا عليها متشبعة بمثل هذه الرسوم الواضحة، شىء لا يمكن تفسيره ولكنه حقيقى.

استغرق الهبوط إلى أسفل الزمن الطويل نفسه، ثم استأنفنا طريقنا بمشيئة الله.

بعد هذه النقطة تفرقت مسارات حجاجنا، فكان الكل يتحرك على الطريق نفسه حتى نويبع على خليج العقبة، بعد ذلك اتجه الحجاج الأرثوذكس (حتى عام ١٩١٧) إلى الشمال فى اتجاه القدس، أما الروس" الجدد" ففضلوا (خاصة فى تسعينيات القرن العشرين) الاتجاه أولاً إلى جنوب سيناء، إلى مدينة شرم الشيخ الساحلية، وإلى محمية رأس محمد، ثم بعد ذلك فقط يتجهون إلى الشمال إلى طابا ثم إلى إسرائيل.

تبعنا نحن المسار الجديد، أيضًا.

إلى محمية رأس محمد

تعتبر"رأس محمد" آخر نقطة فى جنوب شبه الجزيرة. وقد اعتبرت فى عام ١٩٨٣ كل منطقة الأرض والبحر المنتمية إليها محمية طبيعية وطنية. يوجد هنا أكثر من ألف نوع من الأسماك النادرة على أعماق من ٩٥ مترًا فى غرب "رأس محمد" فى خليج السويس، وعلى عمق يصل إلى ١٨٠٠ متر فى الشرق فى خليج العقبة. كما يوجد فى هذه المنطقة أكثر من ١٥٠ نوعًا من الشعب المرجانية والأعشاب البحرية، بالإضافة إلى ١٠٠ نوع من مختلف الطيور. وتظهر تضاريس الرأس نفسها كما لو كانت مقسمة إلى ثلاثة رءوس صغيرة، كذلك تشهد جزيرة "المنجروف" الملاصقة لها على "حالة الطفو" التى عليها القارتان المتجاورتان آسيا وأفريقيا، واللتان بدأتا فى الابتعاد عن بعضهما ببطء منذ ٧٠ مليون سنة.

طبعًا يختلف الوضع تمامًا وبوضوح عند الاتجاه من عند المدينة المريحة "نويبع" التى تطل على شاطئ خليج العقبة إلى الجنوب أى إلى شرم الشيخ، فخليج العقبة يختلف عن قناة السويس التى تهب فيها دائمًا الرياح. خليج العقبة السكون والجمال والعظمة، مياه الخليج لازوردية ورائقة تدعوك إلى السباحة، القاع ليس صخريا ولكنه يتكون أساسًا من الرمال الذهبية الناعمة، تنحدر قليلاً سلاسل الجبال البريمية الشكل التى تصل إلى الشاطئ؛ وتنمو على بعض أجزائها نباتات خضراء.

يقصد بمدينة "دهب" التى تقع فى نهاية وادى فيران الذى وصفناه مسبقًا فى اللغة العربية "مدينة الذهب"، ففى قديم الزمن كان الذهب يستخرج هنا، أما الآن فلم يتبق هنا إلا سكان يستخرجونه فى الخفاء، ويعرضون على السائحين قطعًا صفراء من الصخر الرملى أو نوعًا من الطين الشائك، وهم يؤكدون لهم أن هذا ذهب طبيعى.

وفى أقصى الجنوب حيث يضيق خليج العقبة توجد مدينة "نبق "الصغيرة، تنعم بوجودها بين سياج أخضر من النخيل، ويبدأ مضيق "تيران" من عند هذه المدينة، وتوجد جنوبه جزيرة "تيران" أمام المملكة العربية السعودية. تجرى هنا بعض الأعمال

الاستكشافية، حيث سوف يتم بناء كوبرى فى هذا المكان يشبه الكوبرى الموجود فى "إسطنبول"، والذى يربط بين قارتى آسيا وأوروبا، أما هذا الكوبرى فسوف يربط بين سيناء والسعودية.

تبدأ محمية سيناء مدينة "شرم الشيخ" التى ذاعت شهرتها بصفة خاصة بسبب النزاع بين مصر وإسرائيل على ملكيتها (وقد انتهى هذا النزاع منذ فترة طويلة). كانت مركزاً صغيراً يخفيه لسان "رأس أم سيد" عن خليج العقبة. به ميناءان صغيران مناسبان لوقوف السفن، وطبعًا يمكن من عنده التحكم فى أوضاع المنطقة. بعد "رأس الخصومة"هذه تبدأ محمية سيناء فخر مصر، ويمكن دخولها عبر مدخلين رئيسيين فقط، غربى إذا حضرتم من جهة خليج العقبة، وشرقى إذا حضرتم من جهة "الطور". قابلتنا لوحة ضخمة مكتوب عليها:"لا نريد أن نأخذ منكم شيئًا، ولكننا أيضًا لا نريد أن يخرج أى شىء من هنا معكم". وبعد ذلك ١٢ قاعدة يجب أن يتبعها زوار المحمية : يمكن مشاهدة كل شىء ولكن يحظر صيد أى شىء. يوجد فى متناول أيديكم تليسكوبات لمشاهدة الطيور والأسماك والمكان. يمكنكم أن تستحموا وأن تعرضوا أجسادكم للشمس وأن تلتقطوا الصور، ولكن سوف تتم مراقبتكم بدقة حتى – لا سمح الله – لا تؤذوا بيئة هذه الأماكن.

بأمانة لم يشاهد أحد منا بعد مثل هذه المملكة البحرية القابعة تحت الماء المتمتعة بمثل هذا التنوع من الألوان، كما لم نر من قبل مثل هذه التوليفة من الطيور الصديقة رائعة الجمال. هاهى سمكة "الإمبراطور" ظاهرة من خلال الكوة المستديرة للغواصة وهى تسبح على بعد كيلومتر خارجة من قصرها المصنوع من الشعب المرجانية. الاسم العلمى لهذه السمكة هو **Pomacanthus imperator** ، كما تخرج سلحفاة خضراء ضخمة من نوع "شيلونياميادس" **Chelonia myades** فى الحيز المظلم كما لو كانت تطير. توجد هنا أسماك متنوعة من نوات الجبهة العريضة، منها الضخم والوقح والحريص والأصفر والمنقط والأخضر وأنواع أخرى يصل وزن كل منها إلى عشرة كيلوجرامات، ولكن أخطر الوحوش هنا حارس هذه الجوقة البحرية "السمكة الحجرية"، فرأسها مكونة من حصى وتشبه وجه الأسد. أما عيناها الشريرة فتشبه عينى مصاص الدماء، وجسمها

مثل جسم الكلب الذى يستعد للقفز. كل ذلك مع بعضه يكون مخلوقًا مخيفًا ساكنًا تمامًا على القاع الرملى أو على أحجار الصخور القريبة من الشاطئ، هذه السمكة مشهورة علميا واسمها "سينانسيا فيموسوسا" Synancea vemusosa ومعروف عنها أنها خطيرة جدا...

وأية طيور هنا، وأية قواقع على الشواطئ الرملية، هنا يتعامل الإنسان وحده مع الطبيعة ومع إيقاعها.

تجدر الإشارة هنا إلى أن الروس القدماء لم يذهبوا أبدًا إلى جنوب سيناء. أما الآن، فإن مواطنينا يوجدون هناك كثيراً.

فى الشمال إلى أرض الميعاد

قفزنا من "رأس محمد" إلى الشمال، وتخطينا "نويبع" متجهين إلى حدود إسرائيل التى تبدأ مباشرة بعد فندق خمس نجوم "طابا" الذى أعاده الإسرائيليون للمصريين فى عام ١٩٨٩ فقط .

الفندق رائع (كان يستحق النزاع عليه)، به ٢٥٠ حجرة لوكس وحمام سباحة فخم تحيطه أشجار النخيل وهدوء الخليج، ومن الفندق يمكن بوضوح رؤية معالم الموانى الأجنبية الإسرائيلية والأردنية والسعودية المجاورة تمامًا. تم تبسيط الإجراءات على الحدود هنا إلى الحد الأدنى، فيتم منح تأشيرات الدخول إلى الجانبين دون معوقات.

لم نذهب إلى القدس، ولكننا عرجنا على العريش التى بها مقر محافظ شمال سيناء.

أعادنا بسرعة المحافظ "منير شاش" - الذى استقبلنا فى قصر زجاجى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط - إلى المشاكل التى على كوكب الأرض. هو مهتم بعمله ويسيطر على الوضع هنا، طبقًا لما ذكره : "لقد حضر إلى المحافظة نحو مليون مصرى

للاستقرار بها، حيث تملكوا ٢٢٠ ألف فدان من الصحراء (الفدان = ٤٢ . ٠ هكتار). يحتاج تطوير الصناعة هنا إلى ثلاثة أضعاف هذا العدد، ولكن يجب إسكان من يحضر إلى هنا وإمداده بالماء والكهرباء والطاقة. وتعرض الحكومة الأرض بالتقسيط بسعر خمسة جنيهات للفدان وبحد أقصى ١٠٠ فدان للأسرة الواحدة. تجد فى المحافظة مشاكل كثيرة متعلقة بالماء؛ فهو غير كافٍ على الرغم من حفر ٤٨ بئرًا تستخرج الماء من أعماق تصل إلى ٨٠٠ وحتى ١٠٠٠ متر، والمنطقة تحتاج إلى ٢.٧ متر مكعب من الماء لكل فرد، أى يجب توفير ٢ مليار دولار لهذا الغرض، وليس هناك أمل عند المحافظ فى الحصول على هذا التمويل من الدولة، لذا فهو يخطط لتنمية السياحة، فقد تم إنشاء ١٠ قرى سياحية بجانب "البحيرات المرة" وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وقد وعدت دول الاتحاد الأوروبى بمنح تمويل فى حدود ٢٠ مليون دولار، لأن أوروبا تعطى اهتمامًا لتنمية سيناء، إذ يحضر إلى هذه المنطقة فى الشتاء أكثر من مليون أوروبى، وهم يرغبون فى الراحة فى ظروف جيدة...

بالطبع يمكن فهم محافظ سيناء، فقد مسحت الحروب أرض المنطقة عدة قرون ولم تتوقف هذه الحروب إلا فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين، وبدأت الطيور والناس فى العودة إلى هنا، كما جاء الروس الجدد إلى سيناء.

عند كتابة ما ذكرناه فإننا نقدم أنفسنا دون قصد للقارئ على أننا "مكتشفون للروائع". هذا بالطبع غير صحيح فقد رأى كل هذا آلاف من مواطنينا منذ "زمن بعيد" وقد أسسوا طريقًا للروس فى التاريخ المصرى، ونحن نأمل أن تضيف الأجيال الجديدة نصيبها إلى العلاقات مع المصريين.

الباب الخامس

الحرب العالمية الثانية فى مصر

يصطحب المرشدون السياحيون فى شمال إفريقيا السائحين الأجانب لمشاهدة العديد من المعالم، منها العجائب القديمة، والجديدة لفن العمارة، وآثار الحضارات المنسية التى تمثل فخر الأحفاد وشرف المعاصرين ، وبالإضافة إلى كل شىء آخر دائمًا يشمل برنامج الزيارة الشواهد التى تقام لتخليد الانتصارات العظيمة على الأعداء، والمقابر التى تركها هنا الغزاة وأطلال المنازل شواهد على بربرية المستعمرين. هنا لا يُنسى ولا يُغفر أى شىء لأى أحد.

لقد اهتمت القوى العظمى الأوروبية منذ قديم الزمان بشمال إفريقيا لقربها منها ، ولكونها موقعًا إستراتيجيا مهما، ونقطة أولى – ترانزيت – لإعادة نقل البضائع يسعى عن طريقها المستعمرون إلى الثروات الطبيعية والبشرية لكل القارة السوداء. لذلك فقد تحولت معركة تقسيم إفريقيا إلى أحد أهم عناصر السياسة الخارجية لدول غرب أوروبا، وقد حصلت إنجلترا وفرنسا – اللتان كانتا تمثلان أقوى القوى الاقتصادية فى نهاية القرن التاسع عشر – على نصيب الأسد من هذه المعركة. فاستقرت إنجلترا فى مصر، وتمكنت بعد الحرب العالمية الأولى من تكوين شبكة متكاملة من المستعمرات الأفريقية امتدت من القاهرة إلى كيبتاون، أما فرنسا فقد استولت على الجزائر فى فترة تقسيم العالم، ثم احتلت تونس فى عام ١٨٨١ ، وفرضت حمايتها على المغرب نتيجة للاتفاق السياسى فى عام ١٩١٢ مع إنجلترا وإسبانيا وإيطاليا، وفى هذا العام نفسه استولت إيطاليا على ليبيا فى أثناء حربها مع تركيا.

قبل بداية عام ١٩١٤ أصبحت كل إفريقيا مقسمة بين بريطانيا العظمى وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا، وكل من استولى من هذه الدول على حصة أصغر من المستعمرات بدأ فى التخطيط للاستيلاء على أراض أخرى جديدة، وقد كان قادة فرنسا وإنجلترا مصممين تمامًا، ليس فقط على المحافظة على ما استولوا عليه، ولكن أيضًا على توسيع مستعمراتهم فى إفريقيا، وهنا أصبح تعارض مصالح المستعمرين أحد أهم أسباب قيام الحرب العالمية الأولى، فقد قامت الجيوش الألمانية - التركية بحملات فاشلة على قناة السويس فى شمال إفريقيا فى أعوام ١٩١٥ - ١٩١٦ . وقد كانت القوى البريطانية والفرنسية أقوى فى المعارك الحربية التى دارت آنذاك. كانت المعارك عند الحدود الغربية لمصر أيضًا شرسة، حيث أعدت القيادة الألمانية - التركية هجومًا للقبائل "السنوسية" من ليبيا ، مكنتها من الاستيلاء على بعض الواحات الواقعة على الحدود. وقد استخدمت كل من إنجلترا وفرنسا المحاربين الأفارقة بتوسع للدخول فى الحرب (وصل إجمالى عدد المشاركين منهم فى المعارك إلى ٨٠٠ ألف فرد)، بالإضافة إلى الخامات الإستراتيجية والمنتجات التى حصلوا عليها من مستعمراتهم. وفى الوقت نفسه لم تنقطع المعارك الحربية بين الوطنيين الليبيين والمحتلين الإيطاليين ، وبين الثوار والقوات الفرنسية فى كل من الجزائر وتونس والمغرب فى أثناء الحرب العالمية الأولى. فقدت ألمانيا نتيجة للحرب العالمية الأولى مستعمراتها، ولكن ذلك لم يؤد إلى تخفيف تعارض المصالح فى أوروبا، كما أضافت ثورة أكتوبر الكبرى فى روسيا عام ١٩١٧ نصيبها فى هذا التعارض، والتى أصبحت "أزمة نظام المستعمرات" من أسبابها الرئيسية ، وقد أثار قلب نظام الحكم القيصرى فى روسيا موجة قوية من حركات التحرير الوطنية فى العالم كله بما فيه شمال إفريقيا، حيث أصبحت فى هذه الحقبة دولة رائدة لحركات التحرير فى القارة السوداء. تلا إنشاء الأحزاب الشيوعية فى أوروبا فى العشرينيات تأسيس منظمات شيوعية فى الجزائر وفى تونس، وتأسيس الحزب الشيوعى فى مصر عام ١٩٢١ ، وقد تمكنت حركة التحرير الوطنية فى مصر من دفع لندن فى عام ١٩٢٢ للإعلان عن رفعها الحماية عن هذا البلد، أما فى المغرب فقد ثارت القبائل "الريفية" وكونت جمهورية خاصة بها، ولم يتم القضاء على هذه الثورة فى مايو ١٩٢٦ إلا بعد تحالف القوات المسلحة الإسبانية والفرنسية.

ثم تم إعلان جمهورية حرة فى "جاريان" فى ليبيا فى عام ١٩١٨، ولكنها اختفت من الوجود فى عام ١٩٢٣، وانتشرت حركة التحرير الوطنية فى الغابات الكثيفة فى "الجبل الأخضر"، حيث قاد التمرد الشيخ "عمر المختار" الذى كان عمره فى ذلك الوقت ٦٠ عامًا، وكان عنده خبرة فى النضال ضد الفرنسيين والإيطاليين فى أعوام ١٩١١ - ١٩١٦ . كانت قوات "عمر المختار" تجيد الاختباء، وتضرب المحتلين الإيطاليين ضربات موجعة، لم يتمكن الإيطاليون من القضاء على التمرد إلا فى عام ١٩٣١ بعد أن استخدموا الأسلحة الكيميائية ضد رجال المقاومة، وأسروا "عمر المختار" نفسه بعد إصابته بجروح فى أثناء المعركة، ثم تم إعدامه فى يوم ١٧ سبتمبر علنًا فى "سلوكة" أمام ٢٠ ألف من البدو جمعهم الإيطاليون من الأقاليم المختلفة المجاورة.

اضطر المستعمرون إلى تقديم بعض التنازلات السياسية تحت ضغط الحركات الرافضة للاستعمار وأن يمنحوا استقلالاً صوريا، ولكن لم تكن القوى الوطنية التى ضمت فى الحقيقة صفوة المجتمع فى هذه الفترة تحظى بمساندة شعبية واسعة كافية لكى تتوصل إلى تصفية النظام الاستعمارى، فحتى مصر التى حصلت على الاستقلال لم تستطع التخلص من قوات الجيش الإنجليزى، فقد استمر وجود جيوش المستعمرين أيضًا فى دول شمال إفريقيا الأخرى، ولم تكتف هذه الجيوش بوجودها ولكنها كانت تستعد لحرب جديدة.

طبرق الليبية نذير العلمين المصرية

مدينة "طبرق" تبعد ١٣٣ كيلومترًا عن الحدود المصرية ، وهى قديمة عمرها أكثر من ألفى عام. فقد أنشأ هنا اليونانيون القادمون من قبرص فى الألفية الأولى قبل الميلاد قرية أطلقوا عليها اسم "أنتيبيرجوس"، وتوضح الخرائط اليونانية القديمة من القرن الرابع أن هذه القرية كانت تحمل اسم "بلينى"، أما اسم "طبرق" فقد أطلقه العرب على هذه المدينة عندما استولوا عليها فى عام ٦٢٢ ، وفى عام ١٧٩٨ عبرت

جيوش "نابليون" هذه المدينة وهى تتجه إلى مصر، وقد شاهد سكان "طبرق" المعركة البحرية بين سفن الفرنسيين والإنجليز فى عام ١٨٠٨ ، وفى ٤ أكتوبر ١٩١١ حضر إليها المستعمرون الإيطاليون، ولكنهم واجهوا مقاومة شديدة من سكان هذا المكان الذين استمروا فى أعمال المقاومة البطولية حتى عام ١٩٣٠ ، وتفخر "طبرق" بأن البطل القومى الليبى "عمر المختار" ولد فى ضواحيها. وأصبحت المقابر الضخمة التى تضم رفات الإنجليز والفرنسيين والأستراليين والإيطاليين والألمان وجنود من الجنسيات الأخرى، والذين فقدوا حياتهم فى هذا المكان بسبب مصالح ليس لهم فيها لا ناقة ولا جمل، إحدى المعالم الحزينة فى "طبرق". تعتبر "طبرق" اليوم شاهداً على الأحداث الدراماتيكية التى جرت فى شمال إفريقيا فى سنوات الحرب العالمية الثانية.

وقد عمل الفاشيست الإيطاليون الذين احتلوا ليبيا كل ما فى وسعهم لكى يحولوها إلى رأس جسر لمغامرات أخرى، وقد سبق الأحداث التى جرت هنا بفترة طويلة الاستعداد لجزرة جديدة ، إذ تم إنشاء طريق إستراتيجى واسع للسيارات ، امتد على طول ١٨٨٢ كيلومتراً من الحدود التونسية إلى الحدود المصرية فى أعوام ١٩٣٤ - ١٩٤٠ ، وفى الجزء الجنوبى من هذا الطريق أُنشئت تفريعات للربط بين كل النقاط المهمة فى البلد، وتم أيضًا بناء نحو ٢٠ مطاراً وممرات للإقلاع والهبوط، منها قاعدة جوية من الدرجة الأولى فى "العادم" التى تبعد ٢٧ كيلومتراً عن "طبرق"، كما أعيد بناء ، أو تجهيز أرصفة للسفن الحربية فى "طرابلس" و "زفرة" و "بنى غازى" و "طبرق"، وقد أصدرت حكومة "موسولينى" الفاشستية قانونًا يجيز تجنيد المواطنين الإيطاليين المقيمين فى ليبيا (زاد عددهم حتى عام ١٩٤٠إلى ١١٠ آلاف)، وكذلك العرب الذين يمتد عمرهم حتى ٧٠ عامًا، وبناء على هذا القانون تم تجنيد نحو ٧٠ ألف ليبى لأداء أعمال الخدمة العسكرية المساعدة بعد حصولهم على تدريب محلى خاص بالإضافة إلى ٢٠ ألف من المستعمرين الإيطاليين.

أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا العظمى وفرنسا فى ١٠ يونية ١٩٤٠ ، وكان أحد أهداف هذه الحرب الاستيلاء على المستعمرات الإنجليزية والفرنسية فى إفريقيا، وقد بدأ الجيش الإيطالى (وقوامه ٦ فرق) تحت قيادة الجنرال" أ. بيرتى"

فى الهجوم من منطقة "طبرق" يوم ١٣ سبتمبر ١٩٤٠ للاستيلاء على الأراضى المصرية، واشتبك بسرعة مع الجيش الإنجليزى "النيل" (يتكون من فرقتين ولواءين تحت قيادة الجنرال "أ.ج. ويفيل")، واحتل الإيطاليون "سيدى برانى" فى ١٦ سبتمبر، نقطة ارتكاز على الأرض المصرية ، ولكنهم لم يستطيعوا التقدم بعد ذلك، حيث تم إيقافهم عند مشارف أكبر مدينة فى غرب مصر "مرسى مطروح".

حصل الإنجليز على إمدادات فقاموا بهجوم مضاد فى ٩ ديسمبر ١٩٤٠ ، ولم يكتفوا فقط بطرد الإيطاليين بعيداً إلى الغرب، ولكنهم عبروا الحدود مع ليبيا، وفى يومى ٢١ – ٢٢ يناير ١٩٤١ أصبحت "طبرق" مسرحًا لمعركة دموية واستولت عليها القوات البريطانية. طور جيش "النيل" هجومه وتمكن من الاستيلاء على مدينة "بنى غازى" فى يوم ٧ فبراير بالتعاون مع فرق من الوطنيين الليبيين المعادين للفاشستية، وفى الوقت نفسه تمكن جيش "فرنسا المحاربة" المهاجم من جهة غرب السودان من احتلال الواحة الكبيرة "كفرة" فى يوم ١٢ فبراير ١٩٤١، ثم احتل واحة"جغبوب" فى ٢١ مارس. وكما روى لى فيما بعد فى "اللجنة الليبية للمحاربين القدامى" التى أسست فى إطار التوجيه المعنوى للقيادة الرئيسية الحربية، فإن القوات الليبية التى شاركت فى المعركة مع القوات المسلحة الإيطالية لم تتكون فقط من المهاجرين ، ولكن أيضًا من الليبيين الذين وقعوا فى الأسر، والذين تم تجنيدهم فى الجيش الإيطالى، وقد وصل عدد المحاربين الليبيين الذين شاركوا فى معارك تحرير بلدهم من الفاشستية فى سنوات الحرب العالمية الثانية إلى ١٤ ألف فرد، منهم ١٢٠ ضابطا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القوات البريطانية التى حاربت على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط والقوات الفرنسية التى دخلت أراضى البلد من الجنوب وجنوب الشرق قد تلقت مساعدة من سكان الواحات ومن البدو الذين نصبوا للفاشيست الأكمنة، وقاموا بكثير من الغارات على المواقع والمعسكرات الإيطالية ، وكثيراً ما كانت تتم العناية بالجرحى الإنجليز والفرنسيين فى خيم البدو، وقد كتبت عن ذلك حتى الصحف الغربية التى كانت تصدر فى هذا الوقت.

تم تحرير أكثر الأقاليم الليبية اكتظاظًا بالسكان"كيرنايكا" بالكامل من المحتلين الإيطاليين فى شتاء ١٩٤٠-١٩٤١ ، وتم أسر ٢٥ ألف جندى وضابط إيطالى (منهم ٧٩ جنرالاً)، أما الآخرون فقد تم القضاء على روحهم المعنوية تمامًا ، عندئذ طلبت روما النجدة من "هتلر"، فقررت ألمانيا الفاشستية مساعدة حليفتها ، وأرسلت فى فبراير ١٩٤١ إلى شمال إفريقيا فيلقًا من الدبابات ، يتكون من فرقة دبابات وفرقة مشاة تحت قيادة الجنرال "أ. رومل" الذى كتب عليه أن يبقى هنا حتى النهاية المأساوية للهتلريين فى عام ١٩٤٣ ، ولكن فى ذلك الوقت لم يكن "رومل" يعتقد فى إمكانية هزيمته فى الحرب فى سبيل إفريقيا. وبالإضافة إلى ذلك فقد تعقد الموقف فى أوروبا تمامًا وخشى الإنجليز الهجوم الفاشستى الألمانى على البلقان، فأوقفوا تقدمهم فى ليبيا فى منطقة "العجيل" التى تقع على حدود طرابلس فى ١٠ فبراير، وبدأوا يدفعون بجزء من قواتهم إلى اليونان، وقد استفاد "رومل" من هذا الوضع تمامًا.

تحولت القوات الإيطالية الألمانية (تكونت من أربع فرق فقط) فى ٣١ مارس ١٩٤١ إلى الهجوم تحت قيادة رومل، ووصلت يوم ١٤ أبريل إلى قرب "طبرق"، وقد حاربت "طبرق" الأعداء ببطولة لمدة أسبوعين حتى يوم ٣٠ أبريل، وقد حارب بجانب الإنجليز كل السكان البالغين وكتيبة ليبية واحدة استشهد تقريبًا كل أعضائها. تبادل الجانبان الاستيلاء على المدينة عدة مرات، ودارت المعركة على كل متر من الأرض، كانت القوى غير متكافئة ولكن الأبطال قاوموا بصلابة ولم يستسلموا، لذلك قررت القيادة الفاشستية الالتفاف حول هذه القلعة المحصنة والاستمرار فى السير إلى مصر، أما "طبرق" التى كانت تحميها فرقة أسترالية (وبعد ذلك إنجليزية) ولواء بولندى مع وحدات ليبية فقد قاومت الحصار الذى استمر حتى يوم ١٠ ديسمبر ١٩٤١ ولم تستسلم أبدًا.

بدأ الجيش الإنجليزى الثامن (كان يتكون فى ذلك الوقت من سبع فرق وخمسة ألوية وأكثر من ٩٠٠ دبابة ونحو ١٣٠٠ طائرة) الهجوم تحت قيادة الجنرال "أ.ج. كاننجهام" على قوات "رومل" التى كانت تضم عشر فرق وأكثر من ٥٠٠ دبابة ونحو ٥٠٠ طائرة، وقد ساعد على ذلك تغير الموقف الإستراتيجى الحربى نتيجة الهجوم الغادر لألمانيا الهتلرية على الاتحاد السوفيتى فى يوم ٢٢ يونية عام ١٩٤١ ، وقد أدى القتال البطولى

للجيش السوفيتى منذ بداية الحرب إلى إجبار الفاشيست على دفع عدد إضافى من الفرق على الجبهة الشرقية، تم نقلها من الجبهات الأخرى، ومنها مسرح العمليات الحربية الإفريقى. لم ينقذ ذلك الإنجليز من الهزيمة فقط في مصر، ولكنه أعطاهم أيضاً الفرصة للإعداد لهجوم جديد واستعادة المواقع التى سبق أن فقدوها بما فيها رفع الحصار عن "طبرق".

ولكن وجهت قوات "رومل" ضربة مفاجئة فى يوم ٢١ يناير ١٩٤٢ ردت بها على الإنجليز وطردتهم من "بنى غازى"، ثم وصلت إلى حدود "الغزالة" و "بير حكيم" التى تقع فى وسط "كيرنايكا"، هنا حدث نوع من التوازن المؤقت فى القوى أعطى الفرصة لرومل لبدء الاستعداد بهدوء للهجوم الثانى على مصر واستغرق ذلك ٤ أشهر.

جددت القوات الإيطالية الألمانية المعارك مرة أخرى فى يوم ٢٧ مايو ١٩٤٢، فاخترقت خط دفاع الإنجليز وتحركت إلى الشرق، استولت هذه القوات على "طبرق" فى ٢١ يونية، وتمكنت قبل نهاية الشهر من قطع ٤٠٠ كيلومتر فى الأرض المصرية دون مقاومة حتى وصلت إلى مدينة العلمين الصغيرة، التى تبعد ١٢٣ كيلومتراً فقط عن الإسكندرية، التى لا تبعد كثيراً عن قناة السويس. نفدت قوى المهاجمين الفاشيست فى هذا المكان بالذات ولم تصلهم إمدادات جديدة، حيث إن الجبهة السوفيتية الألمانية استنفذت كل المخزون الاحتياطى لألمانيا ولحلفائها، كما اضطرت القيادة الفاشستية العليا إلى سحب حتى ذلك القليل المخصص للقوات التى فى إفريقيا وإرساله إلى روسيا نتيجة للخسائر الضخمة التى تكبدتها عند مدينة "ستالينجراد"، "لذلك لم تتم تلبية الاحتياجات المتنامية على الجبهة الشرقية الإفريقية إلا بقدر قليل فقط من السلاح والذخيرة، يشهد على ذلك "ك. تيبلسكيرخ" فى كتابه "قصة الحرب العالمية الثانية". ولكن حتى وسائل النقل التى أرسلت إلى إفريقيا تعرضت لضربات الطيران الإنجليزى الأمريكى المتمركز فى جزيرة "مالطة"، وفى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط، وحتى فى حالة وصولها إلى إفريقيا فقد كانت تأخذ وقتاً طويلاً جدا للوصول بسبب ظروف الصحراء وبعد المسافات بين قوات جيش "رومل".

لذلك اضطر "رومل" إلى إصدار أوامره بالتوقف والتحصين وانتظار ظروف أفضل، وعلى الرغم من تمسك الفاشيست بالأرض الصحراوية فقد كانت أيامهم معدودة.

اشتعلت الشعلة عند العلمين

"العلمين" بلدة بدوية مصرية صغيرة اشتهرت فقط بسبب المعارك التى دارت بالقرب منها، ونتج عنها انتقال المبادرة الحربية إلى أيدى الحلفاء الواقفين ضد الائتلاف الفاشستى. بدأ من هذا المكان بالذات أول وآخر هجوم عنيف لهم على الغرب فى اتجاه المحيط الأطلنطى، يوجد الآن فى العلمين متحف حربى (افتتح فى ١٦ أكتوبر ١٩٦٥)، ومعرض مفتوح للمعدات التى اشتركت فى الحرب، ومقابر منظمة تم فيها دفن من مات فى أثنائها.

عند الاقتراب من العلمين من الجانب الشرقى من ناحية الإسكندرية تبدو المنازل الصغيرة المصنوعة من الطين فى هذه البلدة كأنها متحدة مع الصحراء الرمادية الصخرية، أما الصحراء نفسها فهى وعرة وغير مريحة وليس فيها أى غطاء أخضر، ويمكن رؤيتها حتى من عند خط الأفق نفسه، وهى تبدو كما لو كانت قاسية غير مرحبة بالضيوف، على اليمين وعلى بعد نصف كيلومتر من المدينة يوجد شاطئ منحدر للبحر ومرسى ميناء صغير اشتهر لأن أول ناقلة تحمل بترول مصرى تم اكتشافه فى هذه المنطقة بعد انتهاء الحرب ، أبحرت منه فى عام ١٩٦٨ .

مررنا بجانب غنائم الحرب المعروضة على جانب الطريق نفسها، ثم أكملنا سيرنا غربًا إلى "سيدى عبد الرحمن" التى تبعد ٢٣ كيلومترًا عن العلمين، حيث كان هناك فى أثناء الحرب مركز القيادة لكل من الجانبين المتحاربين بالتناوب، أما الآن فيوجد فيها مجمع فندقى فاخر. بين لنا مرشد المتحف المحلى "محمد صديق" تنظيم الجيوش للقتال الذى دار فى منطقة العلمين فى ٢٣ – ٢٥ أكتوبر ١٩٤٢ .

كان النسق العسكرى الأول للجيش الثامن البريطانى يضم ثلاث فرق دبابات كاملة التجهيز (حملت أرقام ١٠و ١٣و ٣١) تحت قيادة الجنرال "ب.مونتجومرى". وكانت الفرقة ٩ الأسترالية للمشاة تتمركز على أقصى الطرف الشمالى الساحلى لجناح الفيلق رقم ٣٠ ، وكانت القوة الضاربة فى الجزء المتوسط من الجبهة تتكون من الفرقة الهندية الخامسة، والفرقة الثانية النيوزيلندية، والفرقة الأولى جنوب الإفريقية التى كانت

ضمن الفيلق العاشر، وشغلت فرقة المشاة الهندية الرابعة الجناح الأيسر، وكانت ضمن الفيلق ١٣ ، أما الجيش الثامن البريطاني فكان يضم فقط عشر فرق وأربعة ألوية منفصلة من ضمنها - بجانب ما ذكر أعلاه - فرق يونانية وفرنسية ولواء بولندي وغيرهم. كان إجمالي القوات يمثل ٢٣٠ ألف فرد و١٤٤٠ دبابة و٢٣١١ مدفعًا و١٥٠٠ طائرة. وتم استخدام الجيش المصري الذي ضم أكثر من ١٠٠ ألف فرد للأعمال المعاونة أساسًا مثل تنظيم الإمدادات، وتقوية والمنشآت، وحماية الأهداف الحربية وخطوط المواصلات وكذلك الأسرى... إلخ. سمح ذلك بإمكانية تفرغ أفراد جيش "مونتجومري" للعمليات الحربية الرئيسية، لذلك لم تكن خسائر المصريين كبيرة.

مررنا بجانب بئر "فضل أبو شاشير" الذي اشتهر باسم الارتفاع رقم ٣٣ (في أثناء الحرب)، كان يمر من هنا من "راس الشقيق"، من الشمال إلى الجنوب ، خط تحصينات مرعب للقوات الألمانية الإيطالية الفاشستية ، وقد أرانا المرشد ما تبقى منها من أطلال. كان جيش الدبابات الذي قاده الفيلد مارشال "أ. رومل" يحتل خطًا دفاعيًا يصل طوله إلى ٦٠ كيلومترًا. كان الجناح الشمالي يتمركزعند شاطئ "البحر الأبيض المتوسط" (كانت هنا مواقع لواء "ترينتو")، أما الجناح الجنوبي فكان يتمركز في "القطارة"، وهي منخفض وعر يصعب عبوره، وكان يتمركز فيه لواء "بولونيا"، وقد ضم الجيش الفاشستي ٨ ألوية إيطالية و ٤ ألوية ألمانية، وبلغ إجمالي تعداد الجيش ٨٠ ألف فرد و ٥٤٠ دبابة و ١٢١٩ قطعة سلاح و٣٥٠ طائرة.

تلخص فكر القيادة العليا البريطانية والأمريكية في هزيمة جيش "رومل" في مصر (بواسطة قوات الجيش الثامن) أولاً، وبعد ذلك يتم الهجوم بإنزال فرق جنود على أراضي المغرب والجزائر، ثم الاستيلاء على كل شمال إفريقيا بما فيه ليبيا، وحملت هذه العملية اسم شفري هو "طورش" أي الشعلة.

قرر الجنرال "مونتجومري" أن يضرب ضربته الرئيسية لجيش "رومل" على الجناح الأيمن الساحلي من منطقة جنوب غرب العلمين في اتجاه "سيدي حامد"، ولخداع الفاشيست تم عمل تجهيزات خلف الجناح الأيسر ، مثل فيه الإنجليز وجود تركيز

من أرتال الدبابات، وتم بناء نماذج هيكلية لمخازن وأهداف خادعة أخرى. تطلب كل هذا الدخول في المعركة في الصحراء في أماكن مكشوفة تمامًا، لذلك كان من الضروري خداع فرق استطلاع العدو وتوجيهه إلى أماكن خادعة. وبالمناسبة من الجدير بالذكر، وبناء على المعلومات الموجودة في المتحف الحربي في العلمين، كانت لقيادة "روميل" شبكة واسعة من العملاء ومن الجواسيس حتى في القاهرة نفسها، وكانت مجموعة الجواسيس المعروفة باسم "ألما ماتر" هي أكثرها نشاطًا ، وقد خصص المتحف لنشاطها قسمًا منفصلاً، وقد رأس هذه المجموعة كل من "جون إبلر" و "بيتر مونكساتر" اللذين تنكرا في ملابس ضباط عسكرية إنجليزية وأمريكية ، ومرا بانتظام على مواقع الجيش الثامن ، وتنقلا بين المدن المصرية المختلفة وحصلا على معلومات مهمة جدا. ولم يقل عنهم شهرة الجاسوس الإنجليزي العقيد "ج. براملبي" الذي قضى في شمال إفريقيا نحو نصف قرن، وهو معروف باسم "لورنس الصحراء الليبية". وعلى الرغم من هذه "القوى" فقد فطن "روميل" إلى الخطط الحقيقية في اليوم الثالث فقط من المعارك، أما الإنجليز فلم يقدروا قوة دفاعات العدو حق قدرها.

عندما هبط الليل على الصحراء في يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ أطلق أكثر من ألف مدفع النيران على مواقع الفاشيست، وفي الساعة ٢٢ تحركت الدبابات ومشاة الكتيبة ٣٠ خلف ساتر النيران بهدف اختراق دفاعات العدو الممتدة تسعة كيلومترات على الجناح الساحلي، ولكن تبين أن نيران المدفعية لم تكن بالدرجة المطلوبة من الكفاءة، دارت معركة حامية ثم توقف الهجوم. دفع "مونتجومري" في اليوم التالي بثلاث فرق مدرعات من الفيلق العاشر، والتي كانت متمركزة في الخط الثاني للجبهة، إلى المعركة، لم يؤد هذا أيضًا إلى أي تغيير في الموقف، والأسوأ من ذلك أن "روميل" توقع اتجاه الضربة الرئيسية فأرسل قواته المدرعة الرئيسية إلى الجناح الساحلي، نتيجة لذلك قررت القيادة الإنجليزية التوقف عن محاولاتها لفتح ثغرة في المواقع الدفاعية للعدو وإعادة ترتيب قواتها، وقد قامت بذلك في الفترة من ٢٧ أكتوبر إلى ١ نوفمبر.

جدد الجيش الثامن في فجر يوم ٢ نوفمبر الهجوم بمساندة القوات البحرية، ووفرت له القوات الجوية سيطرة كاملة على السماء، وبدأ الفاشستيون هجومًا مضادا بالدبابات في محاولة لمنع اختراق دفاعاتهم، ولكنهم تكبدوا خسائر كبيرة لم يكن لدى

"رومل" ما يمكن أن يعوضها به. كان اللهب يرتفع من الدبابات المشتعلة (خسر رومل ٢٠٠ منها) طوال ليل يوم ٤ نوفمبر، وعند بداية الصباح استطاع اللواء الهندى أخيراً أن يفتح ثغرة على طول ثمانية كيلومترات فى وسط دفاعات العدو، واندفعت إليها بسرعة القوات الرئيسية للإنجليز. كان يحوم خطر الوقوع تحت الحصار فوق تجمعات القوات الألمانية الإيطالية المتمركزة عند الساحل، فبدأ رومل فى سحب قواته إلى الغرب، واستولى الألمان على كل مخزون الماء الذى كان عند الإيطاليين وكل وسائل النقل وألقوا بحلفائهم إلى مصير مجهول، نتيجة لذلك وقع نحو ٣٠ ألف جندى وضابط إيطالى فى الأسر، وانتقلت المبادرة إلى يد "مونتجومرى".

احتلت القوات الإنجليزية "مرسى مطروح" فى يوم ٨ نوفمبر، "وطبرق" فى يوم ١٣ و"بنى غازى" فى يوم ٢٨ ، ووصلت للمرة الثالثة إلى أطراف مدينة "العجيل" الليبية، حيث أوقفهم العدو مرتين قبل ذلك، أما فى هذه المرة فلم تطل فترة تعطيلهم. نزلت القوات الأمريكية والإنجليزية فى كل من تونس والجزائر فى العمق خلف "رومل"، فقرر الأخير ألا يتمسك بمواقعه الدفاعية التى كان قد أعدها مسبقًا، وبدأ فى ١٢ ديسمبر فى الانسحاب مرة أخرى، وفى ٢٣ يناير خرجت القوات الفاشستية من طرابلس، أما فى النصف الأول من فبراير فقد انسحبت إلى خط "ماريت"، وهو خط دفاع آخر مجهز على أرض تونس جنوب جزيرة "جربة" ، وكان أمام "رومل" واجب يتلخص فى أن يوقف هجوم جيش "مونتجومرى" عند "خط ماريت" ، وأن يحافظ على تونس من خلفه نقطة ارتكاز إستراتيجية مهمة فى شمال إفريقيا، ولكن عملية "الشعلة" استمرت.

الجبهة الثانية

ظهر أسطول من السفن فى الليلة السابقة ليوم ٨ نوفمبر ١٩٤٢ بالقرب من موانى شمال إفريقيا الكبيرة "الدار البيضاء" و"الرباط" و"أوران" والجزائر"، وبدأ إنزال قوات إنجليزية وأمريكية. كانت هذه أول قافلة من الأولوية الأمريكية الستة واللواء الإنجليزى التى فتحت "جبهة ثانية" على شمال إفريقيا طبقا لخطة "الشعلة" تحت قيادة الجنرال "د.أيزنهاور"، ولم تواجه هذه القوات مقاومة تذكر ، فبدأت تتحرك دون عوائق

إلى الشرق، واحتلت مواقعها فى كـل من المغـرب والجـزائر قبل نهاية شهر نوفمبر، ثم دخلت تونس.

انضمت القوات الإيطالية فى ديسمبر ١٩٤٢ إلى القوات الألمانية الموجودة فى تونس مكونة جيش الدبابات الخامس تحت قيادة الجنرال" أرنيم"، تلقى هذا الجيش أمرًا بالمحافظة على تونس بالتعاون مع قوات "رومل" التى انسحبت.

سعت قيادة الحلفاء الغربيين إلى منع اتحاد قوات"رومل" مع قوات "أرنيم" ، لذلك اتخذت قرارًا بالهجوم على خليج "جابس" فى الأيام الأولى من شهر فبراير ١٩٤٣ لقطع الطريق على انسحاب "رومل" من "خط ماريت" إلى الشمال، ولكن "رومل" استخدم قوات اللواءين اللذين استدعاهما من ليبيا لتوجيه ضربة مفاجئة للقوات الأمريكية، وطردها ١٥٠ كيلومترًا إلى شمال الغرب، أى إلى موقعهـم الأصلى، وقـد سقط فى أسره ٢٨٦٦ من الأمريكان فقط. كان الحسم ينقص أداء الحلفاء الغربيين ، فطالت العمليات الحربية فى تونس. أعطى ذلك الفرصة للقيادة الألمانية للمناورة بالقوات الاحتياطية وللدفع بها على الجبهة السوفيتية الألمانية، حيث كانت تدور فى ذلك الوقت معارك طاحنة فى منطقة "دونباس" فى اتجاهات "خاركوف" و"كورسك"، وقد وجهت حكومة الاتحاد السوفيتى نظـر الحلفاء إلى ذلك، ولكنهم لم يقـوموا بالإسراع بعمليـاتهم فى شمال إفريقيا، بل إنهم أجلوها لفترة.

اتحدت الجيوش الأمريكية والإنجليزية فى المجموعة رقم ١٨ للجيوش تحت قيادة الجنرال "ج. ألكسندر"، وبدأت فى الهجوم على "خط ماريت" من شمال الغرب فى منطقة "مكنسة"، وبعد معارك عنيفة، استمرت لمدة أسبوع لم يتميز فيها مرة أخرى أداء الحلفاء بالحسم ، بدأت القوات الألمانية فى الانسحاب – على الرغم من ذلك – إلى شمال الشرق فى اتجاه مدينتى "تونس" و "بيزرت". تبقى عند نهاية أبريل لدى القوات الألمانية الإيطالية فقط ١٢٠ دبابة و٥٠٠ مدفع، بينما كان لدى الحلفاء الغربيين ١١٠٠ دبابة ونحـو ٢٠٠٠ مـدفع، بالإضـافـة إلى ٣ آلاف طائرة حـربيـة، وعلى الرغـم من ذلك لم يتمكنوا من القضـاء على مقاومـة العدو إلا بعد الحصـول على تعـزيزات أخرى،

فتمكنوا فى ٦ – ٧ مايو من فتح ثغرة فى دفاعات الفاشيست فى منطقة "مجز الباب" ، وصلوا منها إلى البحر واستولوا على مدينة تونس، وفى الوقت نفسه تمكنت القوات الأمريكية المهاجمة بمحاذاة الشاطئ من الاستيلاء على "بنزرت" فى يوم ٧ مايو. أصبحت أيام جيش "إفريقيا" معدودة؛ فقد استسلمت القـوات المحاصرة فى جـزيرة "بون" (٢٥٠ ألف فرد نصفهم من الألمان)، استسلم أيضًا قائد جيش الدبابات الجنرال "أرنيم"، وانتهى مستقبل القيادة العليا بعد ذلك بقليل. غادر "روميل" إفريقيا ورأس قوات الجيش الفاشيستى الذى احتل إيطاليا وفرنسا ، ثم اشترك فى الانقـلاب الفـاشل على "هتلر" فى عام ١٩٤٤، وبعد ذلك انتحر. فقدت دول المحور فى تونس أكثر من ٣٠٠ ألف جندى وضابط منهم ٣٠ ألف قتيل وأكثر من ٢٠ ألف جريح، وفقد الحلفاء نحو ٧٠ ألف فرد قتل منهم ١٠٢٩٠ ، انتهت العمليات الحربية فى شمال إفريقيا، ولكن استمرت الحرب على الجبهة السوفيتية الألمانية لمدة عامين آخرين.

عندما انتهت المعارك

تم تصميم متحف العلمين فى مبنى من الطوب الرملى الرمادى المماثل للون الصحراء المحيطة به على شكل متوازى الأضلاع، وقد وضع بداخله فى وسطه مدفع ألمانى عيار ٥٧ مم من الغنائم. تغطى جدرانه إطارات تحتوى على رموز التشكيلات التى شاركت فى المعارك من مختلف الجنسيات، ولكن ينتظر الزوار فى الداخل نوع من خيبة الأمل أو من الدهشة، فمن لحظة بداية زيارة المعروضات يسير الزائر على خط المواجهة بمعنى الكلمة، فالفاشيست على اليسار بكل انتصاراتهم وهزائمهم، وعلى اليمين الحلفاء الغربيون. كما يوجد الكثير من الصور الشخصية، وتلك المبينة لتنظيم الجيوش للقتال، وعينات من الأسلحة ومن الملابس الحربية، "روميل" بجوار الخريطة، "روميل" أستاذ المناورات، وتمثال حجرى لروميل، وتمثال من الشمع لروميل يتحدث مع شيخ واحة "سيوة" على حدة فى يونية ١٩٤٢ ، كما توجد هنا صور مقر القيادة العامة لهتلر وصورة شخصية للفوهرر وأعلام دول المحور.

روعة الجانب الغربي أقل ، قيادات الجيش الثامن (كانت متعددة)، وخطط العمليات، وعينات من الأسلحة الحديثة في ذلك الوقت، وتنظيم الجيوش للقتال في أثناء معارك الاستنزاف قبل المعارك الفاصلة عند العلمين، وتمثال نصفي لمونتجومري، وأعضاء مجلس القيادة الحربية في لندن، وصورة شخصية لتشرشل، و١٧ علماً للدول التي شاركت قواتها في حرب شمال إفريقيا ضد الفاشيست، وصورة خاصة لنشاط الجواسيس من الجانبين يتضح فيها الانحياز للجواسيس الألمان في ذلك الوقت، وأخيراً قاعات أربع أخيرة تحكي عن المشاركة المصرية في الحرب، وعن مصر بعد الحرب. كل شيء مصنوع لترجيح وادعاء استنتاجات تذهب بعيداً.

سألت الدكتور "محمد صديق" رئيس العاملين في المتحف : "كم كان تعداد جيش روميل" في العلمين؟. أجاب متيقظاً : "٨٠ ألف".

– "في الوقت الذي كان فيه تعداد الجيش الألماني الفاشيستي في اتجاه "ستالينجراد" أكثر من مليون فرد". لم يعترض "محمد صديق" بل هز رأسه موافقاً.

– "كم كانت خسائر الجيش الإيطالي الألماني في العلمين؟ ".

أجاب د. صديق : "٥٥ ألفاً من القتلى والجرحى والأسرى و ٣٢٠ دبابة ونحو ١٠٠٠ مدفع".

قلت له: " في خلال الهجوم المضاد عند "ستالينجراد"، وفي خلال الفترة من ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ إلى ٢ فبراير ١٩٤٣ وحدها كانت خسائر "الفرماخت" (القيادة العليا) الهتلرية وحلفائها ٨٠٠ ألف فرد، و٢٠٠٠ دبابة ومدفع ميدان ، و ١٠ آلاف من المدافع الأخرى والهاونات ، بالإضافة إلى ٣٠٠٠ طائرة مقاتلة ونقل. وقد فقد العدو ٣٢ فرقة و٣ ألوية تم القضاء عليها تماماً، كما تم إلحاق هزيمة منكرة بستة عشر من الألوية". وأضفت مؤكداً: " يمكن عمل مقارنة بسيطة ، فقد كان للفاشيست في العلمين ١٢ فرقة (منها ٨ إيطالية)، وكان لهجوم الجيش الثامن طابعاً محليا لم يتعد تأثيره حدود البحر الأبيض المتوسط. وكما هو معروف فإن الهجوم المضاد عند "ستالينجراد" كان عملية

عسكرية إستراتيجية أثرت نتائجها على الوضع فى جميع مسارح عمليات الحرب العالمية الثانية بما فيه التأثير على أداء الحلفاء فى شمال إفريقيا. إذن لماذا لا يتم توضيح هذه الحقائق فى متحفكم؟".

وكان أكثر ما ضايق محدثنا المصرى الوقائع التى قدمناها له ولم يكن يتوقعها، عن اشتراك المواطنين الروس فى الحرب ضد الفاشيست فى شمال إفريقيا، هؤلاء كانوا رجالنا الذين هربوا من أسر الفاشيست وانخرطوا فى جيوش الحلفاء، كانوا من رجال القوات البحرية الذين وفروا الحماية لسفن النقل الإنجليزية الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط. وقد كانت السفن والغواصات السوفيتية التى لم تكن لها أية قواعد بحرية فى البحر الأبيض المتوسط ولم تتلق أية مساعدة، تجول "كالقراصنة" فى البحر ، تعانى من الجوع، وتعانى أحيانًا من قلة التسليح ، ولكنها حاربت وقامت بدورها فى الحرب مع الفاشيست.

ومن ناحية أخرى كما أصبح الآن معروفًا (ولكن ذلك يحتاج فحصًا وبحثًا)، فإن "رومل" قد طلب من القيادة الهتلرية أن ترسل له أسرى الحرب الروس إلى إفريقيا لاستخدامهم فى تجهيز البنية الأساسية الحربية ، وقد تمت الاستجابة إلى طلبه، وتم إرسال نحو ٢٢ ألفًا من مواطنينا الأسرى؛ ليكونوا تحت أمر "هتلر"، وتم استخدامهم فى أشق أعمال التحصين، وقد كانوا يتقدمون ويتقهقرون مع قوات الفيلد مارشال، وقد مات أغلبهم إذ لم يتحملوا الحر الإفريقى والظروف غير الإنسانية التى عاشوا فيها. حاولت القيادة الموحدة تجميع من عاش من هؤلاء الروس بعد هزيمة "رومل" وإرسالهم إلى روسيا، ولكن تم إرسال جزء منهم فقط إلى روسيا، حيث تمت محاكمتهم بمجرد وصولهم إليها، أما الآخرون فقد خافوا من العقاب وتفرقوا بلا نظام فى القرى العربية (الكثير منهم هرب من "رومل" نفسه)، حملوا أسماء عربية، وقد خبأهم العرب بحيث لا يمكن الآن تتبعهم حتى وهم موتى.

يستحق كل ذلك دراسة مستفيضة يتم إعلانها ونشرها، علمًا بأن المستعرب والباحث "فلاديمير بلياكوف" رفع الستار قليلاً عن ذلك فى كتابه "على أثر بريسفيت" (روس فى مصر) ، وأما متحف العلمين فلم يجد مكانًا لمواطنينا المحاربين.

اكتفى الدكتور "محمد صديق" بهز كتفيه، وهذا ليس بغريب، ففى الغرب وكذلك فى الكتابات التاريخية المصرية ، كثيراً ما يكتب عن انتصار القوات البريطانية فى العلمين كأنه كان بشكل ما "بداية نقطة انقلاب فى الحرب" (من كتاب "قصة الحرب العالمية الثانية" - الباب الثالث - القسم العاشر)، كما يوصف إنزال القوات فى شمال إفريقيا بأنه "جبهة ثانية". بالطبع يختلف الموقف تماماً عن ذلك، فبلا شك كان لانتصار الحلفاء الغربيين فى مسرح العمليات الحربى بشمال إفريقيا تأثير معنوى - سياسى بالنسبة لهم - وكذلك أهمية حربية، ولكنه لم يكن له تأثير حاسم لا على خفض قوة قتال التكتل الفاشستى ، ولا على الزيادة المستمرة لقوته على الجبهة السوفيتية الألمانية، فقد احتاج الاتحاد السوفيتى إلى سنتين أخريين من القتال الشرس حتى يضع النقطة الأخيرة فى برلين. أما الحلفاء وأولهم بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فقد دافعوا عن كلمات "من أجل المساعدة السريعة لروسيا" بأن وسعوا عمليات القتال على الجبهات ذات الأهمية الثانوية ومنها "شمال إفريقيا"، كما ماطلوا بإصرار فى الهجوم عبر المانش فى انتظار لحظة إنهاك وإضعاف القوى الألمانية الفاشستية على الجبهة السوفيتية الألمانية. ويلاحظ أن جنودنا ألقوا بأعلام الفاشيست تحت قاعدة ضريح "ف.إ.لنين" فى أثناء العرض العسكرى الذى نظم للاحتفال بالانتصار عام ١٩٤٥ فى الميدان الأحمر، وقد حظى مؤلف هذه السطور بشرف المشاركة فيه، وكان من بينها أعلام التشكيلات التى تم إرسالها إلى روسيا من إفريقيا ولاقت حتفها هنا.

من الواضح أن قيادات الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا العظمى كانت تفكر فى أثناء تخطيطها لعملية "الشعلة" فى تقوية وضعها فى شمال إفريقيا وفى حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن هذه العملية لم تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر على مسار المعركة على الجبهة السوفيتية الألمانية، وقد قامت القوى الغربية بكل ما يمكن حتى تبقى بها لأطول فترة ممكنة، وقد أدى تنامى الحركة التحررية الوطنية وحده، والذى ارتبط قبل كل شىء بنجاح الاتحاد السوفيتى فى معركته ضد الفاشستية، إلى تصفية النظام الاستعمارى والحصول على الاستقلال السياسى. وقد اضطرت من أجل ذلك كل من "مصر"(١٩٥٢)، و "ليبيا" (١٩٦٩) إلى القيام بثورة، واحتاجت الجزائر إلى نضال

مسلح ضارى (١٩٥٤ - ١٩٦٢)، كما حاربت القوى الوطنية التونسية والمغربية بقوة لكى تنال الحرية فى عام ١٩٥٦ .

والآن وبينما تكتب هذه السطور فالكل فى المنطقة أصبح مسلحًا مرة أخرى ويمثل خطورة كبيرة، لم يعد هناك الاتحاد السوفيتى ولا دول اتفاق وارسو (حلف وارسو) منذ زمن طويل، ولكن حلف الأطلنطى يتوسع إلى الشرق فى اتجاه حدود روسيا، وإلى الجنوب عبر البحر الأبيض المتوسط، كما توجد جيوش كاملة فى حالة استنفار جاهزة للقتال. لماذا؟ هل لهدف أن يتم تذكر القرن العشرين فى المستقبل بكلمات سيئة ؟ أو لهدف آخر؟.

توجد مقابر قريبة من العلمين مدفون فيها جنود الجيش الثامن البريطانى الذين حاربوا الفاشستيين فى الحرب العالمية الثانية، تمتد المقابر المنظمة فى ترتيب جيد على مساحة واسعة ، كما شيدت شواهد من المرمر تحمل كتابات بجانب كل مقبرة. تقف هذه الشواهد فى الصحراء جنوداً تحافظ على ترتيب هذه المقابر فى الصف وفى العمق، وقد قرأت على إحدى هذه المقابر "إنه كان بالنسبة لنا عالمًا كاملاً. فليحنِ العالم رأسه أمامه".

يحنى العالم رأسه أمام من قتل فى الحرب العالمية الثانية وهو يقاتل الفاشستيين، ولكن يراقب الناس فى العالم كله بقلوب موجعة كيف لا تتغير تقريبا الأوضاع العالمية إلى الأحسن، فقد انتقل إلى العالم الآخر فراعنة، حكام حدَّدوا مصير أجيال وحل مكانهم آخرون يبتسمون مثلهم ، وفى الوقت نفسه يحبون السلطة ويتصفون بالقسوة، ويبحثون عن أية حجة لكى يوسعوا مجال "اهتماماتهم الدنيوية" إلى "أقصى الحدود الممكنة" على كوكبنا، كما لو كان كل شىء يعود إلى وضعه الابتدائى فى بداية القرن العشرين.

شىء لا يصدق. هل سيكون القرن الواحد والعشرين أيضًا دمويًا بهذه الدرجة ؟

الباب السادس

حملة السويس (١٩٥٦-١٩٥٧)
التى لم ينسها أحد

مرت عشرات السنين منذ فشل الحرب المعروفة بالعدوان الثلاثى، والتى شنتها قيادات كل من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر فى ١٩٥٦ - ١٩٥٧ .

مرة أخرى ترجع بنا الذاكرة لنرى صور هذه الأيام عندما لم يرفض فقط المصريون الاستسلام للعدوان ، بل أثبتوا أيضًا خطأ استخدام القوة ضد أى دولة تنفذ سياسة تعبر عن مصلحة شعبها.

... هذا الشريط الأزرق الضيق من الماء، الذى يبلغ عرضه ١٢٠ - ١٥٠ مترًا هادئ تمامًا. ولكن أحيانًا تغطيه فجأة تموجات خفيفة بفعل الرياح المارة عليه. الشاطئ عبارة عن رمال عتيقة، التلال لونها أبيض فى لون الثلج على أحد جانبيه وذهبية على الجانب الآخر، فى ذلك الوقت كان خط السكة الحديدية لا يزال يعمل عبر كل شبه جزيرة سيناء ، كانت هناك طرق رائعة تربط بين "مدن باريس الصغيرة"، كما كانت تسمى المدن الواقعة فى منطقة القناة : "بور سعيد" و "الإسماعيلية" و "السويس"، فقد بدأت سيناء تنتعش. كانت "قناة السويس" تظهر بهذا الشكل قبل أن تعم عليها الغيوم فى عام ١٩٥٦ .

مقدمات الأزمة

عندما قامت الثورة فى مصر عام ١٩٥٢وسقط النظام الملكى قررت القيادة الجديدة التى تزعمها الرئيس "جمال عبد الناصر" تصفية سيادة السيطرة الأجنبية فى البلد والوصول إلى الاستقلال الاقتصادى لمصر.

وفى ٢٦ يولية ١٩٥٦ أعلن ناصر فى لقاء موسع فى الإسكندرية عن قرار تأميم "شركة قناة السويس العالمية". وقد استقبلت العواصم الغربية هذا الخبر كانفجار قنبلة، فقامت كل من إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة بجهود محمومة للعمل على "تدويل" القناة. ونظم مؤتمر بناءً على مبادرة من هذه الدول فى ١٦ أغسطس حضرته ٢٢ من الدول المستخدمة للقناة لمناقشة "المشروع الإنجليزى - الفرنسى - الأمريكى"، ونقل إدارة القناة "لمجلس دولى"، وقد أيد ممثلنا فى هذا المؤتمر الجانب المصرى وأعلن "إن ملكية قناة السويس ترجع إلى بلد الأهرام". وقد انتقد الاتحاد السوفيتى بشدة خطة السكرتير العام للولايات المتحدة الأمريكية "دالاس" بإنشاء ما سمى "اتحاد مستخدمى قناة السويس" الذى كان سيحصل على كل رسوم العبور المحصلة من السفن المارة فى هذا الطريق المائى.

عقد بعد ذلك فى ١٩ سبتمبر مؤتمر ثانٍ فى لندن حضرته ١٨ دولة ليس من ضمنها الاتحاد السوفيتى ومصر، وقد وافق المؤتمر على خطة تدويل القناة، وعند عرض هذا الموضوع على مجلس الأمن بالأمم المتحدة فى أكتوبر تم رفض اقتراح الدول العظمى الغربية. وعندما تبين فشل كل التلاعبات الدبلوماسية التى قام بها الغرب راهنت باريس ولندن على العدوان الحربى وأيدتهم فى ذلك إسرائيل، فبدأوا الحرب ضد مصر فى ديسمبر ١٩٥٦ .

تبين العديد من الوثائق ومن المذكرات التى كتبها المشاركون فى العدوان أنفسهم أنهم كانوا ينتظرون فى الغرب تأميم قناة السويس منذ فترة طويلة، لذا فقد اختاروا أن يتم الضغط الحربى بمساعدة إسرائيل على "ناصر" باعتباره حلا بديلاً .

كانت الصدامات المسلحة قد بدأت تتسع على الحدود العربية - الإسرائيلية منذ عام ونصف قبل تأميم القناة، أى منذ بداية عام ١٩٥٥ ، وامتلأت الصحف الإسرائيلية بالمقالات التى تدعو إلى شن حرب وقائية ضد العرب، وبدأ يتضح التوافق أكثر بين تعامل كل من تل أبيب وواشنطن، ثم ظهرت فى نوفمبر ١٩٥٥ فى الصحافة الغربية مقالات عن خطط الهجوم على مصر ، وضعتها قيادة أركان الحرب الإسرائيلية، وقع بعد

شهر من ذلك حدث عسكرى ضخم فى "بحيرة طبرية" بمثابة ضربةٍ تهدف لتحويل الأنظار واختبارٍ "لخيار القوة".

تعددت لقاءات سكرتير عام الولايات المتحدة الأمريكية "دالاس"فى أعوام ١٩٥٥-١٩٥٦ مع السفير الإسرائيلى فى واشنطن، وتم فيها الاتفاق على "الالتزامات الحربية الدفاعية والهجومية" لواشنطن فى الحالات الطارئة، وفى الوقت نفسه تقابل "دالاس" مع ممثلى الجانب المصرى عدة مرات، وكذلك مع "ناصر" فى محاولة للضغط على القاهرة.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية تأمل وهى تناور، فى كسب رأس مال سياسى عند العرب الكارهين لفرنسا ولإنجلترا،مستعمريهم السابقين ، لذلك فقد كانت تسايرهم وهى تخفى تأييدها لإسرائيل، وتقرر فى باريس وفى لندن ألا يتم حل أمورهم فى الشرق الأوسط إلا بقوة السلاح.

أدى تطور الأحداث على هذا النحو إلى قلق الاتحاد السوفيتى، فأصدر بيانًا فى أبريل ١٩٥٥ أكد فيه "أن زيادة التوتر فى هذه المنطقة مرتبط بمحاولات القوى الغربية لجر دول هذه المنطقة إلى مغامرة حربية، وأن أساس هذه السياسة سعى الدول الغربية لتحقيق أهداف حربية إستراتيجية فى الشرق الأوسط"، كما صدر تحذير آخر فى فبراير ١٩٥٦ من الاتحاد السوفيتى تمت فيه الإشارة على وجه الخصوص إلى أن القوى الغربية تدخلت بحجة معالجة حالة التوتر فى العلاقات بين إسرائيل وجيرانها العرب، لتقوم بعمليات ليس بها أى شىء يتعلق بالمصالح القومية لدول هذه المنطقة ولا بمصالح العالم كله. وفى النهاية أصدر الاتحاد السوفيتى فى أبريل ١٩٥٦ "بيانًا عن الوضع فى الشرق الأوسط" أوضح فيه سمة خطورة انفجار الوضع الحالى وسعى دول الغرب إلى المحافظة على مصالحها فى المنطقة بالقوة .

كانت الخطوات السياسية للاتحاد السوفيتى تمثل تعضيدها المساعدة العملية الحربية والاقتصادية التى قدمها لمصر ردا على تصرفات الولايات المتحدة وحلفائها.

لمـــاذا كانت الحرب قصيرة ؟

اخترقت الجيوش الإسرائيلية الحدود المصرية فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ لكى تهاجم مدينتى السويس والإسماعيلية، تحرك لواءان من المشاة ولواء مدرعات يوم ٣٠ أكتوبر من غزة بمحاذاة شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى اتجاه مدينة بورسعيد، وفرضت الأساطيل الحربية الإنجليزية والفرنسية فى الوقت نفسه حصاراً بحـريا على مصر، كما تم إنزال فرق من جنود المظلات على المدن المجاورة للقناة، ثم بدأ الطيران الإنجليزى والفرنسى فى قصف مدينتى القاهرة والإسكندرية ومدن منطقة القناة بعد رفض مصر إنذار لندن وباريس لها بتسليم منطقة قناة السويس لكى تصبح تحت سيطرتهما. كانت الضربات موجهة أساساً للأهداف المدنية لنشر الذعر، واستمر الهجوم الجوى حتى يوم ٦ نوفمبر.

كانت القوات الإسرائيلية المهاجمة لشبه جزيرة سيناء متفوقةً عدداً على القوات المصرية بمرة ونصف، وفى بعض المواقع على الجبهة بثلاث مرات، وقد زاد عدد جنود إنجلترا وفرنسا الذين تم إنزالهم فى منطقة بورسعيد عن عدد المدافعين المصريين بخمسة أضعاف.

وعلى الرغم من ذلك لم يرتجف المصريون ولم ينسحبوا، ولم يتمكن الإسرائيليون من الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء قبل نهاية يوم ٥ نوفمبر إلا بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، وبمساندة القوات البحرية والجوية الإنجليزية والفرنسية، وفى ٥ نوفمبر تم إنزال جنود المظلات الفرنسيين والإنجليز على كل من ضفتى القناة.

بدا أن الهدف تحقق، فقد تم الاستيلاء على القناة، وبدا أن شبه جزيرة سيناء قد اغتصبت من مصر، ولكن لم يكن الأمر كذلك.

فكلما مر الوقت الذى يفصلنا عن هذه الأحداث كلما وجد المؤرخون أدلة أكثر على اشتراك قوة أخرى فى هذه الأحداث ، هى الولايات المتحدة الأمريكية ، فعلى

سبيل المثال كتب "أ.إيدن" رئيس الوزراء [البريطانى] الأسبق فى مذكراته إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على علم بالتجهيز للعدوان على مصر، وبمجرد بدء العمليات الحربية تم إرسال برقيتين إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "د. إيزنهاور" لإخطاره بذلك. وكما كتب "أ. إيدن" تم التركيز فى البرقيتين بشكل خاص على نقطتين : أولاً ، لم تخف حكومتا إنجلترا وفرنسا أبدًا عن واشنطن خططهما لمعارضة نوايا ناصر. ثانيًا ، تم التأكيد على أن "الضربة الحاسمة" قد تستطيع "أن تقوى أضعف حلقة فى سلسلة الحرب ضد الشيوعية". وعلى الرغم من أن ردود رئيس الولايات المتحدة الأمريكية على هذه البرقيات كانت حذرة فقد كانت تحتوى على قدر من التأييد يفوق قدر الاعتراض. كانت هناك نية فى واشنطن للحصول على أكبر فائدة من أزمة السويس مهما كانت نهايتها، ففى حالة نجاح العدوان والقضاء على نظام الرئيس "عبد الناصر" فإن الولايات المتحدة تكون بصفتها قوة عظمى أيدت القائمين به ؛ لذا ستكون من الدول التى ستفرض سيطرتها على قناة السويس، أما فى حالة فشل هذه المغامرة فإن الولايات المتحدة الأمريكية ستحظى بفرصة – فى رأيهم – حيث إنها لم تشارك فى هذه المغامرة (كان تأييد المعتدين فى السر) لكى تلعب دور رسول السلام؛ لذا ستقوى وضعها فى المنطقة بهذه الطريقة. أعطت واشنطن لحلفائها الغربيين إيحاءً أكثر من مرة لكى يفهموا أنهم يستطيعون الاعتماد على الولايات المتحدة "المحايدة العطوفة"، وقد استمرت فى أثناء العدوان نفسه فى إمداد إنجلترا وفرنسا بالبترول فى صورة قرض قيمته نصف مليار دولار، كما أن واشنطن رفضت التصويت ضد المعتدين فى الأمم المتحدة أكثر من مرة ، ورفضت اتخاذ الإجراءات اللازمة لوقف هذه القرصنة فى الشرق الأوسط.

ولكن وقع ما ليس فى الحسبان، فلم يكن الغرب يتوقع من المصريين إظهار كل هذه الصلابة والشجاعة، كما أنه لم يحسب حساب تدخل الاتحاد السوفيتى فى هذه الحرب، فقد فهمت موسكو عدم جدوى خطواتها السياسية، فأعلنت يوم وصول أزمة السويس إلى ذروتها "إنها سوف ترسل فورًا المتطوعين الروس للدفاع عن المصريين لو لم يرجع المعتدون إلى منازلهم". كانت "صرخة موسكو"هذه قوية وغاضبة، فقد خرجت لأول مرة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفى ذلك الوقت كانت موسكو قد جعلت

الجيش فى حالة "سلام" ولم تكن تدرى ماذا يمكنها أن تفعل بأبطال "الحرب الوطنية العظمى" الذين تم تسريحهم من الجيش، وبالطبع لم يشك أحد فى أنه لن يوجد نقص فيمن يرغب فى التطوع لخوض الحرب مرة أخرى، وكان شبح الجندى الروسى المنتصر لا يزال يتجول فى الغرب، ولم يكن أحد عنده الرغبة، أو القوة الكافية للاصطدام بهذا الجندى فى الشرق الأوسط. وكان الذين أضجروا موسكو من قبل يعرفون تماماً أنه من الأحسن عدم المساس "بروسيا الغاضبة"، فلم يدم انتظار تطور الأحداث بعد ذلك، وصدر فى وقت واحد أمر "بالانسحاب" فى كل من واشنطن ولندن وباريس وتل أبيب، وأوقف العدوان، وانسحبت القوات الإنجليزية والفرنسية من مصر قبل ٢٢ ديسمبر، كما عادت فرق الجيش الإسرائيلى إلى قواعدها قبل يوم ٨ مارس ١٩٥٧ . تمت العودة إلى الحالة الراهنة، واستمرت "الحرب الباردة"...

الباب السابع

"ناصر" - "خروشوف" : صداقة - نزال

فى أثناء زيارتى للأهرام فى الجيزة فى نوفمبر ١٩٦٥ شاهدت عرضًا شيقًا غير عادي، فقد تسلق أحد المصريين جانبًا من هرم "خوفو" إلى القمة بسرعة، ثم عاد طريقه مرة أخرى وهبط إلى أسفل، بذلك قطع ٣٠٠ متر وعر فى دقائق معدودة، ثم جمع النقود أو التذكارات وهو يلهث ، ويبدأ يجيب على أسئلة الفضوليين. انتعش "متسلق الهرم" عندما عرف أنى من الاتحاد السوفيتى فرفع يده إلى أعلى وأرانى ساعته التى لمعت فى الشمس قائلاً باعتزاز : "هدية من خروشوف، رئيسين كويسين ، خروشوف وناصر".

عندما حكيت لزملائى عما رأيته تبين أن ذلك لم يكن بجديد بالنسبة لهم، فقد كان "متسلق الهرم" يكرر هذه الجملة نفسها دائمًا عندما كان "يجرى أمام الروس على الهرم"، فهذا المصرى لم يستطع نسيان لقائه مع الضيف السوفيتى الكبير، وبالنسبة له لم يكن يهمه أن "ن. س. خروشوف" كان أنذاك قد هبط من على هرم السلطة.

كان "خروشوف" قد ذهب فعلاً عند زيارته لمصر فى مايو ١٩٦٤ إلى أهرام الجيزة وشاهد "متسلق الهرم" الشهير، ويقال إن "خروشوف" اقترب من هذا المصرى الذى كان يلهث واحتضنه، ثم قرر أن يهديه شيئًا على سبيل التذكار، لم يكن مع أحد من مرافقيه أى تذكار، فما كان من القائد السوفيتى إلا أن قدم ساعته إلى بطل العرض الشيق.

تتحدث مصر كلها تقريبًا عن هذا الحدث، ولكن كانت تغطى الكثير من جوانب العلاقات المصرية السوفيتية بإطار من السرية التامة، بغض النظر عن التصريحات الرسمية. فعند قراءة صحف تلك الأيام وبعض الكتب التى صدرت فى ذلك الوقت كان يبدو أن كل شيء يسير بسلاسة، ولكن نشر "محمد حسنين هيكل"، الصحفى المصرى الشهير، ورئيس تحرير جريدة "الأهرام" القاهرية، والوزير السابق للإعلام، وأحد المستشارين المقربين لرئيس مصر فى عام ١٩٧٢ كتاب "ناصر - وثائق قاهرية" فى لندن ، وكان أحد أبوابه يحمل عنوان "النزال مع خروشوف"، تم فيه رفع الستار عن الأحداث التى بقيت بعيدة عن حدود التصريحات الرسمية.

بدأ صعود كل منهما إلى قمة السلطة فى وقت واحد تقريبًا، لم يكن "جمال عبد الناصر" معروفًا للكثيرين فى ذلك الوقت، ولكن بعد ١٠ شهور فقط من الانقلاب على الملك "فاروق" فى يولية عام ١٩٥٢ أصبح "ناصر" نائبًا لرئيس الوزراء وفى الوقت نفسه وزيرًا للداخلية فى مصر، وقد فتح له ذلك بسرعة الطريق "للنقلة الأخيرة". أما "نيكيتا سيرجييفيتش خروشوف" فقد أصبح بعد عام ونصف السكرتير الأول للجنة المركزية بالحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى بعد موت "زعيم الشعوب".

كانت مصر بعيدة تمامًا عن القائد السوفيتى الجديد وكذلك بالنسبة لكل المحيطين به، وليس جغرافيا فقط، فهم لم يستطيعوا أن يحللوا بموضوعية (نعم، وهل كانوا يستطيعون ذلك؟) معنى التغييرات التى كانت تجرى فى مصر. فبالنسبة للكرملين كان ذلك مجرد "انقلاب عسكرى" نفذه الجيش "بقوة السلاح"، لذلك لم يعتبروه ثورة، بل بتعبير أدق لم يرغبوا فى ذلك. وعلى العموم لم يكن لدى ساكنى الكرملين آنذاك وقت لمصر، لذلك فهم فى أحسن الأحوال، صدقوا المعلومات التى قدمها الشيوعيون المصريون المعارضون من أول لحظة للضباط الذين قاموا بالثورة، والذين وزعوا منشورات معادية لها، وأخافوا الشعب من "نظام القمع" المقبل. بالطبع ساندت موسكو "إخوانها فى الطبقة" فى بلد الأهرام، ولم يتوان راديو موسكو عن الهجوم على الضباط الأحرار الذين " قوضوا المخزون الثورى" بمصر، ما حدث قد حدث...

ولكن كان كل شىء أكثر تعقيداً بكثير فى هذا البلد. فلم يكن الرئيس القادم يتصور أبداً الثورة المصرية دون القوى اليسارية، والدليل على ذلك أن مجلس قيادة الثورة المشكل بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ضم "ضباط حمر" : المقدم "يوسف منصور صديق" والرائد "خالد محيى الدين". ولكنهم مثل "ناصر" خشوا فى ذلك الوقت نظرية صراع الطبقات ووضعية مسألة "ديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة)" نفسها، فقد اعتقد "ناصر" أنه يجب ألاَّ تكون أى طبقة قائدة، ولم يجد مجلس قيادة الثورة مكاناً لوجود أحزاب سياسية فى "الثورة العامة الوطنية". كان ذلك فى وقت أعلنت فيه أحزاب "الوفد" و"الإخوان المسلمين" القوية ، أعلنت عن نفسها بصوتٍ عالٍ، خاصة فى الوسط البرجوازى. لم يوجد فى ذلك الوقت ولو حزب واحد للطبقة العاملة، لأن القوى التقدمية كانت محطمة وضعيفة، وكان من الممكن أن يساعدهم النظام الجديد فى معركتهم مع "أعدائهم الطبقيين"، ولكنهم على العكس أداروا له ظهورهم.

طلب الشيوعيون بصفة خاصة تنفيذ إجراءات إصلاحية جذرية موجهة ضد الإقطاع والاستعمار فى وقت معاناة السلطة الجديدة أوقاتاً صعبة فى عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤ . وقد فهم ناصر ذلك على أنه ادعاء لقيادتهم للثورة، فقد بالغوا "فى الجرى إلى الأمام" وزادوا فى انتقاد ناصر من اليسار، وبمساندة من موسكو، فتأزمت العلاقات مع الشيوعيين، وتم الحكم على الكثير منهم بتهمة النشاط التخريبى ، ودخلوا السجون. ابتهج الغرب، وتوقع سرعة انضمام مصر إلى أحد الأحلاف المعادية للسوفيت، أما إذاعة موسكو فوصفت "ناصر" بالدكتاتور العسكرى المناهض للشيوعية، ولكن فى الحقيقة كانت القاهرة تبحث عن طريقها.

بدأ الكرملين تدريجيا يفهم حقيقة الأمر. قد يكون ذلك بعد أن وصلته معلومة عن اللقاء الذى عقد فى القاهرة فى فبراير ١٩٥٣ بمنزل السفير السابق لمصر فى الاتحاد السوفيتى "كامل بندارى" الذى كان يسمى "الباشا الأحمر" نظراً لتعاطفه مع الاتحاد السوفيتى ، فقد قام أعضاء مجلس قيادة الثورة على غير انتظـار بزيارته وسألوه "هل يستطيع الاتحاد السوفيتى الاستجابة لطلب المساعدة العسكرية ؟ ولمن يجب التوجه بالطلب؟ وما الوقت المناسب لذلك؟ وفى النهاية هل يمكن أن يأخذ الباشا

الأحمر على عاتقه تنفيذ هذه المهمة وبسرعة؟". استمرت هذه المناقشة عدة ساعات ، بل تطرقت إلى التفاصيل. ولكن فجأة! حضر إلى الشقة مباشرة مندوب مراسلة خاص بخبر عاجل من واشنطن ، يفيد عن موافقة الولايات المتحدة الأمريكية على دراسة طلب القادة الجدد لمصر لإمدادها بالسلاح. هنا تم تأجيل مهمة بندارى.

أصابت الخطوة الأمريكية الهدف فى ذلك الوقت، فقد توجهت القاهرة إلى واشنطن فى انتظار رد فعلها، ولكن مر الزمن ولم تتسارع قوافل السلاح للوصول إلى شواطئ مصر، وفى الوقت نفسه كان الأمريكيون يدفعون حلفاءهم القريبين والمهمين بإصرار لتكوين "حلف بغداد"، وتم توقيع ميثاقه فى فبراير عام ١٩٥٥ .

بدأ ضجيج على الأرض القريبة من ثكنات الجيش المصرى الموجودة فى قطاع غزة منذ عام ١٩٤٩ بعد الهدنة مع إسرائيل فى فبراير من العام نفسه، فقد هاجمتها غارات من "الكوماندوز" الإسرائيليين، قاموا بعملهم هذا دون أن يتلقوا تقريبًا أى عقاب، حيث لم يكن فى أيدى المدافعين أى سلاح حديث.

اتخذ العقيد "عبد الناصر"، الذى أصبح اعتبارًا من ٢٧ فبراير ١٩٥٤ رئيسًا للوزراء ورئيسًا لمجلس قيادة الثورة، العديد من الإجراءات السياسية، وتزعم المعارضة لحلف بغداد، ففى أكتوبر ١٩٥٥ تم توقيع اتفاقيات للدفاع المشترك مع سوريا ومع المملكة العربية السعودية، وفى أبريل عام ١٩٥٦ ميثاق حربى بين مصر والمملكة العربية السعودية واليمن، ولكن كانت هناك حاجة ملحة للسلاح.

أصبح من الواضح تمامًا عدم جدوى انتظار الحصول على السلاح من الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يعد يوجد الآن خيار إلا شراء السلاح السوفيتى.

فى الوقت نفسه بدأ "ن.س. خروشوف"، الذى بدأت مكانته تقوى فى السلطة بالكرملين، يهتم بما أعلن من القاهرة، فهناك على سبيل المثال تم توجيه انتقاد لاذع لتصرفات وزير الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت "أنطونى إيدن" (وكان "عبد الناصر" قد وصف ميثاق "حلف بغداد" بأنه موجه ضد العرب)، وتصرفات سفير الولايات المتحدة الأمريكية "بايراود" المتكبرة والمهينة تقريبًا فى لقاءاتهم مع "ناصر" عام ١٩٥٥ ، وقد تم

إرسال"جورج ألان" مبعوثا خاصا من وزارة خارجية الولايات المتحدة الأمريكية إلى مصر فى سبتمبر ١٩٥٥؛ للتخفيف من آثار عدم لياقة الأخير، ولكن تم استقباله ببرود تام فى قصر الرئاسة. يوجد رأى أنه منذ تلك اللحظة تم "تشغيل فرامل" كبحت نمو العلاقات بين القاهرة والغرب.

تفاعل الاتحاد السوفيتى بسرعة مع الأزيز الحاد للفرامل القاهرية، فلم يكد "جورج ألان" يغادر العاصمة المصرية حتى أُعلن عن موافقة موسكو على تزويد مصر بالدبابات وبالطائرات. كان أداء الكرملين فى هذه المرة سريعًا وفعالاً.

كانت هذه مجرد بداية لسلسلة طويلة من الأحداث، كان أولها "حصول مصر على سلاح من الاتحاد السوفيتى لم يعجب الجميع حتى فى مصر نفسها حتى فى محيط ناصر". وثانيها "هز هذا العمل الغرب وعشيرة الغرب فى داخل البلد"، ولكن أظهر العقيد إصرارًا غير عادى لدى المصريين، أعاد ترتيب الجيش وطرد عددًا من الضباط، وتم استدعاء "الرائد الأحمر" خالد محيى الدين الذى سبق إرساله من قبل إلى سويسرا حتى يرأس جريدة "المساء" المسائية الشعبية، وظهر ضمن محرريها شيوعيون تم إطلاق سراحهم من السجون قبل ذلك بقليل.

غادرت آخر فرقة من الجيش البريطانى مصر فى يونية ١٩٥٦، ثم أعلن "ناصر" تأميم شركة قناة السويس مما أغضب الغرب.

قامت كلٌ من إنجلترا وفرنسا وإسرائيل "بالعدوان الثلاثى" على مصر فى آخر أكتوبر، وفى الوقت نفسه أعلنوا الحصار الاقتصادى عليها. وقفت الدول العربية بجانب مصر واتصل رئيس سوريا "شكرى القوتلى" الذى كان يستعد للسفر إلى الاتحاد السوفيتى، بناصر مبديا رغبته فى الحضور إلى مصر بدلاً من السفر إلى الاتحاد السوفيتى، ولكن "ناصر" أقنعه بالسفر إلى موسكو؛ حيث إن "وجوده هناك أهم".

وصلت رسالة إلى "شكرى القوتلى" تفيده عن قصف القاهرة بالقنابل، فقد حافظ على اتصاله بناصر من موسكو. كان ذلك قبل لقائه مع كل من "خروشوف" ورئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى "بولجانين" والمارشال "جوكوف" بلحظات؛ فبدأ حديثه

بسؤال غير مدرج فى البرنامج الموضوع للنقاش "ماذا سيحدث بعد ذلك؟" أجابه "خروشوف" بسؤال "وماذا يجب أن تفعل موسكو فى رأى القوتلى؟" أجاب الرئيس السورى : "يجب أن تتدخلوا".

عندئذ بسط المارشال "جوكوف" خريطة وقال:" سيدى الرئيس، ها هى خريطة، انظروا إليها وقولوا لنا لو تفضلتم كيف يمكن أن نتدخل ؟".

انتفض "القوتلى" من على مقعده ثائرا قائلاً : "مارشال جوكوف! مارشال جوكوف!"... (ومسح العرق الذى تصبب منه)، "هل تريد منى أنا المدنى البسيط أن أقول لك أنت "نجم" الحرب العالمية الثانية كيف تتدخل؟ يجب أن تتدخلوا!...".

حاول الحاضرون تهدئة الضيف، وهم يوضحون له فى الوقت نفسه استحالة التدخل العسكرى، ثم وعدوه باستخدام الطرق الدبلوماسية، وبعمل خطوات سياسية فى الأمم المتحدة. كانت إجابة "القوتلى" عبارة عن لعنات صبها على الأمم المتحدة وعلى مجلس الأمن، كان على وشك البكاء من الغيظ ومن انهيار آماله.

فحص "جوكوف" الخريطة فى وجوم، ومسح "بولجانين" على نقنه المثلثة، أما "خروشوف" فقد رفع نظره إلى أعلى إلى مكان ما، إلى صور ماركس ولنين، كانوا جميعا مدركين أنهم يقفون تقريبًا على عتبة الحرب ، وهى حرب لم يكونوا مستعدين لها، لذلك فقد صرفوا رئيس سوريا المتكدر "فى حفظ الله"، وبعد ذلك بدأوا فى التشاور فى الكرملين...

تم اتخاذ عدة إجراءات حاسمة تمامًا، فقد وقف الاتحاد السوفيتى بقوة إلى جانب مصر فى الأمم المتحدة. وفى اللحظة التى كان المتوقع فيها من "ناصر" أن يرفع الراية البيضاء أعلنت موسكو إنذارها : "فإما أن يعود المعتدون على مصر إلى منازلهم، أو يتم إرسال متطوعين من الاتحاد السوفيتى إلى هناك". لم يكن أحد من الذين أوشكوا على السيطرة التامة على مدينتى بور سعيد والسويس وشبه جزيرة سيناء يرغب فى رؤية المتطوعين الروس أمامه يلبسون الخوذات العربية، فقد كان العالم كله يتذكر تمامًا صلابة وقوة هجوم جنودنا الذين اكتسبوا بسببها مجدًا فى الحرب العالمية الثانية.

تركت القوات الإنجليزية الفرنسية منطقة قناة السويس فى ديسمبر، وبعد ذلك انسحب الإسرائيليون أيضًا من الأراضى المصرية، وفى الوقت نفسه ظهر فى بورسعيد شارع يحمل اسم "ستالينجراد".

لم يحصل الغرب أيضًا على أية نتائج من الحصار الاقتصادى، فقد أمد الاتحاد السوفيتى مصر بالبترول وبالحبوب، كما وقع معها اتفاقية اقتصادية طويلة الأجل.

أدى الدفاع البطولى عن المصالح القومية لمصر إلى نمو شعبية "ناصر" عند قادة كل الدول النامية فى الشرق العربى، أما فى مصر فقد أصبح نفوذه لا يقبل الجدل. لقد اقتنع ناصر بصورة نهائية بصحة القرارات التى اتخذها فى عام ١٩٥٦، لكن لم يعن ذلك تحوله الكامل إلى الاشتراكية بمفهومها الماركسى، فلم تكن عنده النية للسير فى هذا الطريق.

بدأت تقوى فى موسكو فكرة ضرورة دعوة "ناصر" لزيارتها كلما زادت شعبيته، فأرسلت دعوة من الاتحاد السوفيتى لرئيس مصر فى نوفمبر ١٩٥٧ لزيارته (كان عبد الناصر قد أصبح الرئيس الفعلى لمصر فى ١٤ نوفمبر ١٩٥٤ بعد تنحية للواء "محمد نجيب" نهائيا عن السلطة، أما دستوريا فكان ذلك بعد الاستفتاء الشعبى فى يونية ١٩٥٦).

كان ناصر نفسه يرغب فى التعرف على القادة السوفييت، وها هى طائرته تظهر فى سماء موسكو فى يوم ٢٩ أبريل ١٩٥٨ . أعد استقبال رائع لرئيس مصر الذى أصبح أحد أوائل رؤساء الدول النامية الذين زاروا الاتحاد السوفيتى، وعندما ظهر على منصة ضريح "ف.إ. لينين" بجانب "خروشوف" فى الاحتفالات بعيد مايو، حمل المتظاهرون صور الرئيسين وهتفوا "ناصر- خروشوف"، وألقى عليه الأطفال الزهور. ابتهج الطلبة العرب الذين كانوا يدرسون فى جامعة موسكو الحكومية وبدأوا فى الغناء، كان يخيل أن العرب قد فقدوا عقولهم من الحماس، كما فقدت زوجة القائم بالأعمال السورى وعيها عند تقديمها لناصر فى حفل الاستقبال الذى أقيم على شرف "ناصر". أثار ذلك قلق "خروشوف" الواقف بجانبه فأمر باستدعاء طبيب، فقيل له" ليست هناك

حاجة لطبيب؛ حيث إن ما حدث كان بسبب زيادة الأحاسيس". كان ذلك صحيحًا، فسرعان ما استردت وعيها.

اهتم "خروشوف" بدراسة ضيفه فصاحبه في كل مكان حتى في المسجد الموسكوفي، وتصرف مع الضيف باحترام بالغ وبلياقة.

زار "ناصر" مدنًا أخرى بالإضافة إلى موسكو، هي "سفيردلوفسك" و "لنينجراد" و"ستالينجراد"، ثم سافر يوم ١٦ مايو عائدًا إلى وطنه. كان كلٌّ من الجانبين راضيًا عن الزيارة وكذلك الزعيمان، وقد تم الحديث والكتابة عن ذلك بصراحة.

تم لقاؤهم التالي على غير المتوقع بعد زمن قصير، فقد وقع انقلاب عسكري في العراق في ١٤ يولية من العام نفسه، واستولى على الحكم مجموعة من الضباط الوطنيين بقيادة اللواء "قاسم"، ونفذ حكم الإعدام في العائلة الملكية رميًا بالرصاص، وأعلن العراق عن خروجه من "حلف بغداد". كان هناك غليان في كل من لبنان والأردن، وبدا الوضع في عدة دول أخرى بالمنطقة تمامًا كما لو كان يسبق انفجار بركان. انتقل الأسطول السادس الأمريكي إلى بيروت لإنزال جنوده، وأرسلت لندن جنود المظلات إلى عمان. هل هي الحرب مرة أخرى؟

قرر "ناصر" أن يتأكد من موقف موسكو مما يحدث في المنطقة؛ فسافر إلى موسكو في يوم ١٧ يولية ١٩٥٨ على طائرة سوفيتية من "بريوني"، حيث كان في ضيافة الرئيس اليوغوسلافي. استقبله "أناستاس ميكويان" الذي كان في ذلك الوقت شخصية بارزة في "فريق خروشوف"، ورئيس المخابرات الجنرال "سيروف"، ومترجم عند سلم الطائرة. كان ذلك في الصباح الباكر، وتمت استضافة "ناصر" في "داتشا" (منزل ريفي) حكومية في "خوروشيفو" (ضاحية موسكو)، ثم حضر إليها "خروشوف" في العاشرة صباحًا. تحدثا على انفراد في لقاء ثنائي أول ساعتين بمساعدة مترجم، ثم انضم إليهما أعضاء وفدي الجانبين بعد ذلك.

كان "خروشوف" قلقًا للغاية بسبب الأحداث في الشرق الأوسط، فوجه إلى "ناصر" عدة أسئلة استفسارية فهم منها الأخير صعوبة شرح الوضع للقائد السوفيتي.

أشاح "خروشوف" بيديه قائلاً "بصراحة أشم رائحة حرب عالمية ثالثة فى حالة تدخلنا، ولكننا لسنا مستعدين لها، كما أننا غير مستعدين لمواجهة مع الأمريكان فى الشرق الأوسط."

قيل ذلك بصراحة تامة أدت إلى طلب "ناصر" استراحة للتفكير. تكرر الموقف نفسه تقريبًا الذى سردناه مسبقًا مع رئيس سوريا، ولكن اختلف"ناصر"عن "القوتلى" بأنه لم يسمح بإطلاق عواطفه.

قال "يمكن أن يستخدم الأمريكان الأتراك للهجوم على سوريا، وفى هذه الحالة سوف نضطر لمحاربتهم. هل يمكنكم أن تعطونا ضمانًا بتأييدكم لنا؟"

أجابه خروشوف "سيكون عليكم أن تنحنوا أمام العاصفة، حيث لا يوجد هناك مخرج آخر، لأن "دالاس" قادر على تدمير العالم كله".

ضايقت هذه الإجابة "ناصر" ، ولكنه استمر فى ضبط نفسه محاولاً استيضاح ما يمكن أن يساعد به الاتحاد السوفيتى مصر فى حالة نشوب الحرب. سرد على "خروشوف" كيف أن مصر تساعد العراق بإرسال الطائرات والرادارات والذخيرة من المخزون الإنجليزى القديم إليها. ثم طلب "ناصر" بإلحاح من "خروشوف" وقف عمليات الغرب ضد كلٍ من العراق وسوريا بإنذار كالذى وجهه الاتحاد السوفيتى من قبل فى فترة أحداث السويس. أجاب "خروشوف" على كل ما قاله "ناصر" بمعنى واحد يفيد بأنه ليس مستعدا لمجازفة قد تؤدى إلى الحرب. طالت المناقشة ونفدت حجج "ناصر"، وفى النهاية اقترح "خروشوف" على "ناصر" عمل استراحة، حيث كان يرغب فى مناقشة طلب "ناصر" مع أعضاء المكتب السياسى الذى كان ينتظره فى "الداتشا" المجاورة، وعند عودته بعد زمن قصير قال : "أقصى ما يمكن أن يفعله الاتحاد السوفيتى الإعلان عن مناورات عسكرية على الحدود التركية، لا تتوقعوا أكثر من ذلك، أقول ذلك بصراحة باعتبارى صديقًا".

لم يتبق لناصر إلا أن يسلم بالأمر الواقع. طار إلى سوريا عن طريق إيران والعراق، لأن هذا المسار كان آمنا. تذكر فيما بعد الصحفى الشهير ومساعد "ناصر" "محمد حسنين هيكل" أن "خروشوف" الذى رافق "ناصر" طوال هذه الزيارة، بقى معهم حتى

منتصف الليل وذهب معهم إلى المطار لوداعهم. كان قبل ذلك قد تم أمر ٢٤ فرقة من الجيش السوفيتى بعمل مناورات على الحدود التركية. ولكن كرر "خروشوف" قوله مرة أخرى للتذكرة "أرجوكم يا سيدى الرئيس، هذه مجرد مناورات، تذكروا، لا شىء أكثر من مناورات".

ألقى ناصر فى دمشق خطبة من شرفة قصر الرئاسة، وأعلن أن الاتحاد السوفيتى "يؤيدنا تمامًا، موقفنا قوى"، وعلى الرغم من ذلك فإننا "نطلب السلام".

مرت الأزمة ، ودون إعلان إنذار سوفيتى فى هذه المرة (ربما أثرت الذكريات عن أزمة السويس على ذلك؟)، فأخرج الأمريكان والإنجليز قواتهم من الشرق الأوسط. ولكن تغير شىء ما فى تقدير"ناصر" العام لمستقبل التعاون مع المعسكر المعروف فى ذلك الوقت "بالاشتراكى" ومع القوى التابعة له ، بعد هذه المقابلة مع "خروشوف"، والتى لم ترضه أبدًا. بدأت خمس سنوات تقريبًا جديدة من الصراع الأيديولوجى "لناصر" مع الشيوعيين والديمقراطيين، ومع الشخصيات التقدمية فى مصر وفى الدول الأخرى. لم يكن من الممكن ألا يلاحظ ذلك فى موسكو، وعلى الرغم من ذلك نمت العلاقات بين الدولتين بنجاح تام، فقد كانت المعدات الحربية تصل من الاتحاد السوفيتى إلى مصر كالمعتاد، كما درب الخبراء العسكريون زملاءهم المصريين على استخدام السلاح السوفيتى، وقاموا بأعمال التركيب والإصلاح. وتم فى ديسمبر ١٩٥٨ توقيع اتفاق بين الاتحاد السوفيتى ومصر، ردا على رفض البنك الدولى تمويل بناء وتطوير مشروع سد أسوان، قدم بناء عليه الاتحاد السوفيتى للجانب المصرى قرضًا طويل الأجل لتوريد وتركيب المعدات وتقديم المساعدة الفنية لتنفيذ الأعمال المختلفة، وأولها قبل كل شىء آخر أعمال البناء. وفى أغسطس ١٩٦٠ وقع كلٌ من الاتحاد السوفيتى ومصر اتفاقية أخرى يمنح الاتحاد السوفيتى مصر بمقتضاها قرضًا إضافيا لاستكمال أعمال المشروع.

وفى الوقت نفسه وجد جانب آخر للتعاون لم يكتب عنه سطرٌ واحدٌ، فقد اشتد الخلاف بين البعثيين، والشيوعيين فى الشرق الأوسط فتم القبض على الشيوعيين فى سوريا. هنا وقف "ناصر" إلى جانب البعثيين. وبدأت بغداد حملة ضد الحزب الشيوعى العراقى.

مرة أخرى وجد الكثير من الشيوعيين المصريين أنفسهم فى السجن، لم يعجب كل هذا موسكو فأبدت استياءها منه، وليس فقط عن طريق القنوات الدبلوماسية، ولكن أيضًا فى الندوات المفتوحة، فعلى سبيل المثال ألقى "خروشوف" فى المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى كلمة قدم فيها نقدًا لاذعًا للحملة الموجهة ضد الشيوعية فى العديد من الدول العربية ذاكرًا رئيس مصر.

أغاظ وصف موسكو "ناصر" كما شهد على ذلك "م.ح. هيكل". كان "ناصر" فى سوريا فى أثناء انعقاد المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى، فألقى فى اليوم التالى تمامًا بعد كلمة "خروشوف" خطبة عنيفة. هنا بدأت "حرب أيديولوجية" بين الرئيسين استمرت نحو أسبوعين. كان الروس والعرب يتصببون عرقًا فى أسوان وفى حلوان ويرددون أغانى عن نهرى الفولجا والنيل، بينما استمرت رئاساتهم العليا فى النزال بالتراشق بالكلمات، فأينما وجد "خروشوف" كان يختار "ناصر" هدفًا لهجومه. هنا تخلى "ناصر" عن ضبط النفس المعروف عنه. وأخيرًا تبادل الزعيمان رسائل أوضحا فيها أراءهم السياسية وتبادلا اللوم.

سعى "ناصر" إلى تفادى الخلاف مع "خروشوف" فأرسل له رسالة عن طريق السفير السوفيتى "أ. د. كيسيلوف" الذى سافر من القاهرة إلى موسكو لحضور المؤتمر الواحد والعشرين للحزب الشيوعى للاتحاد السوفيتى.

يتضح من محضر تسجيل لقاء "ناصر" مع "كيسيلوف" أن الرئيس كان لا يلين فى ما يخص العراق "نحن نرى أن مستقبل العراق يخصنا، ونحن لسنا على استعداد لتركه للشيوعيين مهما كلفنا ذلك من ثمن، ولكننا أيضًا لا نريد أن يكون ذلك سببًا للخلاف مع الاتحاد السوفيتى. عليكم أن تقرروا هل ترغبون فى علاقات مع الشعوب العربية، أو تريدونها فقط مع الأحزاب الشيوعية المعزولة التى تضم أعدادًا محدودة من الأعضاء".

ثم أوضح بعد ذلك: أنا لست شيوعيا، أنا قومى، أنا إنسان تَقَدُّمى، على الأقل أعتقد أنى تَقَدُّمى، أعتبر نفسى اشتراكيا ولكنى أعتقد أن شيئًا ما قد شاخ فى الشيوعية. أنا لا أقول إن كل شىء فى الشيوعية سيئ، فيوجد من بين أصدقائى

شيوعيون. "تيتو" شيوعى، ولكنه صديق حميم، و"خروشوف" صديق حميم جدا لى، ولكنه شيوعى. وإذا كنت أهاجم الشيوعيين فى العالم العربى فلا يجوز اعتبار ذلك نقداً موجهًا للاتحاد السوفيتى .

ثم ذكر "كيسيلوف" أنه فى أكتوبر ١٩٥٧ فى حفل الاستقبال بسفارة بولندا سأل مراسل صحفى أجنبى "خروشوف" عن تأييد الاتحاد السوفيتى لناصر فكان رده: نحن نؤيد "جمال عبد الناصر" على الرغم من علمنا أنه ليس شيوعيا، وأنه يسجن الشيوعيين فى بلده، ولكن هذا أمــر داخــلى يخص شـعبه وحده، نحن نؤيده لأنه قائد وطنى يمثل آمال شعبه.

استشهد "ناصر" بـ "خروشوف" لكى يبين أنه يعرف هذه الكلمات، ولكى لا يسمح بوجود خصومة، ولكنه لم ينجح فى ذلك ، فقد استمر تبادل النيران الكلامية، وعندما عاد "كيسيلوف" إلى القاهرة فى أبريل ١٩٥٩ أحضر معه خطابًا طويلاً من "خروشوف".

بدأ الخطاب بكلمات من القلب تأسف على "أن العلاقات بين بلدينا بدأت تسوء"، وكتب بعد ذلك "خروشوف" (استشهاداً بالمراجع المصرية) :

"سيدى الرئيس، حضرتكم تذكرون عندما قامت الثورة فى العراق، وناقشنا معًا فى موسكو المسائل المتعلقة باحتمالات قيام المعتدين بعمليات ضد الشعوب العربية. فى ذلك الوقت قلت لكم إننا سوف نتخذ من ناحيتنا كل الإجراءات اللازمة فى حالة هجوم المعتدين على الجمهورية العراقية، وفى الوقت نفسه أوضحت لكم أننا على أى حال سوف نسعى لحل المشاكل الموجودة بالطرائق السلمية، ودون اللجوء للحرب، وبما أننا نعرف دوافعكم خشينا من أن مساندتنا بلا حدود لمزاجكم العسكرى قد تشجعكم على القيام بعمليات حربية، فنحن نعتبر دائمًا أن هذه العمليات غير ضرورية، كما أننا كنا نخشى أن تعتبروا تأييدنا موافقة على القيام بعمليات حربية".

كان الرئيس السوفيتى يريد أن يفند تأكيد "ناصر" بأنه وقف وحده أمام خط العدوان عندما تم إنزال القوات الإنجليزية والأمريكية فى لبنان وفى الأردن، كتب أيضًا "خروشوف": " أنتم، أيضًا، تعرفون تمامًا كل الأمور الأخرى، فعندما قلنا إننا سوف

نعمل اللازم للمساعدة قامت بلغاريا بما يناسب ذلك، ولذلك فإن تأكيداتكم بأنكم كنتم وحدكم فى مواجهة المعتدين لا تتفق مع الواقع".

تطرق بعد ذلك "خروشوف" إلى موضوع مساعدة الاتحاد السوفيتى لمصر فى أثناء العدوان الثلاثى.

"لن أدارى أننا دهشنا على وجه الخصوص مما ذكرتموه فى خطبتكم يوم ٢٢ مارس، لقد أعلنتم أنكم اعتمدتم فقط على الله، وعلى أنفسكم حتى نهاية الحرب فى ٦ نوفمبر ١٩٥٦ فى أثناء العدوان الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى على مصر، وأنكم لم تحصلوا حتى على إيحاء بمساعدة بسيطة من جانب الاتحاد السوفيتى.

هنا يا سيدى الرئيس قد وقفتم على طريق الإنكار التام للحقيقة الواضحة. فالجميع يعلمون أن الاتحاد السوفيتى قام بحماية حقوق مصر القانونية بصلابة وباستمرار منذ اليوم الأول لأزمة السويس، وبعد الهجوم الحربى لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل على مصر قامت حكومة الاتحاد السوفيتى بعدة إجراءات لم تكن أبداً الدور الأقل لإخراج المعتدين من أرض مصر، هل كان عند أحد أى شك فى أنه لو كانت تلك القوى المعتدية على مصر تجاهلت الإنذار الحتمى الذى وجهه الاتحاد السوفيتى لهم ولم يوقفوا القتال فى أن الاتحاد السوفيتى كان سيتخذ إجراءات أقوى لردع المعتدين؟"

كما لام "خروشوف" أيضا "ناصر" على علاقاته بالدول العربية الأخرى : "فتتذكرون أن فى إحدى مناقشاتنا فى أثناء زيارتكم الأخيرة لموسكو أبديتم عدم رضاكم عن حكومات الدول العربية المجاورة، وسألتمونى ما الذى يجب عمله لتغيير الوضع الداخلى فى الدول التى تعادى الجمهورية العربية المتحدة، وما الذى يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفيتى فى هذا الموضوع من أجلكم؟.

كما تذكرون كانت إجابتى ضرورة التحلى بالصبر وعدم التدخل فى شئون الدول الأخرى، وأنه يمكن التأثير على هذه الدول بأن تقدموا لها مثالاً جيداً من جانب الجمهورية العربية المتحدة عن طريق تحسين المستوى الاقتصادى والثقافى ومستوى

معيشة شعوب جمهوريتكم، ويمكن عمل ذلك بتأسيس نظام يسمح لكل القوى الوطنية في الجمهورية بأن تظهر مبادراتها. لقد نصحتكم بالسعي إلى تأسيس اقتصاد ونظام في جمهورية مصر العربية يؤديان إلى جذب الدول العربية الأخرى ويقدمان مثالاً إيجابيا توافق عليه شعوبها، عندئذ ابتسمتم وقلتم إنني غير واقعي في تقييمي للموقف في الدول العربية، وأضفتم إنه لا يمكن تغيير أي شيء دون تدخل عسكري، وإن الوضع يحتاج إجراءات أكثر حسمًا، كان ردي على ذلك: إن التدخل في الشئون الداخلية للدول العربية سواء كان عسكريا أو بصورة أخرى أمر خطير للغاية، وإنه قد يؤدي إلى تشتيت قوى العرب بدلاً من توحيدها، ولكن يبدو أنني لم أوفق في إقناعكم. وأن كلاً منّا بقي على موقفه فيما يتعلق بهذا الموضوع".

بعد ذلك قدم الخطاب محاضرة طويلة عن إنجازات الشيوعية، ونفى تدخل الاتحاد السوفيتي في الشئون الداخلية للدول الأخرى، وفي النهاية تطرق "خروشوف" إلى المساعدة الاقتصادية السوفيتية لمصر.

"كما يقال لنا، سيدي الرئيس ، إنه تصدر صرخات لا تدوي دون تشجيع السلطة في الاجتماعات التي تعقد الآن في الجمهورية العربية المتحدة ، لا للروبلات، لا للدولارات. كما أن بعض رجال السياسة يبدون علنًا تشكيكًا في نزاهة المساعدة السوفيتية. لن أخوض في الفروق الأساسية التي توجد بين المساعدات السوفيتية والأمريكية، ولكني أريد فقط أن أسأل : هل يمكن أن تتسبب الروبلات في أي ضرر للجمهورية العربية المتحدة؟.

من المعروف تمامًا أن الاتحاد السوفيتي لم يفرض مساعدته على أحد سواء في الماضي أو في الحاضر، فهو يقدمها فقط عندما يطلب منه ذلك. أنتم تعرفون تمامًا، سيدي الرئيس أن الحصول على مساعدة من الاتحاد السوفيتي يعد أمرًا اختياريا تمامًا، وبالطبع حصولكم أو عدم حصولكم عليها يتوقف عليكم، فإذا رأيتم أن المساعدة التي وافقنا على تقديمها لمصر بناءً على طلبكم مرهقة لكم، وإذا أردتم أن تتخلصوا من الروبلات التي خصصناها بناءً على اتفاقيات فأنتم أحرار في رفضها.

نحن نطلب منكم أن تحسنوا فهم سبب قلقنا ، وإذا كنتم فى الوقت الحالى لا تحتاجون لمساعدتنا فلترفضوها، وسوف نسحب رجالنا دون أن نغضب، وسنحافظ على علاقات عادية معكم، مثل كل الدول الأخرى".

وأنهى "خروشوف" خطابه بأسلوبه المعتاد : "قد تحتاجون فيما بعد ، وأكثر من مرة ، مساعدة وصداقة وتعاونًا عادلاً مع الاتحاد السوفيتى، هنا أحب أن أذكر لكم مثلاً روسيًّا شهيرًا ، "لا تبصق فى بئر فقد تحتاج لشرب مائه".

كان رد الرئيس "ناصر" بالمثل طويلاً وليس به حلول وسط (نورد نص هذا الخطاب من كتاب هيكل) كتب "ناصر" : "لا أريد أن أخفى عليكم كم اندهشت من محتوى خطابكم، لدرجة أنه خيل إلىَّ عند قراءة بعض الفقرات أننى أقرأ إحدى الجرائد الغربية التى لا تتوافق فيها الوقائع مع الحقيقة، والتى تملأ فيها الانقطاعات بين الأحداث بالتخيلات، وإذا لم تنصع لهم الوقائع يلجأون إلى تخيلها".

بعد ذلك بدأ فى الرد على "خروشوف" نقطة نقطة، أوضح أنه لا يمكن أن يقلل من أهمية الإنذار السوفيتى لإنجلترا وفرنسا خلال أحداث السويس، ولكنه أضاف: " كنا وحدنا على أرض المعركة، وقد حارب جنودنا وحدهم فى شوارع بورسعيد، ولم ننتظر مساعدة من أحد إلا من الله". وذكره أن "القوتلى" رئيس سوريا طلب بالحاح، فى أثناء وجوده فى زيارة لموسكو فى ذلك الوقت، أن يقدم الاتحاد السوفيتى لمصر المساعدة. وقد كتب "القوتلى" لناصر عن موقف موسكو، وتبين من خطابه أن الاتحاد السوفيتى ليس مستعدا للدخول فى حرب عالمية، لذلك فالاتحاد السوفيتى لا يمكنه أن يسير فى طريق التدخل العسكرى حتى بإرسال متطوعين، وأن أقصى ما يستطيع أن يفعله إرسال بعض المعدات والخبراء الفنيين.

"أؤكد لكم، سيدى الرئيس ، أننى فهمت تماماً هذا الخطاب، وأنا لم يدر فى فكرى أن أرهقكم أكثر مما تقبلون أنتم، واسمحوا لى أن أعلن لكم هذا السر : إنى قد سحبت هذا الخطاب من الدوسيه، ووضعته فى جيبى لأنى لم أرغب فى أن يراه أحد آخر قد تهتز روحه المعنوية عند قراءته، ولم يخرج هذا الخطاب من جيبى حتى نهاية الحرب.

ثم أمرت بإعادته إلى الدوسيه باعتباره أحد الوثائق المملوكة للدولة، وأنا أعتبر حتى الآن أن هذه الوثيقة فخر كبير لنا، لأنها خير إثبات أننا حاربنا، ولم نكن فقط وحدنا فى أرض المعركة، ولكننا كنَّا نعرف أننا سنبقى وحدنا فى المعركة.

سيدى الرئيس، أنتم طبعا تعرفون أن الإنذار الروسى، الذى لا يمكن لأحد إنكار تأثيره، قد نشر فى موسكو دون علمنا بعد ٩ أيام كنا فيها فى أرض المعركة وحدنا. كان يمكن أن نفقد إصرارنا على القتال إلى النهاية فى تلك الفترة، فكان يمكن أن نستسلم بعد يومين أو ثلاثة أو بعد أسبوع، كان يمكن أن يحدث ذلك حتى فى صباح اليوم نفسه الذى أعلن فيه إنذاركم، فماذا كانت الفائدة من هذا الإنذار، سيدى الرئيس، إذا كانت قد جاءت نهايتنا ووقعنا.

نفى "ناصر" أيضًا بصفة قاطعة أنه كان يرغب فى التدخل العسكرى فى الشئون الداخلية للدول العربية المجاورة، وكتب "ناصر" : إنه مندهش تمامًا من صيغة الرواية التى قدم بها "خروشوف" المباحثات" من حيث سياق الحديث، ومن حيث التفاصيل، حيث إنها كلها بعيدة تمامًا عن الحقيقة".

"أنا متعجب تمامًا، فأنتم تعرضون الأمر كما لو أنى أطلب معاونتكم للدخول فى مغامرات عسكرية ضد الدول العربية. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ إننا نعتبر أى تهديد لأية دولة عربية بغض النظر عن أى شىء آخر تهديدًا لنا أنفسنا".

ولكن كان الموضوع الأساسى فى خطاب "ناصر" هو التأكيد على أنه يبدو كأن كل الشيوعيين المحليين فى العالم العربى يعملون، وبمساعدة سوفيتية، ضد القومية العربية ووحدة العرب، لذلك فإن عليه أن يحارب هؤلاء الشيوعيين حتى إذا أدى إلى عدم رضا السوفييت، وهو أمر يأسف له تمامًا.

أنهى "ناصر" خطابه مثل "خروشوف" بمثل ولكنه عربى : "يد واحدة لا تصفق"، ثم أضاف "كنَّا نريد ليدنا الممدودة لكم بالصداقة ألا تظل عالقة فى الهواء".

كانت هذه المراسلات بين الرئيسين فريدة ، والأولى من نوعها. أصبحت العلاقة بين رئيسى الاتحاد السوفيتى ومصر بعدها باردة جدا، وقد لاحظت الولايات المتحدة الأمريكية ذلك فتقدمت إلى "ناصر" بالكثير من الاقتراحات للمساعدة، ولكن محاولة استغلال الموقف كانت واضحة للغاية، لذلك لم تلق أى نجاح. بدأت فترة من السكون، حيث إن "ناصر" و"خروشوف" كانا قد قالا كل شىء فى خطاباتهم، ولم تلق أية خطبة عاصفة بعد ذلك.

تقابل "ناصر" و"خروشوف" مرة أخرى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى خريف عام ١٩٦٠، فقد سافرا إليها للمشاركة فى أعمال الأمم المتحدة، تناقشا لمدة ساعة ونصف الساعة فى يوم ٢٤ سبتمبر فى فيلة البعثة الدبلوماسية السوفيتية بمنطقة "جلنكوف"، وفى ٣٠ سبتمبر تبادلا الحديث فى أثناء لقاء مع "دول عدم الانحياز"، ثم بعد ذلك مرة أخرى فى "جلنكوف"، فى الحديقة، حيث لم يضايقهم أحد، فناقشا عدداً كبيراً من الموضوعات، أبدى كلٌ من الرئيسين فى هذا اللقاء درجة كبيرة من ضبط النفس واتسما باللياقة، شعرا أن عدداً كبيراً من خلافاتهما قد تم حلها، ولكنهما كانا متحفظين فى تعليقاتهما. كان البرود فى أحاسيسهما ما زال موجوداً، ولكن شعر "خروشوف" بالدفء تماماً عندما سمع من "ناصر" أنه لن يشارك فى الحملة العربية الصليبية المضادة للشيوعية كما أنه ليس مناهضاً للشيوعية.

هنا كان "ناصر" صريحاً تماماً، وكان "خروشوف" يتخذ فى أساس العلاقات مسلمات شيوعية بدت له راسخة. أما "ناصر" فقد سار طبقًا لمنطق ثابت للتنمية الوطنية لمصر، من هنا كانت صعوبة علاقاته مع الشيوعيين المصريين، ومع الأصدقاء الخارجيين، وهو ما لم تفهمه أحيانا موسكو.

على أية حال فقد تميزت أوائل الستينيات بذوبان الجليد فى العلاقات السوفيتية المصرية بعد فترة برودها فى نهاية الخمسينيات، استمر توريد الدبابات والأسلحة الأخرى من الاتحاد السوفيتى إلى مصر، كما تكرر إرسال أسراب الطائرات السوفيتية إليها، واستقر خبراؤنا العسكريون هناك كأنهم فى بيتهم، وكان يحظر عليهم تماماً الاتصال بالعالم الخارجي.

استمرت "المعركة على النيل" بنجاح، حيث تم إنشاء محطة هيدروليكية لتوليد الكهرباء بأسوان، واستمر العمل فى بناء أكثر من مائة مشروع مهم آخر للاقتصاد

فى مصر بمساعدة سوفيتية، وأيضًا جعلت الإصلاحات الداخلية لناصر - خاصة "حزمة عام ١٩٦١" من الإصلاحات ، والتى أطلق عليها فيما بعد بعض المستعربين عندنا تعبير"الهجوم الحاسم على البرجوازية الخاصة" - من ناصر"أحمر" (على الرغم من أنه لم يكن كذلك أبدًا) بالنسبة للقيادات السوفيتية، جاءت "نهاية الخصومة" بسرعة، حيث تمت استعادة التفاهم المتبادل، ثم جاء وقت دعوة عزيزنا "نيكيتا سيرجييفيتش" لزيارة مصر.

كان السبب مناسبًا تمامًا، وهو المشاركة فى الاحتفالات الخاصة بانتهاء بناء أول سد عالٍ فى أسوان. حضر "خروشوف" إلى هذا الاحتفال "كأنه قيصر"، فقد سافر على سفينة من فيلته بمدينة "يالطا" ولكن كان ذلك عند القياصرة الحقيقيين أيضًا احتفالاً حضاريًا. كانت "يالطا" الجميلة مليئة بأفراد الحراسة وكانت فى غنى عن الألعاب النارية، ولكن حكى بعد ذلك "م.ح. هيكل" الذى رافق "خروشوف"، وعائلته بأن الأخير كان على السفينة "أقل محافظة على المظاهر، وكان يأكل المخبوزات التى كان ممنوعًا منها (والكونياك أيضًا) فى السر، كما كان يشاهد الأفلام السينمائية، وكان لطيفًا وعطوفًا"، وأنه قد أعجب بالدرافيل التى كانت تسبح بجانب السفينة فى بحر مرمرة، وكان يتحدث كثيرًا مع "هيكل" ومع المرافقين الآخرين.

عند اقتراب السفينة من الإسكندرية طُلب من "هيكل" أن يذهب إلى "خروشوف"، فقد كان "نيكيتا سيرجييفيتش" حزينًا، حيث إنه تلقى برقية تبلغه إن الحكومة المصرية "تعتم" على استقباله الحالى. هدأه "هيكل" قائلاً : "هذا غير صحيح فأنت ضيف "ناصر"، فإذا أسىء استقبالكم سيكون ذلك إهانة ليس لكم، ولكن "لناصر"، وطبقًا للتقاليد العربية فإن" إكرام الضيف تكريم لصاحب البيت".

كتب "هيكل" أنه عند وصول السفينة إلى الإسكندرية قال "خروشوف": "يتم تطبيق البروتوكول علىَّ، لابد أن "ناصر" فى القاهرة، وأن المشير "عامر" فقط من سيستقبلنى ، فأنا لست رئيس دولة".

بعد لحظات وصل قارب بخارى يحمل النائب الأول للرئيس "عامر". خرج إليه "هيكل" وسأله عن مكان الرئيس، أجابه أن "ناصر" ينتظر على رصيف الميناء. فرح "خروشوف" عندما أخبره "هيكل" بذلك، فقد كان يهتم جدا بمثل هذه التفاصيل.

كان "خروشوف" سعيداً بالاستقبال لدرجة أنه كاد يبكى، وقد تركت القاهرة لديه أثراً كبيراً بمتاحفها وتاريخها وطبعاً بأهرامها القديمة فى الجيزة. ظهر أن تصالح "خروشوف" مع "ناصر" كان كاملاً، قدم القائد السوفيتى للرئيس "وسام لينين"، و"نجمة بطل الاتحاد السوفيتى"، وبدوره مُنح القائد السوفيتى فى احتفال كبير "قلادة النيل" التى تعتبر أعلى الأوسمة المصرية، وأقام نائب الرئيس المشير "عامر" حفلاً اتسم بالدفء على شرف "ن.س. خروشوف" فى نادى الصفوة العسكرى، وفى هذا الحفل منح القائد السوفيتى المتأثر فى عواطفه المشير "عامر"، أيضاً، "وسام لينين" و "الميدالية الذهبية لبطل الاتحاد السوفيتى". ألقى "عامر" كلمة تضمنت الكثير من كلمات الثناء موجهة لـ"ن.س. خروشوف"، وللمساعدة العسكرية السوفيتية ولكنه، لم ينس أن يضيف "أن دين مصر للاتحاد السوفيتى يثقل أكتاف الشعب المصرى"...

لم يعط "ن. س. خروشوف" الفرصة لـ"عامر" لكى يكمل، وأعلن بصوت عالٍ "نحن نخفض دينكم إلى النصف" فى ظل تصفيق حاد من القاعة (بالمناسبة كان دين مصر للاتحاد السوفيتى يمثل فى ذلك الوقت ٥ مليارات دولار أمريكى). سكتت صحافتنا فى ذلك الوقت عن هذه "الهدية" التى قدمها "خروشوف" لمصر، والتى كانت قيمتها ٢.٥ مليار دولار، وعلى ما أذكر كشفت جريدة "أرجومنتى إى فاكتى" عن هذا السر لأول مرة فى عام ١٩٩٧ .

بالطبع تم حمل الوفد السوفيتى على الأكتاف طوال الفترة التى تبقت من الزيارة، أحب الكل "ن. س. خروشوف"، والجميع كان يهتف "أورا" وطارت "القلنسوات" فى الهواء.

ولكن كانت هناك أيضاً مشاكل، فقد كان من بين الضيوف فى أسوان "عارف" الذى أصبح قبل ذلك بقليل رئيساً للعراق، وكان قد تم إعدام اثنين من الشيوعيين العراقيين شنقاً فى بغداد قبل أسبوعين فقط من ذلك.

تم الاتفاق بعد تغيير مجرى نهر النيل على أخذ يوم راحة لأن "خروشوف" لم يكن يتحمل الحر جيداً، فتم إرسال اليخت إلى "برنيس" على البحر الأحمر، أما الضيوف فقد سافروا إلى هناك بالطائرة لصيد السمك.

كان "عارف" ورئيس الجزائر "بن بيللا" ضمن من كانوا على سطح اليخت فى انتظار إعداد القوارب للصيد، توجه "عارف" إلى "خروشوف" معبراً عن إعجابه بالاتحاد السوفيتى، كتب "هيكل" أن القائد السوفيتى التفت إليه بحدة قائلاً : "نحن لا يمكن أن نكون أصدقاء لمن يشنق الشيوعيين".

أحبط "عارف" ووجد "ناصر" نفسه فى وضع صعب بصفته المضيف. هنا توجه "بن بيللا" – الذى كان الروس معجبين به باعتباره بطل الثورة الجزائرية – إلى "خروشوف" مدافعاً عن القومية العربية قائلاً بشكل مباشر له "إنه لا يفهم لا العرب ولا الوحدة العربية". قدم "بن بيللا" هذه الحجة، فرد عليه "خروشوف" أخيراً قائلاً، طبقاً لهيكل : "يجب أن أعترف أنى لا أفهمكم لأنه توجد وحدة واحدة هى وحدة الطبقة العاملة".

تدخل "ناصر" فى الحديث قائلاً : "أنتم تعودون بنا إلى الخلاف السابق، وأنا باعتبارى مضيفاً كنت لا أريد أن أشارك فى هذه المناقشة وأن أتركها لكم ولـ "بن بيللا". ولكنى أجد نفسى الآن مضطراً للمشاركة. لقد ذكرتم أنه لا توجد إلا وحدة واحدة هى وحدة القوى العاملة، إذن كيف يمكن أن تفسروا حقيقة أن الاتحاد السوفيتى والصين على خلاف؟ أليس هذان البلدان فيهما السلطة فى أيدى الطبقة العاملة؟ كما أنكم قلتم إننا يجب ألا نهاجم الشيوعيين فكيف تهاجمون أنتم إذاً "ستالين"! نحن نهاجم الشيوعيين السيئين، و "ستالين" يعتبر مثالاً جيداً للشيوعيين السيئين.

صرخ "خروشوف" : "أنا أستطيع أن أهاجم "ستالين"، ولكن أنتم لا تستطيعون! فليس من حقكم أنتم أن تهاجموه".

استمرت هذه المناقشة من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر، كان الوقت قد أصبح متأخراً على صيد السمك، كما كان من الواضح أن "خروشوف" وقادة القومية العربية لم يفهم بعضهم البعض على الرغم من أن الصحافة كانت تهلل لهم...

غادر "خروشوف" الإسكندرية فى ظل تحيات مدوية وصلت إلى الميناء من شدة قوتها، وكان يبدو سعيداً. ظل "ناصر" يراقب ابتعاد السفينة به متفائلاً، حياه "خروشوف" بهز قبعته المصنوعة من القش بينما كان "ناصر" يبادله التحية رافعاً يده عالياً.

كان يمكن فهم "ناصر"، حيث إنه أعاد العلاقة مع الرئيس الزعيم السوفيتى المندفع جدا.. نعم لقد حصل أيضًا لشعبه على هدية باهظة الثمن تتمثل فى خفض الديون باثنين ونصف مليار دولار.

كانت السفينة تبتعد أكثر وأكثر، و "ناصر" ينظر فى أثرها، إلى أن أصبحت نقطة صغيرة عند الأفق. وفى التاريخ أيضًا كانت السفينة تتجه إلى "القرم" الذى سبق أن أهداه "خروشوف" لأوكرانيا. عزيزنا "نيكيتا سيرجيفيتش" كان يوزع هذه "الهدايا" كما لو كان قد حصل عليها بجهده، على الرغم من أن كل نقطة من تلك "المليارات المصرية" وكل شبر من أرض "القرم "حصلت عليها روسيا بجهد هائل ودم أحمر. فعلا لقد أصبح حكم "المصلح" "خروشوف" باهظ الثمن للشعب الروسى بالمقارنة بقيمة قبعته المصنوعة من القش.

تم استبعاد "خروشوف" عن الحكم فى أكتوبر ١٩٦٤ ، وانتظر العالم كله "أية سياسة" سوف يتبعها القادة السوفيت الجدد، ولكن لم ينتظر أحد كما انتظر الرئيس "ناصر"، فقد كان يخشى من زوال التفاهم المتبادل الذى تم الوصول إليه بعد حل الكم الهائل من المشاكل مع "خروشوف".

"يا إلهى"! هكذا صرخ "ناصر" عند وصول خبر تنحية "خروشوف" إلى القاهرة، "علينا الآن أن نبدأ كل شيء من البداية مرة أخرى".

ولكن بعد أكتوبر ١٩٦٤ عندما تم عزل "خروشوف" من كل مناصبه الحزبية والحكومية لم تضطر القاهرة ولا موسكو إلى "بدء كل شيء من البداية" فى العلاقات السوفيتية المصرية ، فقد تمكنت الصداقة التى وضع أسسها زعيما البلدين من التطور أكثر بعد ذلك (على أية حال لعدة سنوات أخرى)، وقد بقيت ذكرى المصرى العظيم "ج. عبد الناصر" فى قلوب مواطنى بلدى فى روسيا، ولم يمح الزمن صورة "ن. س. خروشوف" وزيارته وهداياه التى ما زال يتذكرها المصريون، أما عند أهرام الجيزة فيتم عرض هديته ، الساعة.

وهى ما زالت تعمل.

الباب الثامن

"١٧" من هرم خوفو بعرض النيل فى أسوان

نُفذ فى ٩ يناير عام ١٩٦٠ أول تفجير فى المكان الذى يتقاطع فيه النيل الآن مع السد العالى، وأصبح السد أكبر بناء فى العالم تم تنفيذه بالحجر لإنشاء محطة هيدروليكية لتوليد الكهرباء ، حجمه يعادل حجم ١٧ هرماً مماثلاً لهرم خوفو، وقد تم بناؤه فى حوض سد أسوان القديم المشيد فى عام ١٩٠٢ أى فى البحيرة التى بلغ عمقها ٣٥ متراً.

لم يهز هذا الانفجار فقط الأماكن المجاورة لمنطقة التقاء هضبة الصحراء الغربية مع الكثبان الرملية للصحراء الليبية التى تذكرنا بطريقة ما بشكل سطح القمر، فقد وصل صدى صوت هذا التفجير إلى مصر كلها، وأدى إلى ابتهاج غالبية سكانها، ووصل بعد ذلك إلى العالم كله مصحوباً بمختلف التعليقات والأحكام والتوقعات المتضاربة، ولكن لم يبق أحد غير مبالٍ، فقد أعجب أصدقاء مصر والاتحاد السوفيتى بكبر حجم المشروع، أما غير الأصدقاء فقد أكدوا "استحالة" ترويض نهر النيل، وأن ذلك قد يؤدى إلى كارثة.

الفكرة وأعداؤها

كان فى رأى أغلب المتشائمين أن تنفيذ السد الجديد فى المكان المكون من صخور جرانيتية متدرجة، الذى تم اختياره له، غير مناسب من وجهات النظر المتعلقة بالطبيعة والبيئة، وأيضاً، لأسباب اقتصادية، فقد اعتقد المعارضون لهذا المشروع أن التربة لن تنصاع حتى للتفجير، وأن ظروف العمل فى المناخ الحار - هذا المكان الذى تتعدى فيه

درجة الحرارة أربعين درجة مئوية فى الظل طوال الوقت من مارس إلى نوفمبر - تفوق قدرات الإنسان. آخرون أثاروا ضجة بحجة الإضرار بالبيئة، وبأن البحيرة التى ستتكون مستقبلاً ستزيد من رطوبة الجو، وبأن المـاء سوف يتسرب فى الأرض مما سيؤدى لضحل النيل وزيادة نحر التربة. وفى النهاية رأى الاقتصاديون أن المشروع المقترح ليس اقتصاديا لأنه يستلزم نقل كل مستلزماته إلى عمق ألف كيلومتر أو أكثر فى الصحراء، كما أنه لا يعرف بعد متى تعوض هذه المصروفات. كان من الضرورى أيضًا الاتفاق مع السودان الذى يستخدم هو الآخر مياه النيل.

ما الذى أدى حقيقةً إلى هذا التشاؤم ؟ بالطبع كانت ظروف العمل صعبة جدا، ولم يكن يقدر عليها إلا المتحمسون فقط وليس المتشككون، كما كان هناك بالفعل ما يبرر حجج المناهضين للمشروع بسبب البيئة، ولكنهم لم يأخذوا فى الاعتبار احتياجات الفلاح المصرى الفعلية من ماء النيل للرى وللأغراض الأخرى، كما أن حجم مياه نهر النيل فى أفريقيا الاستوائية كان يعتمد على الكثير من العوامل، وكانت تحدث له تغيرات كثيرة. ففى السنوات العادية كان يمثل ٨٤ مليار متر مكعب، وفى السنوات التى تزيد فيها المياه كان يصل إلى ١٥٠ مليار متر مكعب متسببًا فى فيضانات مدمرة، ولكن فى السنوات التى كانت فيها المياه شحيحة، كان ينخفض إلى ٤٥ مليار متر مكعب، وفى هذه الحالة كان وادى النيل يعانى من جفاف خطير. وقد أدى عدم تجانس حجم مياه النيل إلى أن مصر والسودان معًا كانتا تستخدمان ما لا يزيد على ٥٢ مليار متر مكعب من المـاء فى السنة الواحدة، وكان يتم إلقاء كمية من المـاء، يصل حجمها إلى ٣٢ مليار متر مكعب فى السنة، فى البحر الأبيض المتوسط. وقد ظهر التفكير فى التحكم فى مياه النيل قبل "ناصر"، فقد تمت دراسته عدة قرون ، وبنيت سدود وإنشاءات أخرى حلت بصورة جزئية فقط المشاكل الملحة لمن يعمل فى الأرض.

ولكن ظهرت فقط فى القرن العشرين فكرة بناء سد عالٍ على النيل ، يسمح بتخزين المياه الزائدة عن الحاجة فى سنوات وفرتها لاستخدامها فى سنوات قلتها وسنوات الجفاف، بحيث يكون متوسط حجم المـاء الذى يتم ضمان توفيره نحو ٨٤ مليار متر مكعب. يكفى ذلك احتياجات الرى ويسمح بإضافة مساحة إضافية إلى الأرض القابلة

للزراعة تصل إلى ١,٣ مليون فدان (الفدان يعادل ٠,٤٢ هكتار)، وتحويل ٧٠٠ ألف فدان من نظام الرى بالحياض إلى دورة سنوية، وجنى عدة محاصيل فى كل سنة. أما ما يخص السودان فإن السد العالى سيوفر له ١٤,٥ مليار إضافى من الماء لأغراض الرى، ويؤدى إلى توسيع الرقعة المزروعة من الأرض إلى ثلاثة أضعاف المساحة المزروعة فى ذلك الوقت.

عرضت هذه الفكرة فى ٨ أكتوبر على المجلس الأعلى للثورة فكلف الهيئات المصرية المختصة بدراستها، وقد أجمعت هذه الجهات على ضرورة تنفيذ هذا المشروع استناداً إلى وجهات النظر الفنية والاقتصادية، تبع ذلك تشكيل لجنة دولية ضمت أشهر العلماء والخبراء المتخصصين فى بناء السدود لعمل التصميم المناسب. وقام هؤلاء المتخصصون بدراسة تفصيلية للمشروع، وراجعوا الجوانب الفنية لتنفيذه وقدموا تقريراً فى ٤ ديسمبر ١٩٥٤ عن دراستهم أكدوا فيه على إمكانية بناء السد، آخذين فى الاعتبار كل وجهات النظر.

أيدت الهيئات الوطنية والعالمية الموثوق بها الفكرة وأبدوا موافقتهم على المشروع، فقررت حكومة مصر بناء "الأعجوبة على النيل"، كما أصبح يوصف سد أسوان العالى فيما بعد، وفى عام ١٩٥٩ وقعت اتفاقية مع السودان يسمح لمصر بموجبها باستخدام ٥٦,٥ مليار متر مكعب من ماء النيل فى السنة بعد بناء السد، بينما يحصل السودان على ١٨,٥ مليار متر مكعب. كما تم حساب أن نحو ١٠ مليار متر مكعب سوف تفقد بالبخر وبالتسريب فى التربة، بالإضافة إلى ذلك فقد تعهدت مصر بدفع مبلغ ١٥ مليون جنيه إسترلينى للسودان (وقد دفعتها) تعويضًا عن الممتلكات التى ستغمرها مياه بحيرة أسوان على أرض السودان. أما الخرطوم فقد تعهدت بتهجير المقيمين فى المناطق التى ستغمرها المياه.

يجب أن نتذكر هنا أنه بينما كانت فكرة السد الجديد تناقش وتدرس كان معارضوها الغربيون يصدرون ضجيجًا على قدر إمكانهم، ولكن بمجرد أن اتخذت مصر قراراً نهائيا وبدأت تبحث عن مصادر للتمويل، سد الجميع أفواههم بالمياه تماماً. كانت الحسابات تبين أن تكلفة السد تصل إلى ٤١٥ مليون جنيه، ٣٥٪ منها تقريبًا

بالعملة الصعبة، تستخدم لاستيراد معدات البناء وتوليد الطاقة. ظهرت فكرة تمويل بناء المشروع بمساعدة خارجية، تقدم المصريون بطلب للبنك الدولى للبناء والتنمية؛ لتمويل هذا المشروع لأنه كان ينفذ عدداً كبيراً من المشاريع فى ذلك الوقت، وقد وافق هذا البنك فى البداية على تمويل المشروع بعد مماطلة طويلة، ثم فجأة سحب قراره فى ١٩ يولية عام ١٩٥٦ ، فأعلن الرئيس "جمال عبد الناصر" تأميم قناة السويس فى ٢٦ يولية ١٩٥٦ ، وتم الرد عليه فى ٢٩ أكتوبر من العام نفسه بشن العدوان الثلاثى لبريطانيا العظمى وفرنسا وإسرائيل على مصر.

انتهت قصة تمويل سد أسوان العالى فى ٢٧ ديسمبر ١٩٥٧ ، عندما وقع الاتحاد السوفيتى مع مصر اتفاقية يقدم بموجبها الطرف الأول قرضاً طويل الأجل بمبلغ ٩٠ مليون روبل لتوريد المعدات وتقديم المعونة الفنية لتنفيذ الأعمال خاصة أعمال البناء. كما وقعت الدولتان الصديقتان فى ٢٧ أغسطس ١٩٦٠ اتفاقية أخرى يمنح بمقتضاها الاتحاد السوفيتى مصر قرضاً آخر قيمته ٢٠٢,٥ مليون روبل لاستكمال كل أعمال المشروع.

قهر المساحات غير المطيعة

قدر لمؤلف هذه السطور أن يصبح شاهداً على بناء مشروع سد أسوان العالى، وقد كانت ظروف عمل البناة الروس والعرب غير سهلة على الإطلاق، ففى أسوان يظهر بوضوح الحد الفاصل بين وادى النيل الأخضر الخصب والصحراء الصخرية الرملية الخالية من الحياة. فيمر وادى النيل بين صخور متبلورة قديمة جدا مدعوكة فى طيات ومليئة بالشروخ ومهشمة بفعل عوامل التعرية، هذه الصخور مرصوصة على طول مجرى النيل، وتمتد بعدها بلا حدود من الشرق ومن الغرب "صحراء النوبة" المكونة من الصخور الرملية والطين، والتى تكون كثباناً رملية صفراء.

قام الخبراء السوفييت بعمل دراسات إضافية للمشروع بعد توقيع اتفاقية بناء السد، وقدموا الشكل النهائى لتجهيزات المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء والإنشاءات الرئيسية.

بلغ إجمالى طول السد ٣٦٠٠ متر، وعرضه عند القاعدة ٩٨٠متراً ، وعند القمة ٤٠متراً، والارتفاع فوق مجرى الماء ١١١ متراً. وتقرر وضع طبقة من الطين المانع لتسرب الماء على المحور الطولى للسد، أما القاعدة فيتم حقنها لعمل ستار عازل عمقه ١٨٠ متراً. كما تم تنفيذ مجرى للمياه (صاعدة)، ومجرى لصرف المياه (هابطة) على الضفة اليمنى وستة أنفاق متوازية لنقل المياه ، قطر كل منها ١٥ متراً. وتم إنشاء خزان للمياه فى نهاية المجرى الصاعد به بوابة، يتم بواسطتها التحكم فى حجم المياه الداخلة إلى مبنى المحطة الهيدروليكية، لتوليد الكهرباء. وعند مخرج الأنفاق تم قطع مبنى المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى الصخر، وهى تحتوى على ١٢ توربينة قدرة كل منها ١٧٥ ألف كيلووات. وقد تم توريد المعدات من الاتحاد السوفيتى عن طريق البحر ثم نهر النيل، وكذلك عن طريق السكك الحديدية، والنقل الجوى. وقد سافر آلاف من الروس إلى أسوان فى هذه الفترة للعمل فى هذا المشروع.

تم الاحتفال بالنصر الأول فى ١٥ مايو ١٩٦٤ ، ففى هذا اليوم انتهت أعمال المرحلة الأولى تماماً وطبقاً لما حددته خطة العمل مسبقاً، فقد تم الانتهاء من الأعمال التالية : جرف التربة من المجريين الصاعد والهابط (كانت أطوالهما ١١٥٠ و ٤٨٥ متراً على التوالى)، وبناء خزان الماء وستة أنفاق طول كل منها ١٨٢ متراً، وإغلاق مجرى النيل، وتمرير المياه الساقطة عن طريق قناة تم حفرها فى الصخور بطول ١٩٥٠ متراً، وزيادة ارتفاع سد المجرى إلى علامة ١٢٣ متراً فوق سطح البحر الأبيض.

فى السنوات الست التالية تم إنجاز إنشاءات المرحلة الثانية التى تمت على فترتين: الأولى : تشغيل أول معدات فى عام ١٩٦٧، وتوصيل الكهرباء عبر خطوط نقل الكهرباء إلى القاهرة. الثانية : توصيل ارتفاع السد إلى شكله النهائى والانتهاء من كل أعمال البناء فى عام ١٩٧٠ .

ما زالت الأحاديث المختلفة مع بناة السد فى تلك الأيام محفوظة فى مذكراتى الصحفية حتى الآن :

قال لى "كوروتاييف فاسيلى كوزميتش" رئيس قسم الإنتاج الفنى: " حتى يناير ١٩٦٩ فقط وصل الجسم الأساسى للسد فى منطقة وسطه إلى علامة ١٩٠ متراً ،

وتم الانتهاء من الأجزاء التى على الضفتين فى عام ١٩٦٩ ، ثم تم تخطيط المنحدرات وزرعت بالأشجار، وتم إنشاء طريق واسع للسيارات على قمة السد. أما أعمال تشطيبات محطة القوى فقد تم الانتهاء منها فى مايو ١٩٦٩ ، وفى يولية ١٩٧٠ بدأ تشغيل الوحدة الثانية عشرة الأخيرة، وسلم مسقط المياه الاحتياطى للتشغيل، ويبلغ طوله ٢٨٨ مترًا، وبه ٣٠ فتحة لإسقاط الماء ، عرض كل منها ٨ أمتار"...

أما رئيس أعمال التركيبات الميكانيكية المهندس "كمال شاهين" فقد قال : "لقد وصلت المعدات الموردة من الشركات السوفيتية (نحو ٣٠٠ شركة) فى موعدها، وقد امتازت بجودتها طبقًا لأحسن المواصفات العالمية. لقد تم وضع لوحة المفاتيح – مركز التحكم وقلب محطة توليد القوى – فى الطابق العاشر من مبنى محطة توليد القوى الهيدروليكية، ويتم التحكم فى العمل بواسطة معدات إليكترونية. وكان يدير محطة توليد القوى الهيدروليكية مهندسان وردية مصريان ومهندسان وردية سوفيتيان".

وذكر "جوسوف إيفان فيدوروفيتش" كبير مهندسى تشغيل الهيدروليكية : "لقد فعل الخبراء السوفييت كل ما فى وسعهم لكى يحل محلهم خبراء مصريون ذوو كفاءة عالية، فطبقًا للاتفاق بين الجانبين تم اختبار كل الخبراء المصريين المسئولين عن تشغيل محطة القوى الكهربائية قبل فبراير عام ١٩٦٩ ، ولقد دربنا الخبراء المصريين بأن درسنا لهم ٢٠ برنامجًا من المحاضرات (شمل كل برنامج من ٥٠ إلى ١٠٠ محاضرة)، وقد كتبنا وترجمنا إلى العربية المستندات الفنية وكتيبات إرشادية تطبيقية عديدة، وقد تم تدريب نحو ٢٠ ألفا من المصريين فى أسوان على مختلف التخصصات".

إضاءة أسوان الجديدة

كان كل ذلك كأنه بالأمس على الرغم من مرور عشرات من السنين على لحظة عمل أول تفجير فى مكان السد المستقبلى، ومنذ اللحظة التى تم فيها بدأ توليد الكهرباء من المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء بأسوان. فى بداية التسعينيات كان قد تم توليد أكثر من ١١٥ مليار كيلووات / ساعة من الطاقة الكهربائية. وقد كلفت مصر ٤٥٠ مليون جنيه مصرى

تم استعادتها منذ زمن طويل؛ لأن السد يضيف إلى البلد نحو مليار من الجنيهات المصرية كل عام. وقد نشر بمجلة "روز اليوسف" القاهرية الأسبوعية فى عام ١٩٨٥ أنه "فى تلك الأيام التى كان الإسرائيليون يحتلون فيها أراضى شبه جزيرة سيناء، كانت المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء المصدر الوحيد للطاقة، وأنها قد أنقذت مصر من نقص الطاقة، فقد ولدت أكثر من ١٠ مليار كيلو وات / ساعة من الطاقة الكهربائية فى العام"، وفى عام ١٩٨٧ أعلن مدير إدارة السد العالى : "يعتبر السد العالى حجر الزاوية فى تطور مصر".

بالفعل هذا صحيح، فمع البدء فى المرحلة الأولى لبناء السد فى عام ١٩٦٤ شكلت حكومة مصر لجنة خاصة بدأت فى دراسة موضوع التحول إلى نظام الرى الدائم بدلاً من رى الحياض الذى استخدم فى مصر آلاف السنوات، وتم عرض ١٧ مشروعا ووُفق على أحدها، ويتلخص فى رى الأراضى بصورة تلقائية بواسطة قنوات رئيسية. كانت أهم مميزات هذا المشروع أنه لم يتطلب بناء عدد كبير من محطات الضخ، يعتمد أسلوب الرى فيه على شق ثلاث قنوات رئيسية على كلٍّ من جانبى النيل بطول نحو ٧٠٠ كيلو متر. وتم تركيب ٢٤٠٠ بوابة من الصلب على قناطر تحول الماء الآن إلى ٨ آلاف قناة رى فرعية، وفى خلال العشرين سنة التالية لبدء النظام الجديد للرى تم بناء أكثر من ٣ آلاف مشروع مساعد (جسور، وقناطر، ومجارٍ مائية...) و٧ محطات ضخ فقط. سمح ذلك بالحصول على محصولين أو ثلاثة فى العام ، من الأراضى التى حولت لنظام الرى الدائم، والحصول على دخل لا يقل عن ٢٠ جنيها مصريا من كل فدان (طبقًا لما أعلنته "شركة الكراكات" المنفذة لأعمال الرى فى مؤتمر صحفى)، كما أدى ذلك إلى تحسين وسائل الاتصال بين مراكز التجمعات السكانية، حيث كانت الاتصالات بينها تتوقف تقريبًا فى السابق فى أيام فيضان النهر. أما الطرق والقناطر وغيرها من التجهيزات، فكانت قد وصلت إلى حالة سيئة، كما انخفضت تكلفة الماء وارتفعت دخول العمال الزراعيين وانخفضت البطالة. يمكن أن نقول: إن كل من صعيد مصر ووسطها أصبحا يعيشان حياة أخرى بعثها فيهما السد العالى.

تغيرت أيضا مدينة أسوان نفسها، فأصبحت الآن مركزًا اقتصاديا كبيرًا فى البلد. فهنا أنشئت صناعة التعدين التى تمد مصنع الصلب بالخام، فإذا كان السائحون فى الماضى يحضرون إلى أسوان لمشاهدة "جزيرة النباتات" الخضراء دائمًا والتى تضم مجموعة تصل إلى ٥٠٠ نوع من نباتات البلاد الحارة، وجزيرة "فيلة" (التى تقع أمام المدينة تمامًا)، والآثار القديمة الفريدة التى عليها، فالآن يشاهدون أيضًا، بالإضافة إلى الجزيرتين، طريق الكورنيش بطول أربع كيلومترات وبه عدة حارات للسير، وقصر ثقافة، ومستشفى، وعيادات، ومعهدًا فنيًا ، ومركزًا تعليميًا لتدريب الأخصائيين، ومحطة تليفزيون ترسل برامجها لمدة ست ساعات فى اليوم، كما يقف ٣٠ من الفنادق النهرية العائمة عند المرسى فى أربعة صفوف، وهى تتنقل فى النيل بين الأقصر وأسوان.

تغيرت أيضًا كل المحافظة التى ظلت منسية لعدة قرون. وقد كتب عالم المصريات والرحالة الروسى "ف.أندرييفيتش" بعد زيارته لهذه الأماكن فى بداية القرن العشرين: "الشىء الوحيد الذى يذكرك هنا بالحضارة الحديثة كابل التلغراف المعلق فوق رءوس النوبيين ذوى الشعر المجعد والنساء الجميلات بالمنطقة الرائعة، هؤلاء هم أبناء الطبيعة". تغير الكثير هنا الآن بفضل سد أسوان، فقد تم توصيل الماء لمدن أسوان وإدفو وكوم أمبو، كما أصبحت نحو ١٠٠ من القرى تملك خطوط توصيل الماء وشبكة قنوات مائية ودخلتها الكهرباء، وظهر الكثير من ورش الصيانة والحدادة والنجارة، تعلم وتدرب أصحابها فى "السد العالى". كما تمكنت جموع الفلاحين من استصلاح نحو ٥٠ ألف فدان إضافية من الأراضى القفر، حيث أصبح يصلها الماء. تم وضع نظام لإمداد السكان بالمواد الغذائية وباللوازم الضرورية للحياة، وأصبح هناك فى كل تجمع سكانى مركزًا أو معملاً طبيا، وأهم شىء أنه أصبح دائمًا من الممكن الحصول على عمل بالقرب من السد واستخدام الأيدى العاملة الزائدة بشكل كبير فى مصر.

يتذكر الأسوانيون بحرارة الخبراء الروس الذين شاركوا فى بناء السد. "لقد بنى السد بضمير"، هكذا يقول "أحمد حسين"، الذى كان فى ذلك الوقت مهندسًا وأصبح الآن نائبًا لمدير مجمع أسوان لتوليد الكهرباء فى المحطة الهيدروليكية. "مضت عشرات السنوات،

ولكن عندما تمر فى داخل مبنى محطة توليد الكهرباء فى الحجرات الخرسانية لا تسقط أبداً على قميصك حتى قطرة واحدة من الماء. إلى الآن ما زال الكثير من الوسائل الفنية غير التقليدية التى استخدمت فى أثناء بناء السد فريدة لا مثيل لها، وعلى الرغم من مرور عدد غير قليل من عمر هذا البناء فإنه ما زال يبدو بغرابة حديثاً".

أمضى الكثير من المصريين فى تلك السنوات فترات للتدريب على بناء محطات توليد الكهرباء عندنا، وهم لا ينسون أيضاً تلك السنوات. قال لى مهندس الميكانيكا "حسن مرسى" : يعتبروننى "براتسكى" (من سكان مدينة "براتسك" الروسية التى توجد فيها محطة توليد كهرباء) مصرى ، فأنا لا أستطيع حتى الآن أن أنسى السنة ونصف السنة التى أمضيتها فى أعوام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ فى "براتسك". بصراحة كنت أخشى الطريقة التى سيستقبلوننى بها هناك، وكيف سيعاملوننى، ولكنى وجدت نفسى كأنى بين عائلتى. فقد عمل كلٌ من المهندسين "إيزوتوفسكى"، و "جريبانوف"، و "أبلوجين" (ذكر أسماءهم، وتذكر عشرات الأسماء الأخرى) كلَّ ما يمكن حتى أشعر كأنى فى بيتى، علمونى التزحلق على الجليد بالزحافات، ودعونى إلى بيوتهم، وإلى احتفالاتهم بالانتقال إلى بيت جديد، وإلى الأفراح، وإلى الصيد، كما نظموا لى الرحلات، والأهم من ذلك كله أنهم نقلوا لى كل معارفهم وخبرتهم. لقد أحضرت الكثير من الأشياء المفيدة من هناك، انظر هذه المجموعة المتحركة (وأراها لى حسن)، لم توجد هنا مثل هذه من قبل، لقد صنعناها كما تصنع فى "براتسك"، نعم وكل السد العالى ، والمحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء مثل التى عندكم فى "براتسك".

وما زال "حسن" يذكر ما قاله له المهندس "أبلوجين" عند وداعه :" انظر، لا تنسَ "براتسك"، قد تبنى محطات كهرباء أخرى أو قد تعمل فى أسوان، ولكن تذكر كيف حاربنا الطبيعة معاً، فلا يجوز أن يمحو الزمن صداقتنا".

كان من النادر جدا طوال وجودى فى مصر أن أقابل أو أتعامل مع من لا يبدى صداقته لى، كان يتأفف فقط من وقع أسيراً للدعاية الغربية، وكل من عادى الثورة المصرية التى قامت فى عام ١٩٥٢ ، فالغالبية الكاسحة من المصريين تبدى لنا عرفاناً

بالجميل، وتذكر وتقدر صداقتنا التى حاول البعض التقليل منها فى خلال حكم "السادات". يحس المرء بحب وصداقة الإنسان البسيط فى أسوان بالذات أكثر من أى مكان آخر فى كل خطوة، فقد ترك الروس هنا جزءًا من عرقهم ودمائهم، وهم يحفرون مع أصدقائهم المصريين جرانيت أسوان الصلب جدا الذى يقف عليه الآن السد العالى. هنا على الضفة اليسرى للنيل عند قمة السد التى يظهر من عندها المنظر العام لبحيرة ناصر، يقف شامخًا إلى السماء نصب تذكارى مصنوع من المرمر الأبيض على شكل زهرة اللوتس يرمز للصداقة المصرية الروسية، وقد حفرت عليه كلمات أول رئيس لمصر "جمال عبد الناصر" : "على مدى سنوات طويلة من العمل المشترك تشكلت وقويت الصداقة المصرية الروسية التى لا تقل قوة عن سد أسوان نفسه". وقد تم وضع كيس من رمال نهر "الفولجا" مع أول خرسانة فى قاعدة النصب (أيضًا رمزيا).

الرد على المعارضين

الشيء الغريب أن المعارضين لوجود السد العالى لم يستطيعوا أن يهدأوا، ليس فى مصر، ولكن فى الغرب. ما زالوا يحاولون دائمًا الإساءة إلى هذا البناء العظيم، يقولون الآن : إن امتناعهم عن تمويل بناء السد العالى كان بناءً على بعد نظر هؤلاء الذين أثاروا ضجة، ومازالوا يثيرونها، عن "الأضرار التى لا يمكن التغلب عليها"، والتى يتسبب فيها هذا العملاق المعمارى الفنى المنتمى للقرن العشرين، فعندما تم الاحتفال بالسنوية التالية لبناء السد العالى فى يناير ١٩٨٧ وجدت جريدة "ميديل إيست" أنه من المناسب نشر رأى العالم الأمريكى "ج. ستانلى"، الذى وصل إلى حد المطالبة "بتخليص مصر من سد أسوان العالى". وقد سبق أن ارتفع مثل هذا الضجيج أيضًا فى عام ١٩٨١ بعد زلزال نوفمبر، فقد نشر فى العديد من الصحف، حتى فى المصرية، عن ظهور شروخ فى جسم السد، وعن وجود تسريب للماء، وكذلك عن وجود خطر غرق كل صعيد مصر. وعلى الرغم من أن اللجنة المشكلة نتيجة لهذا الضجيج قامت بفحص دقيق للسد، وأكدت أن السد العالى "حالته ممتازة"؛ فلم يهدأ المعارضون حتى الآن.

وبالطبع فمن الواضح تماماً أنهم يستخدمون ما هو على السطح وقريب من فهم السكان، على سبيل المثال : مشاكل البيئة أو الرى، أو المشاكل المتعلقة بالآثار أو بالمهجرين من المناطق التى غرقت بسبب البحيرة الصناعية.

من الجدير بالملاحظة أن الزمن قد تغير، وأصبحت هجمات "المعارضين لسد أسوان" تلقى مقاومة قوية من جانب المسئولين الرسميين المصريين، ومن الأوساط العلمية. وقد أعجبنى شخصيا رد رئيس اللجنة القومية لشئون السد العالى لجمهورية مصر العربية الدكتور "إبراهيم قناوى" على ما ذكره "ج. ستانلى": "إذا كان مستر "ستانلى" يعتقد أن المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء "شىء ضار للغاية"، فلماذا إذاً يبنيها الأمريكان فى بلدهم ؟ ليس هناك أى جديد فى حجج "ستانلى"، فإن تآكل شواطئ دلتا النيل كان يحدث أيضاً قبل بناء السد العالى بزمن طويل كما يتضح من خرائط القرن الماضى، لذلك فلا يمكن اتهام السد بما لا علاقة له به، بالإضافة إلى ذلك فقد تمت دراسة وعمل حساب كل المضاعفات الممكنة قبل عملية البناء، وإذا قيمنا دور سد أسوان فى حياة مصر الحديثة، فيجب أن نعترف بوضوح أن هذا البناء الضخم يحمى بلدنا من الجوع، وقد أنهى السد العالى تبعية مصر الكاملة لنزوات النيل عند منابعه العليا، فعلى سبيل المثال كانت مياه النيل فى عام ١٩٨٦ أقل من المعتاد. لو حدث ذلك من ٢٥ سنة مضت لكان يشكل مشكلة كبيرة ، لكان قد حرم ملايين من المصريين من لقمة الخبز، أما الآن فلا يسبب لنا مستوى الماء فى النيل أى قلق، فقد أعطى السد للمصريين الفرصة لكى يعيشوا بلا خوف من الغد، وهذا هو الأهم، وفى رأيى أن ما نشر فى الجريدة اللندنية يتعلق بالسياسة وليس بالبيئة أو بالرى".

نضيف إلى ذلك أنه على الرغم من أن حجم خزان الماء هو ١٥٧ مليار متر مكعب (وهو ما يعادل ضعف متوسط حجم الماء المتدفق فى النيل فى العام)، فإن الجفاف فى إفريقيا فى الثمانينيات وفى التسعينيات وصل إلى درجة أن مخزون الماء فى بحيرة ناصر انخفض بشدة فى عام ١٩٨٧ ، على سبيل المثال، لدرجة هددت بتوقف التربينات التى تعطى خمس الطاقة الكهربائية المولدة فى البلد كلها. وقد تمت مناقشة هذا الوضع فى مجلس الشعب لجمهورية مصر العربية، واتخذت الإجراءات اللازمة لزيادة

كفاءة استخدام حجم الماء المتاح وتوفير الطاقة. أما في عام ١٩٩٦ فقد حدث العكس، فقد زاد امتلاء النيل بالماء. وتدفقت المياه بدرجة اضطرت فيها السلطات إلى فتح بوابات الطوارئ، هذه نزوات الطبيعة، ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم يكن السد موجوداً؟

أساس الأفعال السياسية لمن لا يفوت أية فرصة للتشهير بسد أسوان وما ينشرونه واضح تماماً، فهم يريدون إلقاء الظلال على هذا العملاق الذي يعتبر أحد أهم محطات توليد الطاقة في مصر. وبالإضافة إلى سد أسوان العالي فمن المعروف أن الاتحاد السوفيتي قد ساعد مصر على تنفيذ ١٣٠ مشروعاً آخر تم بناء ٩٥ منها، فيتم في المصانع التي ساعد على بنائها الاتحاد السوفيتي في مصر إنتاج ١٠٠٪ من الألومنيوم وفحم الكوك، وآلات الورش، ومسطحات الصلب المدرفلة على البارد، و ٨٢٪ من الحديد الزهر، و ٧٩٪ من الصلب، و ٤٥٪ من المنتجات المصنعة من نواتج تكرير البترول في مصر. وفي تقدير الخبراء المصريين أنه تم استثمار نحو مليار جنيه مصري في المشاريع التي تمت بالتعاون الروسي المصري، وقد حققت هذه المصانع في عام ١٩٨٣ أرباحاً وصلت إلى ٨٥ مليون جنيه مصري، وفي عام ١٩٨٤ تعدت ١٠٠ مليون، وقبل نهاية عام ١٩٩٦ وصلت إلى ٢٥٠ مليون جنيه مصري. ويعمل في المشاريع التي تم بناؤها بمعاونة الاتحاد السوفيتي أكثر من ٦٠ ألفا من العمال المصريين، أو أكثر من ١٠٪ من العاملين في القطاع العام، وفي خلال سنوات التعاون السوفيتي المصري تم تدريب أكثر من ١٦٠ ألفاً من العمال المهرة والفنيين. والآن، بينما تكتب هذه السطور، ما زالت الهيئات الروسية تورد قطع الغيار والمعدات لمجمع الحديد والصلب في حلوان ومجمع الألومنيوم في نجع حمادي ولمصانع الأسمنت، وما زال خبراؤنا يشاركون في أعمال كهربة الريف المصري واستصلاح الأراضي الجديدة.

كما قيل من قبل : "عند سيركم بمحاذاة النيل من القاهرة إلى أسوان تعرض عليكم الآثار القديمة : "أهرام الجيزة" بضاحية القاهرة، و"هرم زوسر" المدرج الذي يبعد عنهم قليلاً. ثم مملكة الجميلة "نفرتيتي" في المنيا، وتماثيل "ممنون" العملاقة الشهيرة و"وادي الملوك"، ومعابد "الكرنك" و"حتشبسوت"، ومعالم الأقصر السياحية الأخرى التي تقع

فى منتصف الطريق بين القاهرة وأسوان، وبعد ذلك يظهر أمامكم مرة أخرى ماء النيل العكر، الذى يلمع تحت ضوء الشمس، وأطلال حضارات عظيمة سابقة". ولكن يتغير الوقت، وتتغير معه كلمات المرشدين، الآن يعرضون إنجازات الثورة المصرية التى تمت تحت قيادة "جمال عبد الناصر" بجانب آثار الحضارة المصرية القديمة، فقد خرجت من الصحراء أبراج ضخمة تمتد أعلاها خطوط نقل الكهرباء ، يتم بها توصيل التيار الكهربائى من أسوان إلى الشمال، ويشير المرشدون إلى الأراضى التى كانت تسودها الصحراء فيما قبل، أما الآن فقد ترامت فيها المزارع التى تسقى بالماء، ثم ها هو سد أسوان العالى نفسه، وهو إحدى العجائب المصرية الأخرى، أعجوبة أيامنا ، عظيم تم بناؤه بأبعاد ضخمة، يقف ممتدا عبر النيل ، ولا يعتبر فقط شاهداً ضخماً عظيماً على المعالم التاريخية بمصر، ولكنه أيضاً مصدر للحياة يحميها من الجفاف ومن الجوع.

صرح الرئيس "حسنى مبارك" قائلا : "قدم الاتحاد السوفيتى مساعدة كبيرة، ونحن لن ننسى له ذلك أبداً، وأنا أؤكد مرة أخرى ذلك باسم الشعب المصرى كله، وسوف تبقى أسوان رمزاً أبديا لصداقتنا".

عن النصب التذكارى للصداقة

يقف هذا البناء الفريد حارساً واقفاً فى مكان حراسته إلى الأبد، قبل الدخول على قمة السد، وعلى شبه الجزيرة الصغيرة المتوغلة داخل بحيرة ناصر، ويمكن رؤيته من أية نقطة من امتداد المنظر الطبيعى لأسوان. حكى لنا المهندس المعمارى الحاصل على لقب التميز فى روسيا الاتحادية "بيتر بيتروفيتش بافلوف" الذى شارك فى تصميم هذا النصب عن قدره غير العادى :

ظهر فى عام ١٩٦٦ إعلان فى الجرائد عن مسابقة عالمية فى عاصمة مصر لعمل مشروع النصب التذكارى لصداقة الشعوب السوفيتية والمصرية لكى يوضع على قمة سد أسوان.

التقيت فى اليوم التالى بصديقى وزميلى "يورى أوملشنكو" وقلت له : "هيا نعمل هذا المشروع". أجاب بشىء من الهيبة : "... ولكن متى سنشارك فى مثل هذه المسابقة إن لم نشارك الآن ؟"

وبدأنا، تحولت شقتى إلى ورشة، وضعنا الأثاث فى ركن، كان برنامجنا اليومى كما يلى : نعمل على تصميم المشروع من الخامسة إلى الثامنة صباحًا ثم نذهب إلى جهة عملنا ثم نستمر فى العمل فيه حتى منتصف الليل. وطبعًا عملنا فى كل أيام الراحة الأسبوعية، كنا ننام خمس ساعات فى اليوم طوال أربعة أشهر.

واستدعيت النحات"إرنست نى إيزفستنى"قبل تسليم المشروع بشهر، وعرضنا عليه رسم النقوش البارزة على الأسطح الداخلية للنحاس الداخلية للنصب، لم يكن عنده وقت لذلك، فقد كان عليه إنهاء النقوش البارزة بمشروع آخر، وبعد عدة اتصالات هاتفية قمت بها معه فى "القرم" (شبه جزيرة فى البحر الأسود) أرسل لى "نى إيزفستنى" رسومًا على ورق شفاف قبل موعد تسليم المشروع بثلاثة أيام، ومعها رسالة جاء فيها : "بيتر، لقد فعلت كل ما أستطيع، وإن لم يناسبك ما أرسلته فتخلص منه، أما إذا كان مناسبًا فاستخدمه، فأنا مشغول للغاية، ففى اليوم الخامس القادم سيرفع الستار عن النصب الذى صممته، أتمنى لكم النجاح. صديقك "إرنست". قد يكون من الأجدى قص الورق الشفاف مباشرة ولصقه دون الحاجة لإعادة الرسم".

تمكنا من استخدام بعض رسومه ولكننا رسمنا النقوش البارزة بأنفسنا على الإطارات الداخلية، وقد ألح علىَّ "يورى" وزوجته أن أكتب اسم "أ.نى إيزفستنى" فى قائمة المصممين فكتبنا أن رسوم النقوش البارزة تمت بمشاركة "أ.نى إيزفستنى".

تم إرسال ٥٦ مشروعًا مقدمًا من الاتحاد السوفيتى عن طريق "اتحاد معماريى الاتحاد السوفيتى" إلى القاهرة. مرت عدة أشهر، وفجأة أعلنت وكالة "تاس" أن "لجنة التحكيم الدولية فى القاهرة اختارت مشروع المعماريين السوفيتيين "ى. ف. أوملشنكو" و"ب. ب. بافلوف" بمشاركة "إ.نى إيزفيستنى" فى عمل النقوش البارزة على الجدران أحسن مشروع".

كانت غالبية المشروعات المقدمة للنصب تقليدية، على هيئة "تخسين" Pilon يرمزان لفكرة الصداقة والحقوق المتساوية فى التعاون بين الشعبين، ولكن فكرتنا كانت مختلفة، فقد كان تصميمنا عبارة عن زهرة لوتس ضخمة تقف على سطح ماء هادئ، ويصل إليها طريقان يمثلان طريقين للشعبين، وتنمو زهرة ترمز للحياة وللكفاح وللصداقة فى المكان الذى يتقابلان فيه. كانت ضخامة أبعاد السد، ومحطة توليد الكهرباء، وبحيرة ناصر، وقوة النهر، والمنظر العام المحيط ، تملى ضرورة ضخامة حجم النصب. وقد كان طوله فى النسخة المقدمة للمسابقة ٩٠ متراً.

تم إرسالى أنا وَى. أوملشنكو" فى عام ١٩٧٠ فى مهمة إلى سد أسوان لكى نستكمل أعمال تكسية المشروع، وللإشراف على بناء النصب باعتبارنا مصممين له، وتم إهداء المشروع لمصر من الاتحاد السوفيتى، وقد نفذته الشركات المصرية على حساب مصر.

كان الشكل العام للمشروع كما يلى : يلاصق الطريق المؤدى إلى قمة السد موقف للسيارات، وتقرر أن يبنى بجانبه كافيتيريا ومطعم ومتحف للسائحين. من هنا تكون بداية الطريق المبنى من بلاطات مصنوعة من جرانيت أسوان الأحمر يمر عبر بساط من الخضرة ثم يقطع حوض ماء قطره ١٠٠ متر ثم يدخل إلى داخل النصب.

يتميز هذا المكان بديناميكيته، وبأنه مشحون بالعواطف، تحيطه خمسة مستويات من البلاستيك نحتت على أسطحها زخارف. بعد مشاهدته يمكن الصعود إلى ارتفاع ٤٦ متراً إلى شرفة المشاهدة المصممة على شكل حلقة بواسطة مصعدين، جدرانهما مزخرفة برسوم من البرونز المطروق. يمكن من هذه الشرفة مشاهدة مساحات الصحراء الصفراء المحمرة، وخزان الماء، والسد، والنيل العظيم، وخيال أسوان من بعيد.

كان العمل لا يزال جارياً فى بناء النصب التذكارى عند افتتاح محطة توليد الكهرباء والسد فى يناير ١٩٧٠ ، وقد شارك فى بنائه نحو ١١ شركة مصرية. وعلى الرغم من وجود "رافعة برج" فقد تمت كل الأعمال فى الأساس يدويا كما فى مصر القديمة. شمل هذا رفع الخرسانة يدويا فى أوانى من المطاط وتهذيب ألواح المرمر والجرانيت، وقد تم تنفيذ كل الأعمال بضمير وبدقة وبحب.

تم تصميم مجموعة من النقوش الزخرفية المنحوتة على الأسطح الداخلية للنخس على مساحة نحو ٧٠٠ متر مربع. وتم تركيب بلاطات مسدسة من المرمر فى جزئها السفلى حتى ارتفاع ١٤ متراً. وقام "ن. ك. فيتشكانوفى" مع ٢٠ من النقاشين المصريين بنحت زخارف بارزة فريدة.

كان الشكل العام لمجموعة الزخارف كما يلى : كفان ضخمتان تخرجان الماء لأعلى على النخس الأوسط، وحفر على خلفية منظر لمحطة توليد الكهرباء محفور فى المرمر ، رمزا الاتحاد السوفيتى ومصر، ونحت فوقهما رسم بارز للرئيسين "ناصر" و"السادات"، وكتب بالعربية : "خلق الله الماء، والماء هو أروع ما فى الوجود".

حدد موعد الاحتفال برفع الستار عن النصب التذكارى ليكون فى يناير ١٩٧٥ ، وقد استعدت السلطات المصرية لذلك بحماس، وقد حصل مراسلو التليفزيون الروسى منا على حديث فى ديسمبر ١٩٧٤، وحضر فريق من مصورى الأفلام التسجيلية، وكان من المتوقع أن يفتتح النصب "ل. إ. بريجنيف"... ولكن طال الانتظار.

هكذا يقف النصب التذكارى على ضفاف النيل مخلداً عمل الروس والمصريين فى أسوان، ولكن لم يتم افتتاحه رسميا، يزوره الآلاف، وكان من بينهم فى يناير ١٩٩٧ مرة أخرى مؤلف هذه السطور. ركبنا المصعد إلى شرفة المشاهدة بالنصب لكى نسعد بالمنظر العام للسد، ثم تجولنا على قمته. وقد سرَّنا أن نلاحظ أن كل شىء تم عمله بصورة حسنة، وأن كل شىء فى مكانه، وكل شىء يخدم الناس، كما أن النصب يقف صامتًا شاهدًا على الماضى.

الباب التاسع

"أبوسمبل" المولود مرتين

تسلقنا بصعوبة بالغة هذا الجبل الرملى الضخم الشبيه بهرم "خوفو"، حيث كنا نغوص فى ملايين من حبات الرمال اللامعة الناعمة، كما كنا نتدحرج إلى أسفل فور قيامنا بأية حركة خاطئة، وفى هذه الحالة لم يكن هناك أمل للإمساك بأى شىء للتوقف لعدم وجود أى شىء فوق الرمال. يوجد الكثير من هذه الجبال الضخمة التى تمتد سلاسلها على ضفة النيل الغربية، وقد تسلقنا أحد هذه الجبال للتمتع بمشاهدة المنظر الخلاب للمنطقة من فوق قمته، كنا مجموعة من الصحفيين السوفييت الذين سافروا إلى مصر لزيارة المواقع التاريخية فى صعيد مصر شمال أسوان.

وصلنا إلى الارتفاع الذى تحلق عنده الطيور، فظهر لنا منظر عام للمنطقة الصحراوية الصفراء. التى يميل لونهاإلى الرمادى، كما ظهر لنا النيل متعرجًا بين الرمال، وبالقرب منه على الجانبين تربة تكاد تكون سوداء ، تتكون من طبقات متعددة حرقتها الشمس. يذكرنا ذلك بشكل سطح القمر المغطى بطبقة رقيقة من الرمال. أما التلال المذهبة اللون التى غسلها النهر عند المنعطفات فهى واقفة شامخة فى صمت كحارس فى وردية عمل لا نهائية، ويظهر من هنا البر الغربى على بعد خلف النيل، تكسوه هالة من الضباب، كأرض تم قص الحشائش منها فظهرت صدئة اللون، ومستوية وقاسية، مليئة بالثنيات الملونة بالأصفر وبالأسود، والتى تمتد متموجة حتى الأفق تمامًا راسمة زخارف متعددة الأشكال. عند النظر إلى البعد المغطى بالضباب تظهر تجمعات سكنية غارقة فى كثبان الرمال، وكذلك برك من المياه الساكنة، ولكن كل ذلك ما هو فى الحقيقة إلا "سراب"، تلك الظاهرة الفريدة التى تظهر فى الصحراء المحيطة بالنيل.

أشار مرشدنا إلى اليمين قائلاً : إن "وادى حلفا" يبعد ٤٨ كيلو متراً عن هنا، وهو يمثل آخر نقطة فى الأرض السودانية، أما على اليسار، أى من حيث جئنا، فهناك أسوان على بعد ٢٨٠ كيلو متراً، أما خلفنا...

السر الذى حفظته الصحراء

استدرنا كلنا إلى الخلف ووقفنا مشدودين ساكنين من الدهشة، فقد كانت تنظر إلينا من داخل مغارة صخرية ضخمة بجانبنا ثلاثة توائم حجرية عملاقة جالسة بعظمة على مقاعد منحوتة فى الواجهة. منظرهم مهيب، ولأنهم ملوك كانت أيديهم موضوعة على ركبهم، وكانت أقدامهم العارية مشدودة، أما العملاق الرابع الجالس على اليسار فقد تهشم وبقيت منه فقط الأرجل. كنا نعلم أن هذه التماثيل (ارتفاعها ٢٠ متراً) تمثل شخصاً واحداً فرعون مصر القديمة "رمسيس الثانى" الذى أمر منذ ٣٠٠٠ سنة ببناء معبد فى هذا المكان بمناسبة مرور ٣٠ سنة على توليه حكم البلد. هزنا تماماً ما شاهدناه بضخامته وبفنيات تنفيذه وبامتداد هذه القطعة الفنية على مساحة واسعة.

لم تتم إضافة معبد رمسيس الثانى المحفور فى الصخر فى منطقة لا تبعد عن قرية "أبو سمبل" فى النوبة إلى قائمة عجائب الدنيا بواسطة علماء الآثار القدماء لسبب واحد فقط، لأنه كان مغطى برمال الصحراء لعدة قرون، وقد حافظ ذلك عليه من أجل الأحفاد القادمين بعده. وفقط عندما زار عالم المصريات السويسرى "إ. ل. بورهارد" فى عام ١٨١٣ كهف معبد "حتحور" المبنى فى "أبو سنبل" لإلهة الحب والرقص والولائم المصرية القديمة، تسلق أحد التلال الرملية فاكتشف غطاء رأس ثلاثة تماثيل عملاقة غير معروفة تظهر من تحت الرمال. وعندما عاد "بورهارد" إلى القاهرة فى يونية ١٩١٨ أعلن عن اكتشافه، وقد توجهت فوراً عدة بعثات تقتفى أثر الطريق الذى اتبعه السويسرى ولكن بلا نجاح، فقد كان من المستحيل العثور على قوى عاملة فى هذا المكان لإزالة الرمال التى تغطى التماثيل العملاقة، وقد قاطع الشيوخ المحليون الأجانب الذين يدرسون هذا الإنشاء وامتنعوا تماماً عن التعاون أو المشاركة فى الأعمال المطلوبة.

ثم ظهر المغامر الإيطالى الشهير الباحث عن الكنوز الدفينة "د. ب. بولتسونى" فى سبتمبر عام ١٨١٦ فى هذه المنطقة ، ومعه تصريح للبحث عن النفائس لصالح المتحف البريطانى. كانت البعثة تعمل من الشروق إلى الغروب، وتمكنت من الدخول إلى المبنى الضخم الذى غطت الرمال نصفه، وقامت بفحص كل المجموعة المنفذة فى صخرة من قطعة واحدة تحت الأرض بمساعدة ضوء مشاعل يتصاعد منها الدخان. قام "بولتسونى" بنفسه بالطرق على كل الجدران، ولكنه لم يجد أى شىء يمكن اعتباره ثمينا من وجهة نظره غير التماثيل الضخمة المدفونة فى الرمال حتى أفخاذها . كان ما وجده معبدا وليس مقبرة، وتبين أنه قد نهب منذ زمن بعيد جدا، وبعد ثلاث سنوات حضرت إلى هنا بعثة جديدة رفعت الرمال عن التمثال الأقرب لنهر النيل، فاكتشفت كتابات باللغة اليونانية على قاعدته نقشت فى القرن السادس قبل الميلاد، وكلما أزيلت أصفاد الرمال عن المعبد اكتشفت كتابات جديدة تعطى معلومات عن زمن بناء المعبد وعمن بناه، ثم وجدوا أطلال التمثال الرابع الذى كان مهشما حتى وسطه وكانت ملقاة عند البوابة.

كان اختيار المهندس المختص لمكان بناء المعبد موفقًا للغاية، فقد تم بناؤه فى جنوب عاصمة النوبة المدينة القديمة "ميم" بجانب معبد الإلهة "حتحور" القديم. تم البناء على الطرف الشرقى لبروز صخرى ضخم، واختيرت اتجاهاته بحيث يسقط ضوء شمس الصباح على التاج المقدس الموضوع على رأس تمثال الحاكم الموضوع فى عمق المعبد. هذا التمثال تم نحته فى صخرة رملية، وهو يدهش من يراه بنسب أبعاده الدقيقة، وبالعناية التى تم بها تنفيذ كل أجزائه، وكذلك بجمال شكله الذى لا يقاوم، وكلما اقتربت من هذا التمثال كلما زاد تأكدك من قيمته وكلما زال شكك فى ذلك. بالطبع هو إحدى ظواهر عمل الإنسان فى العصر البرونزى، وهو بالتأكيد أحد إنجازات الأجداد.

يتكون المعبد من عدة مبان، وتوجد فى واجهته وبعرض ٦٠ مترًا تماثيل للفرعون جالسا على العرش، ارتفاع كل تمثال ٢٠ مترًا ويزيد وزنه على ١٢٠٠ طن، وتوجد عند قدمى هذه التماثيل المتطابقة تمامًا تماثيل لأسرة فرعون الكثيرة العدد، حيث إن عدد أبنائه أكثر من مائة، كلهم يمتازون بدقة تنفيذهم وجماله ، أما التماثيل الأربعة للفرعون

نفسه فقد تم تكرارها دون أى خطأ فى التنفيذ، ويثير التشابه فى وجوهها الإعجاب، على الرغم من أن البعد بين أذنى كل منها يزيد على أربعة أمتار.

دخلنا إلى مبنى القاعة الكبرى فوجدنا أنفسنا وحدنا مع ثمانية تماثيل، ارتفاع كل منها ١٠ أمتار واقفة فى صفين ينظر كل منهما للآخر، تستند هذه التماثيل على أعمدة ضخمة، وتكرر شكل فرعون نفسه، الذى تمثله التماثيل العملاقة التى فى الخارج. تتشابه هذه التماثيل بدرجة مدهشة تثير الإعجاب بمهارة الفنانين الذين كانوا يعملون على تنفيذها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام فى ظل ضوء مشاعل ومصابيح بدائية، القاعة الكبرى متسعة وعالية، كل جدرانها مغطاة بالنقوش البارزة، وبالكتابات التى تثنى على حكم فرعون، أما الحجرات الصغيرة الجانبية فكانت عبارة عن مخازن ما زالت بها دكك وأكشاك حجرية لحفظ اللوازم المختلفة، وتوجد أمام حجرات المخازن موائد القرابين، فلنذهب أبعد من ذلك، لنجد على بعد نحو ستين مترًا من المدخل الجدار الأخير من المعبد، هنا تقف أربعة تماثيل من اليسار إلى اليمين، الأول للإله "بتاح" (حامى الفنانين والحرفيين)، ثم الإله آمون رع (أهم وأقوى الآلهة وإله الريح)، ثم "رمسيس الثانى" نفسه (على مستوى واحد مع الآلهة) ثم الإله "رع - خابارتى" (إله الشمس المشرقة)، يسقط ضوء الشمس المشرقة إلى هذا المكان تمامًا مرتين فى العام ليضىء وجه فرعون. فيما مضى كانت تلمع هنا عينا الإله الحى المطعمة بالياقوت الأحمر.

لفتت أنظارنا ونحن خارجون من المعبد الشرائط المزخرفة فيه، فتوجد تحت السقف أقراص الشمس مكتسية بالغبار مع زوج من ثعابين الكوبرا السامة. يرمز ذلك إلى القصاص الحتمى لفرعون من كل المذنبين، وتحت ذلك ريشة من أجنحة الإلهة "مات" (إلهة الحقيقة والنظام)، وتعنى أن قصاص الحاكم من حقه. فلنلقى النظرة الأخيرة على القواعد الحاملة للتماثيل الملكية عند المدخل، فهى تمثل قوة وجبروت الإمبراطورية الفرعونية لهذا الفرعون الذى فتح فى ذلك العهد ١٢ مملكة امتدت من الحبشة إلى فينيقيا.

كان هذا السر الذى حفظته الصحراء.

كيف تحول معبد "حتحور" إلى معبد "نفرتارى" ؟

حكم رمسيس الثانى (١٣١٧ - ١٢٥٠ قبل الميلاد) هذا البلد إلى أن بلغ سنا متقدمًا وتوفى عن عمر ٨٩ سنة، وقد خاض حروبًا طويلة فى جنوب مصر والنوبة وفى الحبشة وفى أماكن كثيرة أخرى من مملكته، حيث كانت تحدث فيها دائمًا اضطرابات وثورات ضد استبداد فرعون، كانت النوبة أكثر المناطق التى تؤرقه لعدم رغبتها فى التبعية للمصريين، وكان الحاكم يرسل إلى هناك جيشه لإخماد هذه الاضطرابات. كان هؤلاء الجنود يتوقفون عادة فى الكهف - المعبد القريب من "أبو سمبل"- ؛ للصلاة للإلهة القوية "حتحور"(راعية أحسن الصفات الإنسانية والحامية لهم) عند عودتهم من الحروب المتكررة ومعهم الغنائم والعبيد، لذلك فقد جاءت إلى فرعون فكرة استخدام هذا المعبد لتمجيد رفيقة حياته وأقدم وأحب زوجاته إليه "نفرتارى".

كان الكثير من القصص يروى عن جمال "نفرتارى"، مما ساعد على تقوية هيبة فرعون. وإذا كان هو نفسه قد أعلن فى حياته أنه إله فلماذا لا تصبح زوجته إلهة ؟ خاصة أنها كانت محبوبة حتى خارج حدود مملكته. هنا بدأت عملية إعادة بناء معبد الإلهة "حتحور" القديم لكى يصبح معبد "نفرتارى"، فتم نزع التماثيل والنقوش القديمة لتحل محلها رسوم وتماثيل رقيقة للإلهة "نفرتارى". وقد بدأت هذه الأعمال تقريبًا فى عام ١٢٤٥ قبل الميلاد.

نقترب الآن من هذه "الأعجوبة الثانية" بـ "أبو سنبل" - معبد "نفرتارى" - وجدنا أن نظامه متميز تمامًا ولم يتكرر فى أى مكان آخر، فواجهته تتكون من ست فجوات عميقة محفورة فى الجدار، وفوقهم حافة ضخمة معلقة كتبت عليها عبارات المديح، وتخرج على كل جانب من الفجوات ثلاثة تماثيل ضخمة تمثل الآلهة، هى أيضًا عظيمة: تمثالان لإلهتين من الإناث، الإلهة "حتحور" والإلهة "إيزيس"(إلهتى السماوات والأرض)، وأربعة من الذكور، الإله "بتاح" والإله "آمون - رع" والإله "رمسيس الثانى" بصفته إله مصر العليا ومرة أخرى الإله "رمسيس الثانى" باعتباره فرعون للإقليمين المصريين معًا. الآلهة الإناث لها شكل "نفرتارى" أما الآلهة الذكور فلها شكل "رمسيس الثانى". ديناميكية الآلهة مدهشة لدرجة أنه يخال للمرء كما لو كانوا سيخرجون الآن من الجدار ويفرضون عليه قوتهم.

تترك القاعات الداخلية انطباعًا غير عادى على الزائر ، فتعطى النقوش البارزة الرشيقة المكونة من عدة طبقات إحساسًا بأن المعبد لأنثى، فالجدران منقوشة بألوان متدرجة صفراء وخضراء، كما أن رسوم "نفرتارى" فريدة، ووجهها مرسوم معبرًا عن حنان غامض، حتى الفرعون نفسه مرسوم قوى الجسد ورشيق على الرغم من بلوغه الثمانين فى ذلك الوقت.

يقول مرشدنا: إن هذين المعبدين – معبد "رمسيس الثانى" ومعبد "نفرتارى" – مركزان لاهتمام البشرية كلها، كما أنهما يحظيان أيضًا باهتمام الطبيعة، فرياح الصحراء تجلب الرمال لهما بإصرار شديد، ويكون ذلك بقوة لا تتمكن فيها السواتر الواقية المشيدة فى عام ١٨٩٢، لحمايتهما من مواجهتها. هى فعلا كذلك، فقد واجهنا هذه الرياح العنيفة بأنفسنا وشاهدناها طوال فترة وجودنا فى "أبو سمبل". كانت الرمال تضرب بشدة فى أرجلنا، وتعتم الزجاج وتخدش المنشآت وتملأ المنخفضات، وتحرك التلال فوق معابد مماثلة لمعبد "أبو سمبل". من يعرف، فقد يكون التل الذى تسلقناه هو أيضًا يخفى شيئًا ما من آثار حضارة قديمة ، فقد تمكن علماء المصريات، ذلك المجال الجديد فى علم الآثار، من فتح الباب قليلاً لكشف الأسرار الخفية، ولكن مازال الكثير منها فى الانتظار. هكذا يقول الكثير من العاملين فى مجال الآثار المصرية القديمة، وقد أثبت لنا هذا بحماس مرافقنا الطيب نبيل.

الآلهة المنزعجة

كنا قد قمنا بالرحلة الموضحة أعلاه قبل أن يتم عمل أعجوبة أخرى فى صعيد مصر ، أعجوبة عصرنا الحديث.

كان من الواضح منذ بداية بناء سد أسوان العالى أن خزان الماء (بحيرة ناصر) سوف يفيض من عند المجرى الرئيسى حتى ١١ كيلومترًا، وأن عمقه سيصل فى بعض الأماكن إلى ١٠٠ متر. هذا يعنى غرق الكثير من مناطق التجمعات السكنية القريبة من مجرى نهر النيل والكثير من آثار صعيد مصر والنوبة، لذلك تم نقل القرى

والمراكز بكامل سكانها، إلى أماكن آمنة، إلى شمال الإنشاء الضخم، ومُنح النوبيون أراضى خصبة، وتعويضات. ولكن ما العمل مع الآثار؟ كان هذا الموضوع يؤرق العالم كله، وليس المصريين فقط، فظهرت إلى الوجود عشرات من المشاريع ومن الاقتراحات لإنقاذ هذه الآثار التى لا يمكن تقديرها بثمن. تم فك بعضها مثل معبد "كلابشة" - على سبيل المثال - الذى تم بناؤه فى عصر الإمبراطور أغسطس (عام ٣٠ ١٤ قبل الميلاد) فى مكان معبد "أمنحتب الثانى" نفسه الأقدم منه (١٤٤٩-١٤٢٢ قبل الميلاد)، ونقل من مكانه على هيئة كتل من على بعد ٥٧ كيلو مترًا جنوب أسوان، ثم أعيد تركيبها فى الفترة من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٥ فى أماكن أخرى على الضفة اليسرى لنهر النيل أعلى قليلاً من مكان سد أسوان العالى، وقد بقيت بعض الآثار الأقل فى الأهمية فى مكانها لكى تغرق. لم تكن إمكانيات الحكومة المصرية تكفى لإنقاذ معبد "أبو سمبل"، لذلك طلبت مساعدة المجتمع الدولى، ورأست هيئة "اليونسكو" هذه الحملة، فاستجابت أكثر من ٥٠ دولةً لطلب المساعدة. اقترح الفرنسيون بناء حواجز رملية حول المعابد، ولكن لم يكن هناك أى ضمان بأن الماء لن يخترقها. أما الإيطاليون فقد اقترحوا قطع كلٍّ من المعبدين من الصخور ورفعهما باستخدام رافعات متحركة. ولكن هذا كان يتطلب رافعات قادرة على رفع أوزان كبيرة تتراوح بين ٣٠٠ و٦٠٠٠٠ طن. كما قدمت كلٌّ من بولندا وبريطانيا العظمى مشاريع تقترح ترك المعابد فى مكانها بعد تغطيتها مسبقًا بقلنسوة من الخرسانة المسلحة، أو بطبقة شفافة لتغرق. كانت كل هذه المشاريع غير صالحة وفى الوقت نفسه مكلفة جدا، لذلك فقد وضعت خطة تمثل حلاً وسطًا قدمه السويسريون، يتلخص فى تقطيع المعابد إلى أجزاء ، ثم رفعها إلى أعلى ونقلها إلى مكان آمن، ثم يعاد تجميعها وترميمها.

بدأت هذه الأعمال فى عام ١٩٦٤ بمشاركة خبراء من هيئة "اليونسكو"، و ٣٠٠٠ مصرى، واستمرت لمدة أربعة أعوام. كانت هذه الأعمال صعبة لأن درجة الحرارة فى هذه المناطق تصل إلى ٥١ درجة مئوية فى الظل، وتنخفض إلى الصفر فى المساء، كما كان من الصعب توريد المعدات التى نقلت إلى هذا المكان بوسائل النقل الجوية والبرية، وكان مطلوبًا لتنفيذ هذه الأعمال أيد ذهبية (ماهرة). وقد جُلبت هذه الأيدى

العاملة من أسوان ومن الأماكن المجاورة لها. كان هؤلاء المصريون يتمتعون بمهارة عالية فعلاً. وأنا أتذكر أحدهم بصفة خاصة، المهندس "صفوت توفيق" ، الخريج المتميز فى جامعة القاهرة ، فقد قضينا معه عدة أيام فى "أبو سمبل" فى أثناء الاحتفال بافتتاح المعابد.

لقد تم الاحتفال بهذا الحدث جيداً، فقد حضرت وفود من أكثر من ٥٠ دولة الاحتفالات فى "أبو سمبل"، ونظمت الهيئة العامة للاستعلامات المصرية رحلة للصحفيين الأجانب، ليذهبوا إلى هناك، وقد كان مؤلف هذه السطور أحدهم. كان ذلك فى سبتمبر عام ١٩٦٨ ، وقد توجهنا من ميناء أسوان عن طريق النيل على أربعة قوارب بخارية أطلقت عليها أسماء أربعة من قدماء الملكات المصريات الشهيرات : "نفرتيتى"، و"نفرتارى"، و"حتشبسوت"، و"كليوباترا"، وقد سافرت معنا على القارب نفسه ملكات جمال من ١٦ دولة مختلفة. أمضينا ٨ ساعات فى الطريق فى جو حار للغاية (فعلى سبيل المثال كان الهواء يلسع أيدينا الممدودة فى أثناء حركتنا فى خلال خمس دقائق). أصاب الإرهاق الحسناوات فأبدين رغبتهن فى الاستحمام وتمت الاستجابة لهن، فخلع الركاب ملابسهم بسرعة واندفعوا إلى الماء الذى كان ساخناً تقريباً.

سأل أحدهم : "ألن تلتهمنا التماسيح؟" أجابه المرافق : "لا توجد تماسيح فى هذا الجزء من النيل المار فى مصر منذ أكثر من مائة عام، وعلى الأخص فى بحيرة ناصر".

نعم، هذا لم يكن النيل، فقد كانت هذه بحيرة بها ماء شفاف تماماً تقريباً ، وقد ملأت المياه كل المنخفضات والثنيات فى الصحراء، والتفت حول التلال الحجرية مكونة العديد من الخلجان الصغيرة، ومن الخلجان الطويلة الضيقة - خلجان الصحراء - وقد لاحظنا أنه لا توجد أية أشجار أو مبانٍ على أية من الضفتين، كان يجب إعادة بناء كل شىء هنا من جديد...

استقبلنا منظمو الاحتفالات بحرارة وبترحاب، فى البداية زرنا "قاعدتهم"، وفى البداية أجلسونا فى سيارات مكيفة الهواء (توقف الترمومتر عند علامة ٤٩ درجة).

شاهدنا المدينة الصغيرة الرائعة ذات المساكن المريحة الباردة، وحمامات السباحة والفنادق المبنية بالحجارة البيضاء والمرسى والمطار، فلم يتبق من "أبو سمبل" القديمة إلا اسمها فقط. خيل لنا أن هذا المكان "فى أقصى طرف للعالم"، فيقف أمامنا مجمع سياحى حديث أصبح يحتل الآن أحد المراكز الأولى فى أفريقيا.

بالطبع توجهنا فوراً إلى المكان الذى كانت توجد فيه من قبل المعابد الشهيرة، وشاهدنا منخفضاً ضخماً امتلأ تماماً تقريباً بالماء، وقد تحملت هذه الأعمال المعمارية المميزة عملية تقطيعها إلى ألفى جزء، يصل وزن كل منها إلى ما بين ٢٠ و ٣٠ طناً، وهى الآن ساكنة فى مكانها الجديد.

يتذكر "صفوت" : "لقد عملنا بجد طوال الليل والنهار، وكنا معرضين لخطر الغرق. فى البداية بنينا سدا لحجز المياه التى كانت تصلنا فى كل وقت، ثم غطينا المعابد الموجودة على ضفة النيل بالرمال، وشيدنا سرداباً من الصلب فى الداخل، وقمنا بعمل دعائم للبناء الداخلى. قطعنا التماثيل وعناصر المعبد الأخرى إلى أجزاء، ووضعت علامات دقيقة عليها، ثم تمت تغطيتها بمادة خاصة، ونقلناها على طريق معلق بواسطة شاحنات إلى أماكن جهزت مسبقاً. استخدمنا كل ما يمكن فى هذه العملية بداية من الأزاميل والمناشير اليدوية إلى أحدث معدات القطع، وكانت من بينها معدات من الاتحاد السوفيتى. كنا ننتشر طوال النهار والليل فى ورديات مختلفة، لأن التوقف كان يهدد بانهيار التماثيل المصنوعة من الأحجار الرملية. ولتفادى ذلك كان يتم حقنها بمحاليل خاصة عن طريق ثقوب متعددة بها... كانت الآلهة الحجرية تنتظر دون تذمر إلى رجال العصر الحديث الذين أنقذوها بحقنها للمحافظة عليها للأجيال القادمة".

وقد أنجزوا هذا العمل بطريقة رائعة، فتم عمل جبلٍ صناعىٍّ قطره ٥٨ متراً وارتفاعه ٣٠ متراً فى المكان الجديد المرتفع عن سطح النيل، ووضعت كل مبانى المعبد الكبير داخله، ورممت أماكن القطع لإرضاء أكثر الأحفاد تعنتا. كما شيد بالقرب من هذا المكان جبلٌ أصغر وضع داخله معبد الجميلة "نفرتارى"، وقد وصلت مساحة المجمع الجديد إلى ٢ كيلو متر مربع، واستهلك لبنائه ١٠ آلاف متر مكعب من الأسمنت، وقد وضعت كل الأجزاء فى أماكنها تماماً، حتى أدق التفصيلات.

وصلنا الآن إلى الاحتفال بالافتتاح ، الميلاد الثاني لـ "أبو سنبل" . تم ذلك في ٢٢ سبتمبر من عام ١٩٦٨، حيث تم رفع الستار الأبيض عن لوحة تذكارية من المرمر الأبيض تم تركيبها في مركز المجمع. كتبت العبارة التالية على هذه اللوحة : "أزاح رئيس الجمهورية العربية المتحدة "جمال عبد الناصر" الستار عن هذه اللوحة التذكارية بمناسبة انتهاء أعمال المحافظة على معبدي "رمسيس الثاني" في "أبو سمبل" وتشييدهما في مكان جديد، وللتذكير بالتعاون الدولي من أجل حماية الثروات الإنسانية بعد بناء سد أسوان العالي؛ لتوفير حياة كريمة وازدهار لشعب مصر". تبادل المتحدثون إلقاء الخطب من فوق المنصة الموضوعة داخل خيمة ضخمة، كانت هذه الخيمة منصوبة للضيوف حتى المساء، وامتلأت الساحة بالبناة وبسكان المنطقة الذين كانوا يتصايحون ويحتفلون، وقد سعدت الجماهير التي أثار حماسها الحدث الحالي.

عندما انخفضت درجة حرارة الهواء بعض الشيء (إلى ٤٠ مئوية تقريبًا) في منتصف الليل ذهبنا لمشاهدة البناء الجديد. شرح لنا المهندس السويدي "ميير" بالتفصيل المشروع الذي تم تنفيذه على قمة جبال صناعية ليس هناك أدنى شك في مدى كفاءتها. أصيب كل من حضر إلى هنا من قبل بالدهشة، بسبب دقة تماثل ترتيب كل أجزاء المعابد. لكن ما الذي تم عمله من أجل المحافظة على الاتجاهات ؟ قدم نائب رئيس مهندسي بناء المشروع المهندس "صفوت توفيق" الإجابة عن هذا السؤال قائلا : "عملنا كل ما في وسعنا حتى لا يغضب "رمسيس الثاني" بسبب ذلك أيضًا، فما زالت أشعة الشمس تنير تمثال فرعون الموضوع في داخل المعبد في العمق، ولكن أصبحت هذه الأشعة تدخل إلى هناك من ٣ إلى ٢٧ أكتوبر من كل عام وليس مرتين فقط في العام – في يوم ميلاده ويوم تتويجه كما كان يحدث من قبل. هل هذا أحسن أو أسوأ؟ سنترك الحكم للأحفاد في المستقبل".

غرق الجميع في الذكريات وفي التصريحات الصحفية في أثناء الحفل المقام تحت أضواء الكشافات في الساحة الواقعة تحت أقدام تماثيل "رمسيس الثاني" الضخمة.

سألت المهندس الألمانى الجالس بجانبى : "كيف كان يعيش هنا الخبراء الأجانب؟"

- " كان إجمالى عددنا ٢٠ ، وكنا نسافر إلى أسوان على طائرات صغيرة للترويح عن أنفسنا، لأننا كنا نعتبر هذه المدينة مركزًا للحضارة".

- "هل كان عدد الباحثين عن الكنوز المدفونة الذين ظهروا هنا كبيرا؟"

- "كان من الغريب أن يحضر كل عام عدد يصل إلى ١٠ من هؤلاء المغامرين، كانوا يختارون لأنفسهم جبلاً رمليًا ويبدأون فى الحفر. فى العادة كانوا يملون ذلك بعد عدة أيام فيحضرون لزيارتنا، ولكن حتى الآن لم يعثر أحد على أى كنز مدفون. كانوا يحضرون عادة من السودان من جهة وادى حلفا".

- "هل وقعت أية أحداث مأساوية؟"

- "حدث ذلك، فقد عثر على سيارة بها جثتين لصحفيين فرنسيين بالقرب من الحدود السودانية، كانا يحاولان السير فى اتجاه أسوان عن طريق البر الغربى للنيل، ولكن غطتهم الرمال فى أثناء عاصفة رملية. وفى مرة أخرى شوهد لهب نار على الضفة الأخرى للنيل، عبرنا النيل إليه فوجدنا زوجين شابين تعطلت سيارتهما هنا فأشعلوا النار بها، كان الزوجان الشابان يريدان السفر من وادى حلفا إلى أسوان، ولكنهما كادا أن يموتا من الجوع والعطش، بعد ذلك تخليا عن مشروعهما وبقيا للعمل فى "أبو سمبل" "نحو عام".

- "كيف كانت العلاقة بينكم وبين بناة مشروع المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى أسوان؟" وجهت هذا السؤال للدكتور "زكى إسكندر" رئيس قطاع الآثار فى وزارة الثقافة المصرية .

- "علاقة مباشرة تماماً، فقد قدم لنا الأسوانيون والمصريون والخبراء السوفييت مساعدات مختلفة وساندونا جدا، وقد أمدونا بالكثير من النصائح المفيدة، فعلى سبيل المثال تعلمنا من المهندسين السوفييت الحقن بالمواد الخاصة، فقد استخدموا ذلك الأسلوب لأول مرة فى بناء السد. فى الواقع هذا مكننا من تنفيذ عمل دقيق جدا فى "أبو سمبل" أيضًا، وساعدتنا المعدات المصنوعة فى الاتحاد السوفيتى جدا" .

سلكنا طريق العودة بالطيران على متن طائرات هليكوبتر، وقد سمح لنا ذلك بأن نشاهد مرة أخرى الأماكن التاريخية التى زرناها. كانت الصحراء تلمع أيضًا حولنا فى كل الاتجاهات حتى خط الأفق، مكتسبة اللون الذهبى من أشعة الشمس. ترى ما كم الأسرار الذى ما زال محفوظًا تحت رمالها؟ على أية حال فقد تمكن الإنسان من كشف أحدها فى "أبو سمبل" وقام بعمل اللازم للمحافظة على هذه الأعجوبة بعناية.

عندما رجع مؤلف هذه السطور مرة أخرىَ إلى "أبو سمبل" فى نهاية عام ١٩٩٧ كان سعيدًا برؤية تماثيل "رمسيس الثانى" الحجرية تبدو أصغر من سنها الفعلى وعلى وجهها نصف ابتسامة، وكذلك برؤية النظرة الصارمة للجميلة "نفرتارى". مرت عليهم عشرات السنوات ولكنهم لم يتغيروا، فلم يضايقهم أو يهزهم نقلهم إلى مكان آخر. كما اختفت "الغرز" التى تم عملها فى أماكن القطع من زمن بعيد، ويوجد عدد غفير من السائحين بالقرب من التماثيل. أما نهر النيل فيتدفق بزرقته اللامعة عند أقدام العمالقة، ولكن للأسف شىء واحد لم يعجبه ، فقد اختفت اللوحة التذكارية التى وضعت هنا للتذكير بنقل المعابد. ولكن ماذا يمكن أن نفعل؟! ففى الأزمنة المختلفة تسمع هنا، أيضًا، أغانىَ أخرى...

الباب العاشر

"اكتبى لى يا أمى . إلىَّ فى مصر . كيف يجرى نهر الفولجا الحبيب لى هناك :
(عن الإنجازات العظيمة لأعمال الروس فى مصر)

فى أثناء عملى مراسلاً لوكالة أنباء "نوفوستى" فى بلد الأهرام (أعوام ١٩٦٥-١٩٧١) قمت بزيارة لتقريب كل المشروعات التى عاون رجالنا المصريين فى إنشائها فى تلك السنوات. كان عدد هذه المشروعات نحو ١٣٠ بالإضافة إلى سد أسوان. كنت أرسل التحقيقات التى أكتبها مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع إلى "موسكو" بالبريد ، أو مع رسول ، أو أحيانًا مع أحد المسافرين، حسب الظروف المتاحة . وكانت مراسلاتى وتحقيقاتى تنشر فى نشرة "الأخبار الدولية" الأسبوعية التى كانت تصدرها وكالة "نوفوستى" للأنباء، كما كانت هذه النشرة ترسل إلى رئاسات تحرير الصحف وإلى الكثير من وسائل الإعلام المركزية المحلية المختلفة، فكانت تنشر ما أرسله من مصر، بل وكانت ترسل لى مقتطفات مما تنشره. كان ذلك يسعد زملائى فى وكالة "نوفوستى" للأنباء ، وبالطبع كان يسعدنى أنا أيضًا.

كانت التحقيقات التى كنت أرسلها فى ذلك الوقت لوكالة "نوفوستى" للأنباء غير قليلة طبعا، أنه ولكن المقتطفات التى ترسلها مما نشر لى منها فى الصحف أكثر بكثير، حيث إنه كان يعاد طباعة بعض المراسلات من نشرتنا فى جرائد الجمهوريات والأقاليم المختلفة. اتضح أنه من الصعب للغاية تذكر كل ما تم نشره، لذلك فقد صنفت التحقيقات التى نشرت لى فى مجموعتين: مواد تشرح إنجازات أعمال الروس فى مصر ، ومواد حاولت أن أسجل فيها كل أهوال سنوات الحرب التى تحملناها معًا، المصريون ومواطنو بلدى (سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد).

سأعرض للقارئ فيما يلى مراسلاتى المتعلقة بأهم المشروعات التى عمل فيها خبراء بلدنا العظيم الذين أرسلوا إلى هناك. أعرض ما تم اختياره على شكل مذكرات رُوعى فيها المحافظة على التسلسل الزمنى للأحداث والمحافظة على الأسس التى كنا نتبعها فى عملنا الصحفى خلال تلك السنوات.

يكون بذلك أمامكم تأريخًا للأعمال المجيدة للروس فى مصر ، والتى كانت تستحق أن يقام لها نصب تذكارى منذ زمن بعيد...

١٣ يناير عام ١٩٦٦

تأسيس جمعية الصداقة السوڤيتية العربية (المصرية) :

عقد فى القاهرة اجتماع للمثقفين المصريين مع ممثلى جمعية الصداقة السوفيتية - العربية. وقد أعلن رئيس جمعية صداقة"الجمهورية العربية المتحدة - الاتحاد السوفيتى" وزير سد أسوان العالى "صدقى سليمان" لمراسل وكالة "نوفوستى" للأنباء: "إن تأسيس جمعية الصداقة العربية - السوفيتية يفتح مجالات جديدة لتعميق العلاقات وتوسيعها ، والتفاهم المتبادل بين شعبى الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفيتى، ونحن نعتقد فى ضرورة تنمية العلاقات بيننا بجميع الوسائل وتنشيطها. يجب أن يزيد ما يعرفه شعبانا كل عن الآخر، وفى رأينا يمكن أن تلعب تقوية العلاقات الثقافية دورًا كبيرًا فى هذا المجال، خاصة تبادل السائحين والوفود المختلفة بيننا. ونحن بالمناسبة نهتم جدا بدراسة اللغة الروسية، التى ستكون إحدى الوسائل التى ستساعد على تقوية صداقتنا التى نشأت من خلال الأعمال العظيمة فى مواقع البناء الجارى بناؤها بأسوان يدًا بيد مع الخبراء السوفيت، ثم بدأت تنمو فى جميع المجالات الأخرى.

ونحن واثقون من أنه لا يمكن هدم صداقتنا ذات التاريخ الثرى، وأنها سوف تستمر فى النمو من أجل سعادة وازدهار بلدينا.

١٤ يناير ١٩٦٦

صداقة تعنى دروجبا :

– "اسمع يا رفيق" شخص ما قال هذه العبارة خلفى بلغة روسية سليمة تمامًا. استدرت فرأيت عربيا طويل القامة وعريض الكتفين يمد لى يده.

– "اسمع يا رفيق، لقد صعدت من الأنفاق إلى سطح الأرض خصيصًا لكى أحييكم أنتم الصحفيين الروس نيابة عن أصدقائى".

تعارفنا. هو المهندس "على فرجانى" أحد المشاركين فى البناء، فبعد تخرجه فى جامعة القاهرة عمل لمدة أربع سنوات فى بناء محطة أسوان الهيدروليكية لتوليد الكهرباء ، ثم سافر بعد ذلك إلى الاتحاد السوفيتى، وقال لنا: حتى الآن ما زلت متأثرًا بما رأيته فى روسيا، فأنا لم أحصل فقط – هناك فى مصانع المحولات فى "موسكو" وفى "زاباروجيا" (مدينة فى أوكرانيا بها سد مشابه للسد العالى فى أسوان) – على تدريب رائع ، ولكنى اكتسبت أيضًا أصدقاء حقيقيين؛ فلتكن بيننا دائمًا "صداقة ". ثم شد على يدى بحرارة.

نعم كلمة "صداقة" فى اللغة العربية تعنى "دروجبا" فى اللغة الروسية. ولكن هنا، فى موقع بناء سد أسوان يضاف إليها معنى خاص، فإذا تحدثت مع أى شخص فسوف يقدم لك آلافًا من الأمثلة لهذه الصداقة.

هاهى يد سمراء بارزة العضلات تظهر وتشير إلينا بالتحية من شباك كراكة ضخمة: "صداقة". كان هذا "محمد عبد الغانم " البالغ من العمر ٤٥ سنة. كان قبل ذلك فلاحًا ، ثم ذهب للعمل فى البناء. تعرف عليه "مستر إيفان"، وأخذ على عاتقه تعليمه مهنة عامل الكراكة، فأصبح محمد الآن " أسطى" فى عمله، وهو فخور بمهنته. وقد ذكر لى أيضا اللحام "محمد حماد" كلمات شكر مماثلة، وكذلك " عبد الرحيم" الوناش ، و"عبد الفتاح" الميكانيكى، ومئات من الأصدقاء العرب الآخرين.

يقول المهندس "رودومير فالسييف": مازلنا مستمرين فى نقل خبرتنا ومعلوماتنا إلى زملائنا المصريين، ونحن نفعل ذلك بإخلاص. ففى مجموعتنا بدأ الكهربائى "ألكسندر كامينسكى" ، وعمال التركيب "بيتر جوسييف"، و"فيكتور ساموخفالوف" فى تعليم زملائهم العرب تخصصات متقاربة ، حيث إنهم أقاموا علاقات اجتماعية معهم.

تعتبر روح التعاون هذه إحدى أهم الخصائص المميزة لملحمة أسوان، فهنا كلمة "صداقة" تدفئ المرء أسرع مما تفعل شمس أفريقيا الحارقة، لأن هذه الكلمة تعنى بالروسية "دروجبا".

١٥ يناير عام ١٩٦٦

السيرك المصرى يشعل النيران :

من الصعب المبالغة فى تقييم هذا الحدث، فقد تم افتتاح سيرك حكومى قومى فى الجمهورية المصرية لأول مرة فى تاريخ فن السيرك فى الشرق الأدنى والأوسط. وقد تكون فريق هذا السيرك من أكثر من ١٠٠ فنان يمثلون كل أنواع الفنون التى تقدم به، والتى تحظى بشعبية كبيرة.

سبق افتتاح السيرك عمل تنظيمى كبير. فمنذ عام ١٩٦١ ، وبمعاونة الخبراء السوفييت "ب. مايسترينكو" ، و"ب. مارينكوفا" ، و"أ. شيراى" وقع الاختيار على أحسن الفنانين الواعدين من بين العدد الضخم من فنانى السيرك الذين كانوا يقدمون عروضهم فى الشوارع وفى الكازينوهات، ثم قام ممثلو السيرك الحكومى الموسكوفى بمعاونة زملائهم المصريين بتعليمهم بجد فى مدرسة خاصة.

وقد اكتسب البهلوانات ولاعبو الجمباز والراقصون على الحبل والممثلون الهزليون ومروضو الوحوش روحًا جديدة بمعنى الكلمة، فقد بدأوا فى الإعداد لبرامج جديدة بحماس، وقد عاد عليهم جهدهم بأعظم الفوائد، فتم إعداد أكثر من ٢٠ نمرةً، وأصبح الحفل الواحد يمتد إلى أربع ساعات.

قال الدكتور "سليمان حزين" وزير الثقافة المصرى لمراسلنا: "من الصعب المبالغة فى تقييم هذا الحدث، فهذه صفحة جديدة فى تاريخ الحياة الثقافية، ليس فى مصر وحدها ، ولكن أيضًا فى كل الشرق. قبل ذلك كانت عندنا عدة فرق سيرك خاصة، كما كانت فرق السيرك الأجنبية تقدم عروضها. ولكن لم يكن عندنا سيرك حكومى. أما الآن فيمكن لأية عائلة أن تصحب أطفالها وتحضر لمشاهدة العرض، فسوف تتمكن الآن الأجيال الشابة عندنا من أن تشاهد فن شعبى أصيل، بدلاً من أفلام العصابات، والمجلات المصورة ، وصور المؤثرات الغربية الأخرى على شبابنا. كما أنهم سوف يعجبون بالحرفيين ، والفنانين الحقيقيين ، ويأخذون منهم المثل ..."

فلتمضِ على طريق السلامة أيها السيرك المصرى.

٢٣ مارس ١٩٦٦

فى مصنع فحم الكوك بحلوان :

يعتبر هرم "زوسر" أحد أقدم الأهرام وفخر حلوان منذ زمن بعيد(*)، فعمر هذا الهرم يتعدى خمسة آلاف عام. وقد كانت الصحراء سائدة فى هذه المنطقة على مدى قرون عديدة، وكان اللون السائد للصحراء الأصفر، ويتم تخفيفه فى بعض الأماكن ببقع واحات خضراء بها نباتات نحيلة.

وقد ظهر هنا منذ خمس سنوات مجمع حلوان الصناعى الذى يضم كلاً من "مجمع الحديد والصلب" ، و"مصنع الكوك والكيماويات الأساسية" ، و"معمل التلبيد". وبالإضافة إلى ذلك ، يجرى بناء عنابر للدرفلة ولإنتاج القطران ، ومجمع الأسمدة الأزوتية.

يمكن اعتبار أن "مصنع الكوك والكيماويات الأساسية" المصنع الرئيسى هنا، وقد بدأ بناؤه فى عام ١٩٦١ نتيجة لاتفاق بين حكومتى الاتحاد السوفيتى ومصر، انتهى

(*) يقع هرم "زوسر" فى سقارة بمحافظة الجيزة، غرب النيل ، وحلوان منطقة سكنية وصناعية جنوب القاهرة ، شرق النيل وكان يمكن رؤية هرم "زوسر" وأهرام الجيزة من جنوب القاهرة فى ذلك الوقت (عام ١٩١٦) بالعين المجردة عبر النيل (التحرير) .

بناء هذا المشروع فى زمن قياسى ثلاث سنوات. تم البناء فى ظروف جو حار للغاية. ولكى نتصور حجم العمل يكفى أن نذكر أن مئات الآلاف من الأمتار المكعبة من التربة قد رفعت من المنطقة، كما وضعت عشرات الآلاف من الأمتار المكعبة من الخرسانة، وتم تركيب آلاف أطنان من المعدات ، ومن الإنشاءات المعدنية. وقد شاركت نحو ٢٠ شركة سوفيتية فى تجهيز "بكر" الصناعة الكيميائية المصرية.

تجولنا فى المصنع مع كبير المهندسين رئيس فريق الخبراء السوفييت "س. ب. كوتلنيكوف" ، وكبير مهندسى الميكانيكا "ف. ن. دروبنى". كل منهما مشهور تماماً هنا، وقد حصلا على أوسمة سوفيتية ومصرية ؛ لتفانيهما فى عملهما. كان المهندس "كوتلنيكوف" يشرف على بناء المجمع الهندى للحديد والصلب فى "بخيلاى" قبل حضوره إلى هنا، كما يتميز "دروبنى" أيضًا بخبرة كبيرة.

يقول " س. ب. كوتلنيكوف" انتهينا من بناء المصنع لكن ما زال العمل مستمراً، فقد طلب الجانب العربى تنفيذ المرحلة الثانية المخططة للمصنع. ينتج المصنع فى الوقت الحالى نحو ٣٠٠ ألف طن من فحم الكوك وآلاف الأطنان من كبريتات الأمونيوم والقطران والمنتجات البنزولية ، بالإضافة إلى ملايين الأمتار المكعبة من غاز الكوك. وهذا يعتبر إنجازًا كبيراً للصناعة الشابة مصر، وكما تبين الخبرة فإن هذا ليس أبداً الحد الأقصى...

يسود الإيقاع الصناعى المعتاد كل عنابر الإنتاج، كما يوجد هناك إحساس بروح الصداقة والتعاون فى كل مكان.

تم تعليم وتدريب أكثر من ٢٠٠ من العمال على التخصصات المختلفة بمبادرة من الخبراء السوفييت، كما قدمت وطبقت الكثير من الاقتراحات لتحسين كفاءة العمل.

توقفنا مرة أخرى عند مغادرتنا لواحة حلوان عند الأهرام القديمة للاستمتاع مرة أخرى بالمنظر الخلاب هناك، ولكن أصبحت الآن معالم مصر لا تشمل فقط المقابر الفرعونية ، فقد ظهرت فيها الآن باكورة الصناعة الثقيلة بشكل جميل، فهى تمثل مستقبل هذا البلد القديم.

٩ أبريل عام ١٩٦٦

الأهرام الجديدة فى الصحراء – أهرام من فحم الكوك :

أقام الخبراء السوفييت العاملون فى مصر حفلاً كبيراً بمناسبة مرور عامين على بدء عمل "مجمع حلوان للكوك والكيماويات الأساسية" ، وكتبت جريدة الأهرام بهذه المناسبة : " تتلخص الخاصية الأولى المميزة لهذا المصنع فى أن كل العمليات الإنتاجية فى الأقسام الخمسة آلية ، وأن المعدات والآلات الحديثة يتم تشغيلها بمهارة عالية بأيدى العمال المصريين".

تم الانتهاء من بناء المصنع ولكن الأعمال ما زالت مستمرة. تم تجهيز عنبر إنتاج حامض الكبريتيك لبدء الإنتاج، وفى خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٦٦ تم تعليم ٢٥ عاملاً آخرين من العرب اجتازوا امتحانات الاختبار بنجاح، كما تم توصيل غاز الكوك إلى مصنع التعبئة المجاور وإلى الشبكات، وقد تطلب ذلك عملاً جاداً لمدة عام كامل، وفى خلال هذه الفترة تعلم ٢٥ من الخبراء السوفييت لغة أجنبية دون معلم ، واجتازوا الامتحانات بنجاح، وقد حضروا عيد منتجى فحم الكوك وهنأوهم باحتلالهم المركز الأول فى مسابقة العمل. وقد ألقى كبير مهندسى "مصنع حلوان للكوك والكيماويات الأساسية" المهندس"فخرى وهبة" كلمة حارة موجهة للأصدقاء السوفييت أشاد فيها بالمساعدة التى يقدمها الخبراء السوفييت "فى كل العنابر وفى كل الأقسام، أينما وُجدوا". ثم أضاف :" أنتم أصدقاء حقيقيون لنا يعتمد عليكم، ونتيجة لعملنا معًا ظهرت فى الصحراء أهرام جديدة ، أهرام من فحم الكوك" .

وانتهى الحفل الذى حضره أكثر من مائة من الخبراء العرب والسوفييت بتقديم فقرات فنية قدمها الهواة، ورقصات وألعاب وعروض مشوقة، وقد اتخذ شكل مظاهرة مثيرة للصداقة العربية السوفيتية.

١٢ مايو ١٩٦٦

تأريخ مصور للتآخي :

يحب الشاب "حسام الغنيمي" بلده "بورسعيد" جدا، فعندما بدأ يمارس التصوير كانت أول لقطات صوراً للشوارع القديمة الهادئة في هذه المدينة ، وللميناء الصاخبة. كان فخوراً جدا بالتقاطه صوراً جيدة للأحياء السكنية الجديدة التي قامت في مكان الأطلال المتبقية بعد العدوان الأجنبي في عام ١٩٥٦، وطبعاً كان يحب تصوير السفن في قناة السويس.

قرأ "حسام" في أحد الأيام في جريدة عن تنظيم مسابقة للتصوير في "بورسعيد" موضوعها "مدينتي اليوم"، وأن الجوائز التي ستقدم للفائزين قد أرسلها السوفييت من مدينة "فولجوجراد" البعيدة. كان "حسام" يعرف بوجود "تآخٍ" بين مدينتي "بورسعيد" و"فولجوجراد"، فكل من المدينتين يعتبر مثالاً للنضال ضد الغرباء الأجانب. اختار هذا الشاب مجموعة من أحسن الصور التي التقطها ، والتي يظهر فيها حبه للميناء من صغره ، وتقدم بها للمسابقة.

تم إخطار "حسام" بعد زمن قصير بأن أعماله فازت بالجائزة الأولى، وسلمه محافظ "بورسعيد" وقنصل الاتحاد السوفيتي جائزته ، آلة تصوير ماركة "زوركي" ، في احتفال خاص. كان قد شارك في المسابقة ٥٠ فقط من شبان وشابات المدينة. وقد تسلم الكثير منهم هدايا مقدمة من تلاميذ مدارس المدينة البعيدة الواقعة على نهر "الفولجا"، وكان من المقرر إرسال أحسن الصور إلى الاتحاد السوفيتي بعد فترة ما. وبالمثل شاهد سكان مدينة "بورسعيد" معرض صور لتلاميذ مدارس "فولجوجراد" ، والتي تبين الحياة في هذه المدينة. وبالمناسبة كان قد تم قبل ذلك إرسال جوائز طريفة عبارة عن مصنوعات تقليدية من البرونز ومن النحاس لتسليمها لأصحاب أحسن اللقطات في "فولجوجراد".

لم يكن تبادل الصور المثال الوحيد للتآخى بين المدينتين البطلتين؛ فقد استقبل سكان مدينة "فولجوجراد" فى السنوات الأخيرة أكثر من مرة أصدقاء من العرب، ومن الناحية الأخرى نزل بعض الروس فى ضيافة المدينة البطلة المطلة على البحر الأبيض المتوسط. كما حيا الجمهور فريق "النادى المصرى" البورسعيدى لكرة القدم فى إستاد "فولجوجراد" فى عام ١٩٦٥، واستقبل محبو الرياضة بحرارة أعضاء فريق لكرة السلة من البلد الثانى فى التآخى.

لقى أيضًا معرض رسم الأطفال المصريين الذى أقيم فى "فولجوجراد" نجاحًا كبيرًا، كما يتذكر شاطئ البحر الأبيض المتوسط المخيم الذى قضى فيه تلاميذ المدارس المصريون والسوفييت أجازتهم الصيفية بمرح. وفى هذا العام ينتظر شباب الطلائع المقيمون على شاطئى النهر الروسى العظيم الأصدقاء الشباب البورسعيديين لقضاء إجازتهم.

تزيد أواصر الصداقة بين المدينتين عامًا بعد عام، ويرسل العديد من الشركات "الفولجوجرادية" منتجاتها إلى جمهورية مصر العربية، كما يتدرب الاختصاصيون فى الطاقة فى المدينة الواقعة على نهر "الفولجا" تمهيداً لإلتحاقهم بالعمل فى المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى أسوان.

قال اللواء "محمد فريد طولان" محافظ بورسعيد لمراسل وكالة "نوفوستى" للأنباء:" سوف نفعل كل ما فى وسعنا لتنمية وتنقية العلاقات بين مدينتينا المتآخيتين، وعندما تحتفل مدينتنا بمرور عشر سنوات على انتصارنا على العدوان الفرنسى الإنجليزى الإسرائيلى فى ديسمبر من هذا العام سوف يسرنا استقبال إخوتنا الروس. سوف يكون ذلك إضافة أخرى لتقوية الصداقة العربية الروسية".

١٨ مايو عام ١٩٦٦

الميلاد الجديد للأرض :

يوجد طريقان يوصلان بين القاهرة والإسكندرية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. يمر الطريق الأول المكون من حارتين من الأسفلت بين عدة قرى ومراكز، وهو يمتد على طول البساط الأخضر لأراضى وادى النيل، لذلك يسمى بالطريق "الزراعى". أما الطريق الآخر فهو عبارة عن شريط ضيق أسود يخترق الصحراء الليبية، وطبقًا لما يقوله رفيقنا "شحاتة" فقد مرت ألفا سنة لم تر فيها التلال الرملية المحيطة بهذا الطريق أية رطوبة إلا بعض الأمطار النادرة الشحيحة فى شهور الشتاء.

فى وقت ما من زمن بعيد كانت الأراضى هنا خضراء كما كانت توجد بها حدائق مثمرة، ولكن لم تكن الصحراء ترحم، ووجد الناس أنفسهم عاجزين أمام زحف الرمال، وفى النهاية خرج الفلاحون من هذه الأراضى وسيطرت الطبيعة عليها.

ولكن عادت الحياة إلى هنا مرة أخرى، فقد أيقظ ضجيج الكراكات والجرارات صمت الصحراء، وقام الإنسان بالهجوم على الصحراء، ظهر هنا الأصدقاء السوفييت بجانب المصريين فى العمل الشاق ولكن الكريم. نسير الآن فى هذا الطريق ولا نستطيع أن نتعرف على المنظر العام الذى رأيناه من قبل، فالقمح ينمو هناك ، حيث كانت توجد الرمال إلى وقت قريب، واخضرت الأرض وأصبحت تلقى ظلالاً ، ولكنها ما زالت قصيرة، كما زرعت فيها أشجار الفاكهة.

قال "شحاتة": "إن هذه أول ألف فدان من الأرض تعاد الحياة إليها. انظروا، ما زالت التلال الصفراء المقفرة موجودة هناك عند الأفق، وما زال علينا أن نعمل كثيرًا حتى يتم استصلاح نصف مليون فدان.

انحرفت السيارة عن الطريق الرئيسى إلى اليمين، وأصبحنا نسير بين الأراضى المستصلحة. لا توجد سحابة واحدة فى السماء ، ولكن نحس هنا بنسمة باردة، ورأينا الماء يخرج من سواقٍ صغيرة.

شرح لنا "شحاتة": "القناة التى ترونها فى الأمام فرع جديد من النيل، فقد أصبح توصيل الماء إلى هنا ممكنًا بفضل سد أسوان العالى".

تذكرنا دون قصد أحد الشعارات التى رأيناها فى القاهرة عند استقبال الوفد السوفيتى الحكومى: "أسوان مصدر خير للشعب".

توقفت سيارتنا بالقرب من مجموعة من الناس الذين كانوا يتناقشون بحماس، كان أحدهم روسيا. تعرفنا عليه، اسمه "فيكتور ألكسندروفيتش بيلوف"، ويرأس مجموعة من الخبراء السوفييت الذين يعاونون المصريين لاستصلاح مساحة من الصحراء مقدارها ٢١٠ آلاف فدان.

حكى لنا "فيكتور ألكسنروفيتش": "ستصبح نواة هذا القطاع مزرعة مميكنة ضخمة سيهديها الشعب السوفيتى لمصر، هنا سيكون كل شيء جديدًا المعدات، وأسلوب الزراعة، وكذلك أنواع المنتجات الزراعية".

سألنا فلاحًا مسنًا يعمل فى الأرض المجاورة المزروعة بالعنب: "ماذا تقول عن قطعة الأرض التى تملكها؟" ظهرت ابتسامة عريضة على وجه الفلاح وأجاب: "أشجار العنب هنا هدية من إخواننا فى "أوزبكستان"، فقد أرسلوا لنا آلافًا من الشتلات لكى نزرعها هنا".

لاحظنا أن كل الآلات التى تعمل حولنا مصنوعة فى الاتحاد السوفيتى، فسألنا "فيكتور ألكسندروفيتش": "من الذى يشغل هذه الآلات؟" أجابنا: "المصريون، ويجب أن تزوروا مركز التدريب الجديد فسوف ترون هناك أشياء مثيرة كثيرة".

أخذنا بنصيحة "بيلوف". فصحبنا رئيس المركز "رشاد" بتجهيزاته ومعه مساعداه "أناتولى كورتشاجين" و"عثمان ماماكوف" ؛ لكى يرينا بفخر. عرفنا أن المركز أنشئ خصيصًا لتعليم الفلاحين استخدام المعدات السوفيتية الحديثة، ويعتبر مكانًا لتدريب العمالة الموجودة فى كل هذه المنطقة الجديدة لاستصلاح الأراضى الصحراوية.

استدار جرار بجرأة بالقرب منا، فسأل "كورتشاجين" الشاب المصرى الذى نزل منه :"كيف الأحوال يا سيد؟" جاءت الإجابة بالروسية: "جيدة". وعندما عرف أننا صحفيون أضاف بالعربية: "أبلغوا الشعب الروسى شكرنا من القلب على كل ما فعلوه من أجلنا، لن ننسى ذلك أبدًا. قولوا لبلدياتكم: إن تعاون السوفييت والعرب فى العمل على هذه الأرض يقهر الطبيعة والزمن".

سألنا الصحفى "سرالدين" مرافقنا ، ونحن نتابع زيارتنا للأرض الزراعية المستصلحة:"ما الذى تعطيه هذه الأراضى التى أعيدت إليها الحياة من جديد للشعب المصرى؟"

قال: " إننا ننظر إلى هذا الموضوع من نواحٍ مختلفة، فالناحية الاقتصادية واضحة تمامًا، فهى زيادة الإنتاج الزراعى، وقد بينت الأبحاث المشتركة التى قام بها العلماء العرب والسوفييت أن مصر تستطيع زراعة أنواع القمح الروسى وأن تجنى محصولين فى العام، فالأراضى الجديدة مفتاح حل مشكلة القمح".

و أضاف: "المهم هنا تكوين إنسان جديد يبنى مجتمعًا جديدًا، فهنا يولد مواطن فى بلد حرٍّ على هذه الأراضى التى أعيدت إلى الحياة مرة أخرى، ونحن نقدر تمامًا مساهمة الشعوب السوفيتية الصديقة فى بناء جمهوريتنا".

١٩ مايو عام ١٩٦٦

ثلاثة أجيال بقرية « دنشواى » :

تمتد مئات من الأبراج المشيدة على قواعد مستطيلة، تحمل الخطوط الموصلة للكهرباء لمئات من الكيلومترات من السد العالى بأسوان ، عبر تلال الرمال اللامعة والبساط الأخضر لدلتا نهر النيل. ترسل ظلالها لمسافة بعيدة ، وهى واقفة ثابتة على قواعدها الخرسانية، تظهر فى الصحراء وكأنها مجموعة من جنود الحراسة. يدرك المرء عند النظر إليها عبر بحار الرمال أن مستقبل مجموعة المنشآت الهيدروتيكنيكية على النيل عظيم...

سرنا لمدة طويلة على الطريق ثم توقفنا عند علامة على الطريق مكتوب عليها "قرية دنشواى"، وفوقها مكتوب بخط عربى كبير مزخرف:"السد العالى رمز لإرادة الشعب وللإصرار على بناء حياة جديدة".

قال لنا مرافقنا الصحفى المصرى "فريد": " منذ ٦٠ عامًا قامت ثورة هنا فى "دنشواى" على المحتلين الإنجليز، وقد تعامل المحتلون بقسوة مع كل من كان متعطشًا للحرية، فأعدم زعيم المتمردين "حسن محفوظ" البالغ من العمر ٧٥ عامًا ومعه عدد آخر من سكان قرية "دنشواى"، كما تم نفى العشرات من سكان القرية ، وإلقاؤهم فى السجون.

فى ذلك الوقت قال الكاتب المصرى المعروف "قاسم أمين": " يسود فى دنشواى الحزن والشجن واليأس".

دخلنـا إلى القرية ورأينا أن قلب "دنشواى" الذى جرح فى الماضى ينبض الآن بقوة وبانتظام، يمكن ملاحظة ذلك فى كل مكان. يدل كل من زمرة الأطفال وكرم ضيافة أهالى "دنشواى" على أنه بعد انتصار الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ فتحت أمامهم حياة أخرى.

تحدثنا مع ابن زعيم ثورة "دنشواى" "عبد الرحمن حسن محفوظ" ، الذى كان قد جاوز الثمانين من عمره. وكان قد اشترك هو نفسه فى الثورة فى عام ١٩٠٦ عندما كان عمره ٢٠ عامًا. كانوا فى ذلك الوقت يعانون من كثرة ابتزاز وإساءات الإنجليز، وفاض بهم بعد حدث معين. ففى يوم حضر إلى القرية بعض الضباط الإنجليز، وأرادوا أن يصطادوا الحمام، وفى خلال ذلك قتلت إحدى السيدات، وقد اقتص الأهالى بأنفسهم من القاتل، وثار كل أهالى القرية، فأرسل الإنجليز كتيبة من الجنود للتعامل معهم، وساد الفزع فى القرية لعدة أيام.

يقول "عبد الرحمن": "لقد وضعت الثورة نهاية لسيادة الأجانب، فنحن الآن أسياد علي أرضنا، ونحن سعداء بذلك".

عرفنا "عبد الرحمن" على بلدياته ، ونصحنا بإصرار أن نزور النادى المحلى، والمدرستين والمتحف والمستشفى ، وبالطبع المزرعة التعاونية التى حلت فيها الآلات المرسلة من روسيا محل العمل اليدوى.

توجه إلينا أحدهم بالحديث وهو يسير نحونا:"أهلاً وسهلاً، مرحبًا!" تم التعارف بيننا. اسمه "أمين" وهو حفيد زعيم الثورة، يزيد عمره على الأربعين، ويضع على رأسه عمامة طرفها أحمر اللون، ففى مصر يلبس مثل هذه العمامة خريجو الجامعة الإسلامية "الأزهر". حكى لنا "أمين" عن التغييرات التى حدثت فى "دنشواى"، تحدث باتزان ، وكان يصفنا بالإخوة. كان الأطفال يستمعون بتشوق لكل كلمة قالها هذا الشخص الذى يحظى باحترام خاص فى القرية.

قال:" نصبت هنا المشانق، أما هذا المسجد فقد حوله الإنجليز إلى سجن، سُجِن فيه جدى وزملاؤه. الآن كما ترون أقيم نصب تذكارى فى ذكرى الثوار، أما حولنا فقد اخضرت الحقول.

أهدانا "أمين" وهو يودعنا كتابًا صغيراً، عبارة عن دليل المتحف المحلى.

قال أمين:"قومكم عملوا الكثير من أجلنا نحن العرب، ونحن نقدر تماماً الصداقة مع إخواننا من الاتحاد السوفيتي، فهم قد ساعدونا على أن نكون أحراراً ومستقلين، وهم يشاركون معنا في بناء السد العالي ، والمصانع والشركات المختلفة ، وكذلك محطات توليد الكهرباء، ويساعدوننا على إقامة مجتمعات جديدة سوف نبنيها بالتأكيد".

أكملنا طريقنا إلى القاهرة فمررنا مرة أخرى بعلامة الطريق المكتوب عليها الشعار ، وكذلك بجانب أبراج الكهرباء ذات الجهد العالي الشاهدة على الميلاد الجديد لقرية "دنشواي".

٢٠ مايو عام ١٩٦٦

النصر يزاحم الصحراء :

التقينا بالمدير العام لإدارة الإنتاج الزراعي الدكتور "أحمد غيبة" في مديرية التحرير المقامة على الأراضي التي تم كسبها من المعركة مع الصحراء ، وطلبنا منه أن يحكي لنا عن موقف أعمال الري هنا.

قال الدكتور"أحمد غيبة":" قبل عامين كانت الصحراء المقفرة تحتل مكان هذه الأراضي المثمرة، وفي العام الماضي تمكن العرب وأصدقاؤهم الخبراء السوفييت، بعملهم معًا ، من كسب ٨٠ ألف فدانٍ من الأرض الجافة. وفي هذا العام في نيتنا مضاعفة هذا الرقم ثلاث مرات.

يوجد الآن في التعاونية الزراعية التي تحمل اسم "النصر"(وهي كلمة تعادلها في الروسية كلمة "بابييدا") معرض يمكن فيه مشاهدة أكثر من ٥٠ نوعًا مختلفًا من المنتجات الزراعية: حبوب وخضراوات وفواكه... كل ذلك في المكان الذي كانت تتجول فيه الرياح كانسة للتلال الرملية منذ ثلاثة أشهر، ومن المتوقع أننا سوف نزرع في هذا العام نحو ١٥٠ نوعًا من المحاصيل الزراعية".

"سوف نستمر فى محاربة رمال الصحراء اعتماداً على مساندة ومساعدة الخبراء السوفييت". قال هذه الكلمات "أحمد غيبة" وهو يودعنا ثم أضاف مؤكداً:"لقد كسبنا ٥٤٠ ألف فدان من أراضى الصحراء فى خلال الفترة من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥".

٩ أغسطس عام ١٩٦٦

مرة أخرى فى مديرية التحرير :

تجولنا مرة أخرى فى مديرية التحرير ، حيث نستمتع بالأراضى المستصلحة الواقفة مثل القلاع وحولها تلال الصحراء، تقوم مضخات قوية بضخ الماء الذى يتدفق فى قنوات طولها عشرات الكيلومترات. تزرع فى هذه التعاونيات عشرات المحاصيل المختلفة، فقد رأيت فى قرية النصر المحصول الذى تم جمعه من لحظات، ويمثل أكثر من ٣٠ نوعاً من الفواكه والخضراوات المختلفة.

قال لنا "أحمد غيبة" الذى أصبح من معارفنا: "ما زالت المعركة مع الصحراء مستمرة، فمن المخطط أن نستصلح ٩٠٠ ألف فدان من الأراضى الجديدة فى الخطة الثانية للتطوير الاقتصادى فى خلال سبع سنوات (١٩٦٥-١٩٧٢). هذا الموضوع يمثل الحياة بالنسبة لنا".

ويقدم الخبراء السوفييت مساعدة كبيرة للعمال المصريين العاملين فى الأرض لحل هذه المشكلة، فطبقًا للاتفاقية الموقعة بين الجمهورية العربية والاتحاد السوفيتى تساهم بلدنا فى استصلاح أكثر من ٢٠٠ ألف فدان فى الصحراء ، ١٠ آلاف فدان منها تستصلح هديةً من الاتحاد السوفيتى.

سألت الخبير السوفيتى "ليونيد زيمنكوف": "قل لى كيف يتم تنفيذ الاتفاقية؟"

أجاب:" العمل يتم بجد، ففى البداية قامت مجموعة من خبرائنا فى التخطيط بعمل دراسة لإمكانية وطرق استصلاح الصحراء، ولطرق الحصول على الماء وتوزيعه. بعد

انتهاء التخطيط بدأ توريد المعدات اللازمة. أمّا ما يخص الأعمال في الأراضي التي أخذ السوفييت على عاتقهم استصلاحها هديةً، فإننا سنتسلم كل المعدات والآلات اللازمة لها قبل نهاية العام. وقد بدأ بناء الطرق ، وشق قنوات التوزيع ، وبناء المنازل التي سيقيم بها السكان الجدد، كما تتكون قواعد صناعية ، وشركات لتصنيع المنتجات الزراعية، كما أن الخطة شملت كهربة المنطقة.

أضاف خبير سوفيتي آخر ، بطل الاتحاد السوفيتي في العمل "بافيل بلاتينيتسين" قائلاً: "نتوقع أن نبدأ نثر البذور في نوفمبر ١٩٦٧ ، وسوف يتم ذلك بعد سنتين من ظهور أول خبراء سوفييت للتخطيط في الصحراء. لم يتمكن أحد حتى الآن في أي مكان آخر في العالم من الوصول إلى مثل هذه المعدلات".

نحن نسير الآن في طريق العودة إلى القاهرة. أمام أعيننا منظر رتيب للصحراء، ولكن سوف يأتي اليوم الذي تستمتع فيه العين بالمنظر الأخضر للمزروعات (عندما عدت إلى هذا المكان في عام ١٩٩٧رأيت هذا المنظر).

٤ سبتمبر عام ١٩٦٦

أضواء السويس :

تبدو أمواج خليج السويس الذي يتدفأ بأشعة الشمس الساقطة عليه وكأنها تلعق الشاطئ بكسل. هنا يبدو أن لا أحد متعجلٌ للذهاب إلى أي مكان، حتى السفن التي تتجمع في المساء في الميناء ترسو على غير عجل. ذهبنا إلى الشاطئ، وتخطينا الأزقة الضيقة في الجزء الغربي من "بور توفيق". ظهرت فجأة أمام سيارتنا منشآت المحطات الفضية القوية لمصنع تكرير البترول "ريفاينرى".

سألني رفيقي "ألكسندر إيليتش سانتالوف":"ما رأيك فيها؟" أجبته: "كما في السينما". أشار على جسم المبنى المطلي باللون البيج وقال:"هناك، على الشاطئ نفسه، استقررنا..."

عمل "ألكسندر إليتش" لمدة ثلاثين عامًا، فى سيبيريا فى مؤسسة "سيبرإنرجومونتاج" قبل حضوره إلى السويس، أما الآن فهو يرأس مجموعة من الخبراء السوفييت فى المحطة الحرارية لتوليد الكهرباء. هذه المحطة أحد المشروعات العديدة التى أنشئت فى الجمهورية العربية المتحدة بمساعدة الاتحاد السوفيتى.

قال لنا: " لقد تم بناء مصنع "ريفاينرى" أيضًا لتلبية احتياجات صناعة تكرير البترول المصرية، كان الإيطاليون قد نفذوا المشروع ثم انصرفوا. ولكن كان المشروع يحتاج لطاقة كهربائية لكى تعمل المعدات التى به، كما كان يلزم أيضًا بناء شركة تنتج الزيوت التى تستخدم فى المعدات، وقد أخذ الاتحاد السوفيتى على عاتقه تنفيذ هذه المشروعات".

نسير الآن على أقصى طرف خليج السويس. حتى ثلاث سنوات مضت كان يعيش هنا صائدو الكابوريا وحدهم، ولكن فى أول أبريل عام ١٩٦٣ قطع ضجيج أول سيارة سوفيتية من طراز "ماز" السكون فى هذه الضواحى.

يشير "سانتالوف" إلى أن " نحو ٢٠ مصنعًا سوفيتيا شاركوا فى المعركة ضد الصحراء بتوريدهم المعدات، كما أنهم أرسلوا ١١٠ خبراء نسوا معنى النوم والراحة. كانوا يعملون بإصرار لدرجة جعلت المهندس "حمودة" رئيس شركة "جيركو" والمسئول عن التنسيق بين فرق العمل يشير بيديه باستمرار قائلا:"كدة مش ممكن!".

ولكن تبين أن كل شىء ممكن، حتى هنا، فى ظروف درجة الحرارة التى تصل إلى ٤٠ مئوية ودرجة رطوبة ١٠٠٪.

بدأ تركيب أول غلاية فى ١٥ يونية ١٩٦٤، وبعد ٩ أشهر بدأ تشغيلها. الآن تعمل ثلاث غلايات مماثلة وثلاث تربينات، كما تم بناء خط لنقل الكهرباء من السويس إلى القاهرة ؛ لإدخال المحطة الحرارية لتوليد الكهرباء فى الشبكة العامة للجمهورية.

يقول المهندس العربى "جبريل بولس":"سوف نحتفظ فى ذاكرتنا إلى الأبد بإنجاز العمل الروسى فى السويس، لن ننسى أبدًا اللحامة "أناستاسيا أندرييفا" التى أدهشت

العرب بحماسها وتفوقها فى عملها، وسوف نتذكر دائمًا عامل تشغيل الغلايات "أناتولى كولاكوف" ، وعامل التركيبات الكهربائية "ليونيد ليفتشنكو" ، والكهربائى "نيكولاى شاريكوف" الذين دربوا عشرات من الخبراء العرب.

يعترف "ألكسندرإليتش" بأن "البداية كانت صعبة فلم يكن هنا خبراء، فأخذ رجالنا على عاتقهم تدريب العرب فى مكان العمل وفى المساء، وقد فاقت النتائج كل التوقعات، واضطررنا لتشكيل لجان خاصة للامتحانات. وقد حصل ٣٥٧ من العرب على شهادات دراسية فى تخصصات اللحام الكهربائى، وسباكة تركيب الغلايات والتربينات، والتركيبات الكهربائية وعمل العزل. وبالإضافة إلى ذلك أنهى ١٥٦ من عمال التشغيل دراستهم فى "مدارسنا".

اقترب منا عربى أسمر قوى البنية بينما كنا نتحدث ، وقدم نفسه باللغة الروسية: "محمد فوزى، رئيس قسم فى المصنع المجاور. أرجو أن تزورونا فى مصنع الزيوت التكنولوجية، فهو أيضًا يبنى بمساعدة الأصدقاء الروس.

كان الدكتور "محمد فوزى" قد حصل على الدكتوراه فى معهد "جوبكين" للبترول.

ابتسم وقال:"أقترح الآن تحويل النظرية إلى الممارسة، فعندنا أيضًا يسير البناء بهمة، والخبراء السوفييت محبوبون لبساطتهم وإخلاصهم ومعرفتهم لعملهم ولتواضعهم.

أرانا "فوزى" خزانات ضخمة لحفظ البترول والزيوت، كان عددها قد وصل إلى ٦٠ خزانًا. وشرح لنا:"لقد شغلنا حتى الآن فى عنبر الزيت ثلاث محطات ، وتوجد محطتان فى انتظار دورها، فعلينا أن ننتج ٦٠ ألف طن من الزيوت التكنولوجية، هذا هو المخطط. ثم كان لنا بعد ذلك لقاء مع الخبراء السوفييت.

"يورى يوختاروف" عامل كهربائى متخصص فى التركيبات. فى عام ١٩٦٢ تم تركيب كل شىء فى السويس تحت إشرافه، كما أنه علم ٣٢ فلاحًا حرفة " الكهربائى،

وكان إجمالى عدد الذين دربهم خبراؤنا ٢٥٠ فرداً للقيام بأعمال التركيبات، وقد قام بذلك كل من: عامل الأجهزة "فالنتين تروشين"، والتكنولوجيان" جينادى كوزنتسوف" و"يورى فادييف"، والميكانيكيان "فلاديمير ميرياسوف" و"نيكولاى فيكتوروف".

يقول "يورى يوختاروف": "وصل الأمر إلى أنه وُجد تنافس بيننا ، وبين المحطة الحرارية لتوليد الكهرباء المجاورة، وكل ثلاثة أشهر ندرس النتائج. كل شيء هنا كما هو عندنا فى وطننا، حتى الآن يحتفظ العاملون فى المحطة الحرارية لتوليد الكهرباء بالمركز الأول. نأمل أن يكون ذلك فقط "حتى الآن".

وأرانا المستهدف فى ربع السنة القادمة: "إذا حققنا ذلك سنكون الأوائل ...".

٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٦

كيف يلين صلب حلوان؟

"كمال العدا" مهندس يشرف على بناء عنبر الدرفلة فى "مجمع حلوان للحديد والصلب"، ناقشنا فى مكتب عمله الملىء باللوح وبالمشروعات، بدأنا الحديث بأن طلبنا منه أن يشرح "كيف يلين صلب حلوان" ؟

أجاب: "نعطى أكبر الاهتمام لبناء المرحلة الثانية من "مصنع الكوك والكيماويات الأساسية" التى تشمل توسيع عنابر الإنتاج الحالية ، وبناء عنبرين جديدين للدرفلة على الساخن وعلى البارد. ينفذ كل ذلك أيضاً بمساعدة الاتحاد السوفيتى، فطبقاً للعقد الموقع مع هيئة "تياجبرومكسبورت" تقوم مصانع الاتحاد السوفيتى بتوريد معدات درفلة ثمنها ٣٢ مليون روبل لتركيبها.

- "كيف تسير أعمال البناء؟"

- "طبقاً للمخطط الزمنى تماماً، فعلاقات العمل بيننا وبين الزملاء السوفييت ممتازة، والعمل يسير فى ظل تعاون وثيق وتفاهم كامل بين الجانبين، وقد سر ذلك وزير

الصناعة "أحمد توفيق البكرى" الذى زار المجمع منذ زمن قريب، فقد لاحظ معدل العمل العالى والتنظيم الجيد لعملية البناء".

ويضيف كمال العدا: "يعتبر كل واحد منا أن من واجبه أن يتعلم من الأصدقاء السوفييت، وطبقًا للاتفاق فإننا نعتزم إرسال ٢٣٠ متخصصًا للتدريب فى الاتحاد السوفيتى، وبالإضافة إلى ذلك يلقى علينا المهندسون السوفييت كل أسبوع محاضرات، ويقدمون تقارير عن المواضيع الفنية، أما فى المساء فنحن ندرس اللغة الروسية ...

تجولنا بعد انتهاء المناقشة فى العنابر التى يجرى بناؤها ، والممتدة على مساحة ٢١٠ هكتارات. لقد ارتفعت حتى الآن الهياكل المعدنية المصنوعة من الصلب عشرات من الأمتار، وفى الوقت نفسه يجرى العمل فى الأعمال الأرضية وفى التركيبات والأعمال الأخرى.

ها هو عامل الونش "أبو العلا" يظهر ملوِّحًا لنا بالتحية بيده من ونش ضخم، لقد علمه فتانا الروسى "فيكتور ديرجاتش" كيفية قيادة هذه الآلة. كان "أبو العلا" يعمل قبل ذلك فى فلاحة الأرض، ثم ذهب للعمل فى البناء. عمل مع الأمريكان ومع الألمان، ويقول أبو العلا": "ولكن السوفييت فقط هم الذين يفهموننا ويعاوننا بإخلاص".

ها هما المهندسان "بوريس إيسايف" ، و"أحمد لطيف" منحنيان على اللوح ويناقشان شيئًا ما وحولهم العمال.

يسأل أحمد عن شىء ما: "ممكن كده؟"

يرد عليه بوريس: "ممكن، ولكن الأسرع هكذا وكذلك الأحسن".

يوافقه أحمد على ذلك.

... غادرنا حلوان قرب المساء عندما انخفض قيظ النهار. دعانا الخبراء السوفييت لزيارتهم مرة أخرى، أما المهندس كمال العدا فقد قال لنا بالروسية: "تعالوا مرة أخرى، فسوف نكون سعداء بكم".

٢١ فبراير ١٩٦٧

إنسان أسوان الجديد :

أمضى ثلاثة من الكتاب العرب هم "صنع الله إبراهيم" ، و"كمال القليش"، و"رءوف سعد" ثلاثة أشهر فى أسوان للتعرف عن قرب على حياة المشاركين فى بناء المشروع العظيم ، ونظام أيام عملهم ، وعملهم الفذ. وقد نشروا نتائج مشاهداتهم فى كتاب "رجال السد العالى" الذى نشرته دار النشر المصرية الكبيرة "الدار القومية". يشمل الكتاب ثمانية أبواب تحكى قصة السد، وتتحدث عن هبات النيل العظيمة، وعن مساعدة الخبراء السوفييت الذين أطلق عليهم اسم "الإخوة من الشمال"، وعن الاتجاهات الجديدة فى النوبة القديمة، بالإضافة إلى ما سوف يمنحه هذا البناء العظيم للمصريين.

قال "رءوف مسعد" أحد مؤلفى الكتاب فى مناقشة معه:" لم نر فى أسوان عملية تشييد بناء عظيم ينمو فى الصخور الوعرة بجهد الروس والعرب، بل وجدنا فى أسوان إنساناً جديداً يجرب على نفسه تأثير وتربية إخوته الروس. المصريون يكافحون من أجل حياة جديدة كما سبق أن حارب ويحارب الآن الروس. يتنافس الآن الأسوانيون من أجل تحقيق أحسن المؤشرات كما يفعل الروس تماماً، فقد اقتبسوا عنهم تقاليدهم وحميتهم فى النضال وعملهم بجدية، وقد راق لهم حماس الأصدقاء الروس لمساعدة مصر".

١١ سبتمبر عام ١٩٦٧

الإسكندرية، ٥ شارع البطالسة :

نُظم فى هذا العنوان بمقر المركز الثقافى الروسى لقاءً اتسم بالصداقة لكل من الخبراء السوفييت والعرب المشاركين فى بناء ترسانة الإسكندرية البحرية ، وهى الأكبر

فى إفريقيا. فى الحقيقة لم يضطر الأصدقاء القدماء لقضاء فترة لكى يتعرفوا على بعضهم البعض، فقد كانوا يعرفون بعضهم البعض منذ زمن بعيد، فمنذ خمس سنوات بدأوا معركتهم مع الطبيعة البحرية، أما الآن فقد حضروا إلى هذا القصر المريح فى شارع البطالسة لكى يحكوا عن بناء الترسانة البحرية مثالاً للتعاون اللصيق بين البلدين الصديقين مصر والاتحاد السوفيتى.

كان يجلس على منصة الرئاسة أصدقاء ذوو شأن عظيم من بينهم رئيس الترسانة البحرية ، ورئيس فرع الصداقة السوفيتية العربية اللواء "أحمد إحسان مدكور" ، وكبير الخبراء السوفييت "جيورجى بيتروفيتش إيفانوف".

قال اللواء "أحمد مدكور": "من المعروف أنه ليس هناك أى مجال اقتصادى أو ثقافى أو علمى إلا وشاهدنا فيه التعاون التام بين شعوب بلدينا، فسد أسوان العالى أبلغ مثال لذلك التعاون، ولكننا أيضًا نشعر بمساعدة أخوية من الصديق الروسى فى كل الأماكن الأخرى فى مصر ، والتى بها نوع من الإنتاج الصناعى أو الزراعى، فالاتحاد السوفيتى يتعاون معنا دون فرض أية شروط.

ويعد بناء الترسانة البحرية أحد الأمثلة الجيدة لذلك، فقد سبق أن قدمت الدول من مختلف أنحاء العالم لمصر عروضًا مختلفة. ولكن تبين أن المشروع السوفيتى هو الأجدى، فالروس يساعدوننا بإخلاص دون أن يطلبوا أى شىء فى المقابل، ومنذ الأيام الأولى للعمل أحسسنا أن الخبراء السوفييت يعملون كما لو كانوا فى بلدهم، فلم يبخلوا بوقت أو بجهد، وكانوا مستعدين دائمًا فى أى وقت من النهار أو من الليل للذهاب إلى مكان العمل لتقديم المساعدة المطلوبة، وهم يتعاملون بجدية مع أى عمل بإحساس كامل بالمسئولية. ومن المثير أننا نفهم أصدقاءنا السوفييت من نصف كلمة ونتفاهم معهم دون الحاجة إلى مترجمين.

الآن تم بناء الترسانة البحرية ، ولكن ظهرت مشكلة أخرى تتعلق بطلبات بناء السفن. وهنا أيضًا لم يقف الاتحاد السوفيتى بعيدًا، فقد طُلب منا بناء عدة سفن ،

بدأنا فى العمل فيها، ونحن فى حاجة إلى عمالة فنية لتنفيذ هذا العمل، لذلك فقد طلبنا إرسال خبراء فى صناعة السفن إلينا، فحضر إلى الإسكندرية مهندسون متخصصون مشهورون عالميا فى بناء السفن ".

ثم أخذ الكلمة كبير الخبراء السوفييت المهندس "جيورجى إيفانوف" فقال : "يشعر كل زملائى بدفء العلاقات مع العرب، ومن المعروف أن العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد السوفيتى ومصر قد دخلت إلى السنوات العشر التالية. وقد ظهر أول بناة للسفن فى الإسكندرية فى عام ١٩٦٣، وكان يوجد أمامهم هدفان: أولاً ، بناء أكبر مصنع لبناء السفن فى القارة الإفريقية. ثانيًا ، تشغيل واستخدام الورش والآلات الموجودة فى الترسانة البحرية.

يمكن أن نقول بثقة تامة إن الهدف الأول قد تحقق، فقد تم الانتهاء من بناء الترسانة البحرية، ولم يتبق إلا بعض الأعمال البسيطة التى ستستكمل فى القريب العاجل. طبقًا لآراء أهم علماء العالم فقد تم بناء ترسانة بحرية قوية وحديثة قادرة على تنفيذ مختلف الطلبات.

أما الهدف الثانى الخاص باستخدام الهيئة التى أنشئت لصالح اقتصاد مصر، فقد بدأنا فى التعامل معه منذ عام ١٩٦٥ عندما تم تدشين أول أربع سفن تم إنزالها إلى الماء، ولكن حدثت بعد ذلك مشكلات فى العلاقات الدولية، فقد عطل العدوان الإسرائيلى جهودنا المشتركة لبناء سفن جديدة ، ولكنه لم يوقفها. فى وقت قريب سوف تبدأ الترسانة البحرية فى صناعة أحدث السفن ذات الحمولات المختلفة. ولكن ما الأساس الذى يرتكز عليه التعاون السوفيتى – المصرى؟ يرتكز على الثقة المتبادلة وعلى البدايات المعتمدة على الصداقة ، وعلى تحقيقنا معًا للأهداف الحالية والمستقبلية الموضوعة أمامنا. إننا نعمل يدًا فى يد، لم ولن نتعامل أبدًا بديكتاتورية، فإننا نحاول أن ننمى عند الجميع الإحساس بالمسئولية، لقد بنينا مركزًا تعليميا رائعًا فى الترسانة البحرية يدرب بناة السفن فى المستقبل على خمسة عشر تخصصاً. من المعتاد هنا عدم

نسيان أسماء أحسن المهندسين الروس بمرور الزمن ، على الرغم من رحيلهم إلى وطنهم منذ فترة بعيدة، وقد ترك كل من العمال "لوزينوف" و"سفيشنيكوف" و"كوتشيريافنكو" وآخرين ذكرى جيدة هنا. ومن ناحيتنا أيضًا فلن ننسى أبدًا التفاهم المتبادل الوثيق الذى ساد دائمًا فى علاقاتنا مع اللواء "مدكور" ومع المهندس "نبيل" ، ومع الزملاء المصريين الآخرين، فقد تم توفير جو صالح للعمل حولنا، على الرغم من بعدنا عن أوطاننا فإننا لا نشعر بأننا معزولون لأننا بين أصدقائنا المصريين، فكثيراً ما ننظم حفلات معًا يعرض فيها كل منا على الآخر فنونه من رقص وغناء، وأنا واثق من أن صداقتنا سوف تقوى وتزدهر أكثر لخير شعوبنا..."

استمر الضجيج فى هذا الحفل لساعة متأخرة فى شارع البطالسة، فقد تبادل الضيوف وأصحاب البيت وجهات نظرهم المتعلقة بمشاكل الإنتاج، وشاهدوا أعمال بلدياتهم وأعمال الفنانين الإسكندريين وبعض الأفلام، وفى الوقت نفسه تم تسجيل أسماء الراغبين فى دراسة اللغة الروسية فى المركز الثقافى الروسى.

٥ يناير عام ١٩٦٩

أنا «كارنينا» فى القاهرة :

سوف تحتفل العاصمة المصرية فى يناير بعيدها الألفى، على الرغم من أن الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة قد تركت أثرها على الاحتفالات، فقد تم تأجيل الاحتفالات الرسمية وتقرر الاكتفاء بإقامتها فى حدود الهيئات الثقافية.

وقد نظم شهر للثقافة السوفيتية مع الاحتفال بألفية القاهرة، فقدم الموسيقيون والمغنون وراقصو الباليه السوفييت عروضهم على مدى شهر يناير فى مسارح وقاعات الحفلات الموسيقية بعاصمة هذا البلد، كما نظمت معارض للفنانين السوفييت ولقاءات مع رجال الثقافة السوفيتية، وقد سبق أن شاهدهم وأحبهم سكان القاهرة ، عندما

قدمت إليها فرقة الرقص الشعبى السوفيتية تحت قيادة "أ. مويسييف" والفرقة الموسيقية التى شارك فى عروضها "إدوارد هيل" والمايسترو "ف. بالياشفيلى". ويمكن مشاهدة أفلام "السادس من يوليو" و"أنا كارنينا" و"مرة أخرى عن الحب" و"الإسورة القرمزية" فى إحدى دور العرض الكبيرة فى المدينة. ولقد حضرت إلى القاهرة مجموعة من الممثلين السوفييت المشهورين، تضم الفنانات "تاتيانا دورونينا" و"ليودميلا تشورسينا" و"أريادنا شينجيليا"، حضرت خصيصا للمشاركة فى أسبوع الأفلام الذى يقام فى إطار شهر الثقافة السوفيتية، وقد كتبت الصحف المصرية كثيراً عن أسبوع الثقافة السوفيتية.

٢٩ يناير عام ١٩٦٨

المساعدة النزيهة للصديق :

قابلت أحد معارفى من الصحفيين الغربيين هناك، فى مكان تقاطع الطريق الصحراوى الموصل بين القاهرة والإسكندرية مع خط نقل الكهرباء من أسوان فى أحد الأيام، كان يعلق آلات التصوير الفوتوغرافى والسينمائى ، ويبحث عن مكان يلتقط له صورة. وهذه الأماكن هنا رائعة، فقد اقتربت هذه الجميلات - أبراج خطوط نقل الكهرباء الفضية اللون - من أهرام الجيزة. أليس هذا منظراً يستحق التصوير!؟ خط نقل الكهرباء يقطع الصحراء تماماً متجها إلى الجنوب، هذا أيضاً منظر جميل. رقد المراسل ثم وقف ثم ركع ثم صعد على الحاجز الحجرى، وعندما تعب وضع آلات التصوير جانباً واقترب منى قائلاً : "رائع، ياله من منظر!".

كان هذا الموقف الجميل يعود إلى ذاكرتى رغماً عنى فى تلك الأيام التى كانت تقام فيها الاحتفالات بمرور عشر سنوات على التعاون الاقتصادى السوفيتى المصرى على شاطئ النيل، كما كانت تعود إلى ذاكرتى مراحل تشكل مصر بعد الانتقال إلى صفحة جديدة فى تاريخها إثر يوم ٢٣ يوليو من عام ١٩٥٢على يد الضباط الثوار بقيادة "جمال عبد الناصر".

ما زال العالم كله يتذكر عواء الصحافة الغربية ضد وهم "عدم استقرار نظام حكمنا مصر" و"تبعية مصر" و"الخطط المستحيلة لبناء سد جديد على النيل"، وقد شاركت أيضًا فى هذه الحملة وكالة الأنباء التى يعمل بها زميلى الغربى. ولكن الشعب المصرى مضى فى طريقه، وسمحت الاتفاقية الاقتصادية التى وقعت مع الاتحاد السوفيتى بالبدء فى عمل إصلاحات واسعة. فقد لعبت اتفاقية التعاون السوفيتى المصرى الأولى الموقعة فى ٢٩ يناير ١٩٥٨ دورًا مهما فى ذلك. لقد غطت القروض السوفيتية طويلة الأجل بقيمة ٩٠٠ مليون روبل جانبًا كبيرًا من الاستثمارات بدون تحويل عملة أجنبية فى مصر طبقا لخطط تطويرها الاقتصادى. وقد استخدمت ٨٠٪ من إجمالى القروض السوفيتية لتطوير الصناعة، و١٧٪ لتطوير الزراعة فى مصر.

ففى خلال السنوات العشر الأولى من التعاون الاقتصادى والفنى تم تشغيل المشاريع الكبيرة التالية (خلاف سد أسوان) بمساعدة الاتحاد السوفيتى:

- مصنعان لتكرير البترول بطاقة إنتاجية مليون طن بترول فى العام لكل مصنع.
- مصنع الكوك والكيماويات الأساسية فى حلوان (المرحلة الأولى) بطاقة إنتاجية ٢٨٠ ألف طن فى العام.
- مصنع التلبيد بطاقة إنتاجية ١٠٠٠ طن من خام الحديد فى اليوم.
- مصنع حلوان للمطروقات والسلاسل بطاقة إنتاج سنوية ١٥ ألف طن، وهذا المصنع ينتج مطروقات لصناعة العربات ، ولبناء السفن ، وللاستخدام فى الصناعات الأخرى.
- مصنع إنتاج آلات الورش.
- مصنع لإنتاج المضادات الحيوية والمستحضرات الطبية التى سمحت لمصر بالامتناع عن استيراد المستحضرات الكبريتية ، وحامض الساليسيليك غالية الثمن، وكذلك البنسيلين والإستربتومايسين.

تم فى مصر ولأول مرة على أرض القارة الإفريقية بناء وتشغيل مفاعل ذرى للأبحاث العلمية طاقته ٢٠٠٠ طن ، ومعمل للفيزياء النووية، كما يجب ألا ننسى أيضاً المشاريع الأخرى التى نفذت بمعاونة السوفييت ، مثل مصنع إنتاج أسياخ اللحام بطاقة سنوية ٢٥ مليون قطعة، وثلاثة مصانع لغزل القطن على أمشاط على ٤٥ ألف مغزل (٢٠٠٠ طن من الغزل فى العام) فى مدن دمياط وميت غمر، بالإضافة إلى مصنع فى حلوان لإنتاج كابلات الألومنيوم الخاصة بخطوط نقل الكهرباء بطاقة إجمالية ٣.٦ آلاف طن فى العام، كما تم بدء إنتاج أدوات الجراحة السوفييت والأدوات المنزلية فى مصنع بالمعادى. وتم تشغيل مصنع فى القاهرة لإنتاج ورق الصنفرة ...إلخ. ونحب أن نضيف لكل ذلك أنه تم بناء ٤٥ مركزاً تعليميا بمساعدة السوفييت، وعلى مدى عشر سنوات تم تعليم ٢٤٥٠٠ من الفنيين الماهرين فى هذه المراكز.

كما تمت أعمال ضخمة لاستصلاح الأراضى الصحراوية، فتم فى مديرية التحرير وحدها تنفيذ مشروعين بمساعدة الاتحاد السوفيتى:

- ١٠ آلاف فدان هدية.
- ٢٠٠ ألف فدان طبقًا للاتفاقية الثنائية.

قام الجيولوجيون الروس أيضاً بعملٍ ضخمٍ، فقد جاءوا إلى مصر فى عام ١٩٦٧ فريقًا مكونًا من ١٧ فرداً تحت رئاسة البروفيسور "باباييف"، كان عملهم ضخماً جدا فى ظروف الجو الجاف والحرارة الشديدة فى الأراضى الصحراوية الحارقة.

على الرغم من ذلك فقد أدوا واجبهم بشرف وأثبتوا أن مصر غنية بالخامات المعدنية وكذلك بالبترول. يتحدث عن ذلك ٢٤ تقريراً أعدها الجيولوجيون السوفييت أثارت دهشةً فى المحيط العلمى المصرى.

سرنا أنا وصديقى الأمريكى فى طريق القاهرة الإسكندرية عبر الصحراء التى حرقتها الشمس، كانت آلة التصوير السينمائى تدور بلا نهاية كما كانت تنفتح فتحات آلات التصوير الفوتوغرافى. كان الصحفى القادم من خلف المحيط يصور القناطر والقنوات ، وزراعات الأرز والذرة والفول.

يقول:"من سنتين مضتا كانت هذه أراضٍ صحراوية، أما الآن فهي حدائق... شيء لا يصدق".

مرت بسرعة مدن سكنية جديدة بجانبنا، مجهزة بالمرافق ومعدات سوفيتية تشق الصحراء ومضخات كهربائية ترفع الماء.

قال الأمريكي مؤكداً:"فعلاً أنتم أصدقاء تتميزون بالنزاهة".

أجبته: "ما هو نعم، هو نعم..."

٦ مايو عام ١٩٦٩

تحت شراع إله الشمس القديم :

يظهر رحالة عصرنا الشهير "ثور هايردال" البالغ من العمر ٥٤ عاماً شاباً بشكل نادر(بلغ "ثور هايردال" في عام ١٩٩٧ عامه الثالث والثمانين). وقد سمعت بشوق في "نادي الرحالة" حديث "يوري سينكفيتش" عن أنه يستعد هو و"ثور" للرحلة التالية إلى جزيرة "باسخي"، وتلا ذلك عرض فيلم يبين كيف يرقص هذا الرحالة الشهير الذي يزيد عمره على الثمانين، بحماس في ملهى بسويسرا. وقد مر على الموضوع الذي كتبناه أنا وزميلي "نيكولاي كوتساريف" (كان يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس مكتب وكالة أنباء "نوفوستي" في القاهرة) "مع "ثور هايردال بالقرب من أهرام الجيزة" نحو ٣٠ عاماً، ولكن ما زال يبدو لنا كأن المركب "رع" الذي لا يُنسى وقبطانه الرحالة المدهش الطيب الخجول "ثور هايردال" كانا يقفان أمامنا بالأمس، فهو ينجح في عمل كل شيء في وقته: "إهداء توقيعه على ورقة بردي. تلقي هدية تذكارية. إلقاء الأوامر". وقفنا بالقرب من مركبه الشراعي "رع" بجانب قاعدة ثالث أهرام الجيزة هرم "منقرع"، زي هذا البحار قبعة بيج وقميص أزرق وبنطلون رمادي وحذاء أبيض. فهذا هو زي أيام العمل. ليس عند "ثور" أية دقيقة للراحة، يعمل في ظل وابل لا ينقطع من الأسئلة

:
:

وصوت دوران آلات التصوير السينمائى ، وومضات آلات التصوير. يلح عليه السائحون بالأسئلة ، ولكنه هادئ وبشوش ويتحدث بلا تكلف مع الجميع.

ها هو الفنان الروسى مصمم الأزياء "فيكتور جريجوريف" يهديه تذكاراً على هيئة دبوس به هرم مصنوع ببراعة وهو يقول: "هذه هدية من طلبة مدرسة الفنون الجميلة فى مدينة نيجنى تاجيد". كان الدبوس نفسه ذهبيا وأما الهرم فكان مصنوعًا من حجر الملخيت الأخضر.. شكره الدكتور "ثور" بشدة على هذه الهدية.

اقتربت مجموعة من العرب وقدمت له بعض أوراق البردى لكى يوقع عليها، كما عرض سائح نرويجى ألبوم لصور "هايردال" ، طالبًا هو أيضًا توقيعه عليه، فكيف يمكن ألا يحترم بلدياته؟

كنا فى ذلك الوقت نتحدث مع أحد المشاركين فى الرحلة "جبرينو عبد الله" كبير مهندسى المركب. كان عمره ٣٣ عامًا وأصوله من تشاد، وقد جاء إلى جانب أهرام الجيزة المصرية ومعه حزم من نبات البردى جلبها من الحبشة، ففى الماضى كانت تجدل المراكب من هذه النباتات الخضراء بالذات، وكانت المركب "رع" تشبهها تمامًا. تم بناء المركب فى نحو شهرين بربط نباتات البردى بالحبال فى حزم قطرها ٧٠ سنتيمترًا، وقد ربطت أربع من هذه الحزم بعضها بالبعض فكونت سطح المركب "رع" التى بلغ طولها ١٥ مترًا و٧٠ سنتيمترًا، وعرضها ٥ أمتار، أما حمولتها فكانت ١٥ طنا. وسوف يرفع عليها شراع مستطيل الشكل على صارى ارتفاعه ٩ أمتار، وبالطبع لن يتم استخدام أية محركات.

- لماذا لا تربطون حزم البردى بقوة تامة؟

- لأنها تنتفخ فى الماء ويزيد حجمها.

- وإذا امتصت المركب كلها الماء؟

- تجاربنا (أشار إلى خزان مليء بماء البحر موجود بجانبه ، تطفو فيه حزم من البردى) بينت أن سطح المركب سوف يتشبع بالماء بنسبة ٣٠٪ فقط.

- فى هذه الحالة سوف يزيد الغاطس؟

- سوف يكون حده الأقصى ٥٠سم.

- والأمواج؟ والعواصف؟

- نعتمد على خفة المركب، وليس على سهولة الرحلة، فسوف تتقاذفها الأمواج وكأنها عود من الخشب.

اقتربنا من المشارك الثانى فى الرحلة، وهو فتى قوى البنية متوسط الطول، اسمه "كارلو ماورى"، وهو بشوش ويجيب عن الأسئلة برضا تام. "كارلو" إيطالى يبلغ من العمر ٣٩ عامًا، تعيش زوجته مع أبنائه الخمسة فى شمال إيطاليا فى مدينة "ليكو" على بحيرة "كومو". سافر "كارلو" كثيراً، وقد تسلق كلاً من جبال "الألب" و"الهيمالايا" و"الإنديز" بصفته دليلاً من متسلقى الجبال، وصعد إلى قمة "كلمانجارو"، كما أنه شارك فى البعثات الاستكشافية للقطب الشمالى، وعبر أمريكا إلى رأس "جورن"، وقد قبل الآن دعوة "هايردال" للمشاركة فى هذه الرحلة.

- ماذا ستكون مسئولياتك عندما تبدأ المركب رحلتها؟

- التصوير الفوتوغرافى والسينمائى وصيد السمك .

- وكيف تم توزيع باقى المسئوليات على المشاركين الآخرين؟

- كما تعرف، يتكون طاقم المركب "رع" من ٧ أفراد، فالدكتور"ثور هايردال" رئيس المجموعة، والأمريكى "نورمان بيكر" الملاح، و"يورى سنكيفيتش" الطبيب، وستكون مسئولية المكسيكى "رامون برافو" ، وبطل إفريقيا فى الجودو المصرى "جورج سوريال" التصوير تحت الماء، أما "جبرينو عبدالله" فهو خبير البردى والطفو.

- فى رأيكم كم من الوقت ستبقون فى المحيط؟

– ثلاثة أشهر أو أربعة .

– أين يمكن انتظاركم على الجانب الآخر من الأطلنطى؟

– سوف نتجه إلى البحر الكاريبى الذى اخترناه نقطة نهاية الرحلة. فى الحقيقة توقعات حالة الجو لا تسر؛ فمن المتوقع حدوث عواصف قرب نهاية الرحلة، ونحن ليس معنا أى شىء آخر غير الشراع. كل شىء مطابق تماماً لما كان عند قدماء المصريين، فهم أيضاً قد سافروا فى العواصف.

– وماذا عن الطعام؟

– سنعتمد على صيد الأسماك، وسوف نأخذ معنا ١٥٠ من الأوانى الفخارية. كل منها سيحتوى على ١٠ لترات من الماء العذب، وسيكون معنا أيضاً سلال بها مأكولات مملحة ، وفواكه جافة ، وخبز عربى جاف ، وزيت زيتون. ونحن نخطط أن يكون استهلاك الجميع لإناء واحد فى اليوم.

– من سيكون قبطانكم؟

– الدكتور "ثور هايردال"، والهواء، وتيار الماء.

– ألست خائفاً من الاشتراك فى تجربة بهذه الدرجة من الخطورة؟

–على الإطلاق.

– كيف سيتم اتصالكم بالعالم حولكم؟

– باستخدام أحد الأجهزة اللاسلكية للهواة.

– ومن سيكون مسئولاً عن الاتصالات اللاسلكية؟

– "نورمان بيكر".

– متى ومن أين سوف تبدأون الرحلة؟

– من الميناء المغربي "صافي"، فهذا ثاني أقدم الموانى الفينيقية بعد "الدار البيضاء"، وسوف نبدأ الرحلة يوم ١٧ مايو، ففي هذا اليوم تحتفل النرويج بعيدها القومي.

– ماذا يمكن أن تقول عن الطبيب الروسي؟

– أقول ما يمكن أن أقوله عن نفسي، فكلنا سوف نصبح بحارة على المركب بغض النظر عن مسئولياتنا الخاصة، وهو سوف يقوم أيضًا بصيد السمك ، ويقوم بدوره في الحراسة مثل الجميع.

– ولماذا وقع الاختيار على "يوري سنكييفيتش" بالذات؟

– لقد طلب الدكتور "ثور" من أكاديمية البحث العلمي بالاتحاد السوفيتي أن ترسل ممثلها، فأرسلت "يوري" البالغ من العمر ٣٢ سنة، وكنا قد سمعنا عنه بخصوص عمله في محطة "فوستوك" في القطب الشمالي...

لاحظنا أن "ثور هايردال" فرغ مما كان يقوم به، فطلبنا منه الإجابة عن بعض الأسئلة لوكالتنا بصفة خاصة ، ومنحناه شارة وكالة "نوفوستي" للأنباء.

– ما الهدف الرئيسي من هذه التجربة؟

لا يتلخص الهدف فقط في أننا نختبر قدرة المراكب المصنوعة من نبات البردي وإمكانية استخدامها لعبور المحيط الواسع. يخطئ الصحفيون إذا اعتقدوا أني أرغب في إثبات ذلك، لا... ، فأنا فقط أريد أن أتأكد هل كان من الممكن أن تنتقل حضارة إحدى القارات إلى قارة أخرى بهذه الوسيلة ؟ وبعد ذلك سوف يقول علماء الآثار رأيهم، هل كان هذا صحيحًا في الواقع؟ أو لا؟ ففي الحقيقة لم يعرف العلم حتى الآن كيفية ظهور الحضارة الأمريكية. هل هي تطورت بالتساوي مع البولينيزية أو الإفريقية؟ أو أن العملية سارت بالتوازي ، وأثرت هذه الحضارات في بعضها البعض؟ فقد تكون الحضارة قد نقلت إلى أمريكا من هنا... من مصر، كما تم نقلها إلى أوروبا من الخارج. قبل السفر على "كونتيكي"("كونتيكي" طَوْف صنعه "ثورهايردال" من جذوع

الأشجار مثلما كان يفعل سكان "بيرو" القدماء. كانت مساحة الطَوْف نحو ١٠٠ متر مربع، وقد سافر عليه "ثور هايردال" عائمًا من مدينة "كالف"(بيرو) إلى جزيرة تواموتو (خلال ١٠ أيام) لإثبات إمكانية انتقال السكان من أمريكا إلى "بولينيزيا". بنيت نظرية أثبتها فيما بعد تقول: إن الحضارة على جزيرة "بولينيزيا" انتقلت إليها من أمريكا، وبعد تجربتي احتاج الأمر لإجراء دراسات أثرية كبيرة لإثبات ذلك، من يستطيع الإجابة عن سؤال" لماذا تشبه الأهرام المكسيكية الأهرام المصرية؟"

– لماذا اخترتم مصر نقطة البداية؟

– في قديم الزمان كان البحارة المصريون الأكثر شهرة، وكانت مراكبهم المصنوعة من نبات البردى مخصصة لكي تعوم في النيل، ولكنهم قاموا برحلات كبيرة إلى مسافات بعيدة، لأنهم كانوا يمتلكون أحسن المراكب في العالم. وقد أيد العالم السويدي" بيرن لاندستريم" المتخصص في دراسة تاريخ السفن القديمة فكرة تجربتي، وقد خطط رسوم المركب "رع". ويبدو أن المراكب المصنوعة من البردى قد توجهت من مصر إلى الغرب وأيضا إلى الشرق، وإلا فكيف يمكن تفسير أن الأهرام المكسيكية تشبه المصرية، وأن التماثيل المصرية في جزيرة "باسخا" تذكرنا بتماثيل "رمسيس الثاني" في "أبو سمبل"؟ في الوقت الحالي نحن نفترض، ولكننا لا نعرف ذلك. في الحقيقة فإن بداية اتصالات الحضارات القديمة ببعضها البعض عبر المحيط الأطلنطي كانت تعني ثورة عظيمة نستها الإنسانية. نحن نقول: إن الأوروبيين هم من اكتشف أمريكا، ولكن هل اتبعوا الطرق التي سار عليها الأجداد من قبل؟

– تلقى رحلتكم اهتمامًا كبيرًا عندنا في روسيا، وسوف يتابع قراؤنا باهتمام هذه التجربة. ما الذي تريدون قوله للسوفييت بهذا الخصوص؟

– أحب أن أقول لأصدقائي الروس إنني سعيد جدا بهذه العناية وبهذا الاهتمام بي، ويسرني أنه يوجد في طاقم المركب طبيب روسي ، وأن علم بلدكم سوف يرفرف بجانب أعلام ست دول أخرى، وسوف يرفع فوقهم أيضًا علم الأمم المتحدة، فهذا يرمز إلى الصداقة بين الدول المشاركة في هذه التجربة العلمية.

وأنا أتمنى لمواطنيكم، خاصة للشباب منهم، أن يفعلوا كل ما فى وسعهم من أجل التفاهم المتبادل بين مختلف الشعوب. وأنا باعتبارى رحالة أعرف أن البسطاء فى العالم كله يريدون السلام، لذلك يجب أن يتم العمل من أجل السلام قبل أى شىء آخر، كما يجب تفادى اعتبار الحرب وسيلةً لفض النزاعات.

نحن واقفون نشاهد مركب البردى القادمة من الماضى، والأهرام شواهد صامتة على تاريخ آلاف السنوات. ها هى المركب توضع على زحافات من الخشب وتربط بها حبالٌ طويلة، ثم يمسك ٥٠٠ من طلبة كلية التربية البدنية الحبال ويشدوها فى نفس واحد كالأوتار، ويدخل المساعدون تحت الزحافات عوارض تغرس فى الرمال. بدأت المركب فى الحركة.

٧ سبتمبر عام ١٩٦٩

الإنسان السوفيتى فى النوبارية :

"فى البداية القليل من الجغرافيا". هكذا بدأ المهندس "بوريس أوليانوفيتش بوجافكو" حديثه معنا، ثم أخذ فى يده قطعة من البوص وانحنى وبدأ يرسم على الرمال اللامعة شكل دلتا نهر النيل ، وبيِّن مكان القاهرة عاصمة مصر بدقة فى نقطة طرف المثلث الذى يمثل جانباه الفرعين الرئيسيين لنهر النيل ، فرع رشيد (الغربى) وفرع دمياط (الشرقى) – اللذين يصبان فى البحر الأبيض المتوسط – ويبلغ طول كل منهما ٢٠٠ كيلومتر.

تخرج من فرع رشيد عدة قنوات توصل الماء إلى الأراضى التى تم استصلاحها وللأراضى الصحراوية التى يمكن ريها بمساعدة الاتحاد السوفيتى، ونحن الآن نعمل فى هذا المكان هنا على قناة النوبارية – ويشير "ب. بوجافكو" إلى وسط الرسم – هذا المكان يقع تقريبًا فى منتصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية. الآن نحن نقوم باستخدام الكراكات لزيادة عمق القناة أكثر من متر وتوسيعها بمقدار متر فى المتوسط

بهدف زيادة تدفق الماء، وسوف نضطر لقطع ٥٠ كيلومتراً للوصول إلى أقرب محطة مضخات...

- هنا توجد الكثير من الظروف الخاصة - استمر المهندس وهو يشير إلى الترمومتر (الذى كان يبين أكثر من أربعين درجة) - الحرارة والكثير من الأمور العفوية التى لا يمكن توقعها، فقد يقابلنا فى الطريق كوبرى ضيق، أو الشئون الإدارية لا تستطيع تنفيذ المطلوب فى وقت مناسب، أو أية أشياء أخرى.

نحن - الخبراء السوفييت - ثلاثة فقط. زملائى "إيلجيز أبيدينوفيتش بورناشوف" و"جريجورى فوميتش ماروشاك" يقومان بتشغيل الجرافات، قمنا أولاً بتدريب ١٦ من الرفاق العرب بإمكانياتنا الذاتية، وبعد ذلك بدأنا فى تركيب الكراكات، وقد استغرق تركيب كل منها زمنًا يصل إلى ١٥ يومًا.

فى أثناء النزاع العسكرى الأخير كانت الطائرات الإسرائيلية تطير بسرعة فوق رءوسنا، ولكننا استمررنا فى أداء عملنا ففى الحقيقة نحن موجودون على خط الجبهة الأمامى، جبهة الحرب ضد كل من الجفاف والصحراء...

استكمل "بوريس أوليانوفيتش" حديثه بينما كنت أنظر إلى وجهه الذى حرقته الشمس والواضح عليه قوة الإرادة ، وإلى شعره الرمادى الذى ظهر فيه الشيب، وكذلك إلى يديه القويتين من كثرة العمل. كان عمره ٦٠ سنة أعطى منها ٤٠ لمحبوبته "ميكنة الهيدروليكة"، وهو لن يبتعد عن مهنته أبدًا. فقط أبعده عن العمل المدنى الهجوم الهتلرى على وطننا لمدة ثلاث سنوات.

عمل "ب بوجافكو" منذ عام ١٩٦٤ كبير مصممى الكراكات فى "معهد كل الاتحاد السوفيتى لأبحاث المعدات الهيدروليكية واستصلاح الأراضى". يحسب له فى العمل المدنى قيامه بستة عشر بحثًا علمياً، وقد اختبر معداته فى ليبيا وجمهورية فيتنام الديمقراطية وبولندا وكوبا والهند وسافر عدة مرات إلى مصر.

يتذكر قائلا: " على سبيل المثال، فى العام الماضى قمنا بتصميم معدة صغيرة "واى تى إم" YTM مخصصة للبحث عن الدفائن. وأثبتت تميزها وحصلت على الجائزة الأولى فى معرض المعدات الحديثة فى "معرض المنجزات الوطنية" (بالمناسبة تم تقليد "بوجافكو" بثمانية أوسمة من المعرض). معدة "واى تى إم" YTM عبارة عن كراكة صغيرة وزنها ٣ أطنان فقط، بحيث إنه يتم نقلها على سيارات نقل عادية.

طبعًا كانت توجد أهداف أخرى أمام خبير الميكنة الهيدروليكية عليه تحقيقها، فهنا تعمل كراكات عائمة "٨ بوصات" قوية. يعمل فى دلتا النيل مع المهندسين السوفييت مهندسون مصريون ملمون تمامًا بعملهم، منهم "عزيز نسيم" كبير مهندسى شركة "الكراكات" ، و"محمد عشرى" كبير مهندسى المشروع ، وكثيرون آخرون.

ويضيف "ب بوجافكو": " لقد تكونت لنا معهم علاقات جيدة ، حيث إنهم يقظون جدا ويتبعون التوصيات ، ولا يبخلون بوقت أو بجهد فى سبيل العمل. عامة فقد قدمنا الكثير من الاقتراحات التى خفضت تكلفة المشروع، وأنشأنا فى البلد عملية إنتاج هياكل الكراكات وبعض قطع الغيار.

بالطبع يحيطنا المصريون باهتمامهم، حتى إن مواطنينا يحسون وكأنهم فى بلدهم، ولكنهم لا ينسون أبدًا أنهم ضيوف، ويظهر اشتياقهم لروسيا فى كل تصرفاتهم، فكانوا يغنون أغانيهم فى طريق ذهابهم إلى العمل، أو يستمعون إلى أغانيهم المفضلة من التسجيلات، وكانوا يحتفلون بكل الأعياد على الطريقة الروسية، بالفودكا، وبالأغانى، وبالرقصات. لم يكن من قبيل الصدفة أن حظيت أغنية " اكتبى لى يا أمى، إلىَّ فى مصر، كيف يجرى نهر الفولجا الحبيب لى هناك" بشعبية كبيرة هناك. كانت هذه الأغنية تعبر تمامًا عن حب كل من "تفوق على المخطط" من الأبناء لروسيا فى البعد عنها...

كان هذا أحد إنجازات عمل مواطنينا تم تحقيقه خارج حدود روسيا، فى مصر. إنجاز يستحق أن يقام له نصب تذكارى.

الباب الحادى عشر

لمعت العيون الزرقاء من تحت الخوذات العربية الصفراء

ما زال الشكل المميز للصديق الروسى اللطيف الأزرق العينين حتى الآن عالقًا فى ذاكرة المصريين منذ أيام الحرب العالمية الأولى، عندما رسا الطراد الروسى "بريسفيت" على رصيف ميناء "بورسعيد" . كان فى مهمة حربية بجانب الشاطئ الإفريقى للبحر الأبيض المتوسط، وكان طاقمه قد اشترك فى المعارك الحربية ضد الإمبراطورية العثمانية ودول المحور الذين حاربتهم مصر أيضًا، وفى بداية عام ١٩١٨ عادوا إلى وطنهم ، حيث قامت الثورة. ونزلوا إلى بورسعيد لفترة راحة صغيرة ، وللتزود بالماء وبالمواد الغذائية. توقفوا هناك لعدة أيام وتركوا فيها أثرًا لا ينسى بسبب بساطتهم وتواضعهم.

ولكن وقعت كارثة بمجرد ابتعاد الطراد عن الشاطئ الذى تزاحم فيه المودعون، بحيث لم يكن به موطئ لقدم، فقد دوى انفجار، لقد اصطدم الطراد بعدة ألغام ألقتها الغواصات الألمانية عند الشاطئ. بدأ حريق على سطح المركب فغرقت بسرعة فى الماء وهى محاطة باللهب، اندفع العرب الذين كانوا على الشاطئ ، وشاهدوا ما حدث، للمساعدة فورًا. توجهت القوارب ، والمراكب الشراعية الصغيرة بسرعة إلى مكان الانفجار، ولكن أمكن إنقاذ عدد قليل فقط، أما الباقون فتم جمع أشلائهم ودفنهم باحترام فى مقابر المسيحيين فى بورسعيد.

مرت الأيام، وقامت الثورة فى مصر عام ١٩٥٢ ، فرفرفت راية الحرية على بورسعيد كما رفرفت على باقى مدن بلد الأهرام، ولكن على الرغم من أى شىء لم يُنس

البحارة الروس الذين فقدوا حياتهم فى خضم الأحداث، فقد تمت العناية بمقابرهم والمحافظة عليها، كما زرعت حولها الزهور، وقُدمت المساعدة للبحارة الذين تم إنقاذهم لكي يعودوا إلى وطنهم. وفى عام ١٩٥٤ شيدت وزارة دفاع الاتحاد السوفيتى نصبًا تذكاريا لأبطال الطراد "بريسفيت" الذين ماتوا ودفنوا فى بورسعيد، وقد حضر هذا الاحتفال مئات من سكان المدينة ، وبحارة سفننا التى كانت قريبة من تلك المنطقة فى ذلك الوقت.

وعندما نزلت قوات المظلات الإنجليزية والفرنسية فى بورسعيد بعد سنتين ، وقام الإسرائيليون باحتلال شبه جزيرة سيناء، طلب أحفاد البحارة الروس الذين فقدوا حياتهم عند شواطئ مصر من المعتدين سحب قواتهم من كل المواقع ، وبدأوا فى مساعدة بلد الأهرام الصديقة. كانت ضربة الروس بقبضة يدهم على مائدة الشرق الأوسط قوية لدرجة أن اضطر الضيوف غير المرغوب فيهم إلى الانسحاب الفورى. ومن لحظة إعلان الإنذار الموسكوفى فى ٥ نوفمبر ١٩٥٦ بدأ فعلاً انحصار السيطرة الغربية فى مصر ، وظهر فى سمائها الشهاب الروسى المضىء الذى أنقذ هذه الأرض القديمة من الكثير من الكوارث والصعاب. "روس يرتدون الملابس العسكرية المصرية، روس يلبسون بدلة العمل، وأسلحة روسية، ومعدات روسية للصناعة، ثم فى النهاية افتتان الروس بمصر التى راقت لهم فى تلك الأيام". استمر ذلك الحال على مدى ١٥ سنة وكان يشبه فعلاً شهبًا مضيئة. ولكنه كان مثله أيضًا ، عاش فقط لفترة زمنية قصيرة من التاريخ...

فلنحاول الآن ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين أن نقلب فى تلك الصفحات قبل أن نقدم الأسئلة وأن نجيب عنها، أسئلة عن كيفية وأسباب خروجنا من هناك ...

السر الذى أخفته كلمة "خبراء" العربية

ظهرت فى بداية عام ١٩٥٧ "الممثلية الروسية" دون أى مسمى رسمى فى القاهرة وبالتحديد فى جزيرة الزمالك ، وهى حى من أحياء العاصمة غارق فى الخضرة. وكان يعرف عن ذلك القليل النادر من الناس، أما الروس فقد أطلقوا عليها اسم "مجموعة باجارسكى"، على اسم الجنرال الذى كان يرأس كل من ترسله روسيا فى مهمات عمل " لتقديم مساعدة فنية"، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يقومون بحل العديد من المسائل المتعلقة بالجيش المصرى وبتدريبه. أطلق عليهم المصريون لقب "الخبراء" دون تقديم أى توضيح إضافى. كانوا يتسمون بالصمت وبالتجهم، كما أنهم لم يشعروا بالثقة بالنفس فى ملابسهم المدنية ، ولكنهم تميزوا بشدتهم ومظهرهم العسكرى. هؤلاء هم بلدياتنا الذين أرسلوا إلى مصر فى مهمة خاصة، لم يتعاملوا أبداً مع أحد، لم يقدموا أية أحاديث صحفية، ولم يحضروا أبداً أية حفلات استقبال ، أو أية من الاحتفالات الرسمية الأخرى التى كانت تنظم بكثرة نظراً للنشاط البروتوكولى المعمول به فى القاهرة فى ذلك الوقت، كما لم يكن يعرف الكثيرون مكان إقامتهم. أما الذين كانوا يعرفون فكانوا لا يستطيعوا زيارتهم إلا بتصريح من المصريين الذين كانوا يقومون بحراستهم بجدية تامة وكذلك بتصريح من الجنرال "باجارسكى".

فعلى سبيل المثال كتبنا نحن الصحفيين الموسكوفيين المعتمدين رسميا فى مصر عن كل شىء فيها، بدءاً من الدرافيل التى أنقذت الصيادين فى العواصف إلى المعركة مع الحشرات الضارة بالزراعة. ولكن كان محظوراً علينا الكتابة المباشرة أو غير المباشرة عن تلك المهام المهمة المكلفة بها مجموعة مواطنينا العسكريين، وقد وصل الأمر إلى أنهم كانوا لا يكتبون فى المستقبل فى استمارات إحالتهم إلى التقاعد عن الأماكن التى وُجدوا فيها، وماذا فعلوا فيها لمدة سنتين أو ثلاث سنوات، وفى بعض الأحيان خمس سنوات أو أكثر؟ كان الخوف على حفظ الأسرار العسكرية يؤدى إلى استبدال ما هو مكتوب فى الوثائق مع الوقت، فقد كان يسجل أن العسكريين كانوا لفترات طويلة من حياتهم هاربين ، أو موجودين فى أماكن ليست بعيدةً مثل مصر. والآن فقط، واعتماداً على الذاكرة القوية والمذكرات التى تمت المحافظة عليها وذكريات

الشـهود أو المشاركين فى "الملحمة المصرية" نبدأ فى إعطائهم حقهم ، وعلى الرغم من ذلك لا نستطيع ذكر أسمائهم جميعًا.

حتى عندما تم فى عام ١٩٦٧الاحتفال بمرور ١٠ سنوات على التعاون السوفيتى المصرى الذى أثمر نتائج مذهلة فعلاً، لم يقل أحد أية كلمة عن الدور الذى قام به الخبراء السوفييت العسكريون ، الخبراء لتقوية قدرة مصر الدفاعية.

وقد تمكنت مرة واحدة فقط فى أغسطس عام ١٩٦٦من أن أشاهدهم عن قرب، ومن الحصول على تقييم المصريين لعملهم، كان ذلك فى أثناء زيارة بعض وحدات من الأسطول الحربى الروسى لمصر. وقد استقبل بحارتنا الذين كان يرأسهم الأدميرال "جيورجى كونييفيتش تشيرنوباى" استقبالاً رائعًا، وقد تصرف ، طاقما حاملة الصواريخ "بويكى" والفرقاطة "بانتيرا" أيضًا باعتبارهم مضيفين كريمين عندما صعد إلى سطح هذه السفن المئات من سكان مدينة الإسكندرية. وأبدى الأدميرال "عزت" قائد القوات البحرية المصرية، بعد زيارته للسفينة "بويكى"، رضاه التام عن الصداقة العسكرية المتنامية بين البلدين الشقيقين، أما رئيس أركان حرب القوات البحرية الأدميرال "رشيد " فقد صرح بأن هذه الصداقة أثرت إيجابيا فى النهوض بالأسطول الحربى المصرى. وعندما قام بحارتنا بزيارة بروتوكولية للمحافظ "حمدى عاشور"، أكد الأخير : "إن أول زيارة لوحدات من الأسطول البحرى الروسى فى التاريخ لمصر هى نتاج للتعاون عن قرب بين رجال القوات البحرية ونتاج للصداقة بين البلدين". ثم أقام الفريق الموسيقى النموذجى للقوات البحرية السوفيتية حفلاً موسيقيا كبيرًا قدم فى بعض فقراته أغنيات باللغة العربية. وقد حصل البحار"سكابتسوف" على النصيب الأكبر من النجاح عندما قام بغناء الأغنية الشهيرة فى ذلك الوقت "اكتبى لى يا أمى إلىَّ فى مصر". أتذكر جيدًا الملحق العسكرى بسفارة الاتحاد السوفيتى بمصر العقيد "فلاديمير إيفانوفيتش فورسوف" الذى كادت الدموع أن تنهمر من عينيه فى أثناء غناء هذه الأغنية ، على الرغم من اتسامه بالصرامة فى أثناء وجوده بين الصحفيين، كما لم يعرف عنه أنه اجتماعى. سألته وأنا أشير إلى بعض من بحارتنا "الخبراء" الجالسين على بعد

منا :"إلى أين يمكن أن يرسلوا خطاباتهم؟" أجاب "فورسوف": "من المعروف إلى أين، إلى القرية، إلى جدى". كان يطلق تعبيراً "إلى الجد" إشارة إلى المراسلات الحربية.

تأزم فى هذا الوقت الموقف فى المنطقة، فإذا كان من الممكن حتى أوائل عام ١٩٦٧ السفر بأمان بالقطار من القاهرة إلى مدينة غزة الفلسطينية ، ومشاهدة جمال طبيعة شبه جزيرة سيناء البيضاء من خلال نافذة العربة (قمت بذلك من قبل مع "ليونيد كوزنتسوف" مراسل جريدة "كومسومولسكايا برافدا" فى ذلك الوقت) ، فقد أصبحنا الآن مع مرور الوقت "نشم رائحة الحريق" بصورة متزايدة خاصة عند حدود إسرائيل مع سوريا والأردن. هدد رئيس وزراء إسرائيل "أشكول" العرب "بحرب مفتوحة" ، وصرح بأنها سوف تشتعل"فى المكان والزمان المناسبين ، وبالوسائل التى سوف نختارها بأنفسنا". ثم بدأ تركيز القوات الإسرائيلية على الحدود مع سوريا ، وأرسلت إليها ما يقرب من ١٢ فرقة من الجنود، وتحدد يوم ١٧ مايو للهجوم. قبل ذلك وفى يوم ٧ أبريل كانت سوريا قد تلقت ضربة مكثفة من إسرائيل فى منطقة "بحيرة طبرية"، ولكن لم تحصل إسرائيل على نتائج من المعركة التى دارت لمدة ٧ ساعات، وعلى الرغم من ذلك كررت ذلك بسرعة. وقد تلقت الأردن أيضاً مثل هذه الضربات التجريبية.

فى ظل هذه الظروف أعلن رئيس مصر "جمال عبد الناصر": "إنه فى حالة هجوم إسرائيل على سوريا فإن مصر سوف تؤدى التزاماتها طبقاً لاتفاقية الدفاع المشترك الموقع بينها وبين سوريا منذ عام ١٩٦٦" ، أى أن العمليات الحربية سوف تبدأ فوراً ضد المعتدين. هبت على سيناء وحولها أيضاً رياح باردة نتيجة لذلك التصريح، وفى ١٨ مايو توجهت حكومة مصر إلى مجلس الأمن بطلب سحب قوات الأمم المتحدة من على أرضها، من منطقة غزة ، ومن شبه جزيرة سيناء بما فيها نقطة شرم الشيخ (فى مضيق تيران) ، تلك القوات التى أرسلت إلى هناك فى عام ١٩٥٧ بعد العدوان الثلاثى على مصر. وقد بررت القاهرة طلبها بصفة خاصة "بأن وجود قوات الأمم المتحدة فى الأماكن المشار إليها سوف يمنح إسرائيل ميزة فى حالة وقوع استفزاز عسكرى موجه لسوريا. وفى ٢٢ مايو تم الانتهاء من توزيع القوات المصرية فى المناطق التى أخلتها

قوات الأمم المتحدة، أما فى ٢٨ مايو فقد أعلنت مصر إغلاق خليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية ، وأمام الدول الأخرى التى تورد معدات إستراتيجية إلى إسرائيل. شكليا، كان هذا سوف يعيد الوضع إلى ما كان عليه قبل العدوان الثلاثى على مصر، ولكن فعليا، أعطى ذلك ذريعة لإسرائيل لكى تلجأ إلى استخدام القوة.

أدلت موسكو فى ذلك الشهر المتوتر السابق للحرب ببيانات تلو الأخرى فى محاولة لتجنب حدوث صدام مباشر بين العرب وإسرائيل، فعلى سبيل المثال جاء فى بيان لوزارة خارجية الاتحاد السوفيتى فى ٢٦ أبريل أن السياسة الخطرة التى تتبعها إسرائيل تجاه جيرانها على مدى عدة سنوات مفعمة بخطر كبير على أمنها، وفى ٢٣ مايو أعلنت حكومة الاتحاد السوفيتى بيانًا آخر خاصا بالشرق الأوسط، أشارت فيه إلى الوضع الذى أصبحت عليه المنطقة "والذى يثير القلق على المصالح العالمية والسلام العالمى". وحذرت حكومة الاتحاد السوفيتى من وقوع عدوان على الشرق الأوسط ، وأكدت على سعيها "لعمل كل ما هو ممكن" للمحافظة على السلام.

كانت لقلق موسكو أسسٌ جادة، فقد كان هناك عدد كبير من المواطنين السوفيت يشاركون فى بناء مئات من المشاريع المهمة للازدهار الاقتصادى فى الدول التى لها حدود مع إسرائيل. ففى مصر وحدها كان يجرى تنفيذ ١٣٠ مشروعًا منها ٦٧ مشروعًا صناعيا. من هذه المشاريع الضخمة "السد العالى فى أسوان" و"مجمعا الحديد والصلب، والكوك" فى حلوان و"الترسانة البحرية" فى الإسكندرية، ومشاريع أخرى أطلق عليها أنها "عظيمة"، وكانت تعتبر حتى قبل تشغيلها رموزًا للصداقة السوفيتية المصرية. فتم إبعاد الآلاف من أحسن الخبراء السوفيت عن أعمالهم بالوطن وعن عائلاتهم لبنائها. لبسوا خوذات البناة الصفراء ، وتوجهوا إلى الصحراء "لكى يقوموا بواجبهم الدولى"، وحتى لم يتجرأوا على توجيه سؤال لمن أرسلهم إلى هناك: هل سيُدفع مقابل هذا "الواجب" أجر جيد؟ على الرغم من أننا قد كتبنا، حتى لامسنا القلوب، عن الآلاف الذين عملوا بجد فى أسوان أو فى تلك "المشاريع المهداة" فى عشرة آلاف من الهكتارات من الأراضى الصحراوية، التى تم استصلاحها فى

مكان ما بين القاهرة والإسكندرية، فأنجزوها قبل الموعد المخطط بشهور، وفى بعض الأحيان بأعوام ، حيث "سبقوا الخطط". وقد عملوا فى أى مكان أرسلوا إليه مثل صحراء" قره كوم"، أو لبناء المحطة الهيدروليكية لتوليد الكهرباء فى مدينة "براتسك".

كما كان هناك عشرات الآلاف الآخرون لم يضعوا على رءوسهم خوذات صفراء زاهية اللون مثل البناة ، ولكنهم لبسوا خوذات حربية ، لونها أصفر رملى وأدوا عملهم فى صمت دون أن يظهروا فى نشرات الأخبار السينمائية ، أو يتعرضوا لوميض فلاشات آلات تصوير الصحفيين. عملوا هم أيضًا بجد، وحققوا الخطط فى أزمنة قياسية ، لإدراكهم أن خطر الحرب يقترب ، وأنه لا يمكن منعه. أعجبت القيادات العسكرية المصرية بهؤلاء "الخبراء" المجدين فى العمل ذوى الملامح "الريازانية" أو "البريانسكية" (ريازان وبيانسك مدينتان روسيتان) ، والتى لا يمكن إخفاؤها سواء بارتدائهم رداء تنكريا أو ملابس عسكرية لونها كاكى، أو حتى بإصدار الوثائق السوفيتية باللغة العربية، أوالتعليمات التى كان يتم اعتمادها على أية حال بالروسية: "افعل مرة"، ثم يضاف إليها باللغة العربية "كمان"، لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك يعنى "افعل مرتين"، ولكن من الأدق كتابة "مرة أخرى". والكثير الكثير من المرات.

هنا نلاحظ أنه فى تلك السنوات لم يذهب فقط الخبراء العسكريون الروس إلى مصر، ولكن ذهب إليها أيضًا المتخصصون الكبار فى الاستخبارات، فبهذه الطريقة يمكن تحليل الموقف بهدوء وبسرية تامة، وفى إحدى المرات أوقفنى دبلوماسى مشدود شائب الشعر فى إحدى قاعات السفارة ووجه لى سؤالاً مباشرا: "قل لى هل أنت ابن صديقى المرحوم "يجورين زاخار كليموفيتش" الرئيس السابق السرى لفرع الحزب فى "سوزيمسك" بإقليم "بريانسك" ، ونائب رئيس فرقة فدائيى المقاومة "من أجل حكم السوفيت؟" فحصت موجه السؤال بنظرى . كان هذا حقيقيا، وتأكدت مرة أخرى من أن العالم ضيق. فهمنى ، فقدم نفسه لى:"نيدوسيكين بافل يفيموفيتش" ثم أضاف: "إنه تم إرسالى فى مهمة من الأرض الكبرى إلى غابة "بريانسك" لأنضم إلى فرقة الفدائيين

التى كان يرأسها "يجورين ز. ك." ، وهناك تزوج عاملة راديو محلية . "وأنت بالمناسبة تشبه والدك تماماً". لم يسأل "ب . ى . نيدوسيكين" عن أى شىء آخر، فقد اكتفى بأن شد على يدى. بعد ذلك نادراً ما تقابلنا، ولكن عندما حضر إلى مصر الشاعر "أناتولى سوفرونوف" مؤلف أغنية "حفت غابة بريانسك بقسوة"، أمضينا أمسية معاً أنا و"ب . ى . نيدوسيكين" و"أ. سوفرونوف" فى فندق شيراتون. وعرفت عندئذ لأول مرة أنه تم تأليف هذه الأغنية فى فرقة والدى.

لقد فهم المصريون بالطبع أن بين خبرائنا من هم من غير العسكريين، وأنه يوجد بينهم ضباط مخابرات محترفون على مستوى عالٍ مثل "نيدوسيكين" الذى حمل على كتفيه المسئولية فى أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن فى ذلك الوقت كان للاتحاد السوفيتى ومصر العدو الإستراتيجى نفسه، لذلك فقد تبادلوا المعلومات عن ذلك العدو، وتعاملوا بإخلاص مع نشاط مخابراتهما، فأنا لا أتذكر أية حالة وقعت فى خلال الفترة التى قضيتها على ضفاف النيل تم فيها طرد أحد من مواطنينا من البلد المضيف بسبب الشك فى قيامه بالتجسس.

ولكن حدثت بعض الحالات غير العادية، ففى إحدى المرات طلب رئيس المخابرات فى عهد "عبد الناصر"،"صلاح نصر"، مقابلة سفيرنا. كان "صلاح نصر" فى ذلك الوقت شخصية مهمة جدا فى الرئاسة المصرية. بالطبع أثيرت جلبة "ما الذى حدث؟" اتضح أن كل ما كان يريده عادى جدا، فقد حضر لكى يطلب من السفير أن تقلل نساؤنا من حرارة المكالمات التليفونية، فقد كانت غالبية نسائنا شابات وجميلات، وكنّ يحسنّ اختيار ملابسهن. كما كن يهتممن بالأمور الدنيوية، وكن يحببن تبادل الحديث عن كل الأخبار تليفونيا.

– "لقد «أكلت» نساؤكم فى ثلاثة أشهر كل خامات معدات التصنت المخصصة لدينا للاستهلاك السنوى!" .

حضر الجنرال "صلاح نصر" إلى سفيرنا "د . ب . باجيلاييف" بهذه الشكوى الصادرة من القلب.

صده "ديميترى بتروفيتش" قائلا:

– يا زميلى، ولكن يوجد بيننا اتفاق ألا نتخذ مثل هذه الإجراءات مع بعضنا البعض. هذا يعنى أنكم تتنصتون علينا وأنكم تخالفون الاتفاق؟

– "لا أبدا! " – أجاب "صلاح نصر"، " كل ما يؤرقنا سلامتكم".

تمت تسوية هذا الحادث، ولكن فى اعتقادى أنه لم يؤثر أبدًا على تصرفات نسائنا على الرغم من أنهن قللن من صراحتهن فى أحاديثهن التليفونية، فليس من المريح أن تعرف مسبقًا أنه يتم تسجيل أحاديثك التليفونية.

بالمناسبة فإن مقابلات "صلاح نصر" الشخصية مع مسئولينا الرسميين كانت قليلة، ولكنه كان ماهرًا فى قيادة كل العمليات "الخاصة"المكنة، والتى رواها فيما بعد فى جزئى كتابه " الحرب النفسية ". وقد احتفظت بهذا الكتاب فى مكتبتى المنزلية الخاصة على سبيل الذكرى إلى اليوم.

كانت روح الحرب ترتفع عند العرب يومًا بعد يوم تحت تأثير "خبرائنا"، وقد كان هناك رضا متبادل بين موسكو والقاهرة عن ذلك. كان الجنرالات المصريون يؤكدون لناصر أنهم سوف يسحقون إسرائيل تمامًا ، ولكنهم يحتاجون من أجل ذلك سلاحًا أكثر. بالطبع كان الروس هم الذين يعطون السلاح وليس ناصر، على الرغم من أن بعض المصانع كانت تنتج شيئًا ما فى مصر. كان الجنرالات يدفعون "عبد الناصر" بوضوح إلى حافة الهاوية. بعد ذلك وضع "عبد الناصر" من كان منهم بشكل خاص بلا كفاءة فى قفص الاتهام وحاكمهم، ولكن كان ذلك فقط فيما بعد.

"عمل كل ما هو ممكن للمحافظة على السلام". كان هذا شعارنا الذى يدوى ليس فقط فى التصريحات الرسمية وفيما تنشره الصحافة، ولكنه أصبح نموذجًا محددًا لأسلوب حياتنا فى مصر، لذا أعتقد أننا ببساطة قد أولعنا بدور "صانعى السلام" فى تلك الشهور العصيبة التى سبقت حرب يونيو ؛ لكى نبين نوايانا المسالمة وحبنا للسلام.

أقلب فى مذكراتى عن النصف الأول من عام ١٩٦٧ ، وأسرد فيما يلى بعضًا من الوقائع التى دونت فيها:

يناير: سفر إلى محافظة المنيا (نحو ٣٠٠ كيلومتر جنوب القاهرة) للمشاركة فى أسبوع شباب الجامعات المصرية. تحدث محافظ المنيا "وجيه أباظة" (حضر دورة "فيستريل" التدريبية العسكرية السوفيتية فى عام ١٩٦١) بكلمات جيدة وإيحائية عن المساعدة التى يقدمها الاتحاد السوفيتى ، وعن الاستعدادات "للاحتفال المناسب" بالذكرى الخمسين لثورة ١٩١٧ الروسية، ولكنه لم ينطق كلمة واحدة عن العاصفة القادمة.

فبراير: لقاء فى المركز الثقافى الروسى جمع بين الشخصيات العامة السوفيتية والمصرية، ألقى فيه أمين "الاتحاد الاشتراكى العربى" (الحزب السياسى الأوحد فى مصر فى ذلك الوقت) "كمال الدين رفعت" محاضرة عن"معركة الدول المستقلة مع الرجعية لبناء مجتمع اشتراكى". وكانت الخلاصة التى وصلت إليها المحاضرة: "استحالة قهر الدول الصغيرة إذا كان يقف وراءها نظام اشتراكى قوى". وقد أكد السفير "ديميترى بيتروفيتش بوجيدايف" هذه الخلاصة فى الكلمة التى رد بها على الكلمة السابقة، فلم يكن أحد يشك فيها فى ذلك الوقت، ولكن صوت قصف المدافع كان قد وصل فعلاً إلى حدود مصر، وبدا كأنه لم يكن مسموعًا .

مارس: فعاليات أسبوع الصداقة الكازاخستانية المصرية. فى خلال هذه الاحتفالات بدا كأن كل عالم الإبداع الكازاخستانى قد حضر إلى بلد الأهرام القديمة. لم يكن أحد يشك أيضًا فى أن كلاً من كازاخستان ومصر يسير بمساعدتهما لبعضهما البعض نحو الاشتراكية. الفيلسوف الفرنسى الشهير "جان بول سارتر" الوحيد الذى سمح لنفسه بالشك فى أنه يجرى على ضفاف النيل بناء الاشتراكية . كان فى ذلك الوقت يلقى بعض المحاضرات فى جامعة القاهرة، فقد رأى أن ما حدث فى مصر عام ١٩٥٢ مجرد ثورة برجوازية - ديمقراطية، ستستمر طالما سيكون ذلك لصالح البرجوازية الوطنية. هذا يعنى طبقًا لمفهوم سارتر، أن البرجوازية المصرية التى

تزداد قوة سوف تنمى العلاقات مع كل من الغرب والشرق إذا كان ذلك فقط لن يضر بمصالحها، كما رأى "سارتر" أن "الواجب الدولى" لن يدعو مصر لأن تكون حليفًا دائمًا، ولكن "التعاون لصالح الجانبين" هو الوحيد الذى يمكنه أن يؤدى إلى ذلك. فهمنا فقط بعد ربع قرن كم كان "جان بول سارتر" على حق، أما فى الستينيات فقد أعطت تصريحات "سارتر" أكثر من مرة انطباعًا كأنها تفجيرات قنابل. تركت محاضرة هذا الفيلسوف الفرنسى مثل هذا الانطباع ، حيث كان من الواضح أنها تمس وجودنا فى مصر، ولكن لم نر نحن ولا المصريون إمكانية مناقشة "سارتر"، خاصة أنه سافر من القاهرة إلى "تل أبيب" لإلقاء محاضرات هناك، فقد كان يريد أن يقتنع بأم عينه بالعدوان الجارى الإعداد له... أن يشاهد الحرب عن قرب.

أبريل: تكريم فنانى السيرك السوفيت الذين دربوا أول مجموعة من المحترفين المصريين، اجتماعات فى التجمعات السوفيتية بمناسبة مرور ١٠ سنوات على التعاون السوفيتى المصرى، تنظيم أسبوع صداقة شباب البلدين. يرأس الوفد السوفيتى "ف .خ . فيزيروف" سكرتير اللجنة المركزية "لاتحاد الشبيبة الشيوعية اللينينية لكل الاتحاد السوفيتى"، أغانٍ ، رقص، مشاركة فى حفلات زواج الشباب... أما عسكريونا فقد فردوا الخرائط...

مايو: سوف نرسل الأطفال فى الصيف إلى معسكر الطلائع بمقر القنصلية العامة للاتحاد السوفيتى بالإسكندرية، بدأت الإجازة الصيفية التى سعى إليها الكثيرون قبل موعدها بطريقة لم تحدث من قبل، وقد بقى فقط الحد الأدنى الضرورى من الموظفين فى الممثليات السوفيتية، وفى المقابل لوحظ حضور الكثير من الصحفيين الأجانب إلى مصر. وهذا خبر جديد: تم اتخاذ قرار فى موسكو بتعيين سفير جديد فى مصر هو "سيرجى فينوجرادوف" سفير الاتحاد السوفيتى السابق فى فرنسا فى أعوام ١٩٥٢-١٩٦٢ ثم بعد ذلك المسئول الكبير فى وزارة خارجية الاتحاد السوفيتى، ولكن لم يكن من المقدر له السفر إلى هنا قبل الخريف.

كان النصف الثانى من مايو الأكثر توترًا على الرغم من كل المحاولات السلمية التى قمنا بها: فقد كان الجميع يثرثرون عن الحرب. حدث ذلك فى الفيلا ، النادى السوفيتى التى استأجرناها فى الزمالك، وفى الفيلا المماثلة فى هليوبوليس ، والتى كان يسكنها خبراء عسكريون. كان موضوعٌ واحدٌ يناقش هو "هل سيستطيع المصريون المحافظة على موقفهم؟" كان يبدو أننا نقلنا لهم القدرة على استخدام معداتنا، ولكن لأى مدى؟ حتى أنا كنت أستطيع الإجابة عن هذا السؤال، ففى إحدى المرات كنت مسافرًا من الإسكندرية إلى القاهرة على الطريق الصحراوى (يوجد أيضًا طريق آخر فى دلتا النيل "الزراعى"). فجأة رأيت هذا المنظر: دبابة طراز "تى – ٥٥" T-55 تقف بعرض الطريق الذى نسير فيه وبجانبها مصرى ثائر جدا. توقفنا وسألناه إذا كان بحاجة لمساعدة. "روس؟"– وجه لنا الرجل هذا السؤال – "خذوا هذه الكومة من المعدن التى تخصكم"... هدأناه وبدأنا نفهم ما حدث. تبين أن المصرى قرر أن يذهب لأداء عمل ما خاص به ، ولم يراجع مقدار الوقود فى الدبابة، بالطبع فرغ خزان الوقود فى منتصف الطريق. حاول بإصرار أن يشغل المحرك فأفرغ البطارية، لذلك كان ثائرًا. وبعد ذلك استغرق فى الضحك لمدة طويلة بعدما شرحنا له سبب تعطله فى الطريق، الأدق أن أقول إنه كان يضحك بعصبية.

كان الكثيرون قلقين بسبب الروح المعنوية عند المصريين، هل سيخافون من الأعداء؟ لقد بينت حرب عام ١٩٥٦ أن الشجاعة لا تنقصهم. ولكن فى خلال السنوات العشر الأخيرة عانى المصريون تمامًا من حرب نفسية من كل من الغرب وإسرائيل، ولم تذهب هذه الحرب سدى، فقد حكى لنا أحد طيارينا " كنا نقوم بطلعة طيران تعليمية، وفجأة حدث شيء ما بالهيكل المعدنى للطائرة فصدر لنا الأمر بالقفز من الطائرة، قفزنا. كان ذلك فى المساء بالقرب من القاعدة الجوية "غرب القاهرة". هبطنا إلى الأرض، وتعرف طيارنا على المكان واتجه إلى محطة الرادار القريبة. اقترب منها وفتح الباب. كان الرادار يعمل ، ولكن كان المصريان المسئولان عن تشغيله نائمين. أبعدت أولاً السلاح الآلى لحاميى السماء ، وبدأت فى إيقاظ أحدهم. "عند استيقاظ

المصرى ورؤيته لى – استمر الطيار فى روايته – عرفت لأول مرة فى حياتى أن عين الإنسان يمكنها أن تكون على شكل كوب، فقد خرجت عينا المصرى من مقلتيهما بمعنى الكلمة. فيبدو أنه ظن أن الذى يقف أمامه إسرائيلى حى. لقد توقف تنفسه ، أيضًا، بدأت أهزه قائلاً: روسى، روسى. فعاد إلى وعيه فقط بعد عدة دقائق، وعندما بدأنا نوقظ الآخر، بمجرد أن استيقظ ورآنى اندفع هاربًا من كابينة الرادار، وعثر عليه بعد جهد كبير".

لقد بين الطيارون المصريون الذين تعلموا على أيدى الخبراء السوفيت قدراتهم على قيادة الطائرات بمهارة فى العروض. ولكن كيف سيكون الحال فى الحرب ؟ طبعًا لم يجب خبراؤنا عن هذا السؤال، ولكن كان من الواضح أن الكثير من المصريين الذين تدربوا يهمهم أولاً وقبل أى شىء آخر مدى سلامة آلية قذف مقعد لطيار...

فى أواخر شهر مايو ١٩٦٧ وفى المنزل المشابه للفندق الذى عاش فيه خبراؤنا العسكريون تحت حراسة مشددة حول المبنى ، وأيضًا فى كل طابق، وجدت فى بعض الشقق خطابات دفعت إليها من تحت الباب. كان فى هذه الخطابات نداء" لخبرائنا" لكى يغادروا البلد نظرًا للحرب القريبة القادمة بين إسرائيل ومصر. وقد كتب اسم كل شخص أرسل له الخطاب كاملاً بما فيه اسم والده، واسم زوجته ، وكذلك أسماء أبنائه. شىء مثير! أسقط فى يد الجميع فى السفارة، فممن كنا نخفى لسنوات أبطالنا الذين ليست لهم أسماء، إذا كانت المخابرات الإسرائيلية تعرفهم بالاسم؟ أو هل هذا استفزاز؟ بالطبع هذا استفزاز، وبالطبع لم يغادر أحد إلى أى مكان، ولكن أصبح من الواضح جدا أن الحرب قريبة.

حكى لى أحد أصدقائى الذين حضروا إلى مصر فى نهاية شهر يونية عام ١٩٦٧ كيف أنه استطاع أن "يحسب" بداية الحرب ومسارها"؛ فقد كان يجيد عدة لغات أجنبية ومن بينها العبرية. وببساطة كان يستمع إلى الإذاعات "القادمة من خلف التل"، كما كانت تسمى محطات الإذاعة الأجنبية عندنا، ويقوم بتحليل كل ما يخص المشكلة العربية الإسرائيلية. لدهشته وجد أن أكثر من كان يثرثر عن الأسرار العسكرية هم

محطة إذاعة "صوت إسرائيل" ، والصحافة الإسرائيلية. فقد حدد على سبيل المثال أن الضربة الجوية لسلاح الطيران الإسرائيلى للقواعد المصرية ستتم فى الساعة الرابعة صباح يوم الاثنين ٥ يونية. وبعد أن يتم الأمر سيبدأ سلاح العدو تنفيذ المرحلة الثانية، الهجوم الأرضى، مع استغلال ميزة الهجوم المفاجئ. لقد خطط الإسرائيليون "الحرب الخاطفة" للهجوم وفى شبه جزيرة سيناء فى أربعة اتجاهات: على غزة وعلى الطريق الساحلى إلى العريش، وفى وسط الهضبة على "أبو عجيلة" فى اتجاه قناة السويس، وعلى "الكونتيللا" فى جنوب الشرق، وضربة منفصلة فى اتجاه "شرم الشيخ" وكُلف جنود المظلات بالاستيلاء عليها. ثم بعد "ضربة سيناء" تتوجه فى سرية تامة إلى الأردن، ثم بعد ذلك إلى سوريا. وفيما يخص سوريا فقد تم التخطيط لأسلوب كسب الوقت فى يومى ٥ ، ٦ يونية عن طريق الدفاع المرن. كان من الغريب أنه فيما بعد أكدت ذلك الجرائد الإسرائيلية مثل "جيروزاليم بوست" (٩يونية) والفرنسية "فيجارو" كل ذلك (فى أيام ٩-١١ يونية).

أقلقت نتائج التحليل التى توصل إليها صديقى ، فحملها وداخ فى دهاليز المسئولين فى موسكو لكى يقدمها إلى أى مسئول. ولكن لم يستمع إليه أحد بجدية ، حتى فى ذلك المبنى الجاد فى شارع "أربات" (وزارة الدفاع)، فقد دق على أبوابه أيضًا عن طريق "معارفه".

وهبت العاصفة طبقًا للسيناريو الذى حاول هذا القصير الأصلع الدارس لإسرائيل أن يقدمها بإلحاح من أسبوعين قبل بدايتها "للجامدين" (وهو الاسم الذى أطلقناه فيما بعد على حاشية القادة الشيوعيين). ارتفعت فى الجو كل الطائرات الإسرائيلية القادرة على الطيران وحمل القنابل وإطلاق النار فى الوقت الذى كان قد حدده تمامًا. وبعد عدة ساعات أعلنت إسرائيل ما كان قد عرفه صديقى مسبقًا" أنه تم تدمير ٤٠٠ من الطائرات المصرية"، وبعد فترة زمنية قصيرة تم تدمير الجزء الأكبر من الطيران الأردنى والسورى...

بدأت موسكو تتحرك بسرعة، وحدث هرج ودقت كل الأجراس، واتصلت بكل الجهات "للبحث عن هذا القصير الأصلع"(لم تكن الرئاسات تعرف اسمه). اعثروا عليه!... وجدوا "الأصلع"، فسألوه: "ماذا سيحدث بعد ذلك؟" أجاب:"قبل نهاية يوم ٦ يونية ستصل القوات الإسرائيلية المتقدمة إلى قناة السويس".

كانت إجابته دقيقة. "وماذا بعد ذلك؟" حكى بدقة عما سيحدث بعد ذلك.

قابلت "سيرجى فاسيليفيتش كاتاسونوف" (هذا كان اسمه) بعد ٢٠ عامًا من ذلك فقط ، فى شارع "تفرسكايا" فى موسكو ، وتذكرنا كل ذلك بالإضافة إلى تفاصيل أخرى لهذه الأيام، وقد حكى لى بالتفصيل "عن قصته" التى حصل بسببها فيما بعد على وسام "النجمة الحمراء". هذا يؤكد أنه فى "زمن الجمود" لم يكن يوجد فقط أبناؤه، ولكن كان يوجد أيضًا بجانبهم " من كان من الأبطال العمالقة مختلفًا عن باقى قبيلة هذا الزمن"...

كان يوجد أيضًا فى القاهرة مثل هؤلاء الأبطال العمالقة، وليس فيها فقط، وسوف أتحدث فيما يلى عنهم، عن هؤلاء الأبطال – الأمميين (كما كانوا يسمونهم فى الاتحاد السوفيتى) ، حيث إنه بعد ٥ يونية ١٩٦٧ بدأت مرحلة جديدة تمامًا لوجود خبرائنا العسكريين فى مصر، مرحلة مشاركة رجالنا ومعداتنا فى المعارك الحربية، فيما بعد سوف يطلق على ذلك تعبير "القيام بالواجب الأممى". مئات من الطائرات فى المطارات ومئات من الدبابات فى شبه جزيرة سيناء ومئات من "الخبراء" السوفييت فى القوات العسكرية، كان محكومًا مسبقًا – لحمية الجنرالات للحرب – بالفشل (فقد توحدت القوى الرجعية الداخلية والخارجية بفعل يد خفية لكى توجه ضربة فى يونية ١٩٦٧، لا تستهدف أساسًا مصر ولكنها تستهدف نظام "ناصر" أولاً، ولنظامه الاشتراكى، وكذلك التعاون السوفيتى المصرى). يا ترى كم يبلغ الثمن الذى دفعناه من المعدات والروح المعنوية والسياسة ؟

لم تقصف الطائرات الإسرائيلية القاهرة بالقنابل فى اليوم الذى بدأت فيه هذه الحرب، بل قامت بإلقائها فى الضواحى ، وعلى المطارات ، وبصفة خاصة على مطار

غرب القاهرة. عند سماعي للقصف أدرت الراديو، كانت تذاع موسيقى عسكرية، وبيانات من القيادة العسكرية. قالت هذه البيانات : إن الإسرائيليين بدأوا العمليات الحربية ضد مصر "بمشاركة القوى الإمبريالية الكبرى"، وإن القوات دخلت "في السماء، وعلى الأرض ، وفي البحر" في معارك شرسة. ارتديت ملابسي بسرعة، وخرجت إلى الشارع، رأيت كتلاً بشرية في كل مكان، لم يكن أحد يعرف ما الذي يجب عمله ، ولكن الجميع كانوا في حالة هرج. كانت توجد لافتات من النسيج معلقة بعرض الطرق مكتوب عليها عن الدفاع عن الوطن والثقة في النصر، كان من بينها مثل هذه العبارات: "إلى اللقاء في تل أبيب" ، أو "سننتصر". تبين أنه تم تعليق نحو ١٠ آلاف من هذه اللافتات (كان ذلك مطلوبًا من كل محل وكل جهة). اندفع أحدهم إلى سيارتي "الفولجا" طالبًا إبراز مستند هويتي ورخصة السيارة، أبرزتها، سأل الشاب ذو الشعر المجعد: "روسي؟"، آخذا على عاتقه دور عضو جماعات الدفاع المدني. ثم صرخ فيَّ:"أين هي دباباتكم وطائراتكم ومسلموكم؟" أجبته:"لقد تم إرسال الدبابات والطائرات والمسلمين من زمن طويل، وهم الآن على الجبهة"... بعد ١٠٠ متر تفتيش مرة أخرى، وأسئلة مرة أخرى، كانوا يبحثون في كل مكان عن "الجواسيس الإسرائيليين". لقد تبين أنه في اليوم السابق قامت فصيلة كاملة من الإسرائيليين المرتدين لملابس الشرطة العسكرية المصرية في محطة السكك الحديدية بتفتيش مستندات العسكريين المصريين ، و"أخذوا بعضًا منهم إلى مركز الشرطة العسكرية". وتكشف في المساء فقط أن أفراد الكمين كانوا إسرائيليين في ملابس عسكرية مصرية بعد أن تحدث أحدهم مع زميل له بالعبرية، ولكن لم يعثر على من أخذ إلى مركز الشرطة العسكرية.

وصلتُ إلى سفارتنا بصعوبة بعد عبوري لعدة حوائط من الحراسة، كانت تقف حول السفارة سلسلة من أفراد الشرطة المصرية المزودة بالعصي والدروع. سأل أحدهم: "ما الذي حدث؟"- "إنهم يحتجون على عدم وجود رد فعل للاتحاد السوفيتي على هجوم إسرائيل". صدر أمر من السفير بسرعة إصدار بيان إعلامي عن رد فعل الاتحاد السوفيتي على العدوان ، وتوزيعه على الصحف ومختلف الجهات. اصطدمت

"بفورسوف" وأنا متجه إلى باب الخروج، كان مكفهر الوجه وعيناه حمروان، كان من الواضح أنه لم ينم لعدة ليال. "الحرب، بينما جزء من الجهاز فى إجازة"، وأشاح بيديه. قلت له مشجعًا: "فلاديمير إيفانوفيتش، إننا كلنا معك" ، انشرح وجهه قليلاً وقال: "انتهى كل شىء". أشار بيده فلم يكن هذا وقت للحديث معه.

وصلت إلى مكتب وكالة أنباء "نوفوستى" الذى كنت أعمل فيه، فوجدت أن الموظفين المصريين واضح على وجوههم القلق. كان هناك الكثير من الغرباء عن المكان، كان أحدهم يحاول الحصول على حديث صحفى من الملحق الصحفى بالسفارة، جرس التليفونات يرن بلا انقطاع. لم تتمكن السكرتيرة المصرية "نجاة" من ملاحقة الرد عليهم جميعا. فجأة قالت: "موسى صبرى على التليفون يطلب الحديث مع أى من موظفى المكتب السوفييت". كان على الخط رئيس تحرير جريدة "الأخبار"، وهو أحد أهم المحررين المصريين.لم يكن يخفى حتى فى ذلك الوقت، فى عهد ناصر، أراءه اليمينية (بعد موت "ناصر" أصبح أحد المقربين من السادات). صرخ "موسى صبرى" فى سماعة التليفون:"أين مساعدتكم؟ مرة أخرى تتركوننا نواجه العدو بمفردنا؟ آه منكم أيها الأصدقاء! أنتم ثرثارون ولستم أصدقاء". كان من الواضح أن "صبرى" يستفزنى على أمل أن أتجاوب معه ، لكى يكتب فى اليوم التالى عن ذلك فى جريدة الأخبار التى يرأس تحريرها. أجبته "يا موسى، مساعدتنا فى تلك الـ ١٣٠ مشروعًا التى يبنيها لكم رجالنا فى مصر، وفى مئات الطائرات وآلاف الدبابات التى وردت لكم من الاتحاد السوفيتى، وفى آلاف السوفييت الذين يعملون الآن فى مصر، ومن بينهم العسكريون"... فألقى "موسى صبرى" بسماعة التليفون.

بدأنا بسرعة فى إعداد بيان صحفى عاجل من السفارة، به نص "بيان حكومة الاتحاد السوفيتى" الذى صدر بعد عدة ساعات من هجوم إسرائيل والذى ورد إلينا بالتلكس، وقد ذكر فيه : أولاً ،"إنه كان يمكن تحاشى الدخول فى حرب" ، ولكن على الرغم من تحذيرات الاتحاد السوفيتى والدول الأخرى المحبة للسلام فقد اختارت إسرائيل طريق الحرب. ثانيًا، إن الاتحاد السوفيتى يدين العدوان الإسرائيلى ، وقد اتخذ عدة إجراءات لوقفه لا يمكن تأجيلها.

بدأنا فى توزيع البيان فوراً على دور الصحافة والجهات الحكومية باستخدام معداتنا، وبعد يومين، أى فى ٧ يونية بالتحديد، وزعنا بياناً خاصا آخر يحتوى على نص بيان حكومة الاتحاد السوفيتى التى وجهت فيه إنذاراً جادا جدا إلى إسرائيل التى كانت لاتزال مستمرة فى العدوان على الرغم من قرارات مجلس الأمن ...

طلبت موسكو إرسال أخبار عاجلة "من موقع الأحداث" للصحف السوفيتية بالإضافة إلى إصدار البيانات، لذلك كان من الضرورى "النظر فى عينى الحرب مباشرة". وعدت موسكو بإرسال المعلومات المطلوبة فى المساء وذهبت إلى المدينة، تمكنا من أن نحصل فى المركز الصحفى على البيانات الرسمية فقط. كانت هذه البيانات مطمئنة فى اليوم الأول، ولكن كان يتم تبادل الكثير من الشائعات فى أوساط المراسلين. فقد قيل مثلاً إن الضباط أخذوا معهم إلى الجبهة ثلاجات، وإنه على الرغم من أى شىء فقد تمكنت بعض الطائرات من الإقلاع ، وتمكنت من مجابهة طائرات "الفانتوم" الإسرائيلية (وقد نشر أحد المراسلين الغربيين أنه قد سمعت أحاديث تتم باللغة الروسية بين قائدى الطائرات المصرية التى ارتفعت فى الجو، وقد لاحظت أن عدداً قليلاً منهم كان ينفى ذلك). قيل أيضاً إن معركة دبابات شبيهة بالمعركة التى دارت فى كورسك (فى روسيا) فى الحرب العالمية الثانية دارت فى سيناء.

لاحظت فى أثناء توجهى إلى المطار الدولى فى أطراف المدينة وجود موقع لبطارية مدافع مضادة للطائرات صغيرة العيار. اقتربت منهم فلم يمنعنى أحد، كان الجنود يتناولون غداءهم، أما قائدهم فقد وقف لملاقاتى. قلت له: "روسى"، وأبرزت له بطاقة هويتى الصحفية. أومأ الملازم الشاب برأسه قائلا: "كويس، رجالكم يحصلون على التعليمات". وصل إلينا فجأة صوت هدير طائرات قادمة من جهة الصحراء ، فصاح الملازم: "إلى المعركة". اندفع الجنود إلى المدافع، مرت بسرعة كبيرة فوق رءوسنا طائرتا "فانتوم" تتبعها خطوط من الطلقات الكاشفة، قال الملازم: "لم نلحقها ولكن أخفناها، لا يهم فليعرفوا أننا أيضاً نجيد شيئاً ما، نحن ندافع عن وطننا". امتنعت عن أن أقول له إن من يحرس السماء يجب أن يفعل ذلك فى وقت الغداء أيضاً.

كـان كل شىء فى المطار الدولى مـغلقًـا ، ولكنى لم ألاحظ أية آثار للضـربة الإسرائيلية الأخيرة. قد يكونون قد أخطأوا الهدف ، أو قد تم إصلاح كل شىء بسرعة. نصحنا الضابط النويتجى بألا نبقى هنا لفترة طويلة قائلاً :"الحرب، سوف نتصرف دون الحاجة إلى أغراب". ثم أضاف: "إنكم قد ساعدتمونا كثيرًا". لماذا اعتقد أننا جئنا لتقديم المساعدة؟ لم أفهم أبدًا، ولكن كونه تصرف بهدوء ، وأنه لم يشهر مسدسه فى وجهى كان يعبر عن الكثير، كان ذلك يعبر عن الثقة فينا، فهو لم يكن مثل "موسى صبرى" ...

قررت وأنا عائد عن طريق هليوبوليس أن أمر بالقرب من مبنى مقر أركان الحرب المصرية، فقد كان من المثير مشاهدة الوضع هناك. رأيت هدوءًا وسكونًا، كان هناك مدفعان رشاشان مضادان للطائرات ذوا أربعة مواسير على سطح المبنى ، وبضعة مدافع مضادة للطائرات من العيار الصغير حوله. سألت الضابط الذى قام بفحص مستنداتى: "لماذا تكون حراسة مقر أركان الحرب ضعيفة بهذا الشكل؟". نظر إلىَّ بشك وأجاب:"كما ترى، لم يتم قصف هذا المبنى، فلو تم ذلك سوف يفقد الإسرائيليون نصف عملائهم فى مصر". كان على حق، فلم يقع أى هجوم من الطيران الإسرائيلى على مبنى أركان الحرب المصرى ولو مرة واحدة فى خلال الحرب أو فى الفترة التى امتدت إلى عام ١٩٧٠ عندما تم توقيع الهدنة فى أغسطس. شىء غريب؟

كانت الليلة الأولى من الحرب هى أكثرها إثارة للقلق، لم يكن ذلك بسبب إعلان السلطات لحظر التجول ، ولا بسبب إجراءات الإظلام الصارمة، بل بسبب القصف الهستيرى لوسائل الدفاع الجوى ، وبسبب الحملة التى قام بها، كما قيل فى ذلك الوقت، "دوائر رجعية معينة" ضد السوفييت، فبمجرد هبوط الظلام كانت تنطلق صفارات تنذر بهجوم جوى ثم يليها فوراً إطلاق عشوائى من المدافع المضادة للطائرات. كانت الطلقات تنطلق ليس فقط فى الهواء، ولكن أيضًا فوق أسطح المنازل مسقطة عليها الآلاف من الشظايا. سألت فيما بعد أحد عسكريينا : من أين جاءت كل هذه "الشظايا من الألعاب النارية"؟ فكانت إجابته :"من عدم معرفة كيفية التعامل مع

الذخيرة". قد يكون قد تم استعجال حسابات المدافع المضادة للطائرات ، بحيث لم يتمكنوا من تركيب معدات ضبط المسافات، وقد يكون ذلك قد تم عن عمد، فقد كانت الذخيرة تنفجر ، ولكنى لم أسمع أبدًا انفجار الطائرات المعادية. بعد ذلك كانت تصمت صفارات الإنذار لفترة ويتوقف إطلاق النيران، ثم يبدأ كل شىء من جديد بعد عدة دقائق.

أضيف إلى ذلك شيئًا آخر: وعلى الرغم من حظر التجول كانت سيارة خاصة تقترب من منزلنا (١٠ شارع المرعشلى، الزمالك) ، وكان بعض الناس يطلقون اللعنات على الاتحاد السوفيتى عبر مكبرات صوت، فكانوا يملأون بهذه الطريقة الفراغات بين الإنذارات بوقوع هجمات جوية. لم يتم اقتحام مكتبنا ، ولكن منعوه تمامًا عن العمل بقطع الماء والكهرباء عنه.

لم يكن مسموحًا لنا بالفزع فى تلك الأيام التى لن ننساها طوال حياتنا، حتى إن نصف عائلتى المؤنثة، هى أيضًا لم ترتعش. دق شخص ما على باب منزلنا فجأة فى منتصف الليل بطرقات خفيفة ولكن بإلحاح. سألت: "من هناك؟" طمأننى صوت أحد موظفينا، "فاضل"– النوبى الطيب الذى عمل عندنا منذ غرق موطنه تحت مياه بحيرة أسوان – قائلاً:"لا تخافوا، فأنا هنا بجانبكم، هؤلاء الحمير الذين يزعقون لن يمسوكم بضرر". قلت له: "شكرًا يا أخى". تبين فيما بعد أن "فاضلاً" دق فى تلك الليلة على أبواب باقى جيراننا من الزملاء مطمئنًا لهم أيضًا، ولكن كيف تمكن من الوصول إلينا وهو يعيش بعيدًا عنا على الرغم من حظر التجول؟ بقى ذلك غامضًا إلى الآن. وقد ظل "فاضل" بقية أيام الحرب كلها فى المكتب تمامًا كأنه جندى وجد لنفسه مكانًا فى المعركة.

بالطبع أزعج صفير الإنذار والقصف الأهوج للمدفعية المضادة للطائرات والحملة على السوفييت التى قامت بها "عناصر منفردة" (كما وصفهم المسئولون رسميا بعد احتجاج سفارتنا) الآلاف من مجموعة الخبراء السوفييت الموجودين فى مصر، بدأت تحضر مجموعات منهم إلى مقر السفارة للبحث عن حماية فيه، وطالبت النساء بعودة الأطفال الذين أرسلوا إلى معسكر الطلائع بالإسكندرية. كان يجب ترحيل العائلات

بسرعة، خاصة هـؤلاء الذين انفجرت بجوارهـم القنابل والصواريخ الإسرائيلية (هنا يجب أن نؤكد على أن الإسرائيليين قد قصفوا الأهداف العسكرية بدقة تامة، فلم تقع أيٌ من القذائف القاتلة على المبانى التى كان يسكنها الخبراء السوفيت بما فيهم العسكريون منهم).

كانت السفارة تشبه فى ذلك الوقت بشكل ما معسكراً حربيا. وقد تم تشكيل فرق عمل، وتم تجنيد السفن البحرية الراسية بالجوار لترحيل العائلات. وقد عاد كل الأطفال بسلامة إلى عائلاتهم، فلم يصب أى منهم بضرر. "اتخذت إجراءات لتفادى عمليات الاستفزاز من قبل العناصر المتطرفة" فتم رفع السيارات السوفيتية من الخدمة واستئجار سيارات محلية وسيارات أجرة. وفى إحدى المرات لم يحالفنى الحظ فى ذلك ، ففى مساء أحد الأيام قطعت سيارة الأجرة التى كنت أستقلها الطريق على قطار واصطدمت به. أصبت فى رأسى، ولكن تمكن المصرى من توصيلى إلى مستشفانا، وأمضيت عدة أسابيع وعلى رأسى ضمادة. مر ذلك بسلام ولكن ما زالت الندبة واضحة إلى اليوم ...

طبعًا وقع الحمل الأكبر للحرب على أكتاف خبرائنا العسكريين، وقد قيل لى فيما بعد إنه تم إرسال كل الخبراء السوفييت، بما فيهم من كان يجب أن يستلم وردية فى قاعدة غرب القاهرة، إلى منازلهم فى الليلة السابقة للهجوم الجوى الإسرائيلى، وبعد ذلك تم إيقاظهم على عجل فقط بعد انتهاء الهجوم. طبعًا بالغ الإسرائيليون فى الإعلان عن خسائر المصريين من الطائرات، ففى الحقيقة لم تصب بعضها بالضرر، كما أصلحت ممرات الإقلاع والهبوط فى المطارات بسرعة، وأصبحت الطائرات قادرة على الإقلاع، وقد طار بعضها فعلاً ولكن لفترات قصيرة. وأنا لا أعرف على وجه التحديد هل كان فى هذه الطائرات طيارون سوفييت؟ أو لا؟ كما لا أعرف هل جلس على عجلة قيادة الدبابات جنودنا؟ أو لا؟ قد يكون من الممكن أنه عندما كانت لا تزال هناك علاقات دبلوماسية بين إسرائيل والاتحاد السوفيتى حتى يوم ٢٠ يونية ١٩٦٧ لم يشارك أحد من جنودنا فى المعارك الجوية ولا البحرية ولا الأرضية التى دارت على الجبهة المصرية. كما أنى لم أسمع أن أحداً من رجالنا وقع فى أسر الإسرائيليين، حتى عندما

تم الإعلان عن فقد المصريين أكثر من ٤٠٠ دبابة في سيناء. قد تتضح الكثير من الأمور عندما يرفع الحظر عن كثير من المستندات السرية. ولكن ما الجديد الذى ستعطيه هذه المستندات إذا كانت حقيقة وجود خبرائنا فى مصر قبل عام ١٩٦٧نفسها كانت محاطة بسرية تامة؟ .

أصبحت تصلنا معلومات مقلقة من الجبهة إلى القاهرة فى اليوم الرابع من الحرب، واختفت من الشوارع اللافتات التى تتحدث عن اللقاء فى "تل أبيب" بعد النصر. امتدت قوافل الجرحى والهاربين من المناطق المجاورة للقناة، كما استبدلت المارشات العسكرية بألحان حزينة وبطيئة محلية. بدأ الحديث عن تضليل القيادات العسكرية لناصر بخصوص القوة الحقيقية للجيش المصرى وقدرته على الانتصار فى العمليات الحربية. كانت القوى الرجعية الداخلية تأمل بهذه الطريقة فى إبعاد "ناصر" وإحلال أحد مناصريها محله. واستمرت المظاهرة أمام السفارة السوفيتية، حتى ظهرت فى السماء طائرات النقل الحربية السوفيتية التى أوزدت عن طريق الجسر الجوى الاحتياجات الحربية العاجلة لمصر. بعد ذلك وضح عدم ضرورة هذه المظاهرة؛ فقد أكدنا صداقتنا بالفعل.

يحكى أن سفيرنا "د . ب . بوجيداييف" فى خلال إحدى زياراته لناصر وجه نظر رئيس مصر إلى التفاوت بين ما يحدث فى السماء وما على الأرض، نظر "ناصر" إلى السفير متسائلاً عما يقصده. أوضح السفير: "فى الأعلى نرى الطائرات السوفيتية التى تورد العتاد الحربى، بينما على الأرض ما زالت المظاهرات مستمرة عند السفارة السوفيتية". أجاب "ناصر" بطريقة مسرحية: " هذا غير ممكن". ثم بدأ "ناصر" يتصل تليفونيا بمستشاره ووزيره للإعلام "هيكل"(*). قال "ناصر" لهيكل: "محمد، انظر إلى السماء؟"

أجابه "هيكل": "نظرت، هناك تهدر طائرات "أنتينوف" AN روسية بلا توقف".

– "عندى الآن السفير السوفيتى ، وهو يشير إلى هذه الطائرات التى تورد لنا العتاد الحربى ، ويبدى دهشته بسبب وجود قلق عند السفارة السوفيتية. صحيح، لماذا يا محمد؟ "

(*) لم يكن هيكل وزيراً للإعلام فى عهد عبد الناصر وكان رئيس مؤسسة الأهرام الصحفية ، وإنما تولى وزارة الإعلام فى عهد السادات . (التحرير)

بعد ساعات محدودة لم تكن هناك أية مظاهرات عند سفارتنا أو أية فرق من الشرطة بالهراوات أو وبالدروع.

استخدمنا الطائرات القادمة من الاتحاد السوفيتي بالمعدات الحربية لكي نرسل عليها نساءنا وأطفالنا في رحلة عودتها إلى الوطن. كنت في إحدى المرات أوصل عائلتي لكي تسافر إلى الاتحاد السوفيتي فوجدت نفسي في "الجزء الحربي" من المطار الدولي الذي تم فيه كل شيء، كان المنظر لا يسر، ففي كل مكان حولنا ترقد بقايا محترقة لطائرات الميج الحديثة التي قدمناها للمصريين ، والمدهونة بلون الصحراء، وكذلك الهناجر المدمرة، وحفر ناتجة من القنابل. كانت طائراتنا الحربية التي تم طلاؤها لكي تماثل طائرات "الإيروفلوت" المدنية، وطيارونا الحربيون في ملابس مدنية دون أية علامات مميزة تمكنوا من القيام "بعمليات مكوكية" بهدوء وانتظام "هبوط، تفريغ ، شحن ، إقلاع". كان من الممكن أن يجلس في كابينة الطيار ما لا يزيد على ٥ أو ٦ أشخاص. ذكّر طفل صغير والدته:"ماما لا تنسى القصرية". نظرت الأم وهي مشمئزة إلى الطيارالذي قال: "هل هذا فعلاً ضروري؟ فليست عندنا وسائل الراحة".

كانت طائراتنا الناقلة تتعرض أحياناً عند تحليقها فوق مياه البحر الأبيض المتوسط الدولية في تلك الأيام إلى هجمات المقاتلات الإسرائيلية، فقد تم إطلاق النار على طائرة النقل المقلة لعائلتي كما أخطرت سفارتنا فيما بعد، ولكن تمكنت الطائرة من الوصول إلى "فيينا" ، ومنها إلى مطار "شالوفسكي" المجاور لموسكو ، ومنه تم نقلهم على طائرة أخرى. وقد مر هذا الحادث بسلام.

نتيجة لحرب الأيام الستة احتلت إسرائيل شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة وجزءاً من الأرض السورية بما فيه مرتفعات الجولان ، وكذلك الضفة الغربية للأردن، والتي سبق أن حددها قرار مجلس الأمن رقم ١٨١ في عام ١٩٤٧ لإقامة دولة فلسطين العربية المستقلة عليها. ولقد أصدر مجلس الأمن خلال ستة أيام الحرب ثلاثة قرارات (في أيام ٦و ٧و ٩يونية) لوقف إطلاق النار، ولكن دون أية نتيجة. وقد أوقفت إسرائيل عملياتها الحربية فقط في يوم ١٠ يونية بعد تدخل الاتحاد السوفيتي ومراقبي

الأمم المتحدة. فقد طالب ممثلنا فى "مجلس الأمن" بسحب القوات الإسرائيلية إلى مواقعها السابقة ، وبإدانة المعتدى ، وبتقديم إسرائيل تعويضات للدول التى تعرضت للعدوان. وقد أيدت معظم الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة طلبات الاتحاد السوفيتى، ولكن إسرائيل وجدت فى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض حلفائها من أعضاء حلف الأطلنطى حامياً لها. وهذا أعطاها إمكانية الاستمرار فى سياسة استخدام القوة تجاه جيرانها العرب.

أصبحت الأسباب التى أدت إلى الهزيمة السريعة لجيش مصر القوى فى "حرب الأيام الستة" مع إسرائيل هى موضوع الحديث الصحفى الذى أدلى به الرئيس السابق للقيادة العامة القوات المسلحة لجمهورية مصر العربية الفريق "محمد فوزى" لجريدة "الأهرام". بعد ثلاثين سنة فى يولية ١٩٩٧ فى رأى فوزى أن "مصر خسرت الحرب التى بدأت فى يوم ٥ يونية ١٩٦٧ قبل ذلك بعشر سنوات".

كان القادة الإسرائيليون قد وضعوا خطة كاملة منذ عام ١٩٥٧ للحرب مع مصر أطلق عليها اسم "صهيون"، وكان من المخطط تنفيذها بعد عشر سنوات، اعتمدت هذه الخطة على ثلاثة عناصر: المفاجأة ، والقضاء على العدو بقوة النيران، ثم المبدأ الرئيسى الحربى للجيش الإسرائيلى وهو إدارة العمليات الحربية على أرض العدو. وقد أسند دوراً مهماً للطيران الذى بدأ الحرب ، وكان عليه أن يدمر أهم القواعد الحربية للعدو فى أقل وقت ممكن. لذلك اشترت إسرائيل من فرنسا مجموعة كبيرة من طائرات "الميراج". وطبقا للخطة "صهيون" تدخل بعد الطيران القوات الأرضية إلى المعركة، وقد جهزتها إسرائيل بأحدث المدرعات الحربية.

كانت السفن الأمريكية تتناوب الوقوف دائمًا عند بورسعيد وعند سواحل سيناء، فكانت تزود القيادات الإسرائيلية بمعلومات عن توزيع القوات المصرية وعن تحركاتها. وقد أخطر الأمريكان بالذات الإسرائيليين بأماكن توزيع التشكيلات المصرية المتميزة فى سيناء، مما سمح لإسرائيل بحصارها فى وقت الحرب و"بإخراجها من اللعبة"، كما أن الأمريكان أبقوا كل الوحدات العسكرية المصرية دون وسائل اتصال، أى أن

القيادة المصرية فقدت تماماً إمكانية التأثير على مسار الحرب. وقد كان رئيس مصر على حق تماماً عندما أعلن عن مشاركة الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب اشتراكاً مباشراً.

نعم، حتى الأمريكان أنفسهم لم يخفوا مصالحهم فى هذه المنطقة، ففى عام ١٩٥٧ نفسه قاموا بوضع "مبدأ أيزنهاور- دالاس". وهو عبارة عن برنامج حربى واقتصادى للتدخل فى شئون دول الشرق الأوسط.

أما ما يخص مصر، فكانت تستعد للقيام بحرب وقائية، يظهر ذلك من اعتماد خطة فى عام ١٩٦٦ اسمها "القاهرة". وطبقًا لتصريحات فوزى فإن مصر لم تكن تعرف فعليا أى شيء عن القوة الحربية لإسرائيل، ولكن الجيش المصرى المسلح بطائرات "ميج ٢١" ودبابات "تى – ٥٥" T-55 كان يعتبر نفسه جيشا لا يقهر. "وكان الخطأ الأكبر أن إستراتيجيتنا أخطأت الوجهات، فنظرت إلى الجنوب بدلاً من الشمال"، هكذا أكد الفريق ثم أضاف:

" كانت الخطة الدفاعية مقضى عليها مسبقًا، فقد بددنا قوانا بنقل أربع فرق من الشمال إلى شرم الشيخ وكذلك فرقة من جنود المظلات، وعندما شوش الأمريكان على وسائل اتصالاتنا "خسرنا" هذه القوات، فهى لم تشترك فى العمليات الحربية، نتيجة لذلك فقد بدأت الحرب وانتهت دون أن يكون عندنا مخزون إستراتيجى".

وأضاف فوزى:" بالرجوع إلى ما كان منذ ٣٠ سنة أريد أن أكرر أننا خسرنا الحرب قبل أول طلقة، فقد حارب طرف واحد هو إسرائيل، ولم ير ٧٥٪ من جنودنا المحاربين على الأرض العدو أبداً. فمن الجنود المصريين عشرة الآلاف الذين استشهدوا، مات منهم ألف فقط فى معارك غزة ورفح. أما تسعة الآلاف الآخرون فقد ماتوا بسبب سوء أداء قائد القوات المسلحة المصرية المشير "عامر"، الذى أصدر أمراً فى يوم ٦ يونية للقوات بأن تتوجه إلى الضفة الأخرى لقناة السويس وأن تترك سلاحها خلفها. لذلك كان ضحايا الفزع الذى بدا بالآلاف"...

كان ذلك واضحاً بصفة خاصة على قناة السويس التى حدد عندها فى هذا اليوم "خط وقف إطلاق النار". ففى الحقيقة كان خط الجبهة على طول قناة السويس ، حيث دارت فيها معارك تقريباً يومية "محدودة القيمة".

المستشارون الروس فى الملابس العسكرية العربية

وصلت إلى القاهرة فى نهاية شهر يونية عام ١٩٦٧مجموعة كبيرة من الخبراء العسكريين برئاسة مارشال الاتحاد السوفيتى "ماتفييف فاسيلفيتش زاخاروف" رئيس القيادة العامة فى ذلك الوقت. بدأت فى تقييم الخسائر الحربية التى تكبدها الجيش المصرى فى حرب يونية، فقد دمرت إسرائيل مئات من الطائرات ومن الدبابات ومن المعدات الحربية الأخرى ، أو تركت فى أثناء انسحاب القوات المصرية فى سيناء. تم ذلك بناء على طلب "ناصر" على أن ينفذ... بالأجل.

بدأت مرة أخرى إعادة بناء القوات المسلحة المصرية ، وكانت المرة الأولى بعد عام ١٩٥٦ مرة أخرى تتجه إلى أرض الأهرام "أقوى موجة" من المعدات الحربية المنتجة فى الاتحاد السوفيتى. وقد أرسل معها إلى هناك مجموعة من رجالنا العسكريين فى مهمة. وبدلاً من تسميتهم "خبراء" فقد أصبحوا يسمونهم الآن فى مصر "مستشارين".

قام المارشال "زاخاروف" بعمل فى مصر يماثل أحسن فترات الحرب العالمية الثانية. كان الفرق يتمثل للأسف فى عدم مناسبة أى من المعدات المستخدمة فى هذه الحرب للظروف التى تشكلت فى المشكلة العربية الإسرائيلية عامة ، وفى المنطقة القريبة من القناة خاصة. تم تشكيل مركز قيادة فريد فى شكله فى المركز ، القاهرة بكامل صفاته. وقام المارشال بنفسه بعمليات الاستكشاف مرتدياً القميص الأخضر الذى لا يستبدله وعلى رأسه البيريه الأبيض. وزار المواقع الحربية الموزعة فى منطقة

القناة ، والتى لم تعجبه فيها لا الخنادق المحفورة باستعجال ولا صغرها (ففى أحد المواقع أخذ من الجندى المصرى جاروف الكتيبة ، وحفر بنفسه فى زمن قصير خندقًا "كامل الشكل" فى جو موجة حرارته ٤٠ مئوية) ، ولا التوزيع العام للقوات. كان مركز قيادة "زاخاروف" فى القاهرة فى حى هليوبوليس لا ينام عدة أيام متتالية ، لكنه على الرغم من ذلك لم يتمكن من تنفيذ كل أوامر رئيسه. كما لم يكن أحد يعرف كم ساعة نامها المارشال نفسه فى اليوم. كنت على علاقة بالعاملين فى السفارة فى تلك الأيام فسمعت منهم أساطير عن عمل جهاز الملحق العسكرى، فقد صدر أمر أن يقدم رئيسه "ف.إ. فورسوف" تقريره للمارشال يوميا فى الساعة الرابعة تمامًا. وكان مرء وسو "فلاديمير إيفانوفيتش" (أطلق عليه للاختصار حرفى "ف.إ.") يعملون طوال الليل لتجهيز الأوراق اللازمة لتقديم تقريره لرئيس مركز القيادة الذى رمز له بالحروف "ر.م.ق" وكان كثيرًا ما يعود" ف.إ. عصبيا وأحمر الوجه ، ثم كان يغلق على نفسه باب مكتبه بالمفتاح، ولا يسمح بدخول أحد إليه لوقت طويل (كان يقال عنه فى تلك الساعات إنه "وصَّل نفسه بمانعة الصواعق"). ثم كان يجرى "ف.إ." فى السابعة صباحًا تحليلاً لما تم عمله ويعطى تكليفات جديدة. لم يكن عنده أى وقت لأخيه الصحفى، ولكننا كنا كلنا نعرف الصعوبات التى يواجهها ، وكنا مستعدين لمعاونته، فقد سبق أن عايشنا الحرب معًا. كان يتم استدعاء مرءوسيه، مثل كل العاملين فى الهيئات السوفيتية الأخرى، من إجازاتهم فى نهاية شهر يونية، عندما كان المطار الدولى فى القاهرة مفتوحًا. وقد كان ظهور المارشال فى السفارة نادرًا جدا ، ولم يكن يحب أن يبقى فيها طويلاً، وبالطبع لم يقدم أية أحاديث صحفية. واستمر ذلك الحال لمدة ٣ شهور.

سافرت مجموعة "م.ف.زاخاروف" عائدة إلى الوطن فى الخريف ، وتركت على ما يبدو للجانب المصرى كل ما أعدته من توصيات، وقد صرح المارشال عند توصيله إلى المطار:"لن نترك مصر فى مصيبة". فعلاً بدأ يصل إلى هذا البلد مئات من "الأمميين الجدد"، وقد وصل عددهم حتى نهاية عام ١٩٦٧ إلى ٢٥٠٠ فرد طبقًا للنشرة السنوية اللندنية "ميدل إيست أند نورث أفريقا"(الشرق الأوسط وشمال إفريقيا). لن أؤكد هل

كان عددهم أكبر أو أقل؟ فأنا أشك أننا سنعرف عددهم الصحيح فى يوم من الأيام.
وقد ضايقنى فقط أنه وصل مع "المستشارين" الحربيين مجموعة من معاهد بلدنا التى تدرس فيها اللغات الشرقية ، وعلى وجه الخصوص العربية "للتدريب". وقد تحدثت بنفسى مع مجموعة من هؤلاء الطلبة القادمين من معهد اللغات الشرقية (الآن اسمه معهد بلاد آسيا وإفريقيا) التابع لجامعة موسكو الحكومية. وقد تم توزيعهم كلهم على المناطق الحربية التى كان بها مستشارون سوفييت فى منطقة القناة، والكثير منهم "شموا رائحة البارود". كما يقال إنه تم إرسال عدد من الطلبة الجرحى بل، وحتى من القتلى من مصر إلى الوطن، فذهبت للتأكد من ذلك. كان أكثر ما يحزن هو أنه لم تحسب هذه المهمة بعد ذلك لأحد من هؤلاء "المتدربين" الذين قاموا "بواجبهم الأممى" حتى على اعتبار أدائهم للخدمة العسكرية، ولن نتحدث عن منحهم الأوسمة ، أو حتى منحهم أية شهادة تفيد باشتراكهم فى أداء "الواجب الأممى" فى مصر.

وصلتنا قرب نهاية عام ١٩٦٧ أول أخبار تفيد بمنح الأوسمة والقلائد لمجموعة من الأفرادُ "الذين أبدوا شجاعة ورجولة وبسالة فى أثناء أدائهم لواجبهم الأممى" فى مصر، ثم تبين أن معظم هؤلاء كانوا الضباط الذين صاحبوا المارشال "زاخاروف"، ولم يكن حتى من بينهم "ف.إ.فورسوف" أو أى أحد من الرجال الآخرين الذين ضيعوا فعلاً جزءاً من حياتهم فى مصر فى أحداث يونية. تحدثنا كثيراً فى هذا الأمر فى السفارة وفى محيط الصحفيين، ولكن لم يتعد الأمر مجرد الحديث، ثم تغيرت رئاسة السفارة (فقد جاء إليها السفير الجديد "س.أ.فينوجرادوف") ، وكذلك رئاسة العسكريين (أصبح كبير المستشارين العسكريين التابعين لوزارة الدفاع السوفيتية فى مصر جنرال الجيش "بيتر نيكولايفيتش لاشنكو" القائد العسكرى السوفيتى المميز). وأخيراً حصل"ف. إ.فورسوف" فى نهاية عام ١٩٦٧ على رتبة جنرال - مايور (لواء) وبتدخل السفير الجديد على ما يبدو. ولكن كانت مأموريته فى مصر تقترب من نهايتها. وتغير الكثيرون فى السفارة ، وفى الهيئات السوفيتية الأخرى، وبدأت "القوى الجديدة" مستخدمة "طاقة جديدة" فى العمل.

اعتباراً من أكتوبر ١٩٦٧ بدأ تنظيم رحلات للصحفيين المعتمدين فى مصر لمنطقة قناة السويس ، حيث كانت تقف كلٌ من القوات المصرية والإسرائيلية وجهًا لوجه وهى مدججة بالسلاح. أما قناة السويس نفسها فكانت الملاحة فيها متوقفة بسبب العمليات الحربية.

وصل سرب من طائرات "تى واى - ١٦" TY-16 فى زيارة ودية لمطار غرب القاهرة فى يوم ٣ ديسمبر ١٩٦٧، وقد شارك رئيس أركان حرب الجيش المصرى - الجنرال الأسطورى "رياض" الذى استشهد فيما بعد فى منطقة القناة - فى الاحتفال باللقاء. منح الصحفيين الفرصة للتعرف على القاعدة قبل هبوط الطائرات، بالطبع هى إحدى أكبر القواعد فى شمال إفريقيا، وقد زرت الجزء المخصص منها لإقامة مستشارينا، لقد تجمعوا فرقًا ورتبوا أمورهم كأنهم فى بيتهم. علقوا أيضًا شعاراً "واجبك أن تكون متميزًا فى إعدادك للحرب وإعدادك السياسى". ذهبت إلى ركن ساحة العرض التى كانت تقدم فيها بعض العروض، كانت المصطلحات الروسية الخاصة التى يصعب ترجمتها إلى اللغات الأخرى مسموعة تمامًا فى الهواء الصحراوى النقى، كان يفوح نسيم ما من الصحراء الحارقة كأنه من وطنى. كان هذا المكان كأنه ليس فى مصر.

بدت الطائرات التى ظهرت فى سماء القاهرة كأنها أسماك قرش من المحيط، فقد كانت ضخمة لا تخاف من أحد. بدأت فى الهبوط بفاصل ٣ دقائق، كان يقود الطائرة الأولى الملازم "فلاديمير ستيبانوفيتش نيكيتين" فنال التحيات الأولى، وقدم الملازم "ألكسى سيرجييفيتش شمونوف" الشكر باسم من وصل لتوه على الاستقبال الحار، وقد صاحب طابور جنودنا الواقف بعيداً كلمته بالهتاف "أورا!". لقد أصبح الآن الضباط والجنود الأميون أمل مصر، لقد قدموا أولاً لهم التحية ثم ألبسوهم فوراً الخوذات العربية الصفراء.

اختلف "المستشارون" العسكريون عن خبرائنا الذين أطلق عليهم اسم "الخبراء" فى أثناء العملية الأولى لإعادة بناء الجيش المصرى فى الفترة ١٩٥٧-١٩٦٧، بأنهم أصبحوا مشاركين فى عملية إعادة بنائه الثانية بعد حرب يونية. مرة أخرى كان حجم

ما أوردناه كبيراً ومتنوعًا ، كما يليق بقوة عظمى مثلما كان فى المرحلة الأولى، ولكن فى هذه المرة لم تذهب هذه المعدات إلى أماكن تدريب العسكريين المصريين ولكن إلى أماكن توزيع القوات المصرية، أى إلى الجبهة مباشرة ، وإلى تلك الأماكن التى لها أهمية خاصة فى الدولة. وقد ذهب أيضًا إلى تلك الأماكن رجالنا السوفييت لكى يؤدوا "واجبهم الأممى" بعد أن ارتدوا الملابس العسكرية المصرية.

اندفع الصحفيون أيضًا إلى خطوط الهدنة بمجرد أن سمحت لهم بذلك السلطات، فقد تمكنت على سبيل المثال فى أواخر شهر يولية من أن أسافر إلى مدينة الإسماعيلية الواقعة على منتصف مجرى قناة السويس تقريبًا على بحيرة التمساح. كنا نسافر إليها كثيراً قبل الحرب للاستحمام فى مياه القناة الهادئة ، وللتمتع بمنظر السفن التى كانت تتحرك ببطء بجانبنا. كان كثيراً ما تعبر القناة سفينة سوفيتية وكنا نرحب بها باعتبارها ممثلةً لوطننا ملوحين بأيدينا، أما الآن فكنا كلما اقتربنا أكثر من القناة كلما كان الوضع أكثر صرامة. كانت تظهر مواسير البنادق والرشاشات من الخنادق التى تمت حمايتها بشكائر من الرمال، كما كانت سيارات الجيب الصفراء اللون مثل الصحراء تتحرك ذهابًا وإيابًا فى الخلف وفى الأمام. فى مكان ما كان يسمع هدير الدبابات. أشار الضابط المرافق لى "هاهى قناة السويس هناك"، العدو على الضفة الأخرى. رقدت فى أحد الخنادق ، وبدأت فى فحص "الجانب الآخر" باستخدام نظارة معظمة. كان أول ما استرعى انتباهى اللوحة الضخمة المكتوب عليها "أرض إسرائيل"، كانت تظهر فوهات البنادق والرشاشات من خلف التلال الرملية. كان هذا اليوم نادراً لأنه مر دون تبادل للنيران، تم قذف القنابل على المدينة بشدة بصفة خاصة عندما أصبح من المعروف أن مراقبى الأمم المتحدة قد وصلوا إلى الإسماعيلية. قال لى هذه المعلومة مستشارنا الحربى الذى تصادف وجوده هنا بجانبى فى الخندق، فقد كان المستشار العسكرى لقائد الكتيبة المسئولة عن الدفاع هنا. لقد أخطر بوجود صحفى روسى فى هذا الموقع فبالطبع أراد أن يتحدث معى. "كيف تسيرالحياة فى الكتيبة؟" - "جيدة". -" هل الأكل مع الجنود معقول؟" - "جيد". "الجو حار"- "حار ولكنه محتمل". كنت أستطيع أن أوجه له عشرات من الأسئلة الأخرى ، ولكنى لا أتوقع أن

أسمع منه أكثر من كلمات "جيد" و"محتمل". تذكرت قول "تفاردوفسكي": "يصمت الجنود إذا كانوا مسرورين جدا، أما إذا سقطوا فهم مثل الكرمة تحت النصل". عندما حكيت له "كيف يجرى نهر "الفولجا" الذى أحبه هناك ... أنصت صامتًا ثم قال: فقط إذا أمكن ترتيب المراسلات، فهناك فى "بريانسك" أمي وزوجتى وابنتى ذهبن إليها. اقترحت عليه:"اكتب خطابًا وسوف أرسله". رأيت أن عيناه لمعت، ولكنه أجاب: "لا، ليس هناك داعٍ للتعب". سأكون هنا كالجميع، فإذا تم تنظيم المراسلات فسوف أكتب. فجأة بدأ التراشق بالنيران فى مكان ما. انضم إلينا مترجم مسرعًا، نحيف ، غير حليق الذقن، عيناه كبيرتان تحت الخوذة، قائلاً مع تكلف فى نظرته:"يؤكد العرب أن مجموعة من الإسرائيليين تحاول عبور القناة تحت حماية الرماية". قال له: "هيا بنا!" ثم قال لى وهو ينصرف:"سلامى للوطن ولنهر الفولجا". ثم انصرفا عدوا...

عرجنا تقريبًا فى منتصف الطريق من الإسماعيلية فى طريقنا إلى بورسعيد على المركز الصغير "القنطرة". قيل لى إن الإسرائيليين ضربوه وما زالوا يضربونه باعتباره هدفًا مباشرًا. اشتد إطلاقهم للنار بصفة خاصة عند معرفتهم بوصول مستشارين روس إلى الكتيبة المدافعة عن القنطرة. وقفت على بعد خمسين مترًا من القناة. كل شيء مهدم ومحطم. بعض الأدوات والشكائر ملقاة فى الطريق. لا يوجد أحد حولنا. لم يتبق شيء من محطة القطار السابقة إلا كومة من الأحجار ، وقضبان ملتوية مثل المكرونة المقلية. شاهدت ما حولى ، والتقطت الصور ثم سمعت أصواتًا. بالتأكيد عبرية. اندهشت. قال الضابط المصاحب لى:" هنا من السهل سماع الجانب الآخر. فمن الممكن أن تمد لهم يدك. عرض القناة هنا تقريبا ١٥٠ مترًا". فعلاً، هاهو خط الهدنة. أو الجبهة ، حيث الكل فى حرب: خنادق، ومراقبين، وقناصين".

يمثل اسم نقطة الارتكاز أو مركز "القنطرة" معنى خاصا عند "مصريينا". فهنا ولدت الأغنية التى أصبحت نشيدًا لكل الخبراء العسكريين الذين تم إرسالهم إلى مصر فى تلك السنوات. هاهى كلماتها التى تنشر لأول مرة على ما أعتقد:

بين الحطام والحرائق،
حيث كل منزل اكتوى بالنار،
فى أزقة القنطرة الضيقة،
تسير كتيبة مشاة

يطقطق الزجاج تحت النعال،
تدق الكعوب المعدنية،
وعلى الأكتاف، على الأكتاف
جلجلت الحراب المركبة

لا تطلق النيران هنا للتخويف
تهدر عاصفة الحرب،
من تحت الخوذات العربية،
تظهر العيون الزرقاء.
فى الحملة مع الكتيبة
يمضى الخبراء الروس،

لفحتهم الشمس ومتربين،
هنا ينتظرونهم منقذين.

نحن كما فى إسبانيا يوم ما

نحن هنا مطلوبون، نحن هنا مهمون

نحن جنود مجهولون

فى أطراف البلد البعيدة

تصورونا ولو دقيقة

نسير تحت أمطار من الصلب،

كيف فى سبيل الجنيه المصرى

نقدم رءوسًا متفانية...

سأعود لبيتى، وآخذ قيثارتى

وتحت دق الأجراس الخفيفة

سوف أتذكر أزقة القنطرة

وكتيبتى للمشاة

ألف كلمات وموسيقى هذه الأغنية أحد المترجمين (البعض يقول إنه "يفجينى جراتشيف" خريج كلية الصحافة فى جامعة موسكو الحكومية، على الرغم من أن الكثيرين يؤكدون أنه تم تأليف الكلمات بصورة جماعية) ، ولكن لم يكن معرفة شيء عنه ممكنًا، فقد كان يتم تناقلها كتابة على الورق، وأغنية على أجهزة التسجيل. وكان يتم غناؤها، ولكن تم إخفاء اسم ولقب المؤلف تمامًا. بالطبع فقد ظهر فى البداية هرج غير عادى بين كبار عسكريينا المسئولين عن الروح المعنوية والسياسية للجنود: "اعثروا عليه!"،

"اطردوه!"، "حاكموا هذا الدنيء!"- هكذا كان رد فعل هذه الفئة من "الأميين" بسبب الأغنية. وفى النهاية تمت مناقشة هذا الهرج فى اجتماع الحزب الشيوعى فى السفارة، وتم الاستماع إلى تسجيل للأغنية فى وجود عدد كبير من السوفييت. صمت الجميع بعد استماعهم للأغنية فى المرة الأولى ورمقوا السكرتير بنظراتهم، وبعد فترة صمت اقترح السكرتير: "فلنستمع إليها مرة أخرى". تم الاستماع إليها. "ماذا حدث؟ هى أغنية مثل أية أغنية أخرى"- فتح باب المناقشة مستشار السفارة "فلاديسلاف بوريسوفيتش ياسينيف"- "تعبر عن المشاعر، وواقعية. يجب علينا أن نشجع أكثر كل من على الجبهة ويضحى فى الحقيقة بحياته. أما نحن...".

صاح أحد الجنرالات، أذكره جيداً بسبب لون وجهه الأحمر المزرق المختلف عن الآخرين، مقاطعًا "ياسينيف": "ولكنها معادية للسوفييت، ما معنى: فى سبيل الجنيه المصرى نقدم رءوسنا؟ هذا شىء سيتزايد مع الوقت. قد يقام أيضًا نصب تذكارى لمواطنيننا الذين سقطوا فى الحرب من أجل حرية مصر..."

بلا شك كان لانضمام مستشارينا إلى وحدات القوات المصرية تأثيرٌ إيجابى على الروح المعنوية للجنود والضباط المصريين ، وعلى استعدادهم للمعارك؛ فقد قويت شكيمتهم فى المعارك، وبدأ اعتقادهم بأن الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر يضعف تدريجيا، لأنهم تعلموا كيف يردون الضربات بضربات. فى خلال عامى ١٩٦٨-١٩٦٩ أعيد بناء وتدريب القوات المسلحة المصرية تمامًا، فقد تم طرد عدد من الضباط الذين لم يظهروا قدراتهم فى العمليات العسكرية، وتم تسليح الجيش المصرى بمعدات سوفيتية جديدة، وقد أصبحت يومًا بعد يوم تزداد قوة الجيشين الميدانيين المواجهين للإسرائيليين على خط الجبهة.

لم تكن مفاهيمنا ، تتماثل مع الواقع الفعلى للأوضاع فى الشرق الأوسط بالطبع، فالجبهة هى الجبهة، ويجب هناك أن يتم التركيز على البحث عن كل الوسائل ذات الكفاءة للوقوف أمام العدو، فعلى سبيل المثال خلال عدة قرون قامت الحروب فى أوروبا ، أو قام

بها الفراعنة "قبل ذلك"، ولكن اتضح لى هناك عند القناة عندما سافرت ذات مرة من بورسعيد إلى الإسماعيلية فى المساء أن هذه الحقائق كانت موجودة بشكل مختلف، فلم أر على الجانب الآخر عند الإسرائيليين أية أضواء ولم أسمع أي صوت يدل على حدوث تحركات. كان الجانب الآخر هادئًا تمامًا فى حالة انتظار ما قد يفعله هذا الجانب، أما على هذا الجانب فقد ظهرت الأضواء فى كل الصحراء على طول خط الأفق عند العرب، كان البعض يتنقل على ظهر الحمير، وكانت الجرارات تحدث ضوضاء ، وتثير الأتربة البيضاء التي تغطي ضوء القمر. كانوا يسحبون المعدات إلى مكان ما لإصلاحها ، أو يضعون الذخائر، ببساطة كانوا يغيرون من انتشارهم. كان يقوم طبعًا الجانب الآخر برصد كل ذلك، فقد كان يمكن تحديد مكان كلٍّ من توزيع القوات ومركز القيادة بتتبع الأضواء فى الصحراء، وعلى سبيل المثال عندما كان يتم فحص تصاريحنا وأوراقنا فى الطريق، وكان ذلك يحدث كثيرًا، كان يحيط بمن يقوم بالفحص عشرات من الأفراد. البعض منهم يقف من باب حب الاستطلاع، والآخرون من باب الحرص. كانوا يقولون للفاحص ما عليه أن يفعله لكى يقوم بذلك بدقة أكبر. وفى النهاية عند اقتناعه بسلامة مستنداتنا كان يعلن بفخر لمن حوله: "روسى". وكان هؤلاء بعد رضاهم ينقلون هذه المعلومة للآخرين: "روسى". فى الحقيقة لم يكن لديهم ما يفعلونه أكثر من ذلك بالليل فى الصحراء على الرغم من وجود قوات إسرائيلية متحركة على الجانب الآخر على بعد مائتى متر أو أقل تراقبهم بدقة.

يبدو أن الإسرائيليين قد قدروا أنه لا يمكن اختراق هذا التجمع الضخم من الجنود ومن المعدات ومن الدبابات بصفة خاصة من جانب القناة على الأرض، لذلك قرروا أن يضربوها ضربات مركزة من الجو، خاصة أن معدل تطوير وسائل الدفاع الجوى المصرى كان أبطأ بكثير من معدل تركيز القوات. وبدأت الغارات المنهكة للقوات الجوية الإسرائيلية على الأهداف الصناعية فى البلد ، وكذلك على تشكيلات الجيش المصرى بجانب القناة. أدى هذا إلى استنزافها، وإلى خفض حاد لقدرتها على القتال. هكذا ظهر خطر انتقال المبادرة الحربية ، وخطر اقتحام قناة السويس.

العسكريون الروس الذين أجبروا المتحاربين

على بدء الحديث عن السلام

بدأت دورة جديدة لوجودنا العسكرى فى مصر تقريبًا اعتبارًا من نهاية عام ١٩٦٨، فبالإضافة إلى المستشارين بدأ إرسال تشكيلات ووحدات كاملة وعلى الأخص من الدفاع الجوى إلى هناك.

أصبحوا يطلق عليهم الآن صراحة "عسكريون سوفييت"، أما فى مراكز القيادة الحربية فى موسكو فتم إطلاق اسم "قافقاز" على كل هذه العملية. تميزت عملية "قافقاز" فى عام ١٩٦٩ وخاصة فى الشهور السبعة الأولى من عام ١٩٧٠ ، بالإضافة إلى المعارك الساخنة بين القوات الأرضية فى منطقة القناة بحرب حقيقية بين قواتنا الجوية ، وقوات للدفاع الجوى ، والطيران الإسرائيلى. كانت هذه حرب فعلية "مشتعلة تمامًا "لم يكتب فى الصحافة السوفيتية فى ذلك الوقت ولو سطر واحد عن اشتراك وحداتنا ورجالنا العسكريين فيها . هل كان الصحفيون السوفييت المعتمدون فى مصر يعرفون عن ذلك؟ أو لا؟ نعم كانوا يعرفون. هل كتبوا عن ذلك؟ نعم كتبوا. ولكنهم لم يروا أبدًا نتائج عملهم. كانوا يسجلون المذكرات اليومية بصمت، وفى صمت كانوا يودعون الصناديق المجلفنة التى يرقد فيها القتلى. كانوا يشفقون على الجرحى، وكانوا يشاهدون الطوابير التى تخرج بعد وصولها إلى مصر دون أن تجهز مراكزها. لقد اتخذ شخص ما فى ذلك الوقت قرارًا بإرسال فتياننا إلى مصر بحيث لا يعرف عن ذلك أى من أمهاتهم أو آبائهم أو الشعب. لماذا؟...

كان اشتراك القوات السوفيتية فى الدفاع عن مصر المغلف بالسرية، كما كان يعتقد فى كل من موسكو والقاهرة، أصبح فى الحقيقة بسرعة واقعًا ولكن غير مفاجئ؛ فقد كانت بلد الأهرام مليئة بالعسكريين السوفييت قبل ذلك، وكان الأمريكان، المتورطون حينئذ فى "مغامرة فيتنام"، سعداء بهذا الوضع بصفة خاصة. سألنى "أندرسون" مراسل "النيوزويك" فى القاهرة ساخرًا: "هل تريدون أن

تتساووا معنا فى ذلك؟ ، أو ترغبون فى أن تسبقونا؟" كان المصريون كلهم اليمينيون منهم و اليساريون (كما كنا نحب أن نصنفهم) لا يخفون رضاهم؛ الآن لن يجازف الإسرائيليون بالعبور إلى الضفة الأخرى للقناة ، وإلا فسوف يكون عليهم التعامل مع الروس.

لقد انتشر الروس فعلاً، فلم يكن العدو على بعد ١٢٠كم من القاهرة ، ولكنه كان على البعد نفسه من موسكو. كان يتم النقل غالبًا عن طريق البحر من موانئنا على البحر الأسود إلى الإسكندرية، وكان يتم التفريغ فى الليل. كان يعاد دهان المعدات بلون الصحراء ثم تحمل على جرارات. وكان الخبراء يستبدلون ملابسهم هنا أيضًا. كان لكل منهم كيس ملابس به بدلة للمناطق الحارة دون كتافة، ومنشفة وأدوات مائدة وجراية جافة. وفى أثناء الهرج الليلى ودهان المعدات واستبدال الملابس لم يكن الأفراد يلاحظون أى شىء حولهم. ولكن عند طلوع الشمس ورؤية كل منهم للآخر مثل الممثلين الذين يستعدون قبل بداية العرض، هنا كان يظهر عرض دموى ، الحرب.

لم يتم إرسال مدافع مضادة للطائرات فقط إلى مصر، بل أيضًا مجموعات من الصواريخ مغطاة بوحدات "شيلكا" ذاتية الحركة ووحدات نقالة "ستريلا-٢". أخذوا معهم كل شىء بدءًا من الملح والنظارات المعظمة حتى مطابخ الرحلات والمحركات الكهربائية. كانت تشكيلاتنا مكونة أساسًا من فرق متنقلة قادرة على التحرك بسرعة من موقع إلى آخر، مما أدى إلى رد فعل عصبى جدا عند الإسرائيليين. عندما أصبحت فى بداية عام ١٩٧٠ هذه التشكيلات "ذئاب الصحراء" وزاد عددها كثيراً، قام الطيران الإسرائيلى بعمليات "صيد" لها بمعنى الكلمة. فطبقًا لبيانات عسكريينا شن الطيران الإسرائيلى فى الفترة من مارس إلى أغسطس نحو ٦ آلاف غارة جوية محاولاً تدمير شبكة الصواريخ المضادة للطائرات الممتدة على الشاطئ الغربى لقناة السويس، والتى كان يبنيها رجالنا من خبراء الدفاع الجوى. وقد بين خبراء الصواريخ الروس ذوو العيون الزرقاء بملابسهم ، وخوذاتهم غير المعتادة وفى جو حار درجة حرارته ٤٠ مئوية"للصقور" الإسرائيلية قدراتهم.

بالمناسبة فلنستمع إلى حديث من شارك فى هذه العملية.

سميرنوف ألكسى جريجوروفيتش - جنرال - قوات احتياطية - قائد فرقة الدفاع الجوى فى مصر

فى البداية عرفت عن العملية "قافقاز" فى ديسمبر ١٩٦٩ عندما استقبلنى القائد العام لقوات الدفاع الجوى مارشال الاتحاد السوفيتى "ب. ف. باتيسكى". أفادنى أولاً بسرية المعلومات التى يذكرها لى، ثم حكى لى باختصار عن الموضوع. ولكنى لم أتصور تمامًا فى ذلك الوقت ماهية المهمة التى علينا تنفيذها أنا ومرءوسىّ. أدركت فيما بعد صعوبة العمل الذى كلفت به عندما سافرت مع مجموعة من الجنرالات برئاسة "باتيسكى" إلى مصر للاستكشاف واختيار المواقع الحربية.

قدمنا تقريراً بنتيجة عملنا لرئيس مصر "ناصر". عندما قابلناه فى أوائل يناير ١٩٧٠ قدمنا له "باتيسكى" ذاكرا اسم ومنصب كل منا، وعندما جاء دور قائد القسم السياسى للفرقة "إ. ف. خاليبوف" لم يفهم "ناصر" مسئوليات منصبه. لم يتوتر "باتيسكى" وشرح له كما يلى: "أب روحى، بمفهومنا نحن قس، أما بمفهومكم- ملة". ابتسم الرئيس؛ فيبدو أن أسلوب الشرح أعجبه. أما أنا فقد قدمنى "باتيسكى" تقريباً بهذه الطريقة ": سوف يقوم هذا الجنرال الشاب ومعه قواته بالأعمال الخاصة برد غارات الطيران الإسرائيلى وعدم السماح بضربه للأهداف فى بلدكم". فهمت تمامًا فقط فى هذه اللحظة كم سيكون صعبًا تنفيذ ما كلفت به.

عدت مرة أخرى إلى مصر فى منتصف يناير ١٩٧٠ رئيسًا لمجموعة العمليات الحربية بعد أخذ موافقة وزير الدفاع "أ. أ. جريتشكو" على كل النقاط. كان الهدف فى هذه المرة الإسراع بعمليات تنفيذ الأبنية الهندسية ومراقبة جودتها وتجهيز المواقع والتشكيلات الحربية للفرقة بالمعدات، كان من المخطط عمل سواتر من الخرسانة قادرة على تحمل قنابل طائرات مباشرة زنة ٥٠٠ كيلوجرام لحماية مراكز القيادة وبطاريات

الصواريخ المضادة للطائرات، كان سُمك الخرسانة مع طبقة من الرمال يمثل أربعة أمتار ونصف.

خصصت حكومتنا ووزارة الدفاع لأول مرة فى تاريخ عمل قوات الدفاع الجوى لكل طقم بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات فصيلة حماية للدفاع عن المواقع الحربية والأفراد. كانت كل فصيلة تتكون من أربع وحدات شيلكا (معدة حربية تتكون من رادار ووحدة حساب سرعة إطلاق النيران) ووحدات من الصواريخ النقالة المضادة للطائرات طراز "ستريلا-٢"، وقد أدى هذا الأسلوب الجديد إلى نجاحنا فى تنفيذ التكليفات الحربية ، والمحافظة على أرواح الكثيرين.

نقلت القوات والمعدات عن طريق البحر فى سرية تامة، وتمت عملية الإنزال فى الميناء ، والسير فى الأماكن المجهولة لنا فى الظلام التام. بصفة عامة نفذت العملية بنجاح تام على الرغم من مقابلة بعض الصعوبات، فعلى سبيل المثال أصيب الملازم "أندرييف" - قائد فصيلة حماية - إصابة خطيرة توفى بعدها بخمسة أيام . كانت هذه أول خسارة لنا. وفى أثناء تحركنا سقطت فى قناة رى إحدى وحدات "شيلكا" السرية تماماً، والتى أرسلت لأول مرة خارج الحدود. أحياناً كان ينعس السائقون وهم على عجلة القيادة فى هذا الجو الحار الذى لم يعتادوا عليه، كان علينا أن نتوقف كل ساعتين ، وأن ندعوا السائقين إلى مؤخرة أو مقدمة القول جريا. ولكن بعد ذلك فى المساء عندما كنا نغير موقع إطلاق النيران فهم الجميع تماماً أنه إذا لم تجهز بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات للإطلاق قبل شروق الشمس قد تكون النتائج سيئة جدا، فالعدو كان يضرب المواقع العسكرية عند شروق الشمس.

كانت أول بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات التى تم كشفها وتركيبها فى نوبة حراسة هى بطاريات المقدمين "كوتينسوف" و"كيريتشينكو". كنت أستعد للسفر إلى القاهرة لأقدم تقريراً عن ذلك للرئاسة ، ولكن حضر إلىَّ أحد العاملين بالقسم السياسى وهو يلهث ليبلغنى أن "كوتينسوف" أسقط "أحدنا" أى طائرة مصرية. لم أصدق ذلك ، ولكن تبين أن ذلك كان صحيحاً، فأول صاروخ أطلق من بطاريات"كوتينسوف"

للصواريخ المضادة للطائرات أسقطت فعلاً طائرة "إليوشين-٢٨" مصرية كانت تطير على ارتفاع ١٥٠-٢٠٠ متر. كان عليَّ أن أقدم تقريراً للرئاسة ليس عن النجاح ، ولكن عن حادث طارئ .

على الرغم من توضيحى أن قائد بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات ونائبه لم يتخذا القرار إلا بعد أن تأكدا من الضباط العرب من عدم وجود طائرات مصرية فى الجو، فإن كبير المستشارين العسكريين قرر أن يعيدهما فوراً إلى الاتحاد السوفيتى لأنهما "ليسا قادرين على تنفيذ الأعمال المكلفين بها". ولكن أنقذ المصريون أنفسهم الموقف، فعلى غير المتوقع تم استقبالى فى مركز القيادة المحلى لفرقة الدفاع الجوى بسعادة بالغة. فقد شاهد نحو مائة من الضباط والجنود المصريين كيفية إسقاط طائرتهم ؛ فصاحوا فرحين: "أحسن من الهوك! أحسن من الهوك!". حدث ذلك لأنهم قدروا تفوق معداتنا الحربية، كما أعلن الجنرال"صادق" رئيس أركان الحرب أن تصرف ضباطنا كان سليماً. وقد أعجب العسكريون المصريون تماماً بقدرتهم القتالية وتدريبهم الراقى. وهم بذلك قدروا تماماً الإمكانيات العالية لقواتنا التى جاءت لتقديم العون، وهكذا انتهت هذه القصة غير السارة.

كانت الطائرات الإسرائيلية تغير يوميا على الأهداف العسكرية والمدنية المصرية، ولكنها لم تدخل إلى الأماكن التى تقع فى حدود مرمى نيران بطارياتنا من الصواريخ المضادة للطائرات. كان إطلاق الصواريخ على أهداف خارج نطاق هذا المدى لا يلقى نجاحًا. فكانت طائرات "الفانتوم" تنجح فى الاستدارة والهروب من الخطر. اضطررنا أن نغير "تاكتيكنا" بناءً على أسلوب أداء العدو. جاءت النتائج سريعة، فتم إسقاط أول طائرة "فانتوم" بواسطة صاروخ أطلقته فصيلة النقيب "فاليريانوس ماليوكى". سقطت الطائرة الأمريكية المتفوقة والتى كانت تحكى عنها الأساطير فى ذلك الوقت على أرض مصر فى يوم ٣٠ يولية ١٩٧٠ وفى خلال الشهر التالى وعدة أيام قليلة أسقطت الفرقة تسع طائرات ، وأصابت ثلاثًا. لم يكن قد لحق بالإسرائيليين مثل هذه الخسائر الجسيمة فى الجو من قبل.

كانت النتيجة الطبيعية لذلك محاولة تدمير مجموعات بطاريات صواريخنا المضادة للطائرات، وفى إحدى الغارات شاركت فيها ٢٤ طائرة "فانتوم" هاجمت من كل الاتجاهات مجموعة مكونة من خمس بطاريات من الصواريخ المضادة للطائرات. وتمكنت فصيلة المقدم "فاسيلى تولوكونيكوف" من إسقاط اثنتين منها. كانت هذه الوحدة تنتظر إسقاط الثالثة، ولكن فى ذلك الوقت انفجرت صواريخ أطلقت من طائرات هاجمت من الجهة الأخرى من موقع الإطلاق، أصيب كل طاقم مركز القيادة بكدمات، واحترقت المعدات الحربية وقتل البعض، اندفع الجنود لإخماد الحرائق، ونقل الموتى والجرحى على الرغم من علمهم أن بعض القنابل موقوتة وتنفجر بعد فترة، لم يفقد أحد أعصابه فى وقت الخطر.

تعرضت وحدات المقدم "كوتينتسوف" والرائد "بوبوف" لهجوم جوى، تمكنا فى خلال المعركة من إسقاط ثلاث طائرات، وإصابة واحدة دون أية خسائر من جانبهما. ثم توقفت الغارات الجوية على الأراضى المصرية، وبعد يومين بالضبط اقترحت إسرائيل بدء مفاوضات لعقد هدنة.

وقد حصل ١٦٦ من الضباط وصف الضباط والجنود على أوسمة حكومية مختلفة نتيجة أدائهم الناجح فى المعركة، ونال كل من "كوتينسوف" و"بوبوف" لقب "بطل الاتحاد السوفيتى".

كوستين ألكسى ياكوفلوفيتش – فريق – احتياط.

الذاكرة تحفظ ذكريات التوتر الرهيب المتعلق قبل أى شىء بالروح المعنوية والحالة النفسية بسبب انتظار وقوع غارة، أو استفزاز فى كل يوم وفى كل ساعة، وأحياناً نزوات المرءوسين. كما كان يوجد إجهاد بدنى عندما تكون فى وردية حراسة فى وضع استعداد دائم لإطلاق الصواريخ بسرعة من لحظة شروق الشمس إلى غروبها (أى نحو ١٥ ساعة) فى درجة حرارة تصل إلى ٦٠ مئوية داخل الكابينة. أما فى المساء

فتدريبات لا نهائية على ضم وبسط المعدات وإعادة الانتشار. كنا نحصل على بضع ساعات للراحة فى صومعة خرسانية تحت ناموسية، وبالإضافة إلى ذلك ضرورة الحرص الدائم ، حيث لا تستطيع أن تجلس على الأرض حتى لا تزعج العقارب التى تعج بها الصحراء.

كما أن الإحساس بالحنين للوطن وللأقارب وللأصدقاء لا ينسى، كنا نسعد تماماً بأى لقاء مع مواطنينا وبأى خبر من بلدنا. لقد استمعنا مئات المرات إلى أسطوانات "زيكينا" و"ليميشوف"و "تروشين"، كما كتبنا بأنفسنا الشعر والأغانى، كنا نشتاق أيضاً للمأكولات التى اعتدنا عليها، العيش الأسود والسمك المملح.

ولكن ذكرى الزملاء فى المعارك غالية عندنا بشكل خاص، هؤلاء الذين شربنا معهم أياماً صعبة ونظرنا معهم إلى وجه الموت، وكذلك الذين لم يعيشوا حتى عودتهم إلى بيوتهم.

تعطل هوائى الرادار فى أثناء الغارات المكثفة على وحدة المقدم "تولوكونيكوف" فى ١٨ يونية ١٩٧٠ فخرج الملازم "س. سومين" من وراء الساتر غير مبالٍ بخطر الموت وبدأ يضبط اتجاه الهوائى على الهدف بالنظر ؛ فأصابته شظية صاروخ انفجر بالقرب منه منهية حياته الشابة. لقد ترك فى روسيا وراءه زوجته "قاليا" وابنه الوليد "سيرجى" الذى لم يره قط. وقد مات أيضاً فى المعركة نفسها كل طاقم العريف "أ. ماميدوف".

كان الرجال يشاركون فى الجو الحار فى ضربات الصواريخ والقنابل، وكانوا يخسرون زملاءهم فى المعركة ، ولكن لم يحدث هبوط فى أرواحهم المعنوية. كما سبق لم تكن تدور الأحاديث عن سبب حضورنا إلى هنا وفى سبيل أى شىء نضحى بحياتنا، كنا نستريح بعد إجهاد بدنى ونفسى فظيع ، ونتحدث عن المعركة وعن الطائرات التى أسقطناها وعن القتلى، وكنا نغنى بمصاحبة القيثارة. ذلك لن يمحى أبداً من الذاكرة.

بوبوف كونستانتين إليتش - بطل الاتحاد السوفيتي - عقيد متقاعد - قائد فصيلة صواريخ مضادة للطائرات فى مصر

فى نهاية عام ١٩٦٩ تم إنشاء فرقة من ست بطاريات للصواريخ المضادة للطائرات والتشكيلات المعاونة لها، وأرسلت إلى ميدان مرمى تجارب الأسلحة بوسط آسيا خصيصاً "للمساعدة فى تدريب أفراد من القوات المسلحة المصرية"، بالإضافة إلى تدريب المصريين فى النصف الأول من اليوم. كنا نتدرب ونقوم بإطلاق النيران على أهداف طائرة على ارتفاعات منخفضة طبقًا للأوامر الصادرة لنا، أما فى المساء فكان يتم التدريب على طى وفرد المعدات الحربية، كنا مدركين أن هذا العمل ليس عاديا ولكن لم يتم إبلاغنا بالهدف من استعداداتنا.

علم أفراد المجموعة بعد فترة قصيرة أنه سوف يتم إرسالنا للمشاركة فى المعارك فى مصر، الآن وبعد مرور عشر سنوات، عندما أتذكر الروح المعنوية للزملاء فى الوحدة أجد أنها كانت جاهزة للحرب. بالطبع كان يوجد تساؤل عن جدوى سفرنا إلى الحرب على بعد آلاف من الكيلومترات من الوطن، ولكننا كنا كلنا مقتنعين بأن هذه الحرب فى سبيل الحقوق المشروعة والدفاع عن الصديق البعيد الذى وقعت له كارثة. لا أتذكر أية حالة حاول فيها أحد التهرب من هذه "المهمة الحكومية" كما كان يطلق على مهمتنا، وبالإضافة إلى ذلك ظهرت حالات عندما تم استبعاد بعض الأفراد من السفر لسبب أو آخر أنهم كانوا يسعون لكى لا يسرحوا من التشكيل.

وصلنا أخيراً إلى الإسكندرية. كان قد سبق ذلك استعدادات مكثفة فى عنابر السفينة "جيورجى تشيتشرين" للسفر، حيث كان من المحظور علينا الصعود إلى السطح. فى الميناء تم طلاء المعدات بلون الصحراء للتمويه، وألبسونا كلنا ملابس الجيش المصرى ، ولكن دون أية رتب مميزة، ثم بقيت فصيلتنا لبعض الوقت فى هذه المدينة الساحلية.

تم وضع وحدات الصواريخ فى حديقة بجانب قصر الملك فاروق، أما وحدات "شيلكا" فقد تم وضعها فى الأحياء السكنية مباشرة. و ترقب حامل "القاذفات" الأهداف على أسطح المنازل المجاورة. بالطبع كان يوجد الكثير من الناس دائماً حولنا، وكان الفضوليون يحضرون لمشاهدة "الجيش الروسى". مفهوم أنه من الصعب فى هذه الظروف المحافظة على السرية ، لأننا لم يكن لنا وجود فى مصر رسميا، كنا سعداء من ناحية بالتعامل مع السكان المحليين على الرغم من وجود حاجز اللغة بيننا، ومن ناحية أخرى، كانت المعلومات عن نظامنا الحربى ، وتسليحنا وعددنا سرية. سر أصبح منذ زمن معروفًا للجميع وميزة للعدو. وبالإضافة إلى ذلك كان علينا أن نؤدى عملنا دون معرفة الأوضاع، فلم يكن هناك تفاعل بيننا وبين الفرق الأخر ، لم نكن نحصل على معلومات عن طيران العدو، ولا حتى عن الطيران المصرى من المخابرات المحلية، يجب إضافة أنه لم يكن هناك نظام دقيق فى الطيران العربى فى ذلك الوقت، وقد كاد ذلك أن يقود إلى كارثة.

فعلى سبيل المثال فى ١٧- ١٨ مارس ١٩٧٠ صدر لنا أمر من قيادة اللواء يفيد بأن "تعتبر الطائرات التى تطير على ارتفاع أقل من ٦ كيلومترات ، وعلى مسافة أقل من ٢٥ كيلومتراً من طائرات العدو ويتم تدميرها". لم تمض عدة أيام حتى ظهرت طائرة تطير من جهة البحر على ارتفاع يقل عن ١٠٠٠ متر. كانت ظاهرةً للعين المجردة، كنا أنا والنائب السياسى لرئيس اللواء فى الخندق عندما سمعنا إطلاق نار ورأينا صاروخًا يطير فى اتجاه الطائرة، وجاءنا تقرير من أحد مواقع "ستريلا-٢"، طبقا للنظام المتبع يقول "تم إطلاق صاروخ أصاب الهدف. الاستهلاك- واحد".

اتضح بعد ذلك أن "الهدف" كان عبارة عن طائرة "أنتينوف - ٢٤" An-24 مدنية عليها طاقم وركاب. ولحسن الحظ أصاب الصاروخ فقط المحرك الأيمن للطائرة، فتمكن قائدها من الوصول بها إلى مطار القاهرة بسلام. فى اليوم التالى ظهر فى الجرائد المحلية خبر يقول:"حدث انفجار على طائرة غير معروفة أسبابه، ولكن مهارة وشجاعة طاقم الطائرة مكنهم من إنقاذ الركاب والطائرة".

بعد ذلك تم تسليم كل فصيلة لوحًا باللغة العربية وتم تركيب أجهزة رد آلى على طائرات تجيب بعبارة "أنا صديق"، كما تم تنظيم الطيران، بالإضافة إلى ذلك أصبحنا أخيرًا نتلقى ، أيضًا ، معلومات من المخابرات المحلية.

بعد ذلك أعيد توزيع فصيلتنا عدة مرات، المرة الأولى لحماية المطار الحربى عند بحيرة قارون على بعد ٦٠ كيلومترًا من جنوب القاهرة، ثم على الضفة الغربية لقناة السويس. هنا بالذات عند هذا المجرى المائى الذى يمثل خط الجبهة حيث صدرت لنا الأوامر بأن نتحرك إلى جنوب مدينة الإسماعيلية لكى نوجه ضربة مفاجئة مؤثرة للطيران الإسرائيلى.

كانت بطارياتنا للصواريخ المضادة للطائرات قد أطلقت صواريخها قبل ذلك ، وكان يحسب لها أنها أسقطت عددًا من طائرات العدو. فقد استطعتنا دراسة تكتيك الطيارين الإسرائيليين ومعرفة نقاط القوة والضعف عندهم. وقد اهتممنا جدا بعمليات التمويه. وقد تم اختيار موقع إطلاق النيران عند طرف حديقة كبيرة بالقرب من قناة رى، وقد تمت تغطية المعدات جيدًا بشبكات صفراء – خضراء ، وبفروع الشجر وعيدان الذرة. وقد تم توصيل أطراف الخراطيم المطاطية الخارجة من مواسير العادم بين النباتات. تم عمل كل ما يمكن بحيث لا يمكن التعرف على الموقع حتى من على الأرض. وبالإضافة إلى ذلك تم عمل موقع هيكلى خادع لا يختلف فى شكله الخارجى عن الموقع الحقيقى على بعد ٨٠٠ مترٍ تقريبًا.

فى يومى الأول والثانى من أغسطس طارت الطائرات الإسرائيلية بمحاذاة القناة، ولكنها لم تدخل فى مجال إطلاق النار لفصيلتنا، فيبدو أنها عرفت بوجودنا فى هذه المنطقة (كانت وحدة أخرى من بطارياتنا للصواريخ المضادة للطائرات قد تمركزت جنوبنا ووحدة مصرية تمركزت شمالنا)، وقد حرصنا على ألا نعلن قبل الأوان عن وجودنا لذلك لم نكن نتصل لاسلكيا إلا لعدة ثوان.

حدثت الغارة التى كنا فى انتظارها فى يوم ٥ أغسطس فى الساعة الثانية عشرة ظهرا، فقد هاجمت مجموعة كبيرة من تشكيلات الطائرات ، وهى طائرة على ارتفاع

كبير وفى عمق الفصيلة المصرية. تمكن المصريون من إسقاط إحدى الطائرات "الميراج"، ولكن لم يدخل العدو فى مجال نيراننا. بعد ساعتين ونصف هاجمت تشكيلات مكونة من ١٦ طائرة إسرائيلية الموقع المصرى لتدميره. رأينا كل الأهداف على شاشات الرادار وبالعين المجردة، وعند اقتراب الأهداف إلى مسافة ١٣ كيلومتراً أطلقنا عليها صاروخين. لاحظنا أن مجموعة الطائرات الأمامية قد قامت بمناورة فى اتجاه القناة ولكن تم إسقاط إحدى طائراتها "الفانتوم"، وفى الوقت نفسه دخلت إحدى الطائرات فى منطقتنا على ارتفاع منخفض وقامت بضرب مركز القيادة بالصواريخ وبالقنابل – ولكن فى الموقع الهيكلى. كنا نطلق الصواريخ ، ونقوم بإخماد النيران بالماء من مجرى ماء الساقية، وقد كانت تنفجر هناك طوال الوقت خرطوشات منيرة مقلدة لإطلاق الصواريخ، وقد صدق الإسرائيليون ذلك.

بعد عدة دقائق أصاب صاروخ طائرة "فانتوم" ثانية فى الجو فانفجرت ، وأصيبت طائرة أخرى. تمكن الطيارون من القفز منها وأسرهم جنود موقعنا "ستريللا-٢" وسلموهم للمصريين.

وفى نحو الساعة ١٧٠٠ ظهرت عدة أهداف فى الشمال تتقدم ببطء فى اتجاهنا بمحاذاة القناة. فى البداية اعتقدنا أن هذه طائرات هليكوبتر، ولكن أفادنا المسئولون عن "ستريللا-٢" بأنهم لا يسمعون ضجيج المحركات. كانت الصواريخ التى أطلقت من موقعنا ومن الموقع المجاور لم تشك فى الأمر ولكنها دمرت نفسها. فقد تبين فيما بعد أن بعض البالونات المطلية باللون المعدنى أطلقها الإسرائيليون فكانت تطير لكى نطلق كل صواريخنا عليها. وقد نفدت فعلاً كل صواريخنا، وعند هبوط الظلام غادرنا المنطقة المجاورة للقناة، وفى اليوم التالى قام الطيران الإسرائيلى بقصف الموقع الذى تركناه.

سارعت إسرائيل باقتراح هدنة بعد أن تكبدت خسائر فادحةً فى الجو لم تتوقعها، وتوقفت الغارات. أما الغريب فهو أن بدأت بالنسبة لنا أيام صعبة، فقد استرخى الضباط والجنود بسبب عدم وجود عمل فبدأوا يخالفون النظام، وبدأوا فى تعاطى

المشروبات الكحولية وفى مغادرة المواقع دون إذن. اضطررنا إلى استخدام أقصى الوسائل التى وصلت إلى المحاكمة العسكرية فى الحالات الخطيرة لحفظ النظام. كانت هذه أياماً صعبة، وقد فرح الجميع عند علمهم بقرار إعادتنا إلى الوطن.

ولكن كان ينتظرنا هناك ما لم يكن فى الحسبان وما لم نكن مستعدين له. كنا واثقين من أننا قد قمنا بواجبنا العسكرى بشرف، لذلك انتظرنا أن يتم استقبالنا بفرح فى وطننا، ولكن ذلك لم يحدث. ففى يوم ١٢ مارس بعد مغادرتنا للسفينة "إيفان فرانكو" فى ميناء "سيفاستوبول" أحاطت بنا حلقة من الجنود المسلحين ، وحبسونا فى مخزن للبضائع ، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إلى أى مكان. وفقط بعد إلحاحنا الشديد بدأوا فى توصيلنا إلى المطعم فى طوابير، وأخيراً عندما تفرقنا كل إلى بيته تبين أنه لم يتم وضع أية بيانات للجنود ولصف الضباط الذين انتهت مدة خدمتهم العسكرية فعلاً فى بطاقات خدمتهم العسكرية. وأنه يتم استدعاء بعضهم حتى اليوم إلى مكاتب التجنيد لسؤالهم ، ولطلب مستندات تثبت مكان وجودهم لمدة ٩-١٥ شهراً فى عامى ١٩٧٠-١٩٧١ .

وعلى الرغم من كل هذه المنغصات فى أسلوب حياتنا فإنها لم تمنعنا من تذكر تلك الأيام والشهور التى أمضيناها تحت الشمس الإفريقية الحارقة، وكذلك العمل الشاق الذى أعطيناه جهداً كبيراً . تغير الزمن وأصبح الآن يضم فرعاً عسكريا خاصا فى جمعية أصدقاء مصر يخص "المحاربين القدماء المشاركين فى الحملة المصرية".

ناستنكو يورى فاسيليفيتش – عقيد متقاعد فى القوات الجوية الحربية – قائد وحدة سرب فى مصر

كان السؤال الذى وجهه لى قائد القوات الجوية اللواء طيار "ف.س.لوجينوف" فى ١ أغسطس ١٩٦٩ واضحًا ودقيقًا: "ما رأيك فى اقتراح قيادة مجموعة من

الطيارين المتطوعين لتقديم المساعدة "الأممية" للشعب المصرى لمواجهة الاعتداء الإسرائيلى؟" لقد تم تجهيزى خلال ٢٠ سنة لكى أرد على مثل هذا السؤال إيجابيا، فلم أكن أجد أية إجابة أخرى.

استدعينا فى اليوم التالى أنا وقائد فوج آخر بالقوات الجوية، الملازم "كوروتيوك"، إلى اجتماع برئاسة وزارة الدفاع. حضر ، أيضًا ، عدد آخر من الطيارين الاجتماع. أمطرنا أحدهم بمجموعة من الشعارات عن حتمية انتصارنا ردا على سؤال الوزير. كان النعاس قد غلب رئيس الأركان مارشال الاتحاد السوفيتى"زاخاروف". رفع عينيه وقال: "هل ستتمكنون من تحطيم العدو أو لا؟. هذا ما لا أعرفه. ولكن يجب أن تعيدوا إلى الوطن وإلى العائلات الطيارين أحياءً وليس فى صناديق مجلفنة". ثم أضاف:"لا تأخذوا معكم المنافقين، فهم أول من يهرب من ميدان المعركة".

تكونت مجموعة الطيران من فوجين (هكذا كان يطلق عليهم المصريون). وللدقة من سربى (٥٠ طائرة) ، وفرقة كوروتيوك (٤٠ طائرة). كان التسليح عبارة عن طائرات "ميج ٢١ م.ف." المقاتلة المحدثة والمسلحة تسليحًا قويا. كان لهذه الطائرات بعض العيوب، منها قصر المدى الذى يرصد فيه رادارها الهدف وزيادة تصاعد الأدخنة من المحرك. لذلك كان يمكن رصدنا فى الجو الرائق من على بعد ٥٠ كيلومترًا. أما بالنسبة لخصائص الطيران فقد كانت على مستوى المقاتلات "الميراج" الإسرائيلية نفسه. وكان من واجبات مجموعتنا الدفاع عن القوات البحرية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط والأهداف الصناعية والحربية من الحدود مع ليبيا إلى القاهرة، وكذلك المناطق الصناعية فى جنوبها وسد أسوان العالى.

بدأت فرقتى فى الخدمة الحربية فى يوم أول فبراير ١٩٧٠، تمركزنا فى مطارات تبعد ٢٠٠ كيلومتر عن قناة السويس. كانت طائراتنا تحلق فى أماكن مخصصة لها، وهى مستعدة للاشتباك مع العدو. فى ذلك الوقت كان الإسرائيليون يوجهون ضربات صاعقة على الأراضى المصرية التى تبعد عن مدى مقاتلاتنا. كان كل من طيارينا (أكثر

من ١٠٠) قد قام بنحو ١٠٠ طلعة حتى بداية شهر يوليو، ولكنهم لم يشاركوا فى أية معركة جوية. حتى ذلك الوقت كنا قد تأكدنا من تسرب المعلومات عن طريق وسائل الاتصال الأرضية. كانت القيادة الإسرائيلية تعرف تمامًا خطط طيراننا وبخاصة الحربية منها. كما كانت توجد مشاكل ، أيضًا ، من الجانب المصرى. فكثيراً ما كنا نحمى تشكيلات من المقاتلات ومن القاذفات المصرية فى أثناء طيرانها فوق خط الجبهة، فكان يحدث أن تناور مقاتلاتنا مثل الثعابين لتفادى ضربات قواتنا المضادة للطائرات، ولكن لا يظهر من كان علينا حمايته. وقد وافق أحد القادة المصريين بصعوبة شديدة، وبشرط المحافظة على السرية التامة ، على أن يعرفنا على المخطط العام للمعارك الجوية بين الطيران المصرى والإسرائيلى. لم أفهم ، لماذا تم إخفاء هذه المعلومات القيمة عنا؟ فقد ساعدتنا فى عمل تخطيط حديث للقتال فى الظروف المحلية. أعطت القيادة موافقتها على العمليات الحاسمة، فتمت مركزة سرب منفصل شرق القاهرة فى وادٍ وعرٍ ، تم قطع سواتر خادعة فى صخوره للطائرات. بدأنا مناورات خادعة لم نخطر بها دائمًا حتى الجانب المصرى. كانت الطائرات التى تنطلق إلى الجو تشكل "طوابق" فوق بعضها. كان الطابق السفلى ينخفض عند الخط المستقيم للهبوط بينما ينطلق الطابق الأعلى للقيام بدورةٍ أخرى. بهذه الطريقة لم يعرف أحد، خاصة العدو، أن مقاتلاتنا تنصب كمينا دائمًا، كما كان الطيران يتم بصمت تام حتى الوصول إلى نقطة بدء القتال، وفى حالة ظهور هدف كانت تصلنا إحداثيات العدو باستمرار، فكان قائد السرب يشكل المناورة بنفسه. أدى هذا الأسلوب فى الهجوم إلى نتيجة ، ففى ٢٢ يونية استطاع فريق "كرابيفين– سالنيك" إسقاط أول طائرة "سكاى هوك".

بعد أسبوعين من ذلك قام الإسرائيليون بعملية ضد مجموعة الطائرات السوفيتية تم التخطيط لها بدقة. خسرنا أربع طائرات فى معركة شرسة ، وقتل ثلاثة طيارين. احتراقنا بالخسائر أعطانا خبرة مفيدة ؛ فأصبحنا أكثر حذقًا وأكثر شجاعة وحريصين جدا، وأصبحت الحرب متكافئة.

جورياتشكين جينادى فاسيليفيتش - أستاذ بجامعة موسكو الحكومية - مترجم حربى سابق فى مصر

حضرت إلى مصر فى نهاية شهر أغسطس ١٩٦٩؛ فتم تعيينى كبير المترجمين فى الفرقة المتمركزة على بعد ٢٠ كيلومترًا من المدينة. وتم إسكانى فى مساكن عسكريينا بحى مدينة نصر فى القاهرة، فقد ظهر مكان فى المساكن الكاملة العدد، عادة. ظهر مكان "خالٍ" ، حيث قتل أحد مستشارينا فى أثناء غارة إسرائيلية.

كان هذا ثالث ضابط سوفيتى يقتل فى مصر. كل منهم كان يقوم بتنفيذ واجب المستشار للقيادة المصرية لفصائل المدفعية المضادة للطائرات التى كانت تحمى تشكيلات صواريخ الدفاع الجوى. كان جارى الرائد يكرر كثيرًا بأنه سيكون التالى...

كانت أول مرة أواجه فيها موت أحد فى المعارك الحربية، فكانت حالتى يرثى لها. كانت المروحة القوية عاجزة عن مكافحة الرطوبة، أو الجو الخانق ، أو الخيالات التى كانت تجىء إلىَّ عند تفكيرى بأنى نائم على فراش شخص قتل لتوه، وقد تم حصر حاجاته بمشاركتى وإرسالها إلى موسكو. وما زلت أتذكر أحد أحلامى فى ذلك الوقت: كنت مصابًا فى قدمى. أجرى... بل أزحف على وجه الدقة هاربًا من معسكر اعتقال إسرائيلى من تحت الأسلاك الشائكة. وفى أثناء ذلك كنت لسبب ما أجر خلفى فتاة ...

كان عدد المترجمين السوفيت الحربيين فى مصر نحو ٥٠٠ معظمهم يترجمون من الإنجليزية. وكان حجم العمل المكلف به المستعربون ضخما جدا، فكان عليهم عمل الترجمة الفورية لعدة ساعات متتالية فى أثناء إلقاء المحاضرات التعليمية للفرق. كان ذلك يمثل مدرسة قوية خاصة لحديثى التخرج من الجامعات والمعاهد.

بدأ الطيران الإسرائيلى فى النصف الثانى من عام ١٩٦٩ فى شن الغارات فى عمق الأراضى المصرية ، دون أن يواجه مقاومة تذكر من قبل قوات الدفاع الجوى التى سبق تدميرها، بالطبع وجهت الضربات الجوية للقوات العسكرية . أيضًا، كانت الخسائر المادية والمعنوية هائلة. تكبدنا نحن ، أيضاً ، خسائر. فعلى سبيل المثال قتل ثلاثة من مستشارينا وكبير المترجمين المستعربين القادم من مدينة باكو "محمود يوسوبوف" فى أثناء غارة على مركز قيادة الفرقة المدرعة فى دهشور ، وأصيب زميل آخر له بإصابة اخترقت رئته . وإلى الآن مازالت أذنى تسمع اللحن الجنائزى لشوبان الذى عزف فى أثناء حفل التأبين، قمت بصعوبة بالغة بترجمة خطب الوداع فى هذا اليوم.

تنفسنا كلنا الصعداء - نحن والمصريون- أخيراً فقط بعد أن وصلت قواتنا المضادة للطائرات والطيارون والبحارة. هنا تغير الوضع وأعيد توزيع فرقتنا إلى مدينة "قنا" قرب أسوان ثم مرة أخرى إلى إحدى ضواحى القاهرة. هنا خدمت فى مركز اتصالات كبير المستشارين العسكريين وفى الوقت نفسه كنت أترجم فى المستشفى الحربى السوفيتى...

فيما يلى شهادات من شارك فى العملية "قفقاز". أريد أن أتحدث على وجه الخصوص عن فرقة الدفاع الجوى التى قادها "بوريس إيفانوفيتش خايفورونوك". أصبحت هذه الفرقة بدءًا من يوم ٣ يونيو ١٩٧٠ لا تمثل خطراً كبيراً فقط على طائرات "الميراج" و"السكاى هوك" الإسرائيلية، بل إنها أسقطت طائرات "الفانتوم " التى كان يعتقد من قبل أن دفاعنا الجوى غير قادر عليها. كانت أكثر المعارك سخونة فى يوم ١٨ يولية، فقد هاجم الإسرائيليون بشدة فصيلة مصرية، ثم بعد ساعتين هاجموا تشكيلات الفصائل التى كان يرأسها الرائدان "م.منصوروف" و"ف.تولوكونيكوف"، فلم يتركوا فى المواقع المصرية أى حجر واقف على الآخر، لأن رجالنا أسقطوا ثلاثًا من طائراتهم "الفانتوم" مما أثار غيظ الإسرائيليين تماماً. وبعد وقت قصير جاءت طائرتان "فانتوم" من الخلف وضربتا المواقع بالتناوب بالقذائف التفاعلية ثم بالقنابل. قتل ثمانية من رجالنا واحترقت وحدة الإطلاق كما انفجرت الصواريخ ووحدات الديزل. اضطررنا

للانتقال إلى موقع آخر على وجه السرعة وإلا لما تبقى أحد منا بعد الموجة التالية من طائرات "الفانتوم"، فقد كان يجب أن تلاقى هذه الموجة فصيلة أخرى جديدة.

هنا يجب علينا أن نضيف أنه تمت تقوية الدفاع الجوى فى منطقة القناة ، وكذلك عند الأهداف الإستراتيجية المهمة الأخرى فى مصر، حتى على بعد ألف كيلومتر من الجبهة فى أسوان. أتذكر بصفة خاصة المناطيد الواقية المعلقة فوق سد أسوان العالى، فقبل ذلك بكثير عندما كان يسير العرض العسكرى فى صباح يوم ٢٤ يونية ١٩٤٥ احتفالاً بالنصر فى موسكو (وقد شارك فيه مؤلف هذه السطور)، تجمعنا فى الصباح الباكر فى ميدان "بولوتنايا" أمام دار العرض "أودارنيك"، حاليًا، أذكر ، أيضًا ، أننا تجمعنا بالقرب من المناطيد الواقية الراقدة على الأرض فى هذا المكان، عندئذ قال أحد رجالنا " أيتها الفقاعات أنت ، أيضًا ، انتهت الحرب بالنسبة لك" (كان قد تم إسقاط عشر طائرات بواسطتها فى أثناء الحرب كلها). فرد عليه آخر:"من يعرف؟ قد يتم الاحتياج لها مستقبلا". وهى قد نفعت، ولكن أين؟ فى أسوان. هل هى كانت حقيقة قادرة على حماية السد؟ ولكن أحدهم فى موسكو أصر على ذلك وأرسل تلك المناطيد التى استخدمت فى الحرب العالمية الأولى إلى هذا المكان البعيد.

كانت الأمور فى ذلك الوقت قد وصلت إلى الختام فى منطقة قناة السويس، حيث" تعادلت الأمور"، فقد تعلم رجالنا كيفية نصب الكمائن وأن يخرجوا بالدور إلى القناة لإطلاق النيران فجأة على ما يظهر من طائرات "من خلف التل" (فقد صنع الإسرائيليون على الضفة الأخرى تلاً وصل ارتفاعه إلى ٣٠ مترًا من الرمال) ، مما كبد القوات الجوية الإسرائيلية خسائر فادحة. نجح ذلك بصفة خاصة فى منطقة الإسماعيلية، ففى تلك المنطقة أصبحت الفصائل التى قادها المقدمان "ك. بوبوف" و"ن. كوتينسوف" ببساطة "محترفة كمائن". وقد أجبر فتياننا ذوو العيون الزرقاء الإسرائيليين على التفكير" هل يستمرون فى الحرب مع هؤلاء "المصريين" المتحدثين بالروسية ؟ أو يبحثون عن طريقة للسلام؟" وكان القرار فى صالح السلام.

بدأت إسرائيل فى ٥ أغسطس مفاوضات لعقد هدنة مؤقتة مع مصر. وفى ٧ أغسطس اتفق الجانبان. ثم فى ٨ أغسطس تم وقف إطلاق النار. فانطفأت فوق قناة السويس هالة ومضات الصواريخ وانفجارات الطائرات، وبدأ عهد جديد، عهد "كامب ديفيد".

يتم عادة ربط هذا السلام الذى وقعته مصر مع إسرائيل فى مقر رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية باسم "أ.السادات". ولكنى أرغب هنا فى التعبير عن رأيى فى هذا الموضوع: نعم هذه كانت خطوة ثورية قامت بها مصر فى السياسة الدولية والإقليمية. نعم لقد بدأ "أنور السادات" عملية السلام وذهب إلى " كامب ديفيد". ولكن لم يكن هذا قراره، بل إن الرئيس "جمال عبد الناصر" قد اتخذ هذا القرار فى آخر شهور من حياته.

أتذكر عند عودتى من الاتحاد السوفيتى فى ربيع عام ١٩٧٠ أن إشاعات سرت فى القاهرة عن الخلاف فى الرأى بين "ناصر" و"السادات" بخصوص العلاقات مع موسكو، فقد سأل السادات رئيسه سؤالاً مباشراً "ألم نذهب أبعد من اللازم فى صداقتنا مع الروس؟" فهم "عبد الناصر" أن هذا السؤال ليس موجها من "السادات" ولكن من الرأسمالية المصرية التى زادت قوتها وتعبت فى الوقت نفسه من الحروب المستمرة ومن "التجربة الاشتراكية" للرئيس. طبعًا لقد أوقفت القوات الروسية ذات الملابس العسكرية المصرية الضغط على القناة، ولكن كانت مصر منهكة تمامًا ولم يكن من الممكن استمرار ذلك الوضع لفترة أطول.

فقرر "ناصر" ، أيضًا ، أن يمضى فى خطوة سليمة تاريخيا، عمل خطوة فى اتجاه السلام مع إسرائيل وهى مازالت فى منطقة القناة وهو يضع فى اعتباره أنه لا رجعة فى هذه الفكرة.

حاولت موسكو أن تثنى "ناصر" عن عمل هذه الخطوة حيث لم تأخذ فى الاعتبار أنه قد تم توريطها بالفعل فى حرب "ساخنة" بالشرق الأوسط. كان "ناصر" صلبًا لا

يلين. أصبح الآن من المخيف تصور كيف كانت يمكن أن تتطور الأحداث فيما بعد لو لم يتحقق ذلك.

الانسحاب

بدأت الهدنة ، ولكن استمر وجود قواتنا المسلحة في مصر. وقد كنت موجوداً شخصيا في مواقعها المختلفة بالقاعدة الجوية في غرب القاهرة والإسكندرية ومرسى مطروح، كما رأيت في المساء كيف يشاهد بحارة سفننا الحربية الراسية في ميناء الإسكندرية الأفلام السينمائية. كانت شاشات السينما التي يتم العرض عليها هي أجسام السفن العملاقة البحرية، كانوا يتجولون في الميناء لاختيار السفينة الأصلح لعرض الفيلم عليها، تماماً كما يحدث في ميناء "سيفاستوبول". كنا نلقي المحاضرات على العاملين المرهقين في قواعد الصواريخ، وكنا نحدثهم عن الأوضاع الدولية ، وعن مصر التي يدافعون عنها ، ولكن التي لم يعرفوها، ولم يشاهدوها فعليا. فجأة أبدى ضباط القيادة اهتمامهم بالوضع السياسي الداخلي في مصر، كأنهم كانوا مهتمين به تماماً طوال حياتهم. وقد ألقيت عليهم مرة محاضرة في هذا الموضوع في نادي الضباط في هليوبوليس...

أريد هنا أن أشير إلى أنه بعد اتخاذ "ناصر" لقراره "الحاسم"، يبدو أن القلق أصاب قيادتنا بخصوص مستقبل خروج مصر من "اللعبة الإستراتيجية" فبدأت ترسل إلى القاهرة رسولاً بعد الآخر. فحضر إليها على سبيل المثال وفد اللجنة الحكومية للعلاقات الاقتصادية الخارجية برئاسة رئيسها "س.أ.سكاتشكوفى"، وقد أحطناها منذ البداية علما بالوضع. وقد طالبت هذه اللجنة بتسديد مصر للديون، فمارس المصريون مع هذه اللجنة لعبة "القط والفأر" لمدة شهرٍ كاملٍ مطالبين بالتأجيل، عندئذ اتخذت "موسكو" قراراً حاسماً بعدم منح مصر أي قروض وعدم إرسال أية عملة حرة إلى القاهرة. وبالإضافة إلى ذلك أن تدفع مصر تكاليف الهيئات السوفيتية وآلاف الخبراء

عن طريق سحب الأموال من "تصفية مقاصة" البنك المركزي (أي من الحساب المودع به دين مصر). من حيث المبدأ، فقد بدأت منذ زمن بعيد كل الدول المدينة لها مصر في التعامل بهذا الأسلوب ما عدا موسكو، فقد استمرت في تحويل نقود بالعملة الصعبة بانتظام إلى القاهرة للصرف على مواطنيها. توقفت الآن عن ذلك مما أدى بالطبع إلى رد فعل مؤلم من القاهرة.

لم تمر ، أيضًا ، زيارة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي "ب. ن. بونوماريوف" الذي كان أيديولوجيا رائدًا في ذلك الوقت مرور الكرام. لقد طلب مني فجأة أن أصف له "الوضع الأيديولوجي" في مصر. وقد دهشت لأن هذا الحديث لم يدر بيننا في السفارة ولكن في حديقة الفيلا التي بها مكتب وكالة "نوفوستي" للأنباء، وكان يطلق عليه اسم "مكتب السفارة الصحفي". قلت له: " على الرغم من السياسة الاشتراكية الرسمية فإن ٩٠٪ من الجهاز الأيديولوجي في مصر قد تلقى دراسته في الغرب، فهم لذلك لا يشاركون رئيسهم في وجهة نظره، وأصبحت تنشر في الصحف مقالات تنتقد ناصر، خاصة في الفترة الأخيرة. سألني "ب .ن. بونوماريوف" وهو ينظر إليّ مندهشًا "ولماذا لا يقبض عليهم؟" أجبته بانفعال "هذا يحدث في بلد أخرى وليس عندنا، فقد حاول "ناصر" القبض على بعضهم، فأثارت نقابة الصحفيين بمصر ضجة هائلة أدت إلى إطلاق سراح كل من اليمينيين واليساريين. بعد ذلك لم يعد يتخذ الرئيس مثل هذه الإجراءات. فهمت فورًا أنني قلت ما لا يجب قوله فأثرت ضجر هذه الشخصية المهمة. كان ذلك واضحًا من طريقة استعداله لنظارته ومن تقطيب جبينه "الرئاسي" الأملس.

– هل أنت في مصر من مدة طويلة ؟

– نعم، منذ خمس سنوات.

– أكمل، من فضلك...

استمررت في شرح "الوضع الأيديولوجي" لمدة نصف ساعة. ثم لاحظت أن سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي قد بدأ يفكر في شيء آخر. أصبح

من الواضح أن "ب. ن. بونوماريوف" قد حضر لكي يقيم إمكانية "تصحيح الوضع" في مصر على الرغم من أن "ناصر" لم يكن في واقع الأمر يمينيا أو يساريا في أي وقت، ولكنه كان عربيا قوميا وشخصية رسمية بارزة، كما أنه كان يتفاعل بمرونة مع الروح السائدة داخل البلد ومع التغييرات في المنطقة وفي العالم.

توفي الرئيس "جمال عبد الناصر" فجأة في يوم ٢٨(*) سبتمبر ١٩٧٠ بسبب أزمة قلبية حادة. فبدا كأنه قد تم صب ماء بارد تمامًا على القاهرة الحارة المستنفرة... وكذلك على موسكو والعالم كله ، أيضًا.

حضر جنازة "ناصر" وفد على مستوى عالٍ من بلدنا برئاسة رئيس الوزراء "ألكسي كوسيجين". خرجت ملايين القاهرة، كبارًا وصغارا، إلى الشوارع لوداع الرئيس. وسقط كل من نائب الرئيس "أنور السادات" ورئيس الوزراء "علي صبري" على التوالي فاقدي الوعي في حفل التأبين الذي حضره رؤساء كل الوفود الأجنبية. كان من الممكن فهمهما باعتبارهما أقرب الناس للرئيس الفقيد، فقد كان كل منهما يطمح في مقعد الرئاسة الشاغر. كان "السادات" يميل إلى الغرب بينما كان الآخر عربي قومي. انتصر الأول في معركة سياسية حامية، ولكن بعد مرور عام...

وصل من موسكو مع وفدنا عدد من الشخصيات المتخصصة في مشاكل الشرق الأوسط. كانوا مهتمين بالطريقة التي سوف تتطور بها مصر في المستقبل، كما كان العسكريون أيضًا مهتمون بذلك بدلالة وجود ممثل الأركان الحربية الجنرال "كونستانتين يفيموفيتش سيسكين". وكان أكثر نشاطًا من الآخرين لدرجة أنه تمكن من الحديث مع كل الصحفيين السوفيت المعتمدين في مصر، وتحدث معي أيضًا. كان تحليلي للوضع السياسي الداخلي يؤدي باختصار إلى ما يلي: لقد عمل "ناصر" الكثير جدا لتقوية وضع الطبقات المتوسطة في فترة الحكم التالية للملكية الحديثة. وفي خلال فترة حكمه قويت البرجوازية المصرية لدرجة أن أصبحت مصالحها تتعارض مع مبادئ اشتراكية البرجوازية الناصرية الصغيرة. وقد حاولت أن تزيح الرئيس بأيدي العسكريين الذين دفعوا "ناصر" إلى حرب مع إسرائيل لم يتم الاستعداد لها. ولكنهم

(*) في الأصل ٢٩ ، والصواب ما أثبتناه . (التحرير)

لم ينجحوا فى هذه المؤامرة. فقد ساعد وجودنا القوى فى المحافظة على النظام الحاكم. وقد وجدت البرجوازية المصرية فى الهدنة على القناة ، وفى اتفاقية السلام المنفصلة فرصة لتقوية تعاونها المفيد لها مع الغرب بدلاً من مواجهته. ويبدو أن هذا سيصبح الاتجاه الرئيسى فى مصر بعد "ناصر" وسوف يكلف "السادات" بتحقيق ذلك عمليا. فقد كان ينتقد "ناصر" فى الفترة الأخيرة بسبب الصداقة الحميمة مع موسكو. لقد تم وضع حد لوجودنا، على أية حال بشكله الحالى. لم تعد هناك حرب وبدأنا "نضايق" المصريين. يجب إخراج القوات العسكرية وتغيير أسلوب القوة إلى البحث عن وصفات سياسية. سوف تخرج مصر مؤقتًا من اللعبة لأنها ستكون منشغلة بمشاكلها الداخلية، وقد تظهر قوى يمكنها استخدام وجودنا ضدنا على الرغم من وضعنا المليارات لتأكيد قدراتهم على الدفاع عن أنفسهم... كما أننا سكبنا هنا دماءنا...

لا أعرف إلى أى مدى أقنعت فى ذلك الوقت الجنرال "سيسكين"، ولكن يبدو أنه بعد أن حلل حديثنا وجد أنه يمكن أن ينقل محتواه لـ "أ. كوسيجين". فطلب منه الأخير أن يقدم كل هذه المعلومات إلى المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتيى هيئة التقرير لكى يوقعه. وقد طلب منى عمل هذا التقرير مع مستشار السفارة "ن.ب.رايفسكى". جهزنا التقرير فى الليل وقدمناه لإرساله إلى "كوسيجين" فوراً. قرأه "ألكسى نيكولايفيتش" ، وقال:" سوف أتحدث بنفسى مع "السادات"، فهذا مهم جدا أتذكر . أننا بقينا فى السفارة نصف يوم فى انتظار عودة رئيس الوفد، وعند عودته أمر بإرسال التقرير إلى موسكو. عندئذ بدأت عملية تبادل للآراء فورا بين "السادات" و"كوسيجين" بخصوص تعيين سفير جديد فى مصر بدلاً من السفير "س.أ.فينوجرادوف" الذى توفى فى يولية ١٩٧٠ ، كان الحوار تقريبًا كما يلى: قال "السادات" :" توفى ناصر عندنا، هذا أمر صعب علينا، وكثيراً ما تكون هناك حاجة للتشاور معكم، وعندكم ، أيضًا، حداد فقد توفى السفير. أريد أن أعرف متى سوف ترسلون لنا السفير الجديد، وهل هناك من ترشحونه أو لا؟". وقد شارك المسئول بوزارة الخارجية عن شئون الشرق الأوسط نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتى "فلاديمير

ميخايلوفيتش فينوجرادوف"في الحوار بين "أ.ن. كوسيجين" و"أ.السادات". استدار "أ.ن.كوسيجين" إلى "ف. م. فينوجرادوف" قائلا:"هاهو مرشحنا. هل توافقون عليه؟". لم يبق للسادات أي شيء يفعله إلا أن يهز رأسه موافقًا. وبعد فترة قصيرة قدم سفير الاتحاد السوفيتي فوق العادة المفوض في مصر "ف. م. فينوجرادوف" أوراق اعتماده للسادات.

تغير الزمن، فقد بدأ رئيس مصر الجديد "السادات" في استبعاد أهم الناصريين لكي تكون أدوارهم ثانوية. ثم ضرب في مايو ١٩٧١ أقرب من أحاط بناصر. فتم القبض على "على صبري" وعلى القادة الآخرين، وكان كل شيء يسير ناحية إنهاء التعامل معنا.

في الحقيقة لم نكن نشعر بذلك، وكنا نتصرف في مصر كما في السابق كما لو كنا في وطننا. تصرفنا بالطريقة الروسية المعتادة، ففي الإسكندرية ، حيث كان يوجد مركز قيادة أسطولنا في البحر الأبيض المتوسط كنا نزور سفننا لتناول الغذاء مع البحارة ، وللحديث مع الرئاسات والتمتع باستخدام حمام البخار.

وفي مرسى مطروح ، أيضًا، حيث كانت تقف سفننا، وصل تفكير أحدهم إلى أن وضع حراسة حتى في الصحراء عند مدخل المدينة. وفي إحدى المرات لم تسمح هذه الحراسة بدخول "أ.السادات" "وم.القذافي" اللذين مرا في الجوار إلى المدينة، مما تسبب في فضيحة ضخمة فيما بعد. كما كانت طائراتنا الناقلة وغيرها تقلع وتهبط في القاعدة الجوية غرب القاهرة وقتما شاءت. وامتدت المدن العسكرية غير بعيدة وممرات الإقلاع والهبوط على خط بكل ما يحدث فيها من حياة معتادة: استيقاظ، وتمرينات رياضية وباقي أمور الحياة اليومية العسكرية التي تنتهي في المساء بالجولات مع الغناء. وارتفعت في الصحراء أغنية "لك يا حبيبتي خطاب من البريد الحربي".

ولكن حان الوقت لرجالنا الأمميين أن يستعدوا للسفر في الاتجاه العكسي، ففي أوائل شهر يولية ١٩٧٢ وفي إحدى المقابلات العصبية مع سفيرنا "ف.م.فينوجرادوف"

طلب "السادات" منذراً بسحب القوات السوفيتية من مصر فى خلال أسبوعين. كان هذا القرار نهائيا وقد تم نقله بالطبع إلى الرئاسة المركزية.

لم تكن موسكو تعيش فى ذلك الوقت أحسن أيامها، فقد توفى قبل يوم فى ٣١ يناير ١٩٧٢ أحد الرواد "المؤسسين" للسياسة العسكرية للاتحاد السوفيتى فى مصر هو المرشال "م. ف. زاخاروف". وما كاد يتعامل رئيس الأركان الجديد المارشال "ف. س. كوليكوف" مع المشكلة حتى اتصل به عضو المكتب السياسى فى ذلك الوقت " أ. ب. كيريلنكو"رئيس لجنة الشرق الأوسط، بعد توتر آخر مع "السادات". فأجابه المارشال قائلا باختصار:"سوف نتخذ الإجراءات اللازمة".- "آمل أن يكون رجلكم موجوداً الآن هناك". أجاب الآخر:"نعم هو هناك". كان المارشال يعرف (وقد يكون لم يعرف) أنه يوجد "هناك" الكثير من رجال المخابرات الحربية وبقدر كاف. ولكنه أرسل إلى مصر أحد "رجالة" إضافة هو الجنرال "أناتولى جيورجوفيتش بافلوف".

مضى الآن وقت كاف يسمح لنا بعده أن نروى بعض التفاصيل عن هذه "الزيارة البافلوسكية" لمصرالتى توافقت مع وقت "غروب" وجودنا فى مصر.

كان الأمر يتعلق بوجود راكب آخر على طائرة رئيس الأركان التى أقلعت من مطار "تشكالوفسكى" القريب من موسكو بناءً على دعوة من "أناتولى جريجوريفيتش". كان هذا الراكب مؤلف هذه السطور. كيف حصلت على هذا الشرف ؟ كان يمكن تخمين ذلك فقط. قد يكون "ك. أ. سيسكين" قد أوصى بأخذى إلى هناك مستشاراً، وقد تكون سفارتنا هى التى أوصت بذلك متذكرة تقاريرى التحليلية عن الوضع فى مصر. مهما كان الأمر فقد تبادلنا الحديث بحرية لمدة خمس ساعات استغرقتها الرحلة. ناقشنا مواضيع كثيرة جدا. كان يعتبر "أ.ج. بافلوف" فى ذلك الوقت شخصية مهمة لأنه كان متزوجا من ابنة "ك. إ. فوروشيلوف"(أحد كبار القادة السياسيين فى تاريخ الاتحاد السوفيتى). لذلك فقد شغل عدة مناصب مهمة من مناصب الصفوة العسكرية. لقد فهمت أن سفرنا لا يهدف إلى وقف سحب قواتنا من مصر أو الإبطاء منها. ولكنه يهدف إلى محاولة تحديد مدى تمكن الولايات المتحدة الأمريكية من ربط "أنور

السادات" بعملياتها الدولية والإقليمية، وكذلك معرفة ما مقدار الزمن الفعلى المتوفر لنا لكي نترك مكاننا فى مصر للأمريكان بكرامة. كانت موسكو على علم بالمراسلات بين "السادات" و"ر.نيكسون". كما كانت تعرف تفاصيل العديد من المبادرات الأمريكية. وكانت تعرف أمورا كثيرة أخرى. يبدو أن "أ. بافلوف" كان مكلفًا بعمل "استكشاف فى الموقع" بهدوء وفى صمت، على الرغم من قيام كثيرين آخرين بذلك من قبله.

واجهتنا طبعا بعض المنغصات، فقد تم تعطيل هبوط طائرتنا لفترة طويلة جدا فوق القاهرة. كنا ندور فى حلقات وننخفض طوال الوقت، وفى إحدى الدورات طرنا تقريبا فوق سطح السفارة تمامًا. وقد تمكنت من تحديد من يوجد بها ومن لم يوجد بالتعرف على السيارات الواقفة. وقد أريت كل ذلك بالطبع لـ"أ.ج. بافلوف". وقد تم تحديد مكان فى أبعد ركن فى المطار لوقوف طائرتنا. واقتربت منا سيارتا نقل عليها جنود قاموا بمحاصرة الطائرة. لم يسمحوا بنزول أحد إلا بعد وصول القنصل السوفيتى. وقد شرح لنا القنصل فيما بعد أنه لم يتم إخطار المصريين مسبقًا بطيراننا إليهم لذلك فقد اتخذوا "احتياطيات أمنية" كما قالوا.

بمجرد وصولنا إلى السفارة قدمنا أنفسنا إلى السفير "فلاديمير ميخايلوفيتش فينوجرادوف" الذى شرح لنا الوضع بالتفصيل. طبقًا لما رواه: فإن "السادات" قد قدم بعد وفاة "ناصر" خمس مرات قوائم لتوريد أسلحة إضافية، وفى كل مرة كانت موسكو تؤكد "إننا نقف دائمًا فى جانب العرب" ، ولكنها لم تورد أى شىء.

وفى النهاية، فى اللقاء الأخير للسادات مع "ف.م.فينوجرادوف" ونظرًا لغضبه من ذلك صرخ بهستيرية:"لقد أدى الدب الروسى عمله فى مصر. ولا يوجد أى عمل له آخر هنا فى الصحراء!". وقفز بعصبية من مقعده ، وأخذ يجرى فى حجرة المكتب ، ويخبط بقبضتيه الحائط إلى أن ساءت حالته تمامًا فأخرجه مساعدوه من الباب وهم يسندونه بأيديهم. ماذا يجب عمله ؟ لم يستطع "فينوجرادوف" الخروج الآن. كان يجب تهدئة الوضع ، واستكمال الحديث فى جو هادئ ... فقرر أن ينتظر. أكمل

طبقًا لرواية "فلاديمير ميخايلوفيتش": ظهر "السادات" بعد ساعتين فى ملابس أخرى، وقال بحزم : "أعطيكم أسبوعين لسحب قواتكم، قولوا ذلك لموسكو". وبذلك انتهت المقابلة الرسمية.

بدأت منذ هذه اللحظة عملية تصفية الوجود السوفيتى فى مصر، كانت مهمة "أ.ج. بافلوف" متعلقة مباشرة بهذه التصفية. لقد بقى فى مصر لمدة شهرين، أما أنا فقد أبقتنى هناك وكالة أنباء "نوفوستى" حتى أعياد أكتوبر، وما زلت أتذكر اللقاء الذى نظمه لى زملاء القلم، ففى أول ليلة أقيم على شرفى حفل عشاء جماعى عرفت فيه أنا، من ترك مصر منذ فترة بدت وجيزة، الكثير من التفاصيل القاهرية، بينما رويت للزملاء آخر أخبار موسكو. حضر هذا العشاء نجوم صحافتنا: من جريدة "برافدا" يورى جلوخوف، ومراسل جريدة "إيزفستيا" ليونيد كوريافين، ومراسل جريدة "ترود" أناتولى ريبين، ومراسل جريدة"كومسومولسكايا برافدا" أناتولى أجاريشيف، ومراسل الإذاعة "ليونيد راسادين" ، بالإضافة إلى مجموعة الأخوة العاملين بوكالة "تاس" للأنباء برئاسة "يورى تروشين" ، وبوكالة "نوفوستى" للأنباء برئاسة "بوريس كروتكوف" "وفاديم شينيكوف".

كان "أ.ج. بافلوف" مشغولاً بأعماله وأنا أقوم بأعمالى. طبعا كان على فى بعض الأحيان أن أقوم بدور الاستشارى بالإضافة إلى القيام بمختلف الأعمال "السوداء" بالمشاركة مع "ن. ب. رايفسكى" رئيس مجموعة السياسة الخارجية فى السفارة. عملنا بفاعلية فمضت الأعمال جيداً. سافرنا أنا و"أ.ج.بافلوف" إلى الإسكندرية وبورسعيد. كما أريته كل القاهرة. حتى إننا قد ذهبنا مع الضيف الكبير إلى "أوبرج الأهرام" الذى كان يعتبر فى ذلك الوقت أفخر نادٍ ليلى فى العاصمة المصرية.

على قدر علمى، كانت مهمة "أ. ج. بافلوف" ناجحة،. فقد سمح "استكشافه" بعمل استنتاجات سياسية جديدة بعيدة المدى ، وأساسية للاتجاهات المتبعة بعد تغيير القيادات المصرية.

يبدو أن نجمنا قد أفل فى السماء المصرية، فقد بدأت تصفية وجودنا هنا. خرجنا منـها كما لو كان ذلك بعد معارك ضارية تاركين فيها رأس جسر مهم. نقلت الطائرات التى أقلعت من غـرب القـاهـرة كل شـىء بدءا من السـيـارات التى تم شـراؤهـا من السوق المحلية هنا إلى آخر الخيام. أما فى الإسكندرية فقد كان يتم الشحن على عجل كما لو كان ينتظر وصول عدو بعد ساعة أو اثنتين إلى المدينة. عند مشاهدة النبيلة السـابقـة "بيليتـسكايا"، ألتى تدير عـدة دور للمـسنين الروس المهـاجـرين فى مصـر، صرخـت:"يا إلهـى مثلما هرب فى ذلك الوقت آخر الفرانجليـون (كان "فرانجل" أحد قادة الجيش الأبيض فى أثناء الحرب الأهلية بعد ثورة أكتوبر عام ١٩١٧) من القرم". جاءها الرد منطقيا من أحدهم بصـوتٍ عالٍ :"ولكن يوجد فرق واحد ، وهو أننا الآن نهرب إلى القرم".

لم تمض عدة أيام على انتهاء تلك الملحمة حتى تم الإعلان عن منح أوسمة لعدد كبير من العسكريين "الذين أدوا واجبهم الأممى فى مصر"، فقد منحت الأوسمة تقريباً لكل من كـان هـناك بغض النظر عن اشـتـراكـه فى المعـارك من عـدمـه. لعلهم فـقط يصمتوا...

وصمتوا. وفقط فى عام ١٩٨٩ بدأوا فى الكتابة. "دقت الأجراس بقوة...".

لقد رجعنا منذ زمن طويل من مصر إلى وطننا. ولكن لسبب ما لا نستطيع حمل القيثارة بيدنا. نحن بالطبع ما زلنا نتذكر "القنطرة" وهؤلاء الفتيان ذوى العيون الزرقاء الذين خاضوا المعارك فى خوذات صفراء عربية. ولكن الأيام تمضى ويتناقص عدد من بقى منهم على قيد الحياة. لم ننس أيا ممن فقدوا حياتهم هناك. ونحن نحتفظ بهم فى ذاكرتنا باحترام.

... كنت فى صنعاء فى عام ١٩٨٨ فى اليمن الشمالية، فوقفت لفترة طويلة عند نصب شـهداء الحرب المصريين الذين حاربوا للدفاع عن صنعاء عاصمة البلد، ذلك النصب الذى أقيم لتخليد "الأمميين المصريين" الذين خاضوا المعارك هناك فى سبيل

الجمهورية، فقد أقام اليمنيون المعترفون بالجميل قوسًا ضخمًا من الحجارة البيضاء في ذكراهم لا تذبل أبدًا عنده الزهور. قد يمكن أن نرى في يوم ما في مصر... في القنطرة... على سبيل المثال نصبًا للجندي السوفيتي المجهول الذي أدى واجبه الأممي بشرف في مصر، وسوف تصبح هذه المسلة بالنسبة لنا مكانًا مقدسًا مثل نصب البحارة الروس في بورسعيد واللوتس الضخمة الخرسانية في أسوان. وفي النهاية يمكن أن نعتبر في وطننا أن "الأمميين" ليسوا فقط "الأفغان" أو "المصريين"، ولكن كل من حارب بعيدًا عن الوطن... ولكن أهم ما يجب عمله وإلى الأبد هو" ألا يتم إرسال أي أحد أبدًا خارج حدود روسيا دون علم شعبها"، حتى لو كان ذلك لكي يؤدي "واجبه الأممي".

الباب الثانى عشر

حرب الأعوام الثلاثة (يونية ١٩٦٧- أغسطس ١٩٧٠)

(تحقيقات المؤلف من مصر فى الفترة ١٩٦٧-١٩٧٠ والتى تم إرسالها من القاهرة إلى وسائل الإعلام السوفيتية)

على الرغم من مرور وقت كافٍ فمن النادرأن يقرر أحد تسمية الفترة من ٥ يونية ١٩٦٧إلى ٧ أغسطس ١٩٧٠ "حرب الأعوام الثلاثة بين مصر وإسرائيل" ، كانت هذه الحرب "ساخنة" بمعنى الكلمة ، وقد كان لكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية علاقة مباشرة بها ، ثلاث سنوات، لم يفهم لماذا تحمل فيها الشعب المصرى الدمار والصعوبات والحرمان، وودع أحسن أبنائه إلى طريقهم الأخير! .

لست راغبًا فى الدخول فى جدل مع من يعارضنى ، ولكنى سوف أسمح لنفسى فقط بتقديم جزء صغير من المقالات التى أرسلتها من القاهرة لكى تنشرها وسائل الإعلام فى ذلك الوقت ، أعرضها تمامًا كما هى دون أية اختصارات أو ملاحظات ، وفى الحقيقة تعتبر هذه المواد وثائق تدل على أنها كانت حربًا قاسية لا هوادة فيها ، عامة لم تتم المواراة على هذه الحرب ، ويمكن للقارئ أن يستدل على ذلك بنفسه .

(تعرض هذه المواد طبقًا لترتيبها الزمنى) .

٦ يونية عام ١٩٦٧

جاءت الحرب إلى مصر:

أصبحت القاهرة الكبرى بطرقها المشجرة وإعلاناتها المضيئة عابسة وصارمة بسبب الحرب ، وأصبح المتطوعون فى الدفاع المدنى يخدمون بجانب رجال الشرطة عند تقاطعات الطرق ، تتوقف حركة المواصلات عند سماع صافرات الإنذار بغارة جوية ، وتخلو الشوارع من المارة ، وتقوم وحدات الدفاع الجوى بحماية سماء عاصمة الجمهورية بيقظة .

المطار الدولى مغلق ، وهناك حراسة محكمة على الطرق الموصلة بين القاهرة ومختلف المراكز ، تعلن الإذاعة بانتظام بيانات قيادة الجمهورية العربية عن سير المعارك الحربية .

تغرق القاهرة فى الظلام فى المساء ، وقد تم طلاء كل مصابيح السيارات باللون الأزرق ، وعندما تظهر الطائرات الإسرائيلية تطلق عليها وحدات الدفاع الجوى النيران بكثافة .

تعيش القاهرة حياة مضطربة ولكن ليس هناك فزع فى هذا الوقت الصعب على الجمهورية ، يظهر على الناس حسن التدبير والتماسك والنظام ، فالكل يقوم بأداء العمل الموكل إليه فى مكانه بدقة .

كنا نشاهد من مكتب وكالة "نوفوستى" للأنباء عشرات من الشباب يتدافعون إلى مكتب الاتحاد الاشتراكى العربى بالحى مطالبين بسرعة إرسالهم إلى مراكز التجنيد العسكرى ، وقد تحدثت مع أحدهم – الشاب "حسن محمد" الذى قال لى :"أريد أن أتسلم السلاح بسرعة للدفاع عن وطنى ، لقد قامت إسرائيل بالعدوان علينا، ونحن لن نتخلى عن وطننا مهما كلفنا الأمر".

من الواضح أن الروح الوطنية عند الشعب عالية ، فالتبرعات ترسل من كل مكان إلى صندوق الدفاع عن الوطن ، وقد تبرع العاملون بإحدى أكبر دور الصحف بمصر "أخبار اليوم"بمبلغ ١٠ آلاف جنيه مصرى ،

و مازالت تصل إلى مصر وحدات عسكرية من دول أخرى لتدعيمها ، وقد أعلن قادة هذه الدول عن تأييدهم للقاهرة ،

أفادت بيانات القيادة العليا أن المعارك الضارية قد استمرت طوال الليل فى شبه جزيرة سيناء التى ما زالت تمثل المسرح الرئيسى للعمليات الحربية ، وقد نشرت جريدة الأهرام:" لقد تم صد ثلاث هجمات لدبابات العدو فى مناطق الكونتيلا و"أبو عجيلة" و"خان يونس" ، وتوجه قواتنا ضربات مستمرة لوحدات العدو على الأرض وفى الجو وفى البحر ، ونتيجة للمعارك الضارية بالأمس فقد صدت هجمة العدو وبدأت قواتنا فى الهجوم المضاد واخترقت مواقع العدو" ، وقد قامت معارك ضارية أيضا فى قطاع غزة ، حيث قاومت القوات المصرية هجمات وحدات المعتدين الإسرائيليين من المشاة ومن المدرعات .

وقد لاقى بيان حكومة الاتحاد السوفيتى فى ٥ يونية الاستحسان التام فى القاهرة وفى كل مدن وقرى البلد ، وقد أدان هذا البيان عدوان الجانب الإسرائيلى، وعبر عن التأييد التام لحكومات ، وشعوب مصر ، وسوريا ، والعراق ، والجزائر ، والأردن، والدول العربية الأخرى وكذلك عن الثقة فى نجاح معركتهم العادلة فى سبيل الحرية وحقوقهم السيادية .

نشرت كل الجرائد الصادرة فى العاصمة بيان الاتحاد السوفيتى ، وقد نشرت فى الأهرام مقالة تفصيلية عن البيان تحت عنوان "الاتحاد السوفيتى يعلن عن تأييده التام للعرب" .

وقد أكدت الصحافة القاهرية أن شعب مصر يحمل لواء الدفاع عن حدود وطنه وأن القوات الجوية والبحرية والبرية ، وبمشاركة حلفائها العرب ، تصد هجمات العدو بشجاعة فى معارك شرسة .

٢٦ يونية ١٩٦٧

الأيام الكئيبة للؤلؤة البحر الأبيض المتوسط :

لقد بقى فى الإسكندرية القليل جدا من الآثار التى تعبر عن كونها مركز الحياة الروحية فى العهد اليونانى - الرومانى ، بالمقارنة بما يوجد فى أية مدينة أخرى لعبت فى القديم مثل هذا الدور الذى لعبته لؤلؤة البحر الأبيض المتوسط ،

فعلى سبيل المثال يقف عمود السوارى (بومبى) حارسًا صامتًا على التاريخ ، وقد وضع فى قمته وعاء به رفات "بومبى"طبقًا للأسطورة ، وتقع مقابر "كوم الشقافة" على بعد ١٥ دقيقة من العمود سيرًا على الأقدام ، تمثل تلاحمًا فريدًا بين عناصر الأساليب المعمارية الثلاثة - المصرية واليونانية والرومانية ، أما جزؤها الشمال الغربى ، وغير بعيدٍ عن قصر رأس التين الفاخر ، فتوجد به مدافن "أنروش" الشهيرة بأضرحتها الفريدة المقطوعة فى الحجر .

سرنا على الكورنيش الذى يمتد ٣٠ كيلومترًا على شاطئ الإسكندرية، والذى كان عاديا مليئًا بالصخب والضجيج الصادر من آلاف السيارات ، أما هذه المرة فلا ترى الزحام المعتاد من السيارات الخاصة على الطريق الممتد من قصر "رأس التين" إلى قصر "المنتزة" فى الشرق، كما لا تقابل السائحين الأجانب ، على الرغم من أن عددهم يصل عادة فى هذا الموسم من السنة إلى مليون ، الفنادق أيضًا خالية ، وتعانى الشواطئ الفاخرة من الملل ، كما تعانى آلات الساكسفون والكمان من الضجر من وحدتها فى الملاهى الليلية .

يمكن الإحساس بمعالم الحرب فى كل مكان فى المدينة ، وكذلك بنوع من الترقب والتوتر ، وقد نمت جبال من شكائر الرمال وسواتر وقائية من الطوب أمام المبانى الضخمة لحمايتها من قصف القنابل ، وقد جهز حراس فى ملابس خضراء بنية مواقعهم عند الجسور وتقاطعات الطرق ، والميادين الكبيرة ، ويقوم شبان من فرق المقاومة الشعبية يلبسون ملابس زرقاء بالحراسة فى ورديات متتالية باستمرار .

قال لى صحــــفى من معارفى العاملين بجريدة "السفير" المحلية:"لا تندهش من هذا المنظر ، لقد وقعت هدنة ولكن العدوان ما زال مستمراً ، فهناك (أشار إلى البحر) على بعد ١٢ ميل من الشاطئ، حيث تنتهى مياهنا الإقليمية، شاهدنا سفناً حربية أمريكية وإنجليزية عدة مرات ، أما سماؤنا فتخترقها من وقت لآخر الطائرات الإسرائيلية .... ولذلك فإننا دائماً متوترون لأن العدوان يمكن أن يتجدد فى أية دقيقة ، أما الآن ...

لقد تم هنا تجنيد الناس تحت قيادة لجنة "الاتحاد الاشتراكى" السكندرية برئاسة شقيق الرئيس "الليثى عبد الناصر" للإسراع بمعالجة الجروح الناتجة من العدوان ، وقد تميز فى هذا بصفة خاصة عمال الميناء الذين قرروا عمل كل ما هو ممكن لكى يفرغوا شحنات السفن فى فترات مختصرة .

تجولت فى ميناء الإسكندرية وشاهدت سير العمل فيها ، من المعروف أنها تحتل المرتبة الثالثة فى العالم من حيث إجمالى حمولة السفن التى ترسو فيها، والمرتبة الأولى من حيث سطح الماء الهادئ ، فكل عام تدخل إليه نحو ٦ آلاف سفينة من دول مختلفة ، ويوجد فى الميناء أكثر من خمسين مرسى للسفن ، وتحتل مبانى المخازن نحو ١٢ هكتاراً ، ويجرى تنفيذ أعمال كثيرة بناء على قرار من الحكومة ، وقد تم تجهيز خمسة أرصفة توصل إلى مخزن وقود حديث البناء ، ويعمل هذا المخزن بواسطة مجموعة كبيرة من المضخات والمواسير ، وقد تم بناء مصدين للأمواج لحماية هذا الرصيف ، وهنا ما زالت أعمال توسيع الميناء مستمرةً بمساعدة الخبراء السوفييت .

تحدثت مع بعض العرب الذين يفرغون شحنة سفينة سوفيتية حملت معدات خاصة بسد أسوان العالى ، قال "محمد فوزى" رئيس مجموعة من العمال: "إننا نفرغ سفينتكم قبل دورها ، أنت روسى ، هذا جيد ، فأنتم أصدقاؤنا الحقيقيون وأنتم من يحمينا" .

كانت توجد فى تلك الأيام أعمال كثيرة لدى محافظ الإسكندرية "حمدى عاشور" ، كان العدوان الإسرائيلى قد فاجأه وهو فى الاتحاد السوفيتى ، لذلك فقد قرر قطع

رحلته والعودة إلى الوطن بسرعة ، طبعًا لم يكن عند المحافظ وقت الآن ، حيث كان يقوم الصحفيون بزيارته ، ولكن "حمدى عاشور" أكد فى البيان الذى نشر فى الصحف "أن كل اللجان العمالية فى المصانع والشركات، التى على أرض المحافظة، قد قررت أن تعمل بلا توقف، ليلاً ونهاراً، لزيادة الإنتاج وإزالة آثار العدوان ، وقد وصلت معلومات من كل مكان تفيد رفض الإجازات والرواتب عن الأعمال الإضافية ، وفى أحد الاجتماعات قام المحافظ بدراسة إمكانية استصلاح ٤٥٠٠ فدان جديد ، لكى يتم فيها إسكان المهاجرين ، كما تم تخصيص ١٠٠ ألف جنيه مصرى إضافية لبناء مساكن تعاونية ، وتم عمل اللازم لضمان توفير الخدمات الصحية بسرعة للجمهور ، وتنظيم عمل المواصلات والشركات الحكومية والخاصة .

يقدم الخبراء الروس مساعدة كبيرة للأصدقاء العرب ، وقد قال لى القنصل السوفيتى فى الإسكندرية "ليونيد ميخايلوفيتش شابوفالوف": "إن السوفييت العاملين فى الجمهورية العربية المتحدة يقومون بالأعمال التى كلفوا بها بإخلاص تام" .

يقول "ليونيد ميخايلوفيتش شابوفالوف": "انشر فى الوطن أن الخبراء السوفييت يعملون فى ظروف عادية آمنة، وأنهم لا يواجهون أية مصاعب مادية ، كما أن الزملاء العرب يعاملونهم معاملة جيدة" .

ثم تجولنا مرة أخرى فى المدينة مع بعض الصحفيين من معارفنا ، أرونا المبانى السابقة المهدمة لقنصلية الولايات المتحدة الأمريكية ، والمركز الثقافى الأمريكى ، كان الإسكندريون الغاضبون من موقف الولايات المتحدة الأمريكية قد نظموا مظاهرات صاخبة معارضة عند هذه المبانى ، وكان مكتوباً على اللوحات التى تم لصقها فى مختلف أنحاء المدينة:"إن العدوان قد أوقف ، ولكن المعركة مستمرة" ، شاهدنا اجتماع احتجاج نظم فى استاذ جامعة الإسكندرية ، كان الطلبة قد انتهوا لتوهم من أداء الامتحانات ، وقد اعتبروا أنفسهم مجندين لحماية الجمهورية .

شاهدنا قبل مغادرتنا الإسكندرية المكان الذى تم فيه بناء منارة "فاروس" من ٢٣ قرنًا مضت . وتعتبر إحدى العجائب السبع ، شاهدنا أيضًا مياه البحر الهادئة

والسفن التى تقترب من الإسكندرية ، ونحن نحتضن زملاءنا المصريين ، ، ، وقد استمرت الحياة على الرغم من هذه الأيام الكئيبة ..

٢ أغسطس عام ١٩٦٧

الهالة القرمزية فوق السويس:

تقع هذه المدينة على البحر الأحمر عند مدخل قناة السويس ، عندما تقترب منها عبر الصحراء المتعبة الرتيبة تظهر لك فجأة منطقة صناعية ، توجد على اليمين غابة من مواسير مصنع صناعات كيميائية عند سفح سلسلة الجبال ، أما على البعد، على شاطئ الخليج، فتومض نيران مصنع تكرير البترول "ريفاينرى" ، كما تظهر مجموعة خزانات مصنع الزيوت الصناعية ، والمبنى الضخم للمحطة الحرارية لتوليد الكهرباء التى تم بناؤها بمساعدة الاتحاد السوفيتى .

يخترق طريق السيارات الصحراء ليصل إلى الجزء العربى من السويس الذى بنيت فيه مبانٍ حديثة ، يوجد فى الشوارع الكثير من الأطفال والنساء فى ملابسهن السوداء الطويلة يحملن على رءوسهن آنية الماء أو سلات الأطعمة ، كما توجد جبال من البطيخ والفواكه والخضراوات على جانبى الطريق ، ويتنافس الباعة النشطاء فى جلاليبهم البيضاء والخضراء فى عرض بضاعتهم للبيع . كلما تقدمنا فى الطريق كلما كان من الأصعب المرور ، فهنا اختلطت السيارات بالناس وبالحمير التى تحمل أثقالاً كبيرة، وبالعربات ذات العجلتين وبالدراجات وسائقى الخيل ....

ينبض الجزء القديم من المدينة بالحياة ، وعلى عكس ذلك فإن أحياء بور توفيق وأحياء السويس المهدمة التى تمتد فى منظر خلاب على جانب القناة مستغرقة فى سبات عميق ، أما فى خليج السويس فيحس فيه المرء بالحرب نفسها فى كل مكان ، ففى الحقيقة ما زالت العمليات الحربية هنا مستمرة ، ومنذ فترة وجيزة فتحت

المدافع الموجودة على الضفة الشرقية للقناة نيرانا مكثفة على الأحياء المسالمة لمدينة بور توفيق ، أطلق الإسرائيليون النيران المباشرة فدمروا طريق الكورنيش الجميل ، سقطت القنابل على مدرسة متوسطة والشوارع التجارية ونادى الميناء وعلى بعض المساجد ، كما تم تدمير مبنى مركز الشبان المسلمين وقيادة التنمية الزراعية ومحطة السكة الحديدية .

ولكن لم يكتف المعتدون بذلك، فعندما بدأ وفد الفاتيكان الذى كان هنا للصلاة فى مبنى كنيسة "الفرنشيسكان" ظهرت الطائرات الإسرائيلية فى السماء وقامت بعملية طيران منخفض ، وأطلقت الصواريخ ونيران الرشاشات على الطرق ، وقد طاردت الأتوبيسات والسيارات والناس ، وهدمت كنيسة "الفرنشيسكان" ولم يتمكن رسل بابا الفاتيكان من إكمال صلاتهم إلى النهاية .

وقد تعرضت مصانع تكرير البترول بصفة خاصة لهجمات عنيفة ، فقد أغارت عليها الطائرات سبع مرات ، وقد اشتعلت الحرائق فى كل من مصنع "ريفاينرى" ومصنع "الزيوت الصناعية". كما كانت تصرفات العسكريين الإسرائيليين مستفزة على أثر هذه الفاجعة ، فقد كانوا سعداء بنتائج هذه الغارات فأقاموا ... مباراة كرة قدم على الضفة الشرقية للقناة ، كما أحضرت القوات الخاصة النسائية بعض الدبابات إلى القناة وقمن ... بالاستحمام تحت فوهات مدافعها ، وفى الوقت نفسه انطلقت الشتائم البذيئة من مكبرات الصوت المركبة على الضفة المحتلة موجهة إلى العرب .

ما الإجراءات التى تم اتخاذها فى المدينة لإزالة آثار العدوان؟

حكى لنا "حمدى محمود" محافظ السويس:" لقد أخلينا مدينة بور توفيق المهدمة من سكانها، وأرسلنا جزءاً من العائلات التى بها كثير من الأطفال إلى محافظات أخرى، وجندنا الكثيرين لأعمال إعادة البناء ، والعمل مستمر فى المصانع على الرغم من الغارات ، كما يتم تدريب الرجال فى مراكز الدفاع المدنى ، بالطبع وضعنا صعب الآن ، فالمستشفيات مليئة بالجرحى ، وهُدم الكثير من المنازل ، ودُمر الكثير من

الأوتوبيسات وسيارات النقل، لذلك يوجد عجز فى وسائل النقل والتموين ، وعلى الرغم من ذلك فإننا مصرون تماماً على الحرب إلى النهاية مع المعتدين الإسرائيليين" .

... كان خليج السويس الأزرق الشاحب يبدو دائماً ناعساً على خلفية من سلسلة الجبال التى تتصل به من الغرب ، الآن توجد فوق الخليج هالة قرمزية من الحرائق ، نعم لقد مرت الحرب فى تلك الأماكن المثيرة التى كانت تعتبر فى الماضى القريب أماكن يحج إليها السائحون، حرب لن تغفرها أبداً الإنسانية المتحضرة للمعتدين الإسرائيليين ومن يساندهم .

نتجول الآن فى مصنع الصناعات الكيميائية "سمادكو" ، يرينا "إبراهيم أبو غطاس" مندوب الإدارة عنابر الضواغط والغاز والأمونيا ، لقد ضرب الإسرائيليون المصنع بالصواريخ آملين أن يؤدى ذلك إلى انفجارات إضافية .

أشار المهندس إلى خزان بيضاوى ضخم قائلا:"هذا أحد أخطر الأماكن فى المصنع ، ولولا أننا تمكنا من تفريغه من محتوياته فى الوقت المناسب لما تمكنتم الآن حتى من السير فى المصنع .

الآن هذا المصنع متوقف ، مما يتسبب فى خسائر نحو ١٧٥ ألف جنيه مصرى يوميا ، تتم عمليات إعادة البناء بهمة ، ولكن لا يضمن أحد عدم انهمار القنابل والصواريخ الإسرائيلية على المصنع مرة أخرى اليوم أو غداً" .

بعد ذلك ذهبنا فى اتجاه الحريق والدخان الأسود ، تزداد رائحة الحريق ، ورأينا ألسنة اللهب المنعكسة على الخليج وهى تلحس الخزانات الضخمة المحتوية على البترول وعلى المنتجات البترولية ، تجولنا فى مواقع مصنعين لتكرير البترول ، مبانى مصنع الزيوت الصناعية والمحطة الحرارية لتوليد القوى اللذين تم بناؤهما بمعاونة السوفييت مهدمة ، اسودت المعدات ناصعة البياض الموجودة فى المصنع الرائع "ريفاينرى" من الدخان وغرقت فى مستنقعات البترول المسكوب ، كما بدت المواسير المحطمة الملتوية متشابكة مثل عيدان المكرونة المسلوقة . قمت بعد الخزانات الضخمة

المحطمة فوجدتها ١٣ ، مازال رجال الإطفاء في خوذاتهم وملابسهم السوداء يكافحون النيران بصعوبة طوال ٤٥ ساعة ، وهم واقفون في الماء حتى ركبتهم . مكثنا بالقرب من أحد الخزانات الملتهبة لعدة دقائق فقط ، حيث إنه قد ينفجر في أية لحظة .

قال لنا كبير المهندسين "مدحت رضا" : كان هذان المصنعان ينتجان ٧ مليون طن من المنتجات البترولية في العام ، وتصل الخسائر الناتجة من غارات العدو إلى نحو ٢٠ مليون جنيه مصرى ، سوف يحتاج إعادة بناء المصنع جهوداً كبيرة ، وسوف نقوم بذلك . . . .

تحدثنا مع العمال ورجال الإطفاء والمهندسين ، يظهر التعب عليهم كلهم ؛ ملابسهم ملطخة بالبترول ، ولكن لا يظهر اليأس ، أو الضياع على أي منهم ، قال المهندس "إبراهيم حاكى" : "تريد إسرائيل أن تضعنا أمام صعوبات اقتصادية ، ولكنها أخطأت هنا أيضاً ، فلن نركع أبدا" .

وأضاف محافظ السويس "حامد محمود" : "تم العدوان علينا ، ولكن يجب ألا يتوقع أي أحد أننا خفنا ، سوف نعمل كل ما هو ممكن لكي نزيل آثار العدوان في أقصر مدة" . كنا نزداد اقتناعاً بأن هذه الآثار ضخمة مع كل خطوة خطوناها / ففي المدينة تم هدم الإستاد ومدينة الشباب وأكثر من مائة منزل وعدة مساجد ومستشفيات ، تقف مدينة بورتوفيق التي تحولت إلى خط دفاع أمامي صامتة ، يمكن مشاهدة مزاغل ومعاقل أمامها خلف القناة على رمال سيناء الصفراء بالعين المجردة ، تصل إلى هنا الشتائم من مكبرات الصوت المركبة على الضفة الأخرى ، أما من توجه إليهم الشتائم من سيدات وشيوخ وأطفال فقد تزاحموا في محطة السكة الحديدية في انتظار ترحيلهم ، كما تزاحمت عشرات الأسر في محطة السكة الحديدية في انتظار دورها للترحيل ، لقد تم سد المنازل تماماً ، والمحال لا تعمل ، كما هجرت أحياء بأكملها ...

هكذا رأيت "السويس فى الجبهة" التى أصبحت ضحية للعدوان الإسرائيلى المتكرر، صامدة بكرامة كما كانت دائمًا وغير مقهورة .

قال لى الضابط المرافق لنا عند الوداع:"اكتبوا عن امتناننا العميق لأصدقائنا السوفييت لمساعدتهم التى قدموها لنا" .

"إننا نحيى الموقف الصلب الذى اتخذه الاتحاد السوفيتى ، فإنه قد منحنا قوة جديدة ، وسوف يتذكر العرب دائمًا بامتنان المساندة التى حصلوا عليها من الجانب الروسى" .

٢٦ أكتوبر عام ١٩٦٧

الأيام الكئيبة للإسماعيلية :

(نشرت هذه المراسلات فى جرائد: "مولوديوج ألتاى" مدينة (برناول) فى ٢٦-١٠-١٩٦٧ ، و١ : "ماجادنسكايا برافدا" فى ١٤-١ ، و"سوفييتسكايا كلايبيدا" فى ٣-١١ ، و"فيتشيرنى سفيردلوفسك" فى ١-١١ ، و"ماجنيتوجورسكى رابوتشى" فى ٣-١١ ، و"أندوستريالنايا كاراجندا" فى ٣١-١٠-١٩٦٧)

الإسماعيلية ، انظر إلى هذه المدينة من الطابق الحادى عشر لمبنى إدارة قناة السويس الأبيض ، كان هذا المكان ينبض بالحياة إلى زمن قريب ، أما الآن فيسود فيه الصمت والفراغ ، لقد سقطت إحدى قنابل المدفعية الإسرائيلية على مكتب رئيس قسم الترانزيت ، تنتشر تحت أقدامنا قطع الزجاج والأثاث المهشم وأوراق محترقة ، أما هناك فى الأسفل فيلمع سطح القناة "العاطلة" ، تقف السفينة التجارية الأمريكية - "أويزرفر" أمام المبنى تمامًا فى المجرى الملاحى ، وقد بقى على سطحها قبطانها وعدد محدود من طاقمه فقط .

قال رئيس الإدارة "أحمد يوسف": "توقفت السفينة هنا منذ بداية العدوان، فقد تلف أحد محركاتها. قد يكون ذلك صدفة ، ولكنها حادت بشدة عن المسار المعتاد للسفن الأخرى ، لو لم يحدث ذلك لكان عدد السفن التى احتجزت فى القناة أقل من ذلك ، فقد وصل عدد السفن الأسيرة إلى ١٥" .

يمكن رؤية نصب تذكارى على البعد خلف السفينة الأمريكية ، وقد تم تشييد هذا النصب فى ذكرى الإنجليز الذين فقدوا حياتهم فى أثناء دفاعهم عن القناة فى الحرب العالمية الأولى ، يقف هذا النصب على الشاطئ تماماً ... أمام المواقع الإسرائيلية ، ويمكن رؤية هذه المواقع جيداً من هنا من على هذا الارتفاع الذى تطير عليه الطيور ، لقد اختبأت مدفعية العدو فى الرمال البيضاء ، لقد نمت هذه المزاغل والمواقع كأورام خبيثة بمعنى الكلمة ، فى مكان ما خلف التلال تقبع الدبابات والحاملات ، ومن الواضح أن المحتلين لا ينوون الرحيل أبداً عن أى مكان استولوا عليه .

يقول "أحمد": "يمكن أن تطلق النيران من الجانب الآخر فى أية لحظة ، فهم يطلقون النيران بسبب غلهم أو لمحاولة إرهابنا ، ولكن الواقع يبقى كما هو ، مازال إطلاق النار الإسرائيلى مستمراً ، القناة عاطلة ، وذلك يكلف العديد من الدول الكثير ، ولكن لا يوجد أمام بلدنا مخرج آخر ، نحن نضمن تشغيل القناة بعد أقل مدة ممكنة.إذا انسحب العدو من الأراضى العربية المحتلة ، أما فى الوقت الحالى فانظروا إلى ما فعلوا ..."

تجولنا فى المدينة ، الآثار السوداء للقصف الإسرائيلى ظاهرة فى كل مكان ، توقفنا على الرغم منا فى شارع "على باشا": هنا تم تدمير عدد من المبانى من بينها مستشفى وفندق "الشامى" ومدرسة ابتدائية ، اقتربنا عبر أكوام الطوب من المنزل المهدم الذى يحمل رقم ٢٢ ، لقد تم تدميره تماماً بالقنابل ، قتل هنا أكثر من عشرين شخصا– كما يقول مرافقنا ضابط الشرطة العسكرية – لقد قتل هناك ، أيضاً، عدد مماثل – وأشار مرافقى إلى مبنى مسجد مهدم – لقد سقطت القنبلة على رءوس المصليين المسلمين مباشرة .

o

أما فى شارع "الجمهورية" فزجاج المدرسة المتوسطة مهشم تمامًا وتعوجت أسوارها الداخلية ، وفى كل مكان حولنا توجد كتب ومناضد وكراسى محترقة. وذكر لنا مرة أخرى عدد القتلى والجرحى .

نتيجة للمرات الثلاث الأخيرة التى فتحت فيها إسرائيل النيران تم تدمير نحو ٣٠٠ مبنى ، وقتل أكثر من ١٠٠ ، وجرح ١٦٠ من السكان ، وقد تم فى الوقت الحالى تهجير ٨٠٪ من السكان .

قال لنا سكرتير المحافظ "على أنور أحمد بشير": "إننا ندرك أن إسرائيل تعد لاستفزازات أخرى ، لذلك فنحن نعمل على عجل لتفادى وقوع ضحايا جدد ، لقد تم فى الأيام الأخيرة تهجير عشرات الآلاف من المدينة ، وما زالت عمليات إخلاء المصانع مستمرة ، لقد تم إغلاق المدارس والمطاعم والمحلات ، ويتم إمداد من بقى بالتموين عن طريق منافذ خاصة ، كما يتم تدريب الشباب فى مراكز الدفاع المدنى ، فى الحقيقة، كل شىء كما فى الحرب ...

فعلاً، تذكرنا الإسماعيلية تمامًا بمدينة على الجبهة ، فالأحياء السكنية خالية تمامًا ، ولا تسمع الأصوات المعتادة الصادرة من أصحاب الدكاكين فى المدينة التى أطلق عليها اسم "لؤلؤة قناة السويس" ، كل الأماكن مغلقة ، ومسدودة ، ومغطاة بشكائر الرمال ، تم حفر الخنادق فى الشوارع ، وانتشرت "القنافذ" التى وقف شعرها المعدنى ، تم فتح الكبارى فوق القنوات الصغيرة التى سكنت فيها مراكب كانت تعمل فى وقت ما بلا كلل ، أما بعض المراكب الشراعية فقد فردت أشرعتها البيضاء على غير عجل ، لقد تغير الكثير هنا ، لقد أصبحت هذه المدينة الغارقة فى الخضرة بائسة ومنتبهة ومستعدة لأى اختبار آخر .

٢١ سبتمبر عام ١٩٦٨

إطلاق النار على مراقبى الأمم المتحدة :

(مراسلات تم نشرها فى جرائد: "كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفكار) فى ٢١-٩-١٩٦٨، و"تيومنسكايا برافدا" فى ٢٥-٩-١٩٦٨، و"كومسومولسكايا برافدا" (موسكو) فى ٢٠-٩-١٩٦٨، و"كاباردينو- بالكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) فى ٢٤-٩-١٩٦٨ . و"ماجنيتوجورسكى رابوتشى" فى ٢٦-٩-١٩٦٨، و"فيتشيرنى سفيردلوفسك" فى ٢١-٩-١٩٦٨، و"برافدا أوكراينا" (كييف) فى ٢٤-٠٩-١٩٦٨) .

أكتب هذه السطور وأنا ما زلت تحت تأثير صفحة حزينة أخرى حديثة من صفحات الحرب: لقد تم إطلاق النار على مراكز مراقبة الأمم المتحدة الواقعة بمحاذاة قناة السويس ، لقد سقطت أربعة صواريخ (أرض- أرض) على مركز المراقبين فى منطقة كبريت جنوب الإسماعيلية ، هذا المبنى الصغير أبيض اللون ومرسوم عليه حروف UN بخط كبير ، ويبعد ٥٠ مترا عن مجرى القناة ، وبالطبع يظهر بوضوح للجانب الإسرائيلى ، تم إطلاق النيران عليه مباشرة، فتهدم المبنى تماماً .

بالطبع قدم كل من مجلس الأمن وممثله الخاص بالشرق الأوسط "جونار يارنج" والخبراء والمراقبون المختلفون احتجاجًا لتل أبيب. ولكن الأخيرة تفضل أسلوب استخدام القوة ، وكان الأمر فى حقيقته ليس حوادث فردية عفوية، ولكن سياسة تعمد إلى زيادة تأزم الموقف فى الشرق الأوسط .

لقد أخاف إسرائيل أن الجيش المصرى قد تعافى من الهزيمة ، وأعاد تسليح نفسه وزاد بدرجة كبيرة من قوته الحربية كما قال الرئيس "عبد الناصر" منذ زمن قصير .

يبدو أنه أمام تزايد مقاومة عرب المناطق المحتلة ونمو قوة جيوش الدول العربية – ضحايا العدوان – وتزايد قوة ترابط الدول العربية ، اضطرت إسرائيل إلى اللجوء إلى الوسائل المتطرفة، ومنها إطلاق النار على مركز مراقبة الأمم المتحدة التى تضايق إسرائيل فى فرض قواعد تعاملها مع العرب .

١٠ أكتوبر عام ١٩٦٨

جرس تليفون فى منتصف الليل :

(تم نشر هذه الرسالة فى جرائد: "سيفيرنايا برافدا" (مدينة كوستروما) فى ١١-١٠-١٩٦٨، و"تاجانروجسكايا برافدا" فى ١٠-١٠، و"كومسومولتس كوزباسا" (مدينة كيميروفو) فى ١٠-١٠، و"كافكاسكايا زدرافنيتسا" (مدينة بياتيجورسك) فى ٢٥-١٠، و"كومسومولتس دونباسا" (مدينة دانيتسك) فى ١٢-١٠، و" ماجنيتوجورسكى رابوتشى" فى ٣-١١-١٩٦٨، و"كوزنتسكى رابوتشى" (مدينة نوفوكوزنتسك) فى ١٠-١٠-١٩٦٨)

لا يندهش أى مراسل أجنبى يعمل فى القاهرة إذا رن جرس تليفون شقته فى منتصف الليل لتلقى مكالمة من خدمة الإعلام المصرية ، تكون عبارة عن دعوة للذهاب إلى مكان أو آخر فى البلد أغارت عليه الطائرات الإسرائيلية ، فقد أصبحت الغارات الجوية تتزايد باستمرار فى الفترة الأخيرة ، لقد اشتركت فى إحدى هذه الزيارات أخيراً إلى منطقة السويس ،

الليل، الطريق الصحراوى ، حراسات تظهر كأنها فى ملابس بيضاء فى ضوء القمر ، مبنى المحافظة الحجرى محاط بشكائر الرمال مثل كل المبانى العالية الأخرى ، المحافظ – لواء متقاعد – يلبس الزى العسكرى مرة أخرى ، تتحدث الدوائر السوداء حول عينيه عن مدى إرهاقه ، يدعو الصحفيين لركوب الأوتوبيس

بإشارة من يده ، سرنا بجانب كورنيش قناة السويس ، تظهر خلفنا الجبال في ضباب ما قبل الشروق ، كما تظهر مصانع تكرير البترول التي تم إعادة بنائها تقريبًا مصدرة للأدخنة عند سفح الجبال ، كما تظهر بصعوبة معالم الحياة على السفن المحتجزة في مجرى القناة .

محطة ، تفقدنا بسرعة المكان الذي تطلق عليه النيران ، ثم وصلنا إلى بور توفيق، وهي ضاحية كانت فيما سبق الجزء الأكثر فخامة في المدينة الواقعة على المدخل الجنوبي لقناة السويس . وتوجد مدافع المحتلين على الضفة الأخرى ، وعلى بعد ٢٠٠ مترٍ منا ، أما على هذا الجانب فتجري أعمال إعادة البناء ، حولنا في كل مكان منازل مهدمة، حفر عميقة، قطع من الأخشاب متناثرة، سيارات محطمة ، فندق "سامر بالاس" الذي كان لا يخلو أبدًا من السائحين نصف مهدم ، ويظهر في حالة محزنة وكئيبة ، الصحفيون على غير العادة صامتون ، لم تكن هناك حاجة لسؤال المحافظ، فقد كان الواقع بيِّنًا .

كان ينظم "حسن الزيات" ممثل حكومة مصر كل يوم أربعاء مؤتمرًا صحفيا في القاهرة في مبنى مصلحة الاستعلامات ، كان الصحفيون الغربيون الموجودون هنا بالمئات يوجهون عشرات من الأسئلة المتعلقة "بأزمة الشرق الأوسط" وبمهمة المبعوث الخاص للأمم المتحدة "جونار يارنج" وبموقف مصر ، كان "الزيات" يجيب عنهم بهدوء وبرزانة .

قال:" نحن لا ننوي الهجوم على أحد ، ونحن نطالب فقط بتنفيذ قرار الأمم المتحدة الصادر في أكتوبر الماضي بسحب القوات الإسرائيلية من الأراضي العربية المحتلة ، وفي الوقت نفسه نحن ندرك خطورة الاستفزازات الإسرائيلية، لذلك نقوي القدرات الدفاعية لبلدنا، ونحن مستعدون لرد أي عدوان" .

هنا في المركز الصحفي تتوفر وسائل الاتصال من تلغرافات وتليفونات مباشرة للصحفيين للاتصال بجميع عواصم العالم ، وكذلك مختلف الوثائق .

فى كل مرة كنت أعود إلى منزلى من مؤتمر صحفى مشيًا على الأقدام ، كانت القاهرة تبدو متيقظة ، كان الكثير يبدو غير مألوف ، حراسة على الكبارى ، ودوريات عسكرية فى الشوارع ، الأعلام الحمراء ترفرف على مواقع المدفعية المضادة للطائرات ، تحلق فوق المدينة المقاتلات باستمرار ، كانت عاصمة مصر مثل كل البلد فى حالة حراسة .

٣ ديسمبر عام ١٩٦٨

ندب نجع حمادى :

يرتبط اسم إحدى محطات الكهرباء عالية الجهد الفرعية الخاصة بخط توصيل الكهرباء من أسوان إلى القاهرة باسم البلدة المصرية الصغيرة "نجع حمادى" ، هذا المشروع كبير إلى حد ما ، حيث إنه مقام على مساحة ٦٤ هكتارًا ، وقد تم بناؤه فى عام ١٩٦٥ .

... يمكن رؤية محطة الكهرباء الفرعية بوضوح من شرفة الطابق الرابع للمنزل الذى يعيش فيه كبير خبراء تشغيل القطاع الجنوبى من خط توصيل الكهرباء بين أسوان والقاهرة "بافل ديميتريفيتش دوروخين" ، تلمع باللون الفضى آليات قواطع التيار خلف الجدار الحجرى ، كما تظهر العوازل شاحبة ، وترتفع إلى أعلى المحولات الآلية الضخمة ، ومبنى لوحة التحكم .

يحكى "بافل ديميتريفيتش" : لقد هاجمت الطائرات الحربية الإسرائيلية بالذات هذا الهدف المسالم تمامًا ، كانت الغارة إجرامية فى آخر الليل يسترها الظلام الحالك، لقد هز الانفجار الأرض بمعنى الكلمة، وارتفع اللهب الضخم إلى أعلى ، واندفع كل من كان فى المدينة تجاه مكان الحادثة ، تمت مكافحة النيران بالتعاون وبنظام ، وتمكنت فرقة بقيادة أخصائى الصيانة "جينادى جرونيتشيف" من اختراق ألسنة النار ، والدخول إلى المبنى الذى به مجموعة التحكم فى لوحة التوزيع ، وقد تم توصيل

التيار الكهربائي للمضخات في الحال ، ثم وصلت سيارات الإطفاء من "نجع حمادي" ، وقد أعطى كل من عمال التجميع "جدانوف" و"بوجدانوف" و"يجوروف" ، وعمال التشغيل "سميرنوف" و"بانكوف" و"موسكالوف" ، وآخرون مثالاً للشجاعة ، حيث أنقذوا الكثير من الممتلكات الثمينة ، كما أبدى الأصدقاء العرب الكثير من إنكار الذات ، فعلى سبيل المثال كان "فاروق" أول من جرى إلى لوحة التحكم لكي يشغل نظام الطوارئ وفي الحال بدأت أعمال الإنقاذ" .

تم إخماد الحريق بالجهود المشتركة ، ولكن الخسائر كانت فادحة ، تجولنا مع "ب. د . دوروخني" في موقع المحطة الفرعية التي ظهرت فيها ندبات الغارة ، الآن تتم هنا أعمال الترميم ، تبين عشرات الخيم التي تم نصبها على الهضبة الحجرية أنه قد تم إرسال تعزيزات جديدة إلى هنا ،

يقول "بافل ديميتريفيتش":"بالطبع نحن محزونون وغاضبون تماماً ؛ بسبب هذه الحادثة، خاصة أنه كان متبقياً على بدء تشغيل المشروع عدة أيام ، ولكننا كنا كلنا إصرار نحن وأصدقاؤنا العرب لإزالة آثار هذه الغارة البشعة التي شنتها الصقورالجيفة الإسرائيلية في أسرع وقت" .

قال رئيس المحطة المهندس"عبد الصالح" :" لم تخفنا هذه الغارة ، ولكنها زادت من إصرارنا ، وشجاعتنا في المعركة من أجل الحل العادل لمشكلة الشرق الأوسط ، فكل العرب يعرفون جيداً ويقدرون موقف الاتحاد السوفيتي من هذا الموضوع ، وأرجو أن تنقلوا إلى أهل السوفييت العاملين في "نجع حمادي" أنهم كلهم يتمتعون بصحة جيدة، ولم يصبهم أي أذى ويؤدون واجبهم على أكمل وجه" .

... تركت "نجع حمادي" متأخراً في الليل ، كانت الأضواء تومض وتلعب انعكاساتها على زخارف أعمدة خط نقل الكهرباء ، وكان يسير في مقابلتي مجموعة من عمال الوردية التالية في ملابسهم الخضراء الخاصة .

٢٠ فبراير عام ١٩٦٩

لهب المعركة فوق مدينة السويس :

(تم نشر هذه المراسلات فى الجرائد التالية: "كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفار) ١٩٦٩/٠٢/٢١، و"كومونيست طاجكستان" ١٩٦٩/٠٢/٢٢، و"تاجانروفسكايا برافدا" ١٩٦٩/٠٢/٢١، و"أنديجانسكايا برافدا" ١٩٦٩/٠٢/٢٧، و"سوفييتسكايا ليتفا" (مدينة فيلتوس) ١٩٦٩/٠٢/٢١، و"ستافروبولسكايا برافدا" ١٩٦٩/٠٢/٢٧، و"تسيلينوجرادسكايا برافدا" ١٩٦٩/٠٢/٢٥، و"كاباردينو- بالكازسكايا برافدا" ١٩٦٩/٠٢/٢٥، و"سيفيرنى رابوتشى" (مدينة باروسلافل ١٩٦٩/٢/٢٠)

تم الاتفاق على الإعلان عن تنظيم إضراب عام يوم ٢٢ فبراير فى جميع الأراضى التى تحتلها إسرائيل ، يتم ذلك للتعبير عن الاعتراض على بدء تطبيق القوانين الإسرائيلية فى ذلك اليوم فى الأراضى التى تم الاستيلاء عليها بطريقة غير قانونية فى أثناء حرب يونية ١٩٦٧ . تهدف إسرائيل من وراء ذلك إلى ضم الأراضى المحتلة ، ووضع كل من المجتمع العالمى والمجتمع العربى أمام الأمر الواقع ، وقد أعلن رئيس الوزراء "ليفى أشكول" وهو يخطب فى اجتماع الحكومة أكثر من مرة : أن كلاً من القدس ، ومرتفعات الجولان، والجزء الغربى من الأردن يجب أن تصبح "حماية جيدة لأمن إسرائيل" وأن على بلده ألا توافق أبداً على العودة إلى حدود ما قبل ٥ يونية ١٩٦٧ .

منذ فترة بسيطة مكنت هيئة الاستعلامات المصرية الصحفيين من زيارة السفن المحتجزة فى قناة السويس ، وتمكن ممثلو الصحافة العالمية من مشاهدة الحياة اليومية للمحتلين على الضفة الغربية ، بالطبع لم تكن توحى نقط الدفاع ، والمواقع المموهة للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة التى تلمع فى ضوء الشمس من خلال

زجاج النظارات المعظمة بإمكانية التفاهم بسلام ، كان إطلاق النيران فى منطقة القناة لا يتوقف أبداً ، وكان دائماً ما يصاحب قصف المدفعية هجمات جوية ، يطلق الجنود الإسرائيليون النار على كل شيء حتى على مواقع مراقبى الأمم المتحدة .

حدثنا الهاربون الذين قابلناهم بالقرب من الإسماعيلية عن الحملة المنظمة ضد العرب فى سيناء وغزة والقدس ، وعلى الضفة الغربية للأردن ، فعلى سبيل المثال كان فى غزة كل ما هو عربى ممنوع، بدءاً من الكتب المدرسية إلى المأكولات العربية ، كما تم رفع كل اللافتات المكتوبة باللغة العربية، ودنست المساجد ، توقفت الحياة فى الشارع الرئيسى بالمدينة "عمر المختار" ، كما نهبت وأغلقت مئات من المحال وأبعد أصحابها أو ألقوا فى السجن بتهمة "التعاون مع الفدائيين" ، ويتم تفتيش السكان بأمر من الحاكم العسكرى الإسرائيلى ، كما تم سحب النقود العربية من التداول .

الوضع نفسه موجود فى شبه جزيرة سيناء ، ٣٠ ألف من البدو محكوم عليهم بالفعل بالموت البطىء ، لأن سلطات الاحتلال منعتهم من الاقتراب من الأماكن السكنية، وهددتهم بالقتل بعد أن رفض شيوخهم إطاعة أوامرهم .

من الطبيعى أن يقاوم الوطنيون العرب المحتلون فى ظل هذه الأوضاع ، فقد نشطت أعمال الفدائيين بصورة كبيرة ، حيث ينسفون الكبارى ، ويتسببون فى الحوادث فى المواقع العسكرية، ويهاجمون الدوريات الإسرائيلية ، وحتى المواقع العسكرية نفسها .

تستمر نيران الحرب الوطنية ضد المحتلين الإسرائيليين فى الاتساع باضطراد؛ لذلك فى تل أبيب يخشون الإضراب العام الذى سيصبح مرحلة أخرى فى تطوير الحركات الوطنية للعمل ضد المحتلين الإسرائيليين .

١٤ مارس ١٩٦٩

فى القاهرة قلق :

("كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفار) ١٩٧٠/٣/٢٠)

فوانيس سيارتى مدهونة باللون الأزرق كما فى أيام يونية ١٩٦٧ التى لا تنسى ، ، نوافذ المبانى الحكومية والشركات العامة والخاصة والهيئات الأخرى مغطاة بورق سميك ، تم تحويل القاهرة والمدن الأخرى بالبلد إلى الإظلام الجزئى بناءً على أوامر وزارة الداخلية المصرية ، كما تم الإعلان عما يجب عمله والإرشادات عند حدوث قصف جوى فى حالة إغارة العدو عليها .

لم تتخذ الحكومة المصرية تلك الإجراءات عفويا، حيث لم يتوقف القصف طوال الأسبوعين الأخيرين على طول قناة السويس التى تبعد ١٣٠ كم عن العاصمة ، ، فكانت عشرات المدافع ووحدات الصواريخ تتبادل إطلاق النار من الصباح الباكر إلى وقت متأخر من الليل ، أما فى السماء فقد كانت تقوم معارك مع الصقور الإسرائيلية ، تكتب الآن الصحافة المصرية كثيراً عن الطيار الملازم "محمد عبد الباقى أحمد حسن" الذى أسقط طائرة "ميراج" إسرائيلية .

... أدرك الليل سيارتى الفولجا على الطريق ، سرت فى القاهرة الكبرى واستمعت إلى أنفاسها المحبوسة ، حركة السيارات أقل من المعتاد ، الإعلانات المضيئة مطفأة ، تم فصل الكهرباء فى الكثير من المناطق ، تظهر عند الكبارى الخيمات المخروطية الشكل المعتمة كما تبرز الأسلحة من خلف شكائر الرمال ، هذه حراسة ، تم تكثيف خدمة الحراسة والمراقبة ، يتلقى الشباب تدريبًا عسكريًا فى معسكرات مؤقتة بالقرب من الأهرام ... القاهريون حريصون ومنظمون ، يتصرفون بلباقة مع الأجانب ولكن يطلبون منهم اتباع إرشادات السلامة ، المدينة مثل البلد كلها مستعدة لأية طوارئ مفاجئة .

٢٠ مارس ١٩٦٩

هناك عند السويس - الحرب :

(تم نشر هذه الرسالة فى الجرائد التالية: "أديجيسكايا برافدا" (مدينة مايكوب) ١٩٦٩/٣/٢٥، و"كومسومولسكايا زناميا" (مدينة كييف) ١٩٦٩/٣/٢٣، و"أندوستريالنايا كاراجاندا" ١٩٦٩/٣/٢٣، و"كراسنى سيفير" (مدينة فولوجدا)، و"فيتشرنى مينسك" ١٩٦٩/٣/٢١، و" فيتشرنى سفيردلوفسك" ١٩٦٩/٣/٢٨، و"كومسومولتس طاجكستان" (مدينة دوشانبيه) ١٩٦٩/٣/٢٣، و"سيفيرنايا برافدا" (مدينة كوستروما) ١٩٦٩/٣/٢٦، و"تيومنسكايا برافدا" ١٩٦٩/٣/٢٥، و"سوفيتسكايا مولدافيا" (مدينة كيشينيف) ١٩٦٩/٣/٢١، و"كومسومولتس كوبياسا" (مدينة كيميروفا) ١٩٦٩/٤/١، و"سوفييتسكايا لاتفيا" (مدينة ريجا) ١٩٦٩/٣/٢٠، و"مالاديوج أزربيجان" (مدينة باكو) ١٩٦٩/٣/٢٥، و"كاباردينو- بايكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) ١٩٦٩/٣/٢٠، و"داجستانسكايا برافدا" (مدينة ماخاتشكالا) ١٩٦٩/٣/٢١، و"سوفييتسكايا لاتفيا" (مدينة ريجا) ١٩٦٩/٣/٢٨، و"ماجادانسكايا برافــدا" ١٩٦٩/٣/٢٣، و"أجنى الاتاو" (مدينة ألما أتا) ١٩٦٩/٣/٢٠، و"تسلينوجرادسكايا برافدا" ١٩٦٩/٣/٢١، و"سوفييتسكايا كيرجيزيا" (مدينة فرونزى) ١٩٦٩/٤/٢، و"كالينينسكايا برافدا" (مدينة كالينين) ١٩٦٩/٣/١٦، و"كورسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/٢٦، و"أورلوفسكايا برافدا" ١٩٦٩/٣/٢١، و"سوفييتسكايا أدجاريا" (مدينة باتومى) ١٩٦٩/٣/٢٦)

يظهر المنظر العام للسويس فجأة ، فتظهر بعد المنحنى من خلف التل الرملى مبانٍ من الأحجار البيضاء ، ومداخن مصانع ومصنع تكرير البترول الضخم ، فيما مضى كان هذا الطريق المبنى عبر الصحراء الحجرية يعج بالحياة وبالضجيج فى الربيع ، وكان شهر مارس يعتبر "موسم السويس"، فكانت الفنادق التى على الساحل تمتلئ بالسائحين .

أما الآن فقد اختلف كل ذلك ، فالسائحون توقفوا عن الحضور إلى هنا ، وتشاهد على الطريق سيارات نقل مغطاة ، وسيارات إسعاف ، ومعدات حربية ، وقد تم طلاء السيارات بلون الصحراء للتمويه ، كما تقوم الدوريات المرتدية البدل العسكرية بالتفتيش على التصاريح ، أصبح المنظر العام للسويس ممتلئًا الآن بالتحصينات والخنادق ونقاط المراقبة .

أصبحت المدينة نفسها عابسة ، وانتشرت بها مصدات الدبابات والأسلاك الشائكة مثل القنافذ التى انتصبت أشواكها ، شكت محطة الوقود على أطراف المدينة ، والتى كانت مزدحمة وصاخبة دائمًا من خلوها ، أصبح مالكها صديقى القديم "محمد السيد" لا يرغب فى الكلام ، وظهر عليه الإرهاق ، وبدلاً من إطلاق النكات المرحة كما هى عادته، رفع محمد فقط يده الحاملة لبندقية محييًا لنا ، هو الآن يقوم بدور رئيس مركز للدفاع المدنى، ويقوم بالخدمة طوال اليوم وينام فى المكان نفسه خلف شكائر الرمال .

حكى لنا "محمد": يمكن أن يتجدد إطلاق النار فى أية ثانية ، فلا يوجد هنا خط للهدنة ولكن جبهة قتال بمعنى الكلمة. لقد قام المعتدون فى خلال الشهرين الأخيرين بإطلاق النيران على السويس عشرات المرات ، كان القصف بالمدافع شديد بصفة خاصة فى يومى ٨ و٩ مارس ، ودمرت عشرات من المنازل ومدرستان وجامع وقاعة سينما ومستشفى ، وانفجرت ٧ خزانات فى مصنع تكرير البترول، وقتل ٣٩ شخصًا وأصيب العشرات بسبب سقوط القنابل عليهم مباشرة .

تذكرت الصورة الكئيبة لآخر غارة للطيران الإسرائيلى على مصنع تكرير البترول بالسويس فى العام الماضى ، فى ذلك الوقت شاهدت بعينى احتراق ١٣ خزانًا للبترول. ومرة أخرى استقبلت رائحة الحريق والرماد والمواسير الملتوية فى عنابر المصنع السويسى مجموعتنا المكونة من صحفيين ، كان قد تم ترميم المصانع بعد القصف المدفعى فى العام الماضى ، والآن تم تدميره مرة أخرى ، اختلطت مستنقعات من البترول ومن الماء مع أجزاء أجسام الخزانات المحترقة المشوهة ، وغطاها كلها دخان ، كانت فرق الإطفاء والطوارىء تعمل وهى واقفة فى الماء الذى وصل حتى الركب .

ظهر سطح خليج السويس خلف المصانع وقد أصبح ضحلاً وحجزت فيه بعض السفن ، بالإضافة إلى الأحياء السكنية نصف المهدمة على الساحل ، تهشم الزجاج وقد تمت تغطية النوافذ بشكائر الرمال ، وتظهر مستشفى بجانب الإستاد وقد هدم مبناها بفعل نيران المدفعية الإسرائيلية .

أما مبنى المحافظة فقد أحاطه حزام على هيئة جدار من شكائر الرمال المرصوصة لحمايته من الشظايا ، مضى أسبوع لم يغمض فيه المحافظ "حامد محمود" عينيه ، حيث تدور معركة شديدة مع الحرائق، ويتم إخراج القتلى من تحت الأنقاض ويتم إبعاد الجرحى وتدريب قوات الدفاع المدنى .

يقول المحافظ: " يقوم الإسرائيليون بإطلاق النيران عن عمد على الأحياء السكنية لكى يخيفونا ، هذا استفزازٌ وقحٌ مقصودٌ ينفذونه من هناك" ... ويشير المحافظ إلى النافذة ، تبعد القناة عن هذا المكان بنصف كيلومتر ، كما يظهر على الجانب الآخر التل الرملى الأبيض الذى شيده المحتلون الإسرائيليون بارتفاع عشرة أمتار للاحتماء وراءه ، وخلف هذا التل توجد مواقع إطلاق النيران من بطاريات مدافع ودبابات ، لقد نشرت ونقلت بعضها إلى عمق سيناء ، وقد تم ذلك بعد أن أطلقت المدفعية المصرية النيران بدقة موجهة ضربة ساحقة للمعتدين ، فقد تم القضاء على ٦ مواقع لمدفعية الميدان والهاون للعدو، كما تم تدمير ١١ من مواقعه للمراقبة فى يوم ٩ مارس وحده فى أثناء تبادل المدفعية لإطلاق النيران الذى استمر لمدة ثلاث ساعات .

يهز مراقبو الأمم المتحدة أكتافهم لأنهم غير قادرين على منع العمليات الحربية. يمر خط وقف إطلاق النار عند السويس بمحاذاة القناة ، أما فى الواقع فإن خليج السويس ، والمدينة نصف المهدمة ، والقناة "العاطلة" تهتز باستمرار بسبب القصف المدفعى .. كل هذه الأماكن خط الجبهة ،

٣ أبريل عام ١٩٦٩

أنفاس الحرب :

(تم نشر هذه الرسالة فى جرائد: "كومونيست" (مدينة يريفان) ١٩٦٩/٤/٥، و"سوفييتسكايا تاتاريا" (مدينة كازان) ١٩٦٩/٤/٣، و"مولوديوج ألتايا" (مدينة برناول) ١٩٦٩/٤/٤، و"كومسومولتس دونباسا" (مدينة دانيتسك) ١٩٦٩/٤/٢، و"ناسمينو" (مدينة سفيردلوفسك) ١٩٦٩/٤/٣، و"كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفكار) ١٩٦٩/٤/٣، و"كومسومولتس" (مدينة بيتروزافودسك) ١٩٦٩/٤/٤، و"تيومنسكايا برافدا" ١٩٦٩/٤/٥، و"سوفييتسكايا أدجاريا" (مدينة باتومى) ١٩٦٩/٤/٤، و"أورلوفسكايا برافدا" ١٩٦٩/٣/٣٠، و"سيفيرنايا برافدا" (مدينة كوستروما) ١٩٦٩/٤/٣، و"لنينسكايا برافدا" (مدينة بيتروزافودسك) ١٩٦٩/٤/٦، و"مولوديوج إستونيا" (مدينة تالين) ١٩٦٩/٤/٢٤، و"باكو" (الطبعة المسائية) ١٩٦٩/٤/٨، و"رابوتشايا جازيتا" (مدينة كييف) ١٩٦٩/٤/٢، و"كومسومولتس أوزبكستان" (مدينة طشقند) ١٩٦٩/٤/٢)

يؤدى خطان من السكك الحديدية إلى الإسماعيلية الواقعة تقريباً فى وسط مجرى قناة السويس ، واحد يصل من القاهرة، والثانى من السويس ، الخط الأول يعمل تقريبا باستمرار ، أما الخط الثانى الممتد على طول القناة فهو يتعرض باستمرار لقصف المدفعية الإسرائيلية ، ولقد اقتنع الصحفيون الأجانب بصفة خاصة بذلك عندما شاهدوا بقايا قطار انطلق من السويس ، يقص سائق هذا القطار كيف حدث ذلك:

فى هذه المرة أطلقت دبابتان إسرائيليتان كانتا تتربصان بالفريسة ، عند ظهور القطار على جزء الطريق المار بجانب القناة تماماً، خرجت الدبابتان من مخبئهما، وأطلقتا النيران فوراً، ثم اختفتا خلف تل الرمال العالى الذى شيده الإسرائيليون على طول الضفة الغربية للقناة ، سكن كل من شريط السكة الحديد المشوه والعربات المعوجة على خلفية الصحراء ذات اللون الأصفر الفاتح شواهد صامتة على ما حدث ، لحسن الحظ لم تكن هناك خسائر بشرية ، حيث كانت عربات القطار فارغة .

تحـدث مثـل هذه الاستفـزازات كل يـوم تقريبًا ، وقد حذر محـافظ الإسمـاعيلية "م . رفـاعى" ممثلى الصحـافـة بأنه لا يسـتطيع أن يضـمن سـلامـتـهم ، كمـا أننا قـد سمعنا تحذيرًا مماثلاً من محافظ السويس .

... المسافة بين شكائر الرمال أمام مبنى المحافظ وخط وقف إطلاق النار قريبة لا تزيد عن نصف كيلومتر ، لا يسمح الآن بدخول الصحفيين إلى هذه المنطقة فهى خطرة ، أما على اليمين فيظهر خلف أشجار النخيل مبنى هيئة قناة السويس الأبيض متعدد الطوابق الذى تفخر به الإسماعيلية ، تظهر عليه كله الجروح بسبب شظايا القذائف ، كما أن زجاجه مهشمٌ وتظهر الثقوب فى جدرانه بسبب القذف المباشر عليه ، حكى لنا الرئيس السابق لهيئة قناة السويس "أحمد مشهور" إن الإسرائيليين يطلقون النار على هذا المبنى ، وعلى الأحياء السكنية فى المدينة كل يوم تقريبًا ،

سكنت سفينة "أوبزرفر" الأمريكية المحملة بالقمح فى مجرى القناة ، لا توجد عليها آثار للطلقات الإسرائيلية ، وقد عرضت السلطات المصرية على قبطانها منذ يناير العام الماضى أن يبيع لها الحبوب ، ولكنه إلى الآن ينتظر رد رئيسه من وراء المحيط ، رحل طاقم السفينة ولكن بقى القبطان ومعه أربعة من البحارة فى "المياه المحايدة" بين الضفتين الشرقية والغربية للقناة ، يقف أيضًا عند طرف القناة النصب التذكارى الضخم للجنود الإنجليز الذين سقطوا فى الشرق الأوسط فى أثناء الحرب العالمية الأولى الذى لم يمسه شىء .

تظهر على هذه المدينة آثار القذف المستمر ، تجولت فى أحيائها فلم أستطع أن أحصى عشرات المنازل المهدمة ، وتخطيت الأطلال التى تبقت من مدرسة مهدمة، وشاهدت وجوه الجرحى الشاحبة التى يمتلئ بها المستشفى العسكرى المؤقت .

الشوارع ساكنة ، نوافذ المنازل مغطاة بشكائر الرمال ، رفعت الكبارى من فوق قناة الصرف ، وتركت حواجز الدبابات ممرًا ضيقًا بينها لمرور السيارات ، تظهر الإسماعيلية اليوم مليئة بالخنادق، وبالنقاط المحصنة ، وبالنظرات الحذرة لأفراد الحراسة ، ويغيب عنها المشاة .

ولكن ما زال العاملون فى مصنع المصابيح الكهربائية ينتجون ، وتظهر جيداً كل من قناة السويس والتحصينات الإسرائيلية على الضفة المقابلة من على سطح المصنع ، يحرس المصنع أفراد الدفاع المدنى طوال اليوم ، لقد أخمدوا أكثر من حريق به . يذهب مائتان من العمال بعد انتهاء وردية عملهم إلى معسكر التدريب العسكرى القريب، فقد قرر كل من بقى فى الإسماعيلية أن يساعد الجيش ، وأن يكون مستعداً لمواجهة أى عدوان من قبل العدو .

لم يكن تحذير المحافظ لنا من الخطر بلا أساس ، ففى أثناء عودتنا إلى القاهرة أذاع الراديو بياناً عن بدء تبادل جديد لإطلاق النيران على القناة فى منطقة الإسماعيلية ...

٤ أبريل عام ١٩٦٩

الربيع فى القاهرة :

(تم نشر هذه الرسالة فى الجرائد التالية: "أوليانوفسكايا برافدا" ١٩٦٩/٤/٨ ، و"كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفار) ١٩٦٩/٤/٨ ، و"سوفييتسكايا كيرجيزيا" (مدينة فرونزى) ١٩٦٩/٤/٩ ، و"فيتشيرنايا سفيردلوفسك" (١٩٦٩/٤/١٠ ، و"داجستانسكايا برافدا" (مدينة ماخاتشكالا) ١٩٦٩/٤/١٣ ، و"كومونيست طاجكستان" (مدينة دوشانبيه) ١٩٦٩/٤/١٠ ، و"كاباردينو - بالكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) ١٩٦٩/٤/١٠ ، و"تسيلينوجرادسكايا برافدا" ١٩٦٩/٤/١١ ، و"سوفييتسكايا أدجاريا" (مدينة باتومى) ١٩٦٩/٤/٩)

... صباح ربيعى عادى فى القاهرة ، لم تستطع الشمس بعد أن ترفع عمود الترمومتر أعلى من علامة الثلاثين، ولكن لم يكن ينبئ الضباب على الصحراء بقرب حدوث شيء سارّ ، فمن المنتظر أن يكون الجو خماسينيا حاراً مرة أخرى ، معتماً متربًا وجافًا .

توجهت بسبب بعض الأعمال الصحفية إلى المطار الدولى خارج المدينة ، كالمعتاد كان الكثير من السيارات موجودًا فى الطريق النابض بالحياة ، عند مبنى المطار طلب منى شرطى بأدب أن أحرك سيارتى إلى مكان آمن ، ثم اصطحبونى إلى أنفاق تحت الأرض ، وقد أوضح النوبتشى ذو الشريط الأحمر على ذراعه، مما يدل على أنه أحد أفراد الدفاع المدنى ، وهو يشير بيديه،"نحن نفهمك تمامًا ولكن النظام هو النظام ، فقد تم الإعلان عن غارة جوية تدريبية" . اضطررت لقضاء نصف ساعة فى مخبأ مع ركاب الكثير من شركات الطيران التى تهبط طائراتها فى مطار القاهرة .

يتم عمل غارات جوية تدريبية فى كل من القاهرة والمدن الأخرى طبقًا لخطة وضعتها السلطات المصرية لكى تعد لمواجهة أى هجوم ممكن لقوات الطيران الإسرائيلية ، فقد أجبرت الصدامات الحربية على قناة السويس على بعد ١٣٠ كم فقط من القاهرة إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتقوية الدفاع .

وقد نشرت الجرائد المركزية مواعيد إنذارات الغارات الجوية فى مختلف أحياء العاصمة ، كما يتم الإعلان عنها فى أماكن العمل فى التاسعة صباحًا لمنع أية إشاعات ممكنة ، أما فى الأحياء السكنية فيعلن عنها فى الثامنة مساءً ، وقد ظهرت على نوافذ المبانى الإدارية ستائر ورقية سميكة زرقاء للتمويه بناءً على تعليمات وزارة الداخلية ، كما تم طلاء فوانيس السيارات بهذا اللون نفسه ، وكثفت الحراسة على الطرق، وعلى الكبارى ، وعلى كل الإنشاءات الأخرى المهمة ، وكذلك تم إنشاء خمسة مراكز أخرى جديدة لتدريب المتطوعين على الدفاع المدنى ، وتستمر فيها الدورة التدريبية لمدة خمسة عشر يومًا ، وقد تم تدريب ١١ ألف فردٍ فى هذه المراكز حتى اليوم .

عقد الاتحاد الاشتراكى العربى فى جميع أنحاء البلد مؤتمرات اتخذت فيها قرارات بتجنيد كل الإمكانيات البشرية والمادية لاحتياجات الحرب بالتوسع فى الدفاع المدنى .

أعطيت هذه المسائل اهتمامًا كبيرًا أيضًا فى الجلسة الثانية للمؤتمر العام للاتحاد الاشتراكى الذى أنهى أعماله فى القاهرة مؤخرًا ، وقد وضح الرئيس "جمال عبد الناصر"

فى كلمته فى هذه الجلسة أن مصر لن تقدم أية تنازلات فيما يخص الأراضى العربية التى تحتلها القوات الإسرائيلية ، وقد نشرت الجرائد أن وزير الحربية "محمد فوزى" قد قدم تقـــريراً فى الجـــلسة عن موقف عملية إعادة بناء القوات المسلحة ، وعن درجة استعدادها للقتال .

وقد أعلن رئيس مصلحة استعلامات جمهورية مصر العربية "محمد حسن الزيات" للصحفيين: "إننا مضطرون لأن نتخذ كل الإجراءات الوقائية، فالحالة فى منطقة قناة السويس تنذر بإمكانية وقوع موجة جديدة من الاشتباكات فى أية لحظة ، ونحن ما زلنا نصر على الحل السلمى لمشكلة الشرق الأوسط ، وعلى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة الصادرة فى نوفمبر عام ١٩٦٧ ، ولكن القوات المسلحة المصرية، مثل كل البلد، فى حالة استعداد كامل للمعركة لكى تصد المعتدين فى أية لحظة .

ساد طقس خماسينى معتم حار فوق القاهرة وحجب الشمس ، ارتفع عمود الترمومتر إلى أعلى من علامة الثلاثين ، هذه الأيام حارة بصفة خاصة فى عاصمة مصر ، ولكن هناك على قناة السويس الحرارة أعلى ، حيث نشبت الحرب منذ عام ١٩٦٧ وما زالت فعلياً مستمرة .

٢٥ يونية ١٩٦٩

الحياة اليومية فى بلد الأهرام :

(تم نشر هذه الرسالة فى الجرائد التالية: "سمينا" (مدينة لينتجراد) ١٩٦٩/٦/٥، و"تسيلينوجرادسكايا برافدا" ١٩٦٩/٦/٤، و"ماجادنسكايا برافدا" ١٩٦٩/٦/٨، و"سوفييتسكايا كالميكيا" (مدينة إليستا) ١٩٦٩/٦/٦، و"كاباردينو - بالكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) ١٩٦٩/٦/٦، و"تيومنسكايا برافدا" ١٩٦٩/٦/٥ و"كافكافسكايا زدرافنيتسا"(مدينة بياتيجورسك) ١٩٦٩/٦/١٥، و"سوفييتسكايا كيرجيزيا" (مدينة

فرونزى) ١٩٦٩/٦/٧، و"بوت كومينيزمو" (مدينة أكتينيسك) ١٩٦٩/٦/٥، و"ستيينوى مـاياك (مدينة كوكتشيتاف) ١٩٦٩/٦/٧، و"كمتشاتسكايا برافدا" ١٩٦٩/٧/٢، و"زناميا يونوستى"(مدينة مينسك) ١٩٦٩/٦/٦، و"كومونيست تطاجيكستان" (مدينة دوشانبى) ١٩٦٩/٦/٦، و"كالينينجرادسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٩، و"كومسومولتيس أوزبكستان" ١٩٧٠/٣/٢٤، و"داجستانسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٩، و"توفينسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/٢٥، و"سوفييتسكايا سيبير" (مدينة نوفوروسيسك) ١٩٧٠/٣/٢١، و"سوفييتسكايا بيلاروسيا" ١٩٦٩/٣/١٦)

يطلق على مدينـة "بورتوفـيق" الواقـعة على قناة السـويس "الخط الأول" ، فـهناك يسمع صفير الطلقات، كما أن المبانى مدمرة ، وليس من "كلمة طيبة"، فهناك يسود الخطر .

أتذكر ما كانت عليه مدينة "بور توفيق" منذ زمن قريب، المنطقة الفاخرة للتجارة فى السويس ، وهى تقع عند مدخل قناة السويس نفسه ، كان يحضر إلى هنا الكثير من السائحين ، كانوا يعجبون بالشواطئ الرائعة الجمال، والنصب التذكارى للجنود الهنود الذين قتلوا فى الحرب العالمية الثانية، وفندق "سمر بالاس" الذى يقع على شاطئ خليج السويس، والسفن الضخمة، وكازينو للبحارة ، وتظهر على بعد فى جهة الغرب سلسلة جبال يميل لونها للأزرق وأضواء مصنع تكرير البترول ، وخيال مبانٍ متعددة الطوابق ، أما فى الجهة المقابلة فهناك صحراء شبه جزيرة سيناء البيضاء تلمع فى ضوء الشمس ...

أما الآن، بل منذ عامين، يبدو كل ذلك كأنه قصة خيالية ، فالآن يمكن فقط مشاهدة "بورتوفيق" لأنه لا يسمح لأحد بدخولها لأنه يتم هناك إطلاق النيران تقريبا كل يوم، ولا أحد يعرف متى سوف ينتهى ومتى سيتجدد مرة أخرى ، أصبح ما يسمى"ركن الفردوس فى السويس" مهدمًا تمامًا تقريبًا ، تقف هنا ثلاث سفن صغيرة يتيمة ، ولا أحد يتذكر الفندق الشهير ، أما هناك على الضفة الغربية فتظهر كومة من الرمال لونها أبيض وارتفاعها عشرة أمتار ويصدر من خلفها ضجيج

"البولدوزرات" والدبابات ، فهناك الجيش الإسرائيلى مستمر فى الاختفاء فى الأرض ، تسمع من تلك الضفة كلمات مهينة موجهة عبر مكبرات الصوت إلى العرب ، ولكن ليست الإهانات فقط هى ما يطلق من تلك الضفة، وإنما يطلق الجنود الإسرائيليون النار بصفة دائمة على الأحياء السكنية ومصانع البترول وحتى على المارة المنفردين .

"بور توفيق" هى فقط جزء صغير من "قناة السويس" يمر من خلاله خط وقف إطلاق النار ، ولكن الموقف هنا مماثل لكل ما فى النقاط الأخرى ، فالأعمال الحربية لا تتوقف أبدًا تقريبًا لا فى النهار ولا فى الليل ، وقد شاهد الصحفيون الأجانب العاملون فى مصر ذلك عدة مرات ، ولكن فى الفترة الأخيرة أصبح المراسلون يرسلون بشكل يزيد تكراره رسائل عن فشل الجانب الإسرائيلى ، ونحن نراقب كيف تنمو قوة الجيش المصرى الذى لا يترك الهجمات العدوانية من الجانب الآخر دون عقاب .

لقد تحدثت مرة فى القاهرة مع أحد البقالين الذى يبيع فى محله بشارع قصر النيل البن والحلويات وبضائع أخرى صغيرة متنوعة .

قال صاحب المحل:"أنتم الروس تعرفون أحسن من أى شخص آخر ما الحرب ، فإنكم قد جربتموها عدة مرات فى الماضى ، وتاريخكم مثال لنا" .

فحصت بنظرى محله بفضول ، التقط نظرتى وقال:

– ألا توجد مثل هذه عندكم؟

– لا، فكل شيء عندنا قطاع عام .

– ولكن لا تعتقد أنه بما أن محلى ملكية خاصة أنى أفكر فى الدخل فقط ، أفكر طبعا، ولكن ... كم الساعة الآن؟

– التاسعة ،

– سوف أغلق المحل بعد ساعة ثم أذهب إلى الجيزة .... إلى الأهرام ، سوف نتدرب هناك أنا وأقاربى ومعارفى على الأعمال العسكرية .

... تظهر القاهرة الخضراء وافرة الظلال بشكل خاص فى تلك الأيام ، ولكن ما زالت بها المحلات التجارية التى يصدر عنها الضجيج وما زالت مئات من أصحاب الأكشاك الصغيرة والباعة الجائلين يزعقون على المارة ، ولكنى أرى على بعد قليل الحراسة والمدافع المضادة للطائرات ، كما أنى ألقى نظرات دوريات الحراسة المرتابة فى المساء عند الكبارى ، وفى كل مكان تم إخفاء مصابيح السيارات بطلاء أزرق .

٢٤ ديسمبر ١٩٦٩

عند قناة السويس القلقة :

(تم نشر هذه الرسالة فى الجرائد التالية: "فيتشرنايا ماسكفا" ١٩٦٩/١٢/٣٠، و"كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفار) ١٩٦٩/١٢/٢٧، و"سيفيرنايا برافدا" (مدينة كوستروما) ١٩٦٩/١٢/٢١، و"سوفييتسكايا كالميكيا" ١٩٦٩/١٢/٤، ، و"كاباردينو-بالكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) ١٩٦٩/١٢/٢٥، و"ألتايسكايا برافدا" (مدينة برناول) ١٩٦٩/١٢/٢٤، و"أجنى الاتاو" (مدينة ألماآتا) ١٩٧٠/١/٧، و"كرانويارسكى رابوتشى" ١٩٦٩/١٢/٢٦، و"كومسومولتس طاجيكستان"(مدينة دوشانبى) ١٩٧٠/١/٤، و"نا سمينو" (مدينة سفيردلوفسك) ١٩٦٩/١٢/٢٦، و"داجستانسكايا برافدا" (مدينة ماخاتشكالا) ١٩٦٩/١٢/٣٠)

شريط مائى أزرق ، يكون أحيانًا ساكنًا وأحيانًا متعرجًا بفعل هبوب الريح ، الشاطئ عبارة عن رمال ساخنة بفعل الشمس ، هذا ما تبدو عليه قناة السويس ، طولها ١٦١ كيلومترا وعرضها يتراوح بين ١٢٠ و١٥٠ مترًا ، فى الماضى كان يعبرها عدد من السفن يصل إلى ٨٠ فى اليوم الواحد ، وكانت أعداد غفيرة من السائحين تملأ البلاجات وتزور معالم السويس والإسماعيلية وبورسعيد والمدن الأخرى .

ولكن اعتباراً من يونية عام ١٩٦٧ يمر من هنا خط وقف إطلاق النار ، وقد ظهرت ضفتا القناة مليئة بالمدافع والصواريخ ، كما قطعتها الدهاليز ، وخنادق الاتصالات المدعمة بنقط إطلاق النار الخرسانية ، وقد رقدت فى القناة نفسها ١٥ سفينة تجارية تنتمى لدول مختلفة لم تلحق عبورها فى الوقت المناسب .

تظهر الإسماعيلية بصورة كئيبة ، وقد شوهت الطلقات والقنابل مبنى إدارة قناة السويس الأبيض متعدد الطوابق الذى يرتفع فوق المدينة ، فالإسرائيليون كثيراً ما يضعونه أمام "الناشنكان" ولكنه يقف حارساً للمدينة لا ينحنى أبداً ، يقف أيضاً سكان الإسماعيلية بصلابة على الرغم من أن شوارعها أصبحت خالية وكئيبة تقطعها خطوط الاتصالات وتملؤها الحواجز الحديدية .

لا يسمح حالياً للصحفيين إلا فى النادر بالدخول إلى منطقة القناة ، وقد أعلن لنا محافظ الإسماعيلية "مبارك رفاعى" فى أثناء آخر زيارة قمنا بها للإسماعيلية:" يمر خط الجبهة من هنا ، وتطلق النيران بواسطة الصواريخ والقنابل العادية والقنابل الحارقة وطلقات الرصاص ، ويمكن أن تفتح النيران فى أية لحظة ، لذلك لا نضمن سلامة أى شخص ، فقد تم هنا إطلاق النيران حتى على مواقع مراقبى الأمم المتحدة فقتل أحد المراقبين وجرح آخرون ، وقد تم غلق عدة مواقع لأنها تعتبر الأخطر بناءً على قرار سكرتير عام الأمم المتحدة" .

أصبح الوضع السائد فى منطقة قناة السويس صعبًا للغاية ، ففى المساء تسمع أصوات الجنازير والمحركات صادرة من الضفة الأخرى التى يربض بها الجيش الإسرائيلى ، وقد زادت قوة الضربات التى ترد بها القوات المصرية بشكل ملحوظ ، فإذا كانت الدعاية الإسرائيلية قد أكدت فى الشهور الأولى أن "أبطال سيناء يشعرون بالهدوء على القناة"، فقد قلت هذه التأكيدات بشكل ملحوظ بعد رد المدفعية المصرية للضربات بقوة ، وقد بدأ الإسرائيليون فى عام ١٩٦٨ فى وضع نظام جديد لتقوية تحصيناتهم على ضفة القناة سمى "خط بارليف" على اسم رئيس أركان حرب إسرائيل ، فاضطرت القيادة المصرية إلى اتخاذ إجراءات مضادة بأن تركز رد ضربات المدفعية

على "خط بارليف" ، وقد تمكنت القوات الخاصة المصرية من اختراق القناة عدة مرات ، وتوجيه ضربات لمواقع الإسرائيليين فى عمق شبه جزيرة سيناء .

... يقف الجنود المصريون متحفزين ينظرون من مزاغل نقاط النار ، وهم مستعدون لأية مفاجآت ، كما يراقب حراس الدفاع الجوى السماء ، وهم يؤدون بشجاعة واجبات الحراسة على خط الجبهة نفسه ، بينما هناك على الجانب الآخر ما زال ضجيج المحركات مستمراً .

٧ مارس عام ١٩٧٠

مكان الحدث - أبو زعبل :

(تم نشر هذه الرسالة فى جريدة: "داجستانكايا برافدا" (مدينة ماخاتشكالا) ١٩٧٠/٣/٧)

لقد رأى محدثى بعينيه طائرات "الفانتوم" التى قامت بالغارة البربرية على "أبو زعبل" . يحكى الميكانيكى "محمد بنتين": لقد جاءوا من الشمال على ارتفاع منخفض ، قد يكون سرياً كاملاً ، كنت أظن أنهم سيطيرون على بعد منا ، ولكن استدارت اثنتان من "الفانتوم" فجأة أمام منطقة "أبو زعبل" وبدأتا فى مهاجمة مصنع الصلب ، ألقتا القنابل وأطلقتا الصواريخ ثم اقتربتا من الأرض وأمطرتا المارة والمنازل بطلقات الرصاص، وانطلقتا فوق رءوسنا بسرعة عالية .

يضيف المهندس "صلاح المغازى ": حدث الهجوم قبل يوم الإجازة الأسبوعية وعيد الأضحى عند المسلمين ، فعلى مدى يومين متتاليين انفجرت القنابل الموقوتة فى المصنع ، ولكن بدأت أعمال الإصلاح فوراً بمساعدة فرق الإنقاذ ، وقد ساعدتنا المصانع الأخرى ، وعمل الأهالى فى الصباح وفى المساء حتى إن المصنع بدأ فى الإنتاج بعد خمسة أيام فقط ،

١٣ مارس ١٩٧٠

فى القاهرة، فى شارع رمسيس :

(تم نشر هذه الرسالة فى الجرائد التالية: "رابوتشايا جازيتا" (مدينة كييف) ١٩٧٠/٣/٢٢، و"كومونيست طاجيكستان" (مدينة دوشانبى) ١٩٧٠/٣/١٤، و"يوجنى أورال" (مدينة أورنبورج) ١٩٧٠/٣/١٣، و"لينينسكوى زناميا" (مدينة موسكو) ١٩٧٠/٣/١٣، و"سوفييتسكايا كالميكيا" (مدينة إليستا) ١٩٧٠/٣/١٤، و"سوفييتسكايا لاتفيا" (مدينة ريجا) ١٩٧٠/٣/١٣، و"كوزباس" (مدينة كيميروفا) ١٩٧٠/٣/١٤، و"كراسنوى زناميا" (مدينة سيكتيفكار) ١٩٧٠/٣/١٤، و"أورلوفسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٤، و"سوفييتسكايا أدجاريا" (مدينة باتومى) ١٩٧٠/٣/١٧، و"بريزيف" (مدينة فلاديمير) ١٩٧٠/٣/١٢)

أقيمت فى مبنى الهلال الأحمر بشارع رمسيس فى القاهرة مراسم تسليم الأدوية، والمواد الغذائية ، والأغطية التى أهديت لمن تضرر من قصف الطيران الإسرائيلى لمصنع الصلب بـ "أبو زعبل" ، ولأفراد عائلات القتلى بناء على قرار مجلس السوفييت ، للتضامن مع دول آسيا وأفريقيا والصندوق السوفيتى للسلام واللجنة التنفيذية للصليب الأحمر والهلال الأحمر بالاتحاد السوفيتى .

وقد عبر وزير الصحة المصرى "د ، سلام" عن شكره لشعب وحكومة الاتحاد السوفيتى باسم حكومته ، وقد أشار إلى أن المساعدة المقدمة من الاتحاد السوفيتى عامل مهم فى النضال من أجل تصفية أثار العدوان الإسرائيلى ، وتحرير الأراضى العربية المحتلة .

وقد قال "يوسف السباعى" أمين عام سكرتارية منظمة تضامن الشعوب الآسيوية والأفريقية:

"يقدم لنا الاتحاد السوفيتي مساعدة كبيرة جدا ، وقد أخطأ أعداؤنا – إسرائيل والرجعية العالمية – في اعتقادهم أننا نقف وحدنا ، فالاتحاد السوفيتي قد ساعدنا دائمًا وعلى مدى سنوات الثورة المصرية في الأوقات الصعبة ، ونحن نرى في الهدية التي قدمها الشعب السوفيتي للمتضررين في "أبو زعبل" صورة أخرى للتعبير عن الصداقة السوفيتية العربية ، ومشاعر الشعب السوفيتي تجاهنا ، وكذلك عن الاهتمام بمشاكلنا .

وقد أعلن "أبو بكر مراد" رئيس مجلس إدارة مصنع "أبو زعبل" : "لقد تلقينا الكثير من البرقيات والخطابات والطرود من كل أنحاء العالم ، ولكن أكثرها كان من الاتحاد السوفيتي ، ونحن لن ننسى أبدًا مساعدة الشعب السوفيتي" .

١٤ مارس ١٩٧٠

الأشباح ضد "خوفو" :

(نشرت هذه الرسالة في الجرائد التالية: "أديجيزكايا برافدا" (مدينة مايكوب) ١٩٧٠/٣/١٤ ، و"زلاأوسوفسكي رابوتشي" ١٩٧٠/٣/١٩ ، و"كالينينجرادسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٢ ، و"سوفييتسكي سولدات" (المجموعة المركزية للجيوش) ١٩٧٠/٤/١٠ ، و"توفينسكايا برافدا" (مدينة كيزيل) ١٩٧٠/٣/١٤ ، و"كومسوموليتس كوبياسا" (مدينة كيميروفا" ١٩٧٠/٣/١٧ ، و"سيلسكايا جازيتا" (مدينة مينسك) ١٩٧٠/٣/١٥ ، و"فيتشيرنايا بيرم" ١٩٧٠/٣/١٧)

جاء الربيع في القاهرة ، وظهر الضجيج والهرج في شوارع العاصمة المصرية ، يستعد الناس لبدء العام الهجري الجديد ، نشطت الحياة في المحال الكثيرة التي يمدح أصحابها في بضاعتهم بصورة زائدة ، ويسير بالجوار الحرس بملابسهم الخضراء ذات اللطع حاملين في أيديهم البنادق ، وهم على استعداد لإطلاق النار من سلاحهم على الأعداء ...

ذهبت إلى هرم "خوفو" من فترة وجيزة فى ضاحية القاهرة ، لقد أنشئ هنا معسكر للأطفال من سن ٨ إلى ١٢ سنة ، أحاطت بى زمرة صاخبة من الأطفال ، معظمهم أولاد أسر مهجرة من منطقة قناة السويس ، يدرسون هنا ويتعلمون فى حلقات دراسية ، ولكن طالتهم الحرب حتى هنا تحت ظل الأهرام العظيمة ، فجأة بدأت المدفعية المضادة للطائرات فى إطلاق نيرانها بينما كنا نتحدث ، سارت الطائرة الإسرائيلية على ارتفاع كبير جدا راسمة خطا أبيض فى السماء الزرقاء . بالطبع كان ذلك استفزازًا ، لقد اعتقد قرصان الجو أنه سيطير فوق الأهرام من دون أن ينال عقابًا ، ولكن بمجرد أن بدأت القذائف فى الانفجار أصاب الذعر الطيار واستدار فجأة ناحية القناة ، ولكن بعد ذلك تفاخر المعلق العسكرى من تل أبيب بأن طائرتهم حلقت فوق هرم "خوفو" دون أن تواجه أية مقاومة .

كثيرًا ما يسمع سكان العاصمة انفجارات الطلقات والقنابل ، ولكنهم لا يستسلمون للذعر ، فالعمل مستمر بصورة طبيعية فى كل مكان ، ولكن من الصحيح أنه قد تم عمل إجراءات صارمة جدا لتنفيذ التعليمات الخاصة بالغارات الجوية .

عندما كنت أكتب هذه السطور كانت إذاعة القاهرة تقول: "فى الساعة الحادية عشرة صباحًا قامت طائرات العدو بغارة على معسكر حربى مصرى فى غرب العاصمة ، وقد ردت قوات الدفاع الجوى على العدو" .

"فى الساعة الرابعة عشر والنصف، اخترقت طائرات العدو مرة أخرى المجال الجوى فى الجزء الشمالى من دلتا النيل ، وقد اعترضتها المقاتلات المصرية ، وقد شاهد سكان مدينة دمياط والمناطق القريبة منها معركة جوية ، ورأوا كيف أسقط الطياروين المصريون طائرتين "فانتوم" (كلمة فانتوم تعنى شبح) إسرائيلية ."

بيانات ... تسمعها كل البلد ، فيلتف كل الرجال والنساء والعجائز والأطفال حول راديوهات «"الترانزستور" فى أوقات إذاعة آخر الأنباء .

قالت لى فتاة شعرها أسود اسمها "ليلى حسن":"بعد ضرب مصنع "أبو زعبل" بالقنابل، ذهبنا إلى المستشفى لزيارة الجرحى ، كان من بينهم أهالى زملائنا

الموجودين حاليًا فى المعسكر ، لقد أحضرنا لهم الورود والهدايا ، ولكننا لم نبك على الرغم من رؤيتنا للكثيرين يتألمون . لقد أدى كل ما عايشناه إلى تقوية إرادتنا على القتال ...

انتهت إذاعة الأخبار العسكرية ، واستمعت لإيقاع القاهرة الرتيب ، لا تشعر فيه بالعصبية أو التعب ، وقد بدأ مصنع " أبو زعبل" فى العمل ، وتسير عملية تدريب المتطوعين من قوات الدفاع المدنى بحماس .

١٧ مارس ١٩٧٠

قنابل .... على المنتجع:

(نشرت هذه الرسالة الجرائد التالية "كاباردينو - بالكارسكايا برافدا" (مدينة نالتشيك) ١٩٧٠/٣/٢٠ ، و"داجستانسكايا برافدا" (مدينة ماخاتشكالا) ١٩٧٠/٣/٢٠ ، و"سوفيتسكايا لاتفيا" (مدينة ريجا) ١٩٧٠/٣/١٨ ، و"ماجادانسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/٢٠ ، و"سيفيرنايا برافدا" (مدينة كوستروما) ١٩٧٠/٣/١٩ ، و"أجنى الاتاو"(مدينة ألما أتا) ١٩٧٠/٣/٢٠ ، و"تسلينوجرادسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/٢١ ، و"سوفييتسكايا كيرجيزيا" (مدينة فرونزى) ١٩٧٠/٤/٢ ، و"كالينِنسكايا برافدا" (مدينة كالينين) ١٩٧٠/٣/١٦ ، و"كورسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٦ ، و"أورلوفسكايا برافدا" ١٩٧٠/٣/١٦ ، و"سوفييتسكايا أدجاريا"(مدينة باتومى) ١٩٧٠/٣/٢٦)

أيقظت مكالمة تليفونية من مصلحة الاستعلامات فى الفجر الصحفيين العاملين فى القاهرة .... وها هو الطريق إلى السويس ، لقد سرت فى هذا الطريق عدة مرات من قبل ، قبل عدوان يونية عام ١٩٦٧ كانت تنظم رحلات لزيارة المشاريع التى شيدت بمساعدة الخبراء السوفيت ، مصنع الزيوت التكنولوجية فى السويس ، والمحطة الحرارية لتوليد الكهرباء ، ومنشآت أخرى .

الدوريات والحراس وسواتر المعدات وشبكة الخنادق والضجيج المستمر للمدرعات المارة، هذا ما تبدو عليه صورة هذا الطريق اليوم . الكثير من الحفر التى

سببتها القنابل والطلقات على الإفريز، والندبات على الطريق نفسه ، تتحدث عن أن هذا الطريق يحظى "باهتمام خاص" من القوات المسلحة الإسرائيلية .

لم أزر السويس منذ خريف العام الماضى ، وبصراحة لقد خيل لى أننى هنا لأول مرة فى هذه الأماكن ، فهى مليئة بالأسلاك الشائكة ، والشوارع مجروحة بالحفر، كما أنها تقريبًا صحراوية . توجد قطع من الأشجار الممزقة ... والكثير من المنازل مدمرة أو نصف مدمرة ، فزجاج النوافذ مهشم ، والفتحات مغطاة بشكائر الرمال أو مسدودة بألواح الأبلاكاش .

بمجرد دخول سيارتنا أحد أحياء المدينة وصلت إلى سمعنا أصوات الانفجارات ، "إنذار! الكل يذهب إلى المخابئ، المخبأ فى بدروم أقرب مبنى!" ، روى لنا أحد الضباط أن الإسرائيليين قد بدأوا فى قصف المدينة اعتبارًا من الساعة ١٥ : ٣ مساءً يضربون الأحياء السكنية ؟ ما هو هدفهم ؟ من الصعب معرفته ، فإذا كانوا يريدون إخافة السكان فقد تم تهجيرهم تقريبًا بالكامل ، وإذا كانوا يهدفون بهذه الطريقة إلى التأثير على العسكريين فإنهم قد تعودوا فى هذه السنوات على إطلاق النيران ، وذلك لا يخيفهم .

اضطررنا للتوقف عدة مرات بينما كنا نشق طريقنا بجانب الحفر وأكوام الطوب المهشم لكى نصل إلى مبنى المحافظة ، وكان ذلك دائمًا للسبب نفسه .

لا تعمل وسائل المواصلات فى المدينة فذلك خطر ، وقد مر شهران على غلق طريق السكة الحديدية من القاهرة إلى السويس . توقفت المصانع وسكن الميناء ولا تعمل المصالح العامة .

شاهدنا الخليج والمنظر العام لبورتوفيق من أحد مراكز المراقبة ، يدفع هذا المنظر المرء إلى أفكار ثقيلة ، لقد أصبحت بور توفيق شاهدًا حيا على الحرب .

لا توجد هناك ولم توجد أبدًا أية أهداف عسكرية ، فقد كانت توجد هناك فيلات ومقاهٍ ومطاعم وفنادق ومبانٍ ملحقة بالميناء . كان البحارة من العالم كله يقضون

هناك الوقت فى انتظار موعد مرور سفنهم عبر قناة السويس ، كما كان السائحون يتمتعون بجمال الخليج الرائع ، ويستجمون فى القصور ذات المعمار الأسطورى .

أما الآن فبور توفيق تقف وجها لوجه أمام العدو وهى شاحبة ، قطعتها القنابل والطلقات وحرقها "النابالم" كما تركها سكانها ، البعد بينها وبين مواقع العدو ٢٠٠-٣٠٠ مترٍ فقط . فى الصباح تكون تقريباً معزولة تماماً عن السويس ، اللسان الساحلى الذى يمكن السير عليه للوصول إلى بور توفيق مكشوف ، ومعرض للإطلاق المستمر لنيران القناصة الإسرائيليين ، ولقصف بطاريات المدفعية .

ولكن كل شبر فى هذه المنطقة يظهر مقاومة شرسة .

قال لنا رائد مصرى:" إن الحرب قد شدت من عزيمتنا ، فنحن لم نر أبداً من قبل مثل هذه الروح المعنوية المرتفعة عند جنودنا ، لم يعودوا يخافون حتى عندما تستهدفهم طائرات "الفانتوم" الإسرائيلية ، وهنا لن يمر الإسرائيليون ، لذلك فهم بدأوا يتوترون . عادة ما يبدأون هم فى إطلاق النار ، وهم لا يهاجمون الأهداف الحربية بل عادةً يهاجمون الأهداف المدنية ، فعلى سبيل المثال من يوم واحد هاجمت ٣٢ طائرة "سكاى هوك" إسرائيلية الأحياء السكنية ، وألقت عليها عشرات من القنابل، منها ذوات الحشوات المتفجرة ومنها المتشظية "والنابالم" .

وأكمل الرائد:"لا تفرق القنابل بين الوظائف والرتب فكلنا هنا جنود ، ونحن نحارب فى سبيل هدف واحد هو طرد المعتدين الإسرائيليين من الأراضى المحتلة .

استقبل "حامد محمود" محافظ السويس الصحفيين فى الموعد المحدد تماماً ، يبعد مبنى المحافظة مائة مترٍ عن الخليج ، ويقف تقريباً وجهاً لوجه مع خط الجبهة الأمامى ، لقد طار الزجاج منذ زمن وتمت تغطية النوافذ بالأبلاكاش ، وقد أصابته القنابل والطلقات فى عدة أماكن .

قال "حامد محمود":" منذ الخامس من يونية ١٩٦٧ نقص تعداد سكان السويس من ٣٠٠ ألف إلى ١٠ آلاف ، ومنذ بداية الحرب قتل القصف وإطلاق النار

الإسرائيلى ٣٩٠ شخصًا، من بينهم ١٨٠ امرأة وطفلاً ، وجرح ١٣٠٠ من المدنيين ، ولكن صمود قومنا مدهش .

بعد المؤتمر الصحفى القصير، قاد المحافظ الصحفيين إلى آخر مكان أطلق عليه الإسرائيليون النيران ، قابلنا حفرتين كبيرتين عند مدخل موقع مستشفى ، كانت كل نوافذ المبنى محطمة، كما انهار سقف مبنى صيدلية المستشفى ، وانتشرت شظايا القنابل على الأرض .

قال لنا الدكتور "ميشيل:"لقد أطلق الإسرائيليون الصواريخ على المستشفى وقصفوها بالقنابل ، وقد اضطررنا لإجراء العمليات للمصابين فى المكان نفسه ، وطبعًا من المعروف أن هذه مستشفى .

رأينا أيضًا مدرسة ومسجدين ومنازل سكنية فى الحالة نفسها، حيث أطلقت عليها أيضًا القوات المسلحة الإسرائيلية النيران، على الرغم من عدم وجود أى هدف عسكرى هناك، فالحى الذى تم قصفه يقع بعيدًا عن مواقع المعارك الحربية ، وهذا أيضًا معروف تمامًا .

عند مغادرتنا للسويس انطلقت مرة أخرى صفارات الإنذار بغارة جوية ، وقد لاحقنا صوت المدفعية المضادة للطائرات وطلقات بطاريات المدافع .

٩ أغسطس عام ١٩٧٠

النهاية للحرب:

(تم نشر هذه الرسالة فى جرائد:"فيتشيرنى نوفوستى" (مدينة فيلنوس) ١٧/٨/١٩٧٠، و"شيلابنسكى رابوتشى" ١٦/٨/١٩٧٠، و"كورسكايا برافدا" ١٦/٨/١٩٧٠، و"سوفييتسكايا كيرجيزيا" (مدينة فرونزى) ١٦/٨/١٩٧٠، و"بوليارنايا برافدا" (مدينة مورمانسك) ٢٢/٨/١٩٧٠، و"فيتشيرنى روستوف" (مدينة روستوف

نادانو) ١٩٧٠/٨/٢٠، و"بوت كيمينيزمو" ١٩٧٠/٨/١٩، و"سلافا سيفاستوبولا" ١٩٧٠/٨/١٨، و"تيومنسكايا برافدا" ١٩٧٠/٨/١٨، و"كمتشاتسكايا برافدا" ١٩٧٠/٨/١٥)

نسير لأول مرة فى هدوء بعد أيام يونية ١٩٦٧ ولا ننظر خلف ظهور إلى حيث سادت المدفعية المضادة للطائرات إلى وقت قريب، وحيث كان كل شبر من الأرض مستهدفًا ، نسير فى طريق كورنيش السويس الذى هدمته وشوهته الطلقات والقنابل، بعد يوم من إعلان كلٌ من مصر وإسرائيل الاتفاق على وقف النار من الجانبين لمدة تسعين يومًا ، كانت لا تظهر أية أمواج على خليج السويس الذى ضحل وأصبح هادئًا ، وكانت هناك سفينة راسية وحيدة تقف أمام مبنى المحافظة تمامًا بعد أن تركها طاقمها ، وتظهر سفن أخرى غارقة أو نصف غارقة على الجانب الآخر من بور توفيق ، كانت توجد فقط بضعة منازل سليمة وكثير جدا من المنازل المهجورة الكئيبة ونصف المهدمة ، كان الكثير من الأحياء ساكنا لا يوجد فيها أحد ، لا تعمل السكك الحديدية فالقضبان منزوعة مما يشهد على أن المدفعية الإسرائيلية قد قامت بعملها هنا أيضًا .

ما كدنا نصل نحن الصحفيين الأجانب والمصريين الذين حضروا إلى هنا بدعوة من مصلحة الاستعلامات المصرية إلى مبنى المحافظة حتى سمعنا صفارات الإنذار، غارة جوية. نظرنا إلى السماء فرأينا طائرات إسرائيلية تقوم بدورات معقدة ، ثم تستدير وتنصرف محاذية لقناة السويس. أعلن ممثل مصلحة الاستعلامات: تقوم الطائرات الإسرائيلية بطلعات استطلاعية ، وبعد إطلاق الصواريخ المضادة للطائرات لتخويفها بدأت الطائرات تطير فى اتجاه الشرق .

أعلن ممثل محافظة السويس "محيى خفاجة" فى مؤتمر صحفى:

"لقد تم وقف إطلاق النار فى الساعة الواحدة مساء يوم ٨ أغسطس ، ولكننا لا نصنع خيالاً ، فإن المدينة التى فقدت على مدى ٣ سنوات نحو ٣ آلاف من القتلى

والجرحى، المدينة التى بقى فيها فقط ١٠ آلاف من ٣٠٠ ألف من سكانها، والتى لم يبق فيها أى حى سليمًا أو لم يتم إطلاق النيران الإسرائيلية عليه، لا تثق بالمعتدى ،

أخذونا إلى جولة فى السويس ، فطفنا فى أحيائها واحدًا بعد الآخر ، رأينا صورة واحدة فى كل مكان ، فالمنازل السكنية مهدمة ، وكانت أصوات تهشم شظايا الزجاج تصدر من تحت أقدامنا ، وقد نبهونا فى شارع "أم كلثوم" (أطلق عليه هذا الاسم تكريمًا للمطربة المصرية الشهيرة) أنه علينا أن نسير فى مجموعات صغيرة ، حيث توجد الكثير من القنابل التى لم تنفجر ، انحرفنا من هذا الشارع إلى شارع "صدقى" وتوجهنا إلى خليج صغير .

كان المنظر العام للقناة قريبًا جدا ، ها هو"الجانب الآخر" من الجبهة ، تصدر آلات التصوير السينمائى أزيزًا ويصور المراسلون "الطبيعة" ، يشاهدون الرمال الصفراء على الضفة الأخرى وينظرون فى النظارات المعظمة وفى عدسات تلفزيونية وفى تليسكوبات .

نظرت أنا فى نظارة معظمة ، ظهر الشكل المشئوم للمعاقل الإسرائيلية الصفراء ، كما ظهرت الدبابات والسيارات المهجورة ، أما السواتر فهى صامتة .

لقد وجدت مرة أخرى مكانا أعرفه فى الشارع الرئيسى بالسويس ، شارع الجيش، سينما "مصر"، ودير "الراعى الطيب"، وفندق "مصر" وصالون تجميل ، كل المبانى مهدمة تمامًا . يبدو أن أكثر من قنبلة قد سقطت على مبنى سينما "مصر" ، فسقفه قد أزيل تمامًا والمقاعد مهشمة تمامًا ، وقد جرفتها موجة من الانفجارات إلى أحد الأركان . وقد بقى من صالون التجميل اسمه فقط ، أما هيكل الدير الذى هجره سكانه فهو يقف كئيبًا بين الأنقاض الأخرى وما بقى من الحرائق .

سمح للصحفيين (لأول مرة بعد يونية ١٩٦٧) بزيارة حى بور توفيق الذى كان يعتبر فيما سبق أكثر أحياء المدينة فخامة ، يفصله عن السويس شريط طوله نصف كيلومتر كان يتم قصفه باستمرار ، تشعر أن المدفعية الإسرائيلية قد اجتهدت هنا

بصفة خاصة، يشهد على ذلك الحفر ، والقنابل التى لم تنفجر ، وقضبان الترام المشوهة أو المنزوعة ، لا يمكن السير فيه بالسيارة ، أو على الأقدام . بينما كانت السيارة تجتاز هذا العائق ببطء كنت أنظر إلى خليج السويس ، مكان أزرق هادئ وكئيب ، على اليسار تظهر منازل وفيلات بور توفيق المليئة بالشقوق ، وعلى اليمين مدينة السويس المدمرة ، أما هناك خلف الخليج وعلى خلفية الجبال تظهر الهياكل المظلمة لمصانع تكرير البترول ، والمحطة الحرارية لتوليد الكهرباء ، ومصنع المواد الكيماوية. كلها ساكنة ، كل هذه "الأهداف" التى أطلقت عليها نيران المدفعية الإسرائيلية عن عمد على الرغم من أنها لا تمثل أهدافًا عسكرية ، لقد لفت نظر الجميع فى بور توفيق غابة أشجار النخيل التى حرقها "النابالم" . كان يوجد الكثير من الخنادق ، وخطوط الاتصالات قريبة، وكنا نسمع أوامر القادة العسكريين بوضوح .

أخرجنا رائد طويل القامة مكتنز البدن من بين الأنقاض إلى قناة السويس بناءً على طلبنا . قال بهدوء: انظروا، ها هو العدو هناك ، اليوم لا يطلقون النيران، ولكن طلعات طيرانهم الاستكشافية ما زالت مستمرة. ولم يزد على ذلك بأية كلمة ، فقد راقب فى صمت كيف تقوم مجموعة من المراسلين الغربيين بالتصوير وبتسجيل الضجيج .

عدنا إلى القاهرة فى المساء ، وكانت الدبابات والمعدات الحربية تتحرك عبر الصحراء التى حرقتها الشمس ، كانت تدريبات الجنود تدور على الرمال نفسها ، كما كان الحراس يقومون بخدمتهم عليها ، كما أن العديد من نقاط الشرطة العسكرية كانت تفحص الأوراق ، لقد توقفت العمليات الحربية ، ولكن لن يكون الحذر أبدًا مقدرًا ....

* * *

بالطبع لقد قمت بإرسال تحقيقات صحفية من الجبهة فى سنوات الحرب هذه بوفرة كبيرة ، وقد تم نشرها فى الجرائد الرئيسية ، وفى جرائد المدن المختلفة ، كما تمت إذاعتها . وقد انتقيت هنا عدداً قليلاً منها كتبته على عجل ، ولكن بعد وقوع الأحداث فوراً . الآن وبعد مرور ثلاثين سنةً "لم يعد يقرأ الكثير منها كما كان من قبل" ، كما لا يتم تقبلها بالطريقة نفسها ، فالأجيال الجديدة تعيش حياة جديدة ، وتنظر بطريقة أخرى إلى مصر وإلى إسرائيل. نعم وإلى كل البلاد الأخرى التى أدخلت فى الماضى فى مغامرات حربية كبيرة ، ولكى يظهر الجيران فى الشرق الأوسط كما يبدون الآن أمام العالم فقد اضطروا لأن يسيروا فى طريق صعب لفهم حقيقة بسيطة :"أن القوة ليست السند الأحسن للتفاهم" ، وقد تم فهم ذلك فيما بعد ، بعد سنوات وعشرات من السنوات ، نعم ... وعلى الرغم من ذلك لم يفهمه بعد كل شركاء دراما الشرق الأوسط .

الدراما التى بقيت فى ذاكرة عدة أجيال وفى ذاكرة التاريخ .

أريد أن أوضح بصفة خاصة" أنه فى ذلك اليوم من شهر أغسطس عام ١٩٧٠ التى صمتت فيه المدافع ، وترك العسكريون مكانهم للدبلوماسيين للبحث عن طرق أخرى غير القوة، لتسوية النزاع العربى الإسرائيلى، فى رأيى أنه أطلقت بداية أخرى"للتربة السياسية" كانت فرقنا لا تزال واقفة مستعدة على القناة . أما "ناصر" فقد بقى له أن يعيش ٥٢ يوماً ، وبقى على إخراج القوات السوفيتية سنة واحدة ، لقد صدق "عبد الناصر" على الهدنة وطورها "السادات" .

منذ موت " ناصر" لم تبدأ موسكو فقط فى خفض وجودها العسكرى والاقتصادى فى مصر ، ولكنها وجدت نفسها لفترة طويلة تلعب دور المشاهد السياسى ، ثم بعد ذلك فقط بدأت تفطن إلى السيناريو الذى سارت عليه حرب أكتوبر فى عام ١٩٧٣ ، وبعد ذلك تأففت ممن غيَّر فى السبعينيات والثمانينيات مفهوم "المواجهة الإستراتيجية" التى كان الاتحاد السوفيتى هو الأب الروحى لها إلى مفهوم "إستراتيجية السلام" الذى انطلق من مكان ما فى الغرب ، ولم ينطلق من طرقات السلطة فى الكرملين .

الباب الثالث عشر

حرب عام ١٩٧٣ - هل هى الأخيرة ؟

عندما بدأ المسلمون فى العالم كله صيامهم فى شهر رمضان فى الليلة السابقة ليوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، كانت فرق الدبابات والمدرعات المصرية تندفع فوق الكبارى العائمة المشيدة على عجل فوق قناة السويس إلى الضفة الشرقية. وقد وصل المصريون بعد عدة ساعات خلف سلسلة جبلية إلى منخفضات "شبه جزيرة سيناء" التى تعتبر بوابة شبه جزيرة سيناء. هكذا بدأت آخر حرب بين العرب والإسرائيليين (*) بسيناريو لم يفهمه أحد للنهاية حتى الآن، ولم يشارك فيه الاتحاد السوفيتى.

اشترك فى هذه الحرب أكبر عدد من الجنود ومن الأسلحة بالمقارنة بكل الحروب السابقة. وطبقًا لنشرة "ميليترى بالانس" اللندنية فإن القوات المصرية ضمت ٣٢٣ ألف فرد، و٤٠٠٠ دبابة ومدرعة، بالإضافة إلى ٨٠٠ طائرة وهليكوبتر حربية، وما لا يقل عن ١٠٠ سفينة بحرية حربية. أما القوات السورية التى اشتركت أيضًا فى المعركة فقد تكونت من ١٣٧ ألف جندى وضابط، وما يزيد على ٣٠٠٠ دبابة ومدرعة، بالإضافة إلى ٤٠٠ طائرة وهليكوبتر حربية، وما لا يقل عن ٢٠ سفينة حربية. أما إسرائيل فكان جيشها يتكون من ١٤٥ ألف فرد، و٨٠٠٠ دبابة، مدرعة، ونحو ٦٠٠ طائرة وهليكوبتر، وما لا يقل عن ٧٠ وحدة بحرية حربية.

رفعت القوات المصرية علمها الوطنى فوق الضفة الشرقية لقناة السويس وسيطرت تمامًا على "خط بارليف" ثم اندفعت فورًا إلى سلسلة جبال شبه جزيرة سيناء

(*) بدأت الحرب يوم ٦ أكتوبر وليس فى الليلة التى قبله . (التحرير)

الصفراء اللون البعيدة. وفى الوقت نفسه كانت القوات السورية قد اخترقت خطوط الدفاع الإسرائيلية فى مرتفعات الجولان وتحركت هى، أيضًا، إلى الأمام. بدا النصر قريب المنال.

فجأة حدث شىء لا يمكن تفسيره، فقد توقفت القوات المصرية بلا سابق إنذار عند ممرات سيناء تمامًا، وتوقف الطيران المصرى عن عملياته الحربية، فاستغلت القيادة الإسرائيلية هذا "التوقف"، ونقلت قواتها على عجل من سيناء إلى الجبهة السورية، حيث تمكنت من إصلاح الوضع هناك بسرعة. ثم توجهت كل القوة الإسرائيلية ناحية قناة السويس فتمكنت من السيطرة عليها هى أيضًا. تلا ذلك اندفاع القوات الأمامية الإسرائيلية من السويس حتى وصلت إلى ١٠٠ كيلومتر تقريبًا من القاهرة. ولكنها توقفت هى أيضًا فجأة بناء على أوامر صدرت لها من جهة ما...

توقفت الحرب بعد ١٦ يومًا من بدايتها، ولكن ما زال الجدل يدور عن سماتها والدروس المستخلصة منها. وقد كتب القائد السابق للقوات المصرية التى عبرت القناة الفريق المتقاعد المصرى "سعد الدين الشاذلى" فى كتابه "حرب أكتوبر" الصادر فى عام ١٩٨١ أن "أنور السادات" كان المسئول عن كل ما حدث، حيث إنه كان يعمل طبقًا لخطة وضعها الأمريكان والإسرائيليون. ولكن فى الوقت نفسه ظهرت آراء أخرى تؤيد ما فعله "السادات".

بالطبع تحتل حرب أكتوبر ١٩٧٣ مكانة خاصة بين مجموعة الحروب التى دارت بين العرب وإسرائيل، لأنه وللمرة الأولى فى تاريخ مشكلة الشرق الأوسط، التى طالت لزمن طويل، تمكن العرب من توجيه عدة ضربات مؤثرة لعدوهم وبينوا مدى قوتهم وإصرارهم على النضال فى سبيل حريتهم وحقوقهم.

أولاً: حظيت هذه الحرب بأهمية سياسية فريدة لأن الحروب العربية - الإسرائيلية السابقة (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) لم تنته لصالح العرب، مما أدى إلى إحباط شديد تعدى الأوساط العربية حتى وصل إلى من كان يقف إلى جانبهم.

ثانيًا: كان ذلك مهما من وجهة النظر الحربية، حيث إن القادة العسكريين العرب استخدموا فى هذه المرة بالدرجة نفسها من النجاح سياسة "الحرب الخاطفة" التى كانت تستخدمها إسرائيل، وبينوا عمليا قدرتهم على استخلاص الدروس من الفشل...

ثالثًا: أصبح من المهم أن كل من شارك أو لم يشارك فى الحرب قد فهم لأول مرة عدم جدوى استخدام القوة لحل مشكلة الشرق الأوسط، فلم يكن من الممكن استخدام القوة والحماس لإخماد الحريق المندلع فى الشرق الأوسط لأنه قد تخطى منذ زمن بعيد حدود المنطقة، وأصبح خطراً على المجتمع الدولى كله.

ما زال الكثير من سمات حرب أكتوبر السياسية والحربية والنفسية تمثل حتى اليوم لغزاً إذا ما قورنت مثلا بحرب عام ١٩٦٧ ، ففى الماضى خسر الجنرالات العرب حرب يونية ١٩٦٧ على الرغم من أنهم هم الذين كانوا يصرون على الدخول فى معارك حربية تبين فيما بعد عدم استعدادهم لها. أما فى عام ١٩٧٣ فلم تولد فكرة الحرب فى الأوساط العسكرية، ولكن فى الأوساط السياسية العربية وغير العربية. فقد تبين أنه قد تم الاستعداد للحرب سياسيا بأسلوب رائع، حيث وضع القادة العرب خطة تناسب الأوضاع المحلية ونفذوها بدقة طبقًا لما قرروه قبل أن يدرك أعداؤهم أى شىء ، لدرجة أن المخابرات الإسرائيلية التى سبق أن أدهشت العالم عدة مرات بكفاءتها لم تتمكن فى الواقع من تحليل تحركات العرب وتوقع نواياهم. أما على مستوى المجتمع الدولى، فقد كان ذلك يمثل درساً للقادة الذين يضعون الإستراتيجية فى تل أبيب، لأنهم أجبروا على تغيير كل أسس تعاملهم مع الدول العربية. لقد تبين أن مجموعة الأدوات الفنية العسكرية والسياسية القديمة التى كانت تستخدمها إسرائيل مع العرب من ضغوط سياسية، وتهديدات عسكرية، وحرب نفسية، وأمور كثيرة أخرى قد عفا عليها الزمن. لقد أحست إسرائيل فى يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بلهيب أنفاس الآلاف من المحاربين العرب الذين خرجوا فجأة من الخنادق ومن خلف المتاريس، وهجموا بشجاعة فاكتسحوا "خط بارليف" الذى كان يقال إنه لا يمكن عبوره، وكذلك التحصينات الإسرائيلية الأخرى، التى روى عن قوتها الكثير من الأساطير، ولكن أظهر الواقع أن كل شىء مختلف تماماً.

الآن وبعد مرور عدة سنوات ما زال سؤال يطرح عن سبب عدم استمرار تقدم جيش مصر المنتصر عبر سيناء إلى حدود إسرائيل؟ ولماذا تم منح الفرصة للإسرائيليين لكى يعيدوا تنظيم صفوفهم ولانتزاع سلاح المبادرة؟

أعتقد أنه يجب البحث عن الإجابة فى الأرشيف السياسى، وليس العسكرى، وليس فقط فى هذه المنطقة، ولكن أيضًا فى عواصم أخرى من العالم. كانت الفورة الوطنية والانتصار على رمال سيناء ومرتفعات الجولان غير كافيين لتحرير كل شبه جزيرة سيناء وكل مرتفعات الجولان، ولكن كان هذا كافيًا لكى يبين لتل أبيب وللعالم كله أن العرب قادرون عليه. يبدو أن الفكرة التى دفعت رئيس مصر "عبد الناصر" إلى توقيع هدنة مع إسرائيل فى أغسطس ١٩٧٠ قد نضجت تمامًا فى ذلك الوقت، فإن العمليات الحربية فى منطقة قناة السويس بين أعوام ١٩٦٧ و١٩٧٠ لم تمنح ميزات لإسرائيل، ولكنها قوت روح القتال عند المصريين، وأصبح من الواضح تمامًا أنه لا يمكن تحقيق أى شىء بالقوة، ولكن يلزم لذلك "السلام".

نتيجة للتعادل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثبت تمامًا أن زمن الحوار مع العرب باستخدام القوة قد ولى، وأن حقبة المفاوضات السلمية قد بدأت. وقد وصلت كلٌّ من القاهرة وتل أبيب وغيرها من عواصم العالم إلى هذه الخلاصة الناتجة من الحرب، والتى أصبحت هى أساس العلاقات المستقبلية. أما ما يخص "السادات" وتصرفاته فيمكن فهمها عندما قرر (أو عرض عليه) إرجاع سيناء فى مقابل السلام مع إسرائيل. ويمكن أيضًا إدانته لأنه فى كل الأحوال قد خذل بوضوح السوريين والعرب الآخرين الذين كانوا مشتبكين فى المعارك مع إسرائيل على "الجبهة الثانية"، واتضح أن "قميص" السادات كان "قريبًا تمامًا من جسمه"، ولكنى أكرر أن تصرفاته بقيت كما هى غامضة ومضت مع التاريخ...

على أية حال فقد بينت حرب أكتوبر ١٩٧٣ قدرة العرب على توجيه ضربة مشتركة للجيش الإسرائيلى، فقد شارك فى المعارك بجانب القوات المصرية والسورية جنود من العراق والمغرب والأردن والمملكة العربية السعودية والكويت، وقد قدمت لهم المساعدات العسكرية كل من الجزائر وليبيا ولبنان وتونس. وتم الإعلان عن "حرب البترول" مع كل من ساند إسرائيل، فقد اتخذ ممثلو الدول المصدرة للبترول "الأوبيك" فى ١٧ أكتوبر ١٩٧٣ فى أثناء اجتماعهم فى الكويت قرارهم "بالمقاطعة البترولية" للدول

الغربية التى تحمى إسرائيل، وأدى ذلك إلى مشاكل فى كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا. وأصدر ممثلو الدول التسع المكونة "للسوق الأوروبية المشتركة" المجتمعون فى بروكسيل فى ٦ نوفمبر ١٩٧٣ بيانًا طالبوا فيه إسرائيل بالجلاء عن الأراضى العربية المحتلة، وإيجاد حلٍّ للمشكلة عن طريق المفاوضات.

كانت موسكو تقف فى هذه الحرب بجانب الطريق السياسى، فأصدرت عدة بيانات، وقد تم التأكيد فى بيان الاتحاد السوفيتى الصادر فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣ على "أن المسئولية عن تفاقم الأحداث فى منطقة الشرق الأوسط تتحملها إسرائيل وتلك الأوساط الرجعية التى تساندها على الدوام فى نواياها العدوانية". ومن المعروف أن موسكو قدمت لكلٍّ من مصر وسوريا مساعدات عسكرية عاجلة فى أواخر أكتوبر، ولكنها اختلفت عما كنا نشاهده فى الستينيات. فقد تم استبدال الدبلوماسيين بالعسكريين.

استخدم الاتحاد السوفيتى علاقاته بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية لإيجاد حل سياسى لمشكلة الشرق الأوسط، مما أدى إلى صدور القرار رقم ٣٣٨ بمجلس الأمن بالأمم المتحدة، بمبادرة من كلا الدولتين، اقتُرح فيه على الجانبين المتحاربين وقف إطلاق النار فوراً، وبدء المفاوضات للوصول إلى سلام عادل ودائم على أساس القرار السابق رقم ٢٤٢ . فى الواقع كانت هذه أول مرة فى تاريخ المشكلة العربية الإسرائيلية يتم فيها النجاح فى الربط بين قرار وقف إطلاق النار ومسألة تصفية أسباب الأزمة بتدخل فعال من الاتحاد السوفيتى. كان القرار رقم ٣٣٨ قد حدد قبل ذلك حدود التسوية القادمة فى الشرق الأوسط. تم وقف العمليات الحربية، وتوقف سفك الدماء، ولكن بقى الموقف المتوتر فى منطقة قناة السويس، وفى كل الشرق الأوسط كما هو.

بدأت أعمال المؤتمر العالمى فى ٢١ ديسمبر فى جنيف للبحث عن حل جذرى لمشكلة الشرق الأوسط. وقد رأس هذا المؤتمر ممثلو كلٍّ من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية معا، وشاركت فيه وفود من مصر والأردن وإسرائيل، وقد تم حفظ حق سوريا، التى لم تشارك فى ذلك الوقت فيه، حق الانضمام لأعماله. وضعت فى المؤتمر آلية لحل مشكلة الشرق الأوسط، تم الاتفاق على أن يتم الاستمرار فى ذلك

على مستوى السفراء، ولكن هذه الآلية لم تعمل بسبب معارضة كلٍّ من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل. مضت واشنطن وإسرائيل فى طريق البحث عن حلول منفصلة بواسطة الوصول إلى قرارات ثنائية دون مشاركة الدول المعنية الأخرى، وإلى تأجيل مسألة تكوين دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة إلى أجل غير مسمى.

فى الحقيقة بدأت الاتفاقية المنفصلة على الهدنة التى بدأ تنفيذها فى أغسطس ١٩٧٠ على جبهة القناة بين مصر وإسرائيل، فى التحول تدريجيا إلى بديل لمؤتمر جنيف العالمى. تمركزت القوات الإسرائيلية على بعد ١٠٠ كيلو متر من القاهرة وأملت تل أبيب شروطها بمساعدة وبوساطة الولايات المتحدة الأمريكية، ويرجح أن "أنور السادات" وافق عليها قبل ذلك بكثير قبل سفره إلى القدس، ثم قام بتوقيع وثائق "كامب ديفيد".

عادت الإدارة المصرية بعد مماطلات طويلة مرة أخرى إلى قناة السويس وتم تنظيفها لفتحها للملاحة، ولكن اختلف الحال عما مضى، فقد عبرت القناة بالإضافة إلى السفن التجارية السفن الحربية الإسرائيلية. أصبحت الضفة الغربية للقناة مرة أخرى مصرية، بينما تركت الضفة الشرقية لمصر بصفة قانونية أكثر منها بصفة فعلية. وإذا كان قد تم تكوين "قوات طوارئ مسلحة للأمم المتحدة فى الشرق الأوسط" فى عام ١٩٧٣ بعد انتهاء حرب أكتوبر، فبعد "كامب ديفيد" بدأت الدول العظمى المكونة لحلف الأطلنطى تطالب بالانفراد فى التحكم فى تشكيل تلك القوات، وأنهى مجلس الأمن عمل قوات الأمم المتحدة فى شبه جزيرة سيناء.

ظهرت فى منتصف عام ١٩٧٩ على الضفة الغربية للقناة "القوات متعددة الجنسيات"، التى تم تكوينها كما بينا، للمحافظة على الاتفاق بين مصر وإسرائيل. لقد حضروا لكى يحلوا محل قوات الأمم المتحدة، وقد شاركت ١١ دولة شكليا فى تكوين هذه القوات، ولكن فعليا أخذت الولايات المتحدة الأمريكية على عاتقها الدور الرئيسى فى عملها. كان إجمالى عدد هذه القوات يمثل ٤٠٠٠ فرد منهم ١٢٠٠ من الأمريكان، وضمت فرقة جنود مظلات نحو ٨٠٠ فرد من تشكيل فرقة المظلات الثانية والثمانين

الداخلة ضمن "قوات التدخل السريع" وفرق توريد المعدات والمواد ٣٥٠ و٧٠ مراقبًا مدنيا. منذ ذلك الوقت يتم استبدالهم كل ستة أشهر، مما يسمح "بتجربة" جزء كبير من القوات المسلحة الأمريكية فى سيناء. كما تقوم قوات أخرى قادمة من بريطانيا العظمى (١٠٥ أفراد)، ومن فرنسا (٤٠ فردًا)، ومن إيطاليا (٩٠ فردًا)، ومن دول أخرى بالخدمة فى هذه المنطقة. وقد ظهر بعد عدة سنوات ١٨ من المراقبين من عندنا، ولكن ذلك يشبه إجراءً بروتوكوليا أكثر من كونه وجودًا عسكريا فى سيناء.

تقع النقاط الرئيسية فى سيناء تحت سيطرة ممثلى حلف الأطلنطى الذى تلعب الولايات المتحدة الأمريكية فيه الدور الرئيسى. وقد رسمت "حدود دولية" عبر شبه جزيرة سيناء طبقًا للاتفاقية الدولية تتطابق مع الحدود بين مصر وإسرائيل، وبقيت الأمور ساكنة منذ ربع قرن. قد يكون أحد ما قد قرر ذلك حتى قبل بداية حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ وقبل "السادات" تلك الخطة؟ وأصبح كل ما تبقى مجرد "إجراءات فنية"...

أدى إغلاق قناة السويس لمدة طويلة (من ٦ يونية عام ١٩٦٧ إلى ٥ يونية عام ١٩٧٥) إلى دفع المجتمع الدولى للبحث بإصرار أكبر عن طرق لحل مشكلة الشرق الأوسط، ولكن فى الوقت نفسه دفعه أيضًا للبحث عن وسائل بديلة لذلك الشريان المائى. وبدأت شركات النقل العالمية فى بناء حاملات ضخمة للبترول لكى تدور حول قارة أفريقيا. كان ذلك مناسبًا للكثيرين وبدأت قوافل الناقلات الضخمة تتحرك بعد فترة زمنية قصيرة على الطريق الذى كان يستخدم قبل افتتاح قناة السويس، وفى الوقت نفسه فإن الدولتين المتحاربتين من قبل مصر وإسرائيل فكرتا فى بناء خط أنابيب موازٍ للقناة لنقل البترول. بدأ الإسرائيليون فى بناء خط أنابيب نقل البترول إيلات - أشكلون بطول ٢٦٠ كيلومترًا. وبنى المصريون خطا لنقل البترول من السويس إلى الإسكندرية طوله ٣٦٠ كيلو مترًا.

مرت السنوات ثم تم افتتاح قناة السويس مرة أخرى للملاحة، وقد عبرتها فى عام ١٩٧٩ أكثر من ٢٢ ألف باخرة متوسطة وكبيرة الحجم حملت ١٥٠ مليون طن من البضائع منها ٣٥ مليون طن من البترول. ومنذ ذلك الحين تتكرر هذه الأرقام تقريبًا

كما هى كل عام. تم التوقف عن بناء خطوط نقل البترول، ولكن استمر استخدام ناقلات البترول الضخمة على الرغم من عدم تمكن هذه السفن من عبور القناة، حيث إنها ضيقة بالنسبة لها، وغير عميقة بالدرجة الكافية.

فى هذه الظروف، وعلى الرغم من استمرار التوتر فى المنطقة، فإن القيادة المصرية قررت إعادة بناء القناة، زيادة الغاطس إلى ٢١ متراً وتوسيع المناطق القريبة من مدن بورسعيد والبلاح، وتم وضع أحدث معدات الملاحة فى منطقة البحيرة المرة الكبيرة وجارٍ وضع مجموعة كاملة من نظم التحكم فى الحركة. يقوم بالعمل هنا اليوم ٢٠ من الشركات المصرية و٧ شركات أجنبية. ومن المخطط شق قناة أخرى موازية حتى عام ٢٠٠٠ .

تم أيضًا اتخاذ قرار لعمل نظام موحد للاتصالات يربط بين شبه جزيرة سيناء والضفة الغربية للقناة، وكذلك شق ثلاثة أنفاق تحتها. وقد تم تشغيل النفق الأول، حيث يبلغ طوله ٤٢٢٠ متراً وقطره ١٠,٥ متراً، ويمكن أن تعبره نحو ألف سيارة فى الساعة.

مرة أخرى أنظر إلى خط القناة الأزرق وأتساءل: "لو لم تنعكس فى الثلاثين سنة الأخيرة ألسنة لهب حرائق المعارك هناك كيف كانت ستبدو هذه الأماكن؟ ما مقدار الخيرات التى كانت ستجلبها القناة للإنسانية؟ الآن لا تصفر الطلقات فوق قناة السويس ولا تزوم الدانات، ولكن كم يجب أن نمضى فى الطريق حتى لا نعتبر بعد ذلك أن هذه القناة خط جبهة متقدم وخط لتصارع القوى؟"

الباب الرابع عشر

"كامب ديفيد" نموذج للسياسة الجديدة

التقى فى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ رؤساء ثلاث دول فى مقر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بكامب ديفيد، بهدف "البحث عن السلام فى الشرق الأوسط"، وتم فى هذا اللقاء توقيع اتفاقين: "إطار للاتفاق على السلام بين مصر وإسرائيل"، و"إطار السلام فى الشرق الأوسط". ثم تلا ذلك توقيع" اتفاقية السلام" بين جمهورية مصر العربية وإسرائيل فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ فى واشنطن.

وقع "السادات" هذه "الاتفاقية" دون التشاور مع "جامعة الدول العربية" كما لم تشترك فيها أى من الجهات المعنية الأخرى مثل "منظمة التحرير الفلسطينية"، أو الدول المجاورة لإسرائيل، وكذلك الاتحاد السوفيتى والدول ذات العضوية الدائمة فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة، وتسبب ذلك فى الكثير من الانتقادات من تلك الجهات لهذه الاتفاقية. بناءً على هذه الاتفاقية جلت القوات الإسرائيلية عن شبه جزيرة سيناء فى أبريل عام ١٩٨٢ واستردت مصر هذه المنطقة من أرضها، وتمركزت قوات متعددة الجنسيات على الحدود بين مصر وإسرائيل طبقًا لما ورد فى اتفاقية السلام الموقعة بين الجانبين. وقد سيطرت هذه القوات على شريط عرضه ٢٠ كم على الجانب المصرى من الحدود، و٢ كم على الجانب الإسرائيلى. شارك فى هذه القوات الكثير من العسكريين، تبقى منهم نحو ١٨٠٠ فرد من ١٢ دولة مختلفة عند بداية عام ١٩٩٨، نصفهم من الأمريكان، ومن الجدير بالذكر أنه لا يوجد فى نظام الأمم المتحدة قوات متعددة الجنسيات. كما انتقل مراقبو الأمم المتحدة إلى عمق سيناء، وعلى الرغم من ذلك ظل عددهم كبيرًا حتى

بداية التسعينيات. كانت "البريهات الزرقاء" تعمل بنظام الورديات، حيث تضم كل وردية فردين أو ثلاثة فى كلٍّ من مراكز المراقبة الخمسة الموزعة فى سيناء، وكان يتم استبدال أفراد الوردية كل أسبوع. أعطت مصر أهمية كبيرة لوجود هؤلاء المراقبين، إلا أن واشنطن ضغطت على الأمم المتحدة فخفضت عدد هذه المجموعة بحجة "أهداف اقتصادية"، ثم صفى آخر مركز من هذه المراكز للمراقبة، وكان فى العريش، فى نوفمبر ١٩٩٦ فأصبح وجود الأمم المتحدة رمزيا تماماً فى مصر، حيث بقى فيها أربعة مراقبين فقط.

جاء فى الاتفاقية أن الولايات المتحدة الأمريكية تلتزم بفرض العقوبات اللازمة ضد مصر إذا ما خالفت أو هددت ما ورد فيها، كما ورد فى "اتفاقية السلام" (المادة ٦) أن على مصر أن تتخلى عن التزاماتها تجاه الدول العربية فيما يخص اتفاقية الدفاع المشترك بين أعضاء جامعة الدول العربية اعتباراً من عام ١٩٥٠ ، ولكن فى الواقع بقى ذلك صوريا فقط.

أخذت أيضًا فى الاعتبار الإجراءات اللازمة لمنح الفلسطينيين الحكم الذاتى، ولكن لم تصل المفاوضات إلى نتائج فى تلك السنوات بسبب عدم تقديم الفلسطينيين والدول العربية وغير العربية لأية تنازلات؛ لذلك لم يبق إلا ممارسة لعبة "بينج بونج" دموية على منضدة الشرق الأوسط لمدة خمس عشرة سنة أخرى قبل العودة إلى الوضع الابتدائى لكامب ديفيد وتوقيع الفلسطينيين والإسرائيليين لاتفاقية فى إطار "عملية مدريد" فى سبتمبر ١٩٩٣ .

كانت ردود الفعل لكامب ديفيد فى ذلك الوقت (فى عام ١٩٧٨) متعددة، فعلى سبيل المثال أعلن ممثل الاتحاد السوفيتى فى خطبة بالجلسة الرابعة والثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٧٩ : " لن تؤدى الاتفاقية المنفصلة بين مصر وإسرائيل إلى حل أى شىء، لأنها مجرد وسيلة لتنويم حرص الشعوب، كما أنها طريقة لتجميع كميات أكبر من المواد الملتهبة التى قد تتسبب فى انفجار جديد فى الشرق الأوسط".

أما فى واشنطون فقد اختلف الجمهوريون عن إدارة "كارتر"، فلم يعطوا أولوية لأهمية الاتفاق الذى تم بين مصر وإسرائيل بخصوص الحكم الذاتى للفلسطينيين، وأعلن سكرتير الدولة "أ.هيج" بمجرد استلامه لعمله أن إدارة "ريجان" سوف تساند وصفة "كامب ديفيد" للسلام، ولكنها لا تعتبرها الأساس الذى يمكن الاعتماد عليه لحل مشكلة الشرق الأوسط.

اعتمدت الإدارة الجديدة فى سياستها بالشرق الأوسط تماماً على توريد البترول من دول الخليج العربى، ولكن حظيت مصر بمكانة مهمة فى الإستراتيجية الجديدة، فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترغب، بالإضافة إلى تقديمها المساعدات الحربية (١,٦٥ مليار دولار سنويا)، فى تحقيق فكرة أن يكون لها وجود عسكرى فى مصر . وكان أقرب طريق لتحقيق هذا الهدف هو إرسال فرقة من "قوات التدخل السريع" إلى سيناء تحت ستار "القوات متعددة الجنسيات". قررت إدارة الولايات المتحدة الأمريكية صرف مبلغ ١٠٦,٤ مليون دولار لتحديث القاعدة الجوية المصرية فى "رأس بناس" الواقعة فى منطقة سيناء التى تركتها إسرائيل، كما وافق المصريون على تخزين معدات قوات التدخل السريع الثقيلة فى هذه القاعدة، وعلى أن يستخدمها طيران الولايات المتحدة الأمريكية مطار ارتكاز فى حالة تدخل القوات الأمريكية فى منطقة الخليج العربى. ولكن رفض "السادات" التوقيع على اتفاقية تتمكن بموجبها القوات الأمريكية من استخدام هذه القاعدة، وأصبحت هذه المسألة أحد الكروت فى اللعبة السياسية المعقدة.

ألقى "السادات" خطبة فى الإسكندرية قبل أول لقاء له مع "ريجان" أعلن فيها عن قلقه بسبب "سلبية" الولايات المتحدة فيما يخص أعمال السوفييت فى الشرق الأوسط. لم تمر "حالة القلق" هذه دون ملاحظتها فى واشنطن، ولكن فى أثناء زيارة "السادات" لها حصل على موافقة الإدارة لتوريد ٤٠ من أحدث مقاتلات إف ١٦ F16 لمصر وطلب ١٥٠ طائرة أخرى.

لقد كلفت "السادات" خطوته الجريئة فى "كامب ديفيد" حياته؛ فقد قتله المتآمرون عليه فى أثناء العرض العسكرى فى أكتوبر ١٩٨١بعد شهر من بدئه حملة للقضاء على معارضيه فى مصر، قام خلالها بالقبض على نحو ٥٠٠٠ فردٍ منهم.

خرج الروس- عاد الأمريكان

طبقًا لكلمات جريدة "نيوزويك" الأمريكية فقد بين مقتل السادات "ضعف" السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط التى كانت تعتمد بشدة على التفاهم المتبادل مع قوى كبيرة مثل "إيران" وورئيس باكستان "ضياء الحق"، و"العائلة المالكة" السعودية. وقد اكتسب الوجود العسكرى الأمريكى المباشر فى مصر أهمية أكبر فى ظل ما حدث، بحيث إنه لم يتغير مع تغيير السلطة فى البلد. لذلك ظهرت فى مارس ١٩٨٢ القوات الأمريكية المشاركة فى "القوات المتعددة الجنسيات" مكونة من فرقة جنود المظلات رقم ٨٢ قبل شهر من تاريخ مغادرة آخر جندى إسرائيلى لسيناء، وقد شكلت هذه الفرقة مع ٣٠٠ من جنود تشكيلات التموين الفرقة المتقدمة من "قوات التدخل السريع" فى سيناء.

وبالإضافة إلى إرسال القوات العسكرية، أخذت واشنطن على عاتقها تحمل ٦٥٪ من قيمة تكلفة وجود القوات المتعددة الجنسيات فى العام الأول، والتى تمثل ٢٢٥ مليون دولار. وقد حددت الولايات المتحدة شروط وجود القوات المتعددة الجنسيات فى سيناء كما يلى: يجب أن يكون أساسها مكونا من الفرقة الأمريكية. يقوم الممثل الأمريكى وحده بالقيادة العامة. يمكن أن يزور المسئولون المصريون مواقع تشكيلات القوات المتعددة الجنسيات فقط بتصريح من المدير العام وهو أمريكى. لا يمكن سحب القوات المتعددة الجنسيات من سيناء إلا بموافقة الشركاء الثلاثة الذين وقعوا هذه الاتفاقية. كان هذا ما منحته "كامب ديفيد" للولايات المتحدة لكى تقوى وجودها فى الشرق الأوسط.

على الرغم من اعتقاد الإدارة الأمريكية أن مصر لم تبتعد عن الولايات المتحدة فى خلال حكم "مبارك"، حيث إن القاهرة أصبحت تعتمد كثيرًا على المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية الكبيرة لمصر وكانت البدائل لها محدودة، فإنه قد تم اتخاذ قرار بالإسراع بتوريد السلاح لمصر، حتى ولو لزم الأمر أخذه من القوات المسلحة الأمريكية التى كانت تشكو من قلته لتحقيق ذلك.

و قـد ذهبـت الإدارة الأمريكيـة إلى أبعـد مـن ذلك عندما اقترحت فى ميزانية عام ١٩٨٣ تخصيص ٢,٥ مليار دولار لمصر و٢,٤٨ مليار دولار لإسرائيل مساعدةً اقتصاديةً وحربيةً. وكانت هذه أول مرة لسنوات طويلة يتم فيها تخصيص مبلغ لدولة عربية أكبر مما يتم منحه لإسرائيل. وعلى الرغم من أن الفرق كان بسيطًا وأنه كان يجب أن يوافق الكونجرس عليه ، فإن ذلك لعب دوره المهم، فقد بدأ فى بعض البلدان العربية التفكير فى جدوى نموذج "كامب ديفيد".

على الرغم من تذكير واشنطن أكثر من مرة "لعلاقاتها الخاصة" بالقاهرة فإنها قامت بخيانة سياسية بتشجيعها لما قامت به إسرائيل ضد لبنان، على الرغم من ارتباطها بمصر طبقًا لاتفاقية "كامب ديفيد". هنا اضطرت مصر لأن تشيح بيديها، فقد ربطتها اتفاقية "كامب ديفيد" على الرغم من أنها منحتها الكثير، حيث إن الجندى المصرى لم يحارب بعد ذلك فى أى مكان...

ألقى "ريجان" فى سبتمبر عام ١٩٨٢ خطبة أوضح فيها وصفة جديدة لحل مشكلة الشرق الأوسط، وعرض على مبارك تأييدها. كما لم تخفِ إدارة الولايات المتحدة الأمريكية أن تأييد مصر للموقف الأمريكى مرتبط بالمساعدة العسكرية والاقتصادية التى تحصل عليها " سيكون للخطوة التالية لمبارك تأثير على العلاقات المهمة لمصر مع واشنطن التى تعتبر المانح الرئيسى للمساعدات الاقتصادية والسلاح". هكذا كتبت الصحافة الأمريكية.

اتخذ "مبارك" موقف الترقب، لذلك أعلن وزير الدفاع "ك. ونبرجر" هادفًا استعجال القيادة المصرية فى اتخاذ القرار المناسب للولايات المتحدة الأمريكية " سوف تحصل مصر على الطائرات التى توجه عن بعد وتحدد الأهداف بالرادار طراز «إى ٢ سى» (DRLO) E-2C". أدى اللقاء بين "ونبرجر" ووزير الدفاع المصرى "ع.ح.أبو غزالة" الذى تم فيه الإعلان عن بيع الطائرات التى توجه عن بعد (DRLO) وتكشف الأهداف باستخدام الرادار إلى "تخفيف التوتر المميز لتبادل الآراء العسكرية المصرى الأمريكى".

ركزت، أيضًا، إدارة "ريجان" جهودها لتقوية الروابط الأمريكية - المصرية لإنشاء وسائل تصنيع لإنتاج الطائرات الحربية الأمريكية فى مصر بتمويل من المملكة العربية السعودية، بحيث يتم تصديرها بعد ذلك لدول الشرق الأوسط الموالية لأمريكا. وكانت الخطة تشمل إعطاء مصر التصميمات، والخبرة الهندسية، ومحركات الطائرات، لتصنيع المقاتلات الحديثة. وقد وجهت إدارة ريجان مجموعة اقتصادية إقليمية تقودها الولايات المتحدة الأمريكية لتلبية احتياجات المصالح الأمريكية الحربية والسياسية فى هذه المنطقة من العالم.

ولكن عندما بدأ البنتاجون فى عام ١٩٨٢ التخطيط لمجموعة قيادة لعبة "دجيد تايجر" وجدت واشنطن أن المصريين لا يبدون الرغبة نفسها التى كانت تميز المرحلة الأولى للتعاون الحربى بين أمريكا ومصر. اتضح أن سبب ذلك استياء فى جمهورية مصر العربية من العلنية التى حصلت عليها مناورات "النجم الساطع" فى الصحافة العالمية، كما كانت القاهرة ترغب فى استخدام المشاركة فى المناورات وسيلةً للضغط على الولايات المتحدة لمنح الفلسطينيين الحكم الذاتى فى الضفة الغربية للأردن. كان المسئولون المصريون لا يزالون يرون ضرورة أن يكون حل المشكلة الفلسطينية هو ثمن العودة إلى العالم العربى. وقد أدت عمليات جيش إسرائيل فى لبنان إلى تعقيد الوضع، فأصبح الاشتراك فى المناورات المشتركة مع الولايات المتحدة الأمريكية، التى كانت فى الواقع تساند إسرائيل، يعنى من وجهة نظر العالم العربى التعاون مع "الصهيونيين التوسعيين"؛ لذلك طلبت السلطات المصرية من الإدارة الأمريكية إلغاء مناورات "النجم الساطع" (برايت ستار) المخطط القيام بها فى أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٢، وعندما غطت الصحافة الأمريكية تلك المناورات نفسها فى أغسطس ١٩٨٣ أفادت فقط أنها "ذات اتجاه مضاد لليبيا".

كانت الاستعدادات الحربية التى قامت بها الولايات المتحدة الأمريكية ومصر فى فبراير ١٩٨٣ موجهة أيضًا إلى ليبيا، وإن كانت قد أجريت تحت مسمى التدريب المشترك، فقد كانت واشنطن تبحث عن حجة تقوم بموجبها بإزاحة نظام حكم "م. القذافى"

غير المناسب لها فى ليبيا؛ لذلك استخدمت المعلومات، التى قيل إن المخابرات المصرية أمدتها بها، عن استعداد ليبيا للهجوم على السودان بهدف القضاء على حكم "جعفر النميرى". وبدأت بسرعة فى تركيز قواتها حول ليبيا. تم إرسال أربع طائرات "أواكس" إلى مصر؛ للربط بين عمل المقاتلات المصرية ضد طيران القوات الجوية الليبية، كما اقتربت حاملة الطائرات النووية "نيميتس" من السواحل الليبية بهدف ربط الطيران الليبى فى الشمال. وحضر إلى مصر الفريق "ر. كينجستون" قائد "قوات التدخل السريع" بعد أن أسندت إليه مسئولية القيادة العامة. اتضح فى خضم كل ما تم تحضيره أنه قد تم تزييف المعلومات؛ لمنح الولايات المتحدة إمكانية تقديم مساندة عسكرية وسياسية لجارة مصر فى الجنوب - للسودان.

ثم تعقد الوضع بسبب البيانات المتضاربة الصادرة من كلا الجانبين، وأدى ذلك فى النهاية فى مايو ١٩٨٣ إلى فشل المباحثات الثنائية التى كانت تهدف إلى الوصول إلى اتفاق يسمح للولايات المتحدة بالبدء فى تحديث القاعدة الحربية المصرية فى "رأس بناس"؛ لكى تستخدمها قوات التدخل السريع الأمريكية. كانت الإدارة الأمريكية تسعى إلى الحصول على موافقة كتابية تمنح القوات المسلحة الأمريكية ضمانًا لاستخدام هذه القاعدة، حيث إن الكونجرس كان سيرفض تقديم الموارد اللازمة فى الحالة المعاكسة. ولكنها فى النهاية منحتها، فقد حصلت مصر فى العام المالى ١٩٨٥ على مساعدة من الولايات المتحدة الأمريكية وصلت قيمتها إلى نحو ٢,٢ مليار دولار، الجزء الأكبر منها لا يرد، و مثّل ١,٢ مليار دولار من هذا المبلغ مساعدة حربية. وبذلك حصلت الشركة الأمريكية "هيوز إيركرافت" على عقد قيمته ٢١٠ مليون دولار لبناء الجزء الأول من نظام الدفاع الجوى. وقد راعى هذا العقد التكامل مع ما هو موجود فى تسليح القوات المصرية من محطات رادار وبطاريات صواريخ وطائرات وقواعد طيران ومراكز تحكم فى النظم الآلية للمراقبة والقيادة، فكان يجب أن يتم التكامل مع الطائرات التى توجه عن بعد وتكشف الأهداف باستخدام الرادار، والتى تم الحصول عليها من الولايات المتحدة، وكان يجب أيضًا أن تبدأ مصر فى إنتاج الصواريخ المضادة للدبابات الأمريكية "توى".

أعلن الرئيس "مـبـارك" فى يناير ١٩٨٣ قـبل زيارته لواشنطن "نحن نطلب من الولايات المتحـدة الأمريكيـة أن تكون أكثر مرونة عند تخطيط مساعدتها، وأنا مازلت أطلب منها أن تراعى احتياجات مصر الخاصـة". كان من الواضح أن السياسـة الحرة تمامًا للقيادة المصرية الرافضة لإقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع إسرائيل هـى أحد أسـباب عدم تقـديم الولايات المتـحدة الأمـريكيـة مـا طلبتـه مـصـر فى إطار المسـاعدة الاقتصـادية والحربية، فقـد سـحبت مصـر سفيرها من تل أبيب بعد مذبحـة "صبرا وشاتيلا" فى سبتمبر ١٩٨٢، وأعلنت أنها لن تعيده إلا بعد الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من لبنان. بل إن "مبارك" هدد بقطـع العلاقـات الدبلومـاسيـة مع الولايات المتحـدة إذا نقلت سـفارتهـا من تل أبيب إلى القـدس، وردت عليه الولايات المتـحدة بأن طلبت من الكونجـرس الأمـريكى وقف المسـاعدات التى تقـدم لمصـر إذا "أصـرت على عنادها". ولكن الرئيس "مبارك" رد على ذلك بوضوح:"بذلك كنت سـأكذب على الشـعب المصرى، وكان ذلك سيعتبر ضغطًا من الولايات المتحدة الأمريكية".

أدى ذلك إلى أن زيارة "مبارك" إلى واشنطن فى مارس ١٩٨٥ لم تؤد إلى النتائج المرجوة، فقد كان رئيس مصـر ينوى أن يطلب من الرئيس الأمريكى أن يزيد المساعدة التى تقدم لمصر من ٢,٢ مليار إلى ٤ مليار دولار، والتنازل عن الديون المستحقة عن المساعدة العسكرية، بسبب الوضـع الاقتصادى الصعب جدا لمصر. ولكن اتضح لمبارك أن "ريجان" "لا يريد أن يمنح أى شىء سوى التأييد الدافئ لعملية السلام بين العرب وإسرائيل".

وقد ساعد على إزالة التوتر الموجود بين البلدين حادث قيام طائرات الأسطول السادس للولايات المتحدة الأمريكية بالقبض على طائرة الركاب المصرية، التى كانت تحمل على متنها الإرهابيين الذين خطفوا السفينة الإيطالية "أكيلا لاورو" عند ساحل سوريا، حيث تم الاتفاق بينهما على العملية بالكامل، وقد أصبحت قابلة للتنفيذ بناء على المعلومات التى قدمها الرئيس "مبارك" للإدارة الأمريكية عن مسار وتوقيت مغادرة الطائرة المصرية.

بالطبع تمكنت مصر من أن تستعيد شبه جزيرة سيناء وأن تحصل على مساعدات كبيرة من الولايات المتحدة الأمريكية بمساعدة اتفاقية "كامب ديفيد"، ولكن تبع ذلك أيضًا ضغط اقتصادى وعسكرى من جانب واشنطن، وهو يعتبر الوجه الآخر لميدالية "كامب ديفيد"، بدأ يضغط على نفوذ القاهرة. هذا ما يجب أخذه فى الاعتبار الآن عند التطبيق العملى "لنموذج مدريد" للسلام فى الشرق الأوسط.

وبلا شك إنه على الرغم من التحفظات على اتفاقية "كامب ديفيد" التى أدت إلى بعض المواجهات، فإنها قد لعبت دورًا إيجابيا لأنها لم تسمح بموت نبتات السلام التى بدأت تجمع قواها.

البحث الجماعى عن الحل فى النصف الثانى من الثمانينيات

أصبح الوضع فى الشرق الأوسط فى منتصف الثمانينيات يهدد بتحول هذه الأزمة إلى مشكلة عالمية، فقد أرسلت القوى الكبرى الأعضاء فى حلف الأطلنطى أسلحتها إلى المنطقة بكثافة، ولم تتأخر عن ذلك أيضًا دول حلف وارسو. وصلت نسب السلاح الذى تم إرساله من الجانبين إلى نحو ٢٥:٧٥ (نسب مئوية لكل ما تم توريده) لصالح حلف الأطلنطى. ووصلت الأسلحة بكميات كبيرة أدت إلى تصعيد الوضع، فقد غلب استخدام الأسلحة السوفيتية فى بعض دول المنطقة مثل سوريا واليمن الجنوبية والعراق فى مواجهة السلاح الغربى. وقد تم أيضًا إرسال الخبراء السوفييت إلى هذه الدول. وقد ظهرت السفن الحربية السوفيتية فى الخليج العربى وفى المحيط الهندى بالإضافة إلى وجودها فى البحر الأبيض المتوسط. كما أن حلف الأطلنطى أيضًا قد زاد من قوته هناك.

اتخذ مبدأ "القوة ضد القوة" سمة خطيرة فى ظل هذه الظروف، مما أدى إلى قلق المجتمع الدولى. هنا بدأ البحث عن بدائل.

يمكن أن نلاحظ الآن فى نهاية التسعينيات أن أول هذه البدائل اقترحه الاتحاد السوفيتى قبل أن تصل إدارة "جورباتشوف" إلى الحكم فى موسكو، فقد تم الإعلان فى ٣٠ يولية عن اقتراحات الاتحاد السوفيتى لحل مشكلة الشرق الأوسط. وقد روعيت فيها الخبرة المكتسبة فى "كامب ديفيد" وكذلك المشاعر الملتهبة فى المنطقة التى قامت فيها العديد من الحروب، وتم فيها أيضًا تنفيذ عدة أعمال إرهابية تفاوتت فى الحجم بين "الكبيرة" و"الصغيرة".

وقد بينت دراسة لردود فعل المجتمع الدولى أن غالبية أطراف مشكلة الشرق الأوسط وكذلك من كان متورطًا فيها بشكل غير مباشر كانوا موافقين على ما ورد من مبادئ ومبادرات لحل المشكلة بالوثيقة السوفيتية.

وقد منحت على سبيل المثال جريدة "إيجيبشان جازيت" المصرية المقترحات السوفيتية تقييمًا عاليًا، لأهميتها بصفة خاصة لصالح السلام فى الشرق الأوسط. وقد أشارت الجريدة أنه لا يمكن أن يجد أى شخص عاقل ومحايد أية نقطة ضعيفة فى المبادرة السوفيتية.

أما إدارة الولايات المتحدة الأمريكية فقد تعاملت مع مشكلة الشرق الأوسط من موقع آخر، فقد أعلن ممثل الحكومة الأمريكية عندما طُرح عليه سؤال فى مؤتمر صحفى عُقد فى واشنطن عن موقف الإدارة الأمريكية من اقتراح الاتحاد السوفيتى الدعوة لمؤتمر دولى خاص بمشكلة الشرق الأوسط "إننا لا نعتقد أن هذه فكرة جيدة، فنحن لا نعتقد أن الدعوة لمثل هذا المؤتمر تعتبر مبادرة مفيدة لحل المشكلة".

كان رد فعل قادة إسرائيل على المقترحات السوفيتية لحل مشكلة الشرق الأوسط مماثلاً لرد فعل واشنطن، فقد أعلن أحد المسئولين الإسرائيليين المهمين أن إسرائيل "لا توافق من حيث المبدأ على الدعوة لمؤتمر دولى خاص بالشرق الأوسط"، وأسرع يذكر "بأن الولايات المتحدة الأمريكية أيضًا تشاركه هذا الرأى".

البيانات هى مجرد بيانات، ولكن من بداية النصف الثانى من الثمانينيات حدثت تغييرات أجبرت الولايات المتحدة الأمريكية على تعديل سياستها فى الشرق الأوسط.

فقد لوحظ أولاً تحرك فى المركز داخل الولايات المتحدة الأمريكية، إذ خسرت دوائر اليمين المتطرف احتكارها لدراسة القرارات السياسية، مما أعطى دفعة للبحث عن مبادرات جديدة. كما أدت الانتفاضة الفلسطينية فى ٩ ديسمبر ١٩٨٧ إلى نسف التصور الذى كان يعشش فى فكر الولايات المتحدة، بأن مشكلة الشرق الأوسط فى حالة خمول، وأن المشكلة الفلسطينية انتقلت إلى المرتبة الثانية من الأهمية. أصبح الآن من الملح جدا على الولايات المتحدة العثور على حل وسط، فقد أصبحت إسرائيل فى موقف عسكرى ضعيف، وكذلك موقف السياسة الداخلية بها.

وفى النهاية أصبحت عملية "البريسترويكا" (إعادة البناء) التى بدأت فى الاتحاد السوفيتى بوصول "ميخائيل جورباتشوف" إلى الحكم أهم ما أجبر الأمريكان على تصحيح سياستهم فى الشرق الأوسط. كما كان لإصرار الاتحاد السوفيتى على حل المشكلة الأفغانية بالوسائل السلمية والديمقراطية أبلغ الأثر على ذلك، فقد أكد ذلك سحب الاتحاد السوفيتى لجيوشه من أفغانستان. فهمت الولايات المتحدة الأمريكية أنه لا يجوز تجاهل موقف الاتحاد السوفيتى، فأصبحت اللقاءات السوفيتية - الأمريكية على المستويات العالية فى كل من جنيف وريكيافيك وواشنطن وموسكو مراحل مهمة لإيجاد تفاهم بين القوتين العظميين بخصوص الشرق الأوسط.

قبل كل شىء اعترف الجانب الأمريكى بدور الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط على الرغم من وجود بعض التحفظات عليه عندها، وعادت مرة أخرى إلى فكرة دعم (رعاية) كل من الاتحاد السوفيتى وأمريكا للمفاوضات. ولكن أصر "شولتز" على فكرة المفاوضات المنفصلة بين الأردن وإسرائيل وبمشاركة ممثلى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية (وفى هذه الحالة يدخل الفلسطينيون فى تشكيل الوفد الأردنى) وبين سوريا وإسرائيل مباشرة أيضاً، تحت إشراف القوتين العظميين. وقد رفض الجانب الإسرائيلى فكرة دعوة الاتحاد السوفيتى للمفاوضات إلا بشرط أن يقوم الأخير بإعادة العلاقات الدبلوماسية السوفيتية - الإسرائيلية، وأن تسمح السلطات السوفيتية لليهود السوفيت بالسفر إلى إسرائيل.

ولكن رفض "شولتز" دراسة موضوع اشتراك منظمة تحرير فلسطين فى المفاوضات ووافق على "أن هذه المنظمة ما زالت مستمرة فى القيام بالأعمال الإرهابية". وبالإضافة إلى ذلك عبرت السلطات الأمريكية عن علاقتها بمنظمة تحرير فلسطين فى ١٥ أكتوبر، فور انتهاء زيارة سكرتير دولة الولايات المتحدة الأمريكية لمنطقة الشرق الأوسط، بأن أصدرت أمراً بإغلاق مكتب إعلام منظمة التحرير الفلسطينية فى واشنطن لمدة شهر.

على الرغم من أن مقترحات "شولتز" كانت بشكل ما خطوة جديدة لحل مشكلة الشرق الأوسط، فإنها لم تجد تأييداً فعليا سواء فى الجانب العربى أو الإسرائيلى. وقد أكد ذلك قيام "شولتز" بزيارة مكوكية أخرى للشرق الأوسط فى آخر فبراير ١٩٨٨ زار خلالها كل الدول أطراف المشكلة. ثم عدل سكرتير الدولة خطته على ضوء استمرار الانتفاضة الفلسطينية، وتغير مواقف الدول العربية المشاركة فى المشكلة بما فيها النظم العربية المحافظة. ثم دعا لعقد مؤتمر دولى تشترك فيه الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى والدول الأعضاء الدائمة فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة. واقترح سكرتير دولة الولايات المتحدة الأمريكية بعد شهر من عقد المؤتمر الدولى ضرورة بدء المفاوضات بخصوص الحكم الذاتى للفلسطينيين، والتى قدر لها أن تستمر لمدة ثلاث سنوات. وقد اقترح بعد عدة شهور أن تبدأ المفاوضات على الوضع النهائى للضفة الغربية وغزة بعد شهر من انعقاد المؤتمر. وتم اقتراح مواعيد صارمة لذلك: بداية شهر أبريل ١٩٩٨ لعقد المؤتمر، ومايو لبدء المفاوضات بخصوص الحكم الذاتى، وديسمبر للمفاوضات على الوضع النهائى للأراضى المحتلة.

من المشكوك فيه أن "شولتز" كان يأمل فى إمكانية تنفيذ مثل هذا الجدول الزمنى فى الواقع. على الأرجح كانت تحركه الرغبة فى "كسر عزيمة" الأعمال الفلسطينية الموجهة ضد إسرائيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، حيث استمرت الولايات المتحدة الأمريكية فى المقامرة على "الملك حسين" وعلى الشخصيات الفلسطينية من الضفة الغربية ومن غزة فى الوقت الذى قوى فيه موقف منظمة التحرير الفلسطينية بصورة كبيرة خلال الانتفاضة، وكان تجاهلها فى عملية السلام قد أصبح مستحيلاً بالفعل.

لم تحظ مقترحات "شولتز" برد فعل إيجابى عند رئيس الوزراء الإسرائيلى، فقد كان ضد عقد مؤتمر دولى، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك بأن قال "لا" للولايات المتحدة الأمريكية. فتمكن "إسحاق شامير"، وكتلة "الليكود" التى يرأسها من تقوية وضعهم.

لم يتبق عندئذ أى وقت لإدارة "ريجان" لكى تتمكن من عملية "اختراق" فى الشرق الأوسط، ولكنها كانت مهتمة بتجهيز ساحة العمل للإدارة الأمريكية التالية. وقد قامت فعلاً بذلك، فأظهرت المنظمات غير الحكومية فى نهاية حكم إدارة "رونالد ريجان" نشاطًا ملحوظًا وعرضت بعض الأفكار الجديدة.

ظهر فى عام ١٩٨٧ ما سمى "خطة كارتر" لحل مشكلة الشرق الأوسط، فقد قام رئيس الولايات المتحدة السابق بزيارة خاصة للمنطقة، وقدم توصياته للبيت الأبيض، ثم دعا "كارتر" إلى عقد مؤتمر تحت مظلة الأمم المتحدة، قد يكون فى "جنيف"، يشترك فيه ممثلو الدول المعنية، مصر وسوريا والأردن وإسرائيل، وكذلك الشعب الفلسطينى، ويمكن أيضًا للبنان المشاركة. طبقًا لفكرة "كارتر" يجب على كل طرف أن يعرض وجهة نظره فى المشكلة دون أى تدخل فى المرحلة الأولى، وبعد ذلك يتفق المشاركون على جدول الأعمال ويبدأون فى التفاوض فى إطار لجان ثنائية عربية – إسرائيلية (أردنية – إسرائيلية مثلاً) أو على أساس الموضوع المطروح للتفاوض – المشكلة. كان يجب أن يلعب المؤتمر دورًا هائلاً فى مرحلة المفاوضات وكذلك فى مرحلة تنفيذ الاتفاقيات، فإذا وصلت المفاوضات بين إحدى الدول العربية وإسرائيل إلى سد، فعلى المؤتمر أن يستمع إلى وجهات نظر كل منهما، وأن يحاول تحريك المفاوضات من نقطة السكون باقتراح أفكار جديدة، أو صياغات ترضى الطرفين. وعند الوصول إلى اتفاق بين العرب وإسرائيل تعقد جلسة عامة تقوم "بمباركة" هذا الاتفاق، وتقدم الضمانات الدولية لتنفيذه. وفى حالة الوصول إلى اتفاق سلام شامل فإن المؤتمر يدرس موضوع المساعدة الاقتصادية لسكان الضفة الغربية وغزة.

قدم أيضًا معهد "بروكينجز" بواشنطن مقترحاته فى عام ١٩٨٨ ، كانت مضمنة فى تقرير سمى "إلى السلام العربى– الإسرائيلى". وقد احتوى هذا المستند على عدة

أفكار موجهة للبحث عن طرائق للخروج من الأزمة. اقترح بعضهم إقامة اتحاد أردنى فلسطينى. وآخرون اقترحوا إنشاء "مظلة" اقتصادية وسياسية ثلاثية الأطراف تضم كلا من إسرائيل وفلسطينى الضفة الغربية والأردن. كما رأت مجموعة ثالثة أن إقامة دولة فلسطينية سيصبح مصدراً دائمًا لعدم الاستقرار، وأنه سيهدد وجود إسرائيل. وقد شك الجميع فى أن اتفاق السلام أو الضمانات الدولية تستطيع أن تؤكد الحد من الإمكانيات العسكرية للدولة المستقلة. وقد رأى واضعو التقرير ضرورة حدوث تغييرات جذرية فى موقف منظمة التحرير الفلسطينية لتغيير الوضع، وإلا فيجب على الولايات المتحدة الأمريكية ألا تغير الأسس والقواعد الحاكمة للتعامل مع هذه المنظمة.

أبدى ممثلو "التيار المؤيد للعرب" رأيهم فى أن إقامة الدولة الفلسطينية حتى ولو على جزء محدود من فلسطين التاريخية سوف يرضى رغبة الفلسطينيين بصفة عامة، كما أن هذه الدولة لن تمثل تهديداً لأمن إسرائيل، وأنها سوف تشارك فى حل النزاع. وقد دعوا لعقد مؤتمر دولى والقضاء على عوائق الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد بين مؤيدو وجهة النظر الثالثة ضرورة أن يتلخص الدور السليم للولايات المتحدة الأمريكية فى مساندة عملية المفاوضات والعمل على تقدمها للوصول إلى نتائج لا يجوز تحديد سماتها مسبقًا، ولكن يمكن أن ينتظر منها أن تؤدى إلى استقرار المنطقة عن طريق تلبية الاحتياجات الرئيسية لكل الأطراف المعنية ، إسرائيل والأردن وفلسطين.

ظهرت بعض الخلافات فى الرأى بين أعضاء هذه المجموعة بخصوص العلاقة بين الاتفاقيات المرحلية المختلفة والاتفاقية الشاملة لحل المشكلة، فرأى بعضهم أن للاتفاقيات المرحلية قيمة منفصلة، ويجب أن تكون مستقرة بدرجة كافية، ولكن الإصرار على ربطها بالحل النهائى يعنى دفعها إلى الفشل.

وقد قدمت التوصيات التالية فى التقرير:

١ - التخلى عن الدور السلبى للولايات المتحدة فى عملية حل مشكلة الشرق الأوسط.

٢ - الاعتراف بأن الولايات المتحدة لا تستطيع بصفة منفردة أن تحيى العملية.

٣ - تتابع الأسلوب المقدم لحل مشكلة الشرق الأوسط ومراعاته للتغييرات التى تحدث على الحلبة الدولية وفى الشرق الأوسط.

٤ - الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية رمزاً رئيسيا للآمال القومية للفلسطينيين.

٥ - الاعتراف بالتغييرات فى سياسة الاتحاد السوفيتى والبحث عن التفاهم المتبادل والتعامل المشترك مع الاتحاد السوفيتى فى المنطقة، "مصالح كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية مختلفة، ولكن توحدها مسئولية نتائج حرب جديدة واسعة النطاق قد تجرهما إلى مواجهة مباشرة".

٦ - الاعتراف بدور سوريا فى عملية حل مشكلة الشرق الأوسط، "فإذا تم عزلها فإنها قد تعقِّد أو توقف المساعى".

كما يتضح لنا فإن إدارة "بوش" قد أخذت الكثير من هذه التوصيات أساساً "لمبادراتها" لحل مشكلة الشرق الأوسط.

قُدم تقرير آخر فى عام ١٩٩٨ وضعه "مجلس الأطلنطى" بالولايات المتحدة الأمريكية بالاشتراك مع "معهد الشرق الأوسط" فى واشنطن. حمل هذا التقرير اسم "المصالح الغربية واختيارات السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط". وقد نقد التقرير سياسة "ريجان" فى الشرق الأوسط، وقدم تقييماً لدور ومكان الحلفاء من أوروبا الغربية فى عملية حل مشكلة الشرق الأوسط وفى شئونه عامة، وقد ركز على تنسيق أعمال وجهود كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية.

لوحظ بصفة خاصة " فى الوقت الحالى عدم وجود القوة السياسية لدى أية دولة من الدول العربية من أطراف المشكلة، والتى تمسك بمفاتيح الحل لاتخاذ قرارات منفصلة دون الحصول على موافقة من جانب جيرانها"، ثم ظهر بعد ذلك اقتراح بأن ينضم الاتحاد السوفيتى إلى عملية الحل السلمى إذا ما أصبحت هذه العملية جزءًا من مفاوضات أكثر شمولاً بين الشرق والغرب ، أو إذا كان ذلك فى مقابل علاقات اقتصادية أقوى مع الغرب، أو قد يكون ذلك فى مقابل وقف الحرب فى أفغانستان.

فى عام ١٩٨٨ وفى أثناء تغيير الإدارة فى الولايات المتحدة الأمريكية تم إدخال تعديلات على الموقف السوفيتى لإكسابه مرونة أكبر. هكذا تم التأكيد فى الوثائق التى أعدتها وزارة خارجية الاتحاد السوفيتى للقاء القمة السوفيتى الأمريكى فى مايو – يونية ١٩٨٨ على إمكانية أن يسير عمل المؤتمر الدولى فى ثلاثة أشكال أساسية: اجتماعات موسعة تتم بانتظام على فترات مختلفة، وكذلك بطلب الأطراف المباشرة للمشكلة. ومجموعات عمل لمواضيع متعددة الجوانب، لدراسة المشاكل المتعلقة بمصالح أحد أو غالبية أطراف المشكلة. ولجان (مجالس) عمل ثنائية تنظر فى المسائل التى تتعلق مباشرةً بإحدى الدول العربية وإسرائيل، بالطبع مع مراعاة عدم الإضرار بمصالح طرف ثالث.

جاء فى الوثيقة "إننا لسنا من ناحية المبدأ ضد الإجراءات والمراحل الانتقالية فى طريق الحل الشامل ، ولكن يجب أن تدرس هذه الإجراءات وأن تنفذ فى إطار مؤتمر، وأن تتماشى مع الحل النهائى".

أثرت بالطبع تلك الاتجاهات التى ظهرت فى نهاية الثمانينيات على المجتمع الأوروبى للبحث الجماعى عن حلول مناسبة بمبادرة من كل من الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، فكتب "دى شيفالييه" المعلق السياسى لجريدة "لوموند" الفرنسية فى عام ١٩٨٧:" هل تستطيع دول أوروبا الغربية أن تراقب بسلبية الحل الوسط الذى توصل إليه السوفييت والأمريكان معًا للمنطقة ، والذى ليس الأول؟ فإن مصالحها تتطلب إجراءات دبلوماسية وكفاءة تتلخص فى أنها تعطى إمكانية لسماع صوت أوروبا، والسماح لها بإظهار قوتها عن طريق الوساطة.

أصاب القلق أوروبا الغربية بصورة قاطعة، بسبب التقارب بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، خوفا من أن يضر ذلك بمصالحها فى الشرق الأوسط. فكانت لأوروبا ردود مختلفة على ذلك ولكنها على الرغم من أى شىء وجدت اقتراحها البديل : "لقد وقفت أمام التحالف الإستراتيجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل بأن اعترفت بحق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وكذلك بالاعتراف بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للعرب الفلسطينيين". بل ذهب المجتمع الأوروبى إلى أبعد من ذلك بإقامة علاقات اقتصادية مباشرة مع الفلسطينيين على أراضيهم. بالتأكيد ارتبط ذلك من ناحية بنوايا تقوية تأثيرهم السياسى على الفلسطينيين، ومن ناحية أخرى بالتأكيد بطريقة عملية على أن هذه الأراضى لا تعتبر جزءًا من إسرائيل سواء سياسيا أو جغرافيا.

اجتهدت الكثير من الشخصيات بأوروبا الغربية بالإضافة إلى جهود الدبلوماسيين الأمريكان للبحث عن وسيلة لحل المشكلة العربية - الإسرائيلية. من هذه الشخصيات وزير خارجية السويد "س.أندرسون" وقادة كل من فرنسا وإسبانيا ومستشار النمسا السابق "برونو كرايسكى". كان الأخير صاحب فكرة الضغط على إسرائيل عن طريق "شتات" اليهود، فزار وزير الخارجية السويدى فى ربيع ١٩٨٨ إسرائيل والأردن، والتقى فى إسرائيل بقادة الأراضى العربية المحتلة، والتقى فى الأردن برئيس منظمة التحرير الفلسطينية "ياسر عرفات". كانت هذه بداية الاتصالات بين السويد والفلسطينيين، والوساطة لبدء الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة الأمريكية.

لم تبد فى ذلك الوقت كل من إسرائيل والولايات المتحدة مرونة فى التعامل مع حل مشكلة الشرق الأوسط، بينما ظهر تقدم واضح فى موقف منظمة التحرير الفلسطينية قبل صيف ١٩٨٨ . كما ظهرت محاولات للحصول على موافقة البطل الأول - الولايات المتحدة الأمريكية (وعن طريقها إسرائيل) على عقد مؤتمر دولى، وقد أوضحت ذلك الوثيقة الموقعة من مستشار رئيس منظمة التحرير الفلسطينية "بسام أبو شريف" التى

تم توزيعها فى يونية ١٩٨٨ فى اجتماع رؤساء دول جامعة الدول العربية فى الجزائر، وقد قدمت فى هذه الوثيقة الكثير من المقترحات الهادفة لإزالة العقبات من طريق حل المشكلة الفلسطينية:

- مشكلة التمثيل الفلسطيني: نظرًا لعدم ثقة الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فى تأييد الشعب الفلسطينى لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعيًّا له، اقترحت منظمة التحرير الفلسطينية عمل استفتاء فى كل من الضفة الغربية للأردن وفى قطاع غزة تتم مراقبته دوليا، وقد وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على ترك مكانها فى هذه الحالة لأية قيادة بديلة.
- موضوع قرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة أرقام ٢٤٢ و٣٣٨: أوضحت منظمة التحرير الفلسطينية أنها توافق على مستندات الأمم المتحدة هذه، ولكن فى مضمون كل قرارات الأمم المتحدة التى تعترف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره.
- موضوع الدولة الفلسطينية: نظرًا لخوف كل من تل أبيب وواشنطن من أن الجيرة مع إسرائيل قد تؤدى إلى دولة راديكالية ذات نظام شمولى يهدد الجيران، فإن منظمة التحرير الفلسطينية أبدت استعدادها لمناقشة موضوع "فترة انتقالية محددة" يمكن أن يتم خلالها تنفيذ التحول إلى الدولة الديمقراطية تحت الإشراف الدولى.

كانت هذه بداية جديدة لهجوم دبلوماسى لمنظمة التحرير الفلسطينية موجه للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فقط، وأيضًا موجه للدول العربية.

بعد ذلك أعلن الملك "حسين" فى ٣١ يولية عام ١٩٨٨ فى بيانٍ اعترافه بحق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم، وقد قال ملك الأردن: "نحن نحترم رغبة الفلسطينيين فى أن ينفصلوا عنا فى دولة فلسطينية مستقلة، وعلى الرغم من ذلك فإن الأردن ستبقى وفية لمبادئ المصالح العربية المشتركة والعمل المشترك". ولكنه أكد أن الأولوية الأولى فى

أهداف عمان هى لتحرير الأراضى العربية والأماكن المقدسة من الاحتلال الإسرائيلى. وأعلن الملك "حسين" عن إلغاء العلاقات الإدارية الرمزية مع الضفة الغربية لنهر الأردن وحل "الغرفة السفلى" للبرلمان التى كان يشارك فيها ممثلو الأراضى المحتلة، نظراً لتعارض ذلك مع المفهوم العام للعرب لمسألة الأراضى المحتلة وضرره لنضال الفلسطينيين ضد الاحتلال الإسرائيلى. وقد أكد الملك "حسين" تأييده للمؤتمر الدولى الخاص بمشكلة الشرق الأوسط وللوصول إلى حل شامل للمشكلة العربية الإسرائيلية، وحل القضية الفلسطينية بكل أبعادها.

فقدت مبادرة "جورج شولتز" معناها بعد هذا البيان، حيث إنها كانت تعتمد على استخدام الخيار الأردنى لحل مشكلة الشرق الأوسط (خاصة المفاوضات مع وفد موحد أردنى فلسطينى).

تلت فترة من البرود فى العلاقات بين الأردن والفلسطينيين هذه الخطوة غير المتوقعة من الأردن مما أكد نوايا قيادة الأردن نحو الضفة الغربية، ولكن أدت الخطوات التى اتبعها الرئيس المصرى "حسنى مبارك" للتوسط لعقد لقاء فى العقبة بين الملك حسين ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية "ياسر عرفات" إلى تصفية الخلافات بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، وإلى إعادة توحيد الجبهة العربية فى الأزمة مع إسرائيل. وقد ساعد على ذلك أيضًا إعلان منظمة التحرير الفلسطينية إمكانية تأسيس اتحاد أردنى فلسطينى فى المستقبل. بذلك أعدت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لضمان التأييد العربى قبل الهجوم الدبلوماسى الحاسم.

بعد ذلك تم اتخاذ قرارين تاريخيين بالنسبة للشعب الفلسطينى فى الاجتماع التاسع عشر للمجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر يوم ١٥ نوفمبر ١٩٨٨:

١ – الإعلان عن استقلال دولة فلسطين.

٢ – الاعتراف بقرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة أرقام ٢٤٢ ، ٣٣٨ أساسًا للمفاوضات الدولية الخاصة بتسوية مشكلة الشرق الأوسط.

أدى الإعلان عن الاستقلال إلى تقوية الانتفاضة بتحويل الثورة الفلسطينية من "تكتيك" إلى "إستراتيجية". كما بين إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة إصرار الشعب الفلسطينى على التخلص من الاحتلال الأجنبى، وكذلك على أن يقوم بدور منفصل فى العلاقات الدولية فى المنطقة.

كما أشار القرار الثانى إلى ضرورة إدخال تعديلات على قرارَىْ مجلس الأمن للأمم المتحدة رقمَىْ ٢٤٢ و٣٣٨ لكى تراعى ضمان حقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره. وأرجع المجلس الوطنى الفلسطينى فى هذه الحالة قانونية طلب إقامة دولة فلسطينية إلى أساس قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ الذى نص فى عام ١٩٤٧ على إقامة دولتين إحداها يهودية والثانية عربية على أرض فلسطين التى تحت الانتداب. بذلك اتخذ المجلس الوطنى الفلسطينى موقفًا واقعيا لحل المشكلة الفلسطينية على أساس إمكانية تعايش الدولة الفلسطينية العربية المستقبلية مع إسرائيل. بدا الآن أن آخر العقبات قد أزيلت، تلك التى كانت تقف فى طريق الحوار بين منظمة التحرير الفلسطينية والولايات المتحدة الأمريكية، الذى تعلقت به الآمال لتصفية الاعتراضات الأمريكية على اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية فى المؤتمر الدولى الخاص بالشرق الأوسط، وبدأت القيادة الفلسطينية فى السعى بنشاط للاتصال بالإدارة الأمريكية. عقد فى "ستوكهولم" لقاءان فى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٨٨ ، جمعا بين ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية وشخصيات يهودية مهمة من الجالية الأمريكية، وقد تمت فى اللقائين مناقشة إمكانية الحوار الثنائى بين أمريكا والفلسطينيين. وقد تم اللقاء الثانى الذى حضره رئيس منظمة التحرير الفلسطينية "ياسر عرفات" تسليمه رسالة من سكرتير دولة الولايات المتحدة الأمريكية "ج. شولتز" وصلت إلى وزارة الخارجية السويدية. كانت هذه الرسالة تحتوى على دعوة للحوار مع الولايات المتحدة على شرط أن يلقى "ياسر عرفات" كلمة فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة يُعلن فيها ما يُرضى طلب الولايات المتحدة الأمريكية بالاعتراف بإسرائيل، وبالموافقة على قرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة أرقام ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وبامتناع منظمة التحرير الفلسطينية عن الإرهاب.

وافق الوفد الفلسطينى على اقتراح رئيس الشئون الخارجية الأمريكى، ولكنه أصر على إدخال التعديلات التالية:

١ - ضرورة أن يكون البيان صادراً من مجلس قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الذى يقوم بدور الحكومة المؤقتة للدولة الفلسطينية.

٢ - ضرورة أن تدور المفاوضات مع إسرائيل فى إطار مؤتمر دولى (رفضت منظمة التحرير الفلسطينية المفاوضات الثنائية فى ذلك الوقت).

ألقى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية "ياسر عرفات" كلمة فى ١٣ ديسمبر ١٩٨٨ أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى "جنيف" عَرض فيها المواقف الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية لحل النزاع العربى الإسرائيلى وحل المشكلة الفلسطينية. أدت هذه الكلمة المعضدة بالتوضيحات التى قدمها "ياسر عرفات" فى اليوم الثانى فى مؤتمر صحفى إلى بداية الحوار بين أمريكا والفلسطينيين التى بدأت بعد ذلك بسرعة فى تونس (ديسمبر ١٩٨٨).

فى خلال الدورة الأولى للمفاوضات بين سفير الولايات المتحدة الأمريكية فى تونس ووفد منظمة التحرير الفلسطينية ظهرت اختلافات فى وجهات نظر الطرفين بخصوص تسوية مشكلة الشرق الأوسط، فقد استمرت الولايات المتحدة الأمريكية فى إصرارها على إجراء المفاوضات المنفصلة المباشرة بين الوفود العربية والإسرائيلية. وقد تخوف العرب من إمكانية ممارسة إسرائيل الضغط عليهم بصفتها مركز قوة فى المنطقة، تعلق ذلك بصفة خاصة برؤية منظمة التحرير الفلسطينية فى أن إجراء المفاوضات المباشرة بدلاً من "المائدة المستديرة" بمؤتمر دولى وسيلة لتفتيت المجتمع العربى وقصر المفاوضات على مشكلة الحدود بدلاً من حل مشكلة الدولة الفلسطينية المستقلة. وقد تسبب تعريف كلمة "الإرهاب" إلى خلافات بين الجانبين، فقد رأت منظمة التحرير الفلسطينية أنه لا يجوز تصنيف الانتفاضة على أنها إرهاب، كما كانت مسألة الاعتراف بالدولة الفلسطينية المستقلة تمثل مشكلة أساسية بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ حيث إن الولايات المتحدة الأمريكية والغرب رفضا الاعتراف بها.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية تعتمد على كسب الدول العربية ودول "الاتحاد الاقتصادى الأوروبى" إلى جانبها لتقوية مواقفها لكى يؤيدوا عقد مؤتمر دولى.

أدركت حكومة إسرائيل أنها فقدت سلاح المبادرة بسبب السياسة الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وبدء الحوار بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، لذلك أسرعت بتقديم مقترحاتها لحل مشكلة الشرق الأوسط. عرفت هذه الوثيقة "بخطة شامير"، وقد استخدمت نموذج "كامب ديفيد" لإجراء انتخابات فى الأراضى المحتلة ومنح الفلسطينيين الحكم الذاتى الداخلى، وشملت الخطة ما يلى:

١ - اختيار عشرة من ممثلى الفلسطينيين من أجل المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين على فترة ثلاث سنوات انتقالية من الحكم الذاتى.

٢ - مفاوضات مع مصر والأردن والفلسطينيين على الوضع النهائى للضفة الغربية وقطاع غزة.

وعلى الرغم من تغير موقف منظمة التحرير الفلسطينية، والخطوات التى اتخذتها لتحقيق الشروط الإسرائيلية للحل، فإن "إسحاق شامير" استبعد إمكانية مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية فى مفاوضات السلام. كما تجاهلت الخطة الإسرائيلية موضوع إدلاء الفلسطينيين المقيمين فى القدس الشرقية بأصواتهم فى الانتخابات. ولم يرد أيضًا فى الخطة تحديد لمبدأ الحل النهائى وقيام السلام مقابل إعادة الأراضى. وقد أوضح "إسحاق شامير" أنه من وجهة نظر الأمان فإنه ضد قيام دولة فلسطينية، حيث إنه متخوف من أنها قد تصبح قاعدة يستخدمها الإرهابيون ضد إسرائيل، وفى الوقت نفسه تحدث عن تمسك إسرائيل بمبادئ القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ لمجلس الأمن.

وبذلك عاد "إسحاق شامير" الذى كان قبل ذلك ضد وصفة "كامب ديفيد" للحل إلى فكرة "مناحم بيجين" الذى سبقه فى تقديم اقتراح خاص بإجراء انتخابات فى الأراضى المحتلة ومنح الفلسطينيين حكمًا ذاتيًا محدودًا. توافق ذلك تقريبًا مع ما أعلنته إدارة "جورج بوش" الجديدة، على الرغم من عدم وضوح ما الذى سيحدث

فى الأراضى المحتلة بعد انتهاء الفترة الانتقالية. لاحظت جريدة "ميدل إيست" تلك النقطة، وأشارت إلى موقف رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى يلعب على حبلين. "ففى واشنطن يتحدث عن تأييده للمفاوضات من أجل السلام، وعن استعداده لدراسة أية اقتراحات تؤدى إلى الوصول لحل، أما فى بلده فهو يعلن أنه لن يتنازل عن أى شبر من الأراضى المحتلة، وأنه سوف يستمر فى خطه المتشدد مع الانتفاضة".

أكد "إسحاق شامير" على دور مصر ذى الأهمية الخاصة فى الدفع بعملية السلام لحل المشكلة بين العرب وإسرائيل، ولكن رفض "حسنى مبارك" اللقاء المقترح مع الزعيم الإسرائيلى لمناقشة شروط المفاوضات طالما لم توافق إسرائيل على مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية فيها. وفى الوقت نفسه أشاد الرئيس المصرى بفكرة الانتخابات فى الأراضى المحتلة، ولكن على أن تكون تحت مراقبة دولية. قد يكون قد اتخذ هذا الموقف نتيجة للتفويض الكامل الذى حصل عليه قبل سفره إلى واشنطن بعد لقائه مع عدد من قادة الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية.

كانت الخطة التى قدمها الرئيس "مبارك" للحل الشامل لمشكلة الشرق الأوسط تقترح إجراء مفاوضات مباشرة بين أطراف النزاع تحت إشراف الأمم المتحدة، وضرورة عقد المؤتمر الدولى الخاص بمشكلة الشرق الأوسط فى البداية فى إطار الأمم المتحدة، ثم يتحول إلى مفاوضات مباشرة. وقد اشترط أن تشارك كل من القاهرة بصفتها الإدارة السابقة المسئولة عن قطاع غزة، والأردن بصفتها الإدارة السابقة المسئولة عن الضفة الغربية مع إسرائيل فى مفاوضات حل مشكلة الأراضى المحتلة، الضفة الغربية وقطاع غزة.

ظهرت فى صيف ١٩٨٩اختيارات جديدة للخطة المصرية لتسوية المشكلة فى أثناء محاولات القادة المصريين تحريك حل مشكلة الشرق الأوسط من نقطة الجمود، وقد جاء بصفة خاصة فى إحدى هذه الاختيارات اقتراح بضمان انتخابات حرة لأعضاء الوفد الفلسطينى الذى يمكنه التفاوض من أجل الحصول على الحكم الذاتى على أساس مبدأ "الأرض فى مقابل السلام". واختفى من الاقتراحات المصرية ذكر منظمة التحرير

الفلسطينية والدولة الفلسطينية وتم إغفالهما ، وذكر "الاتحاد الأردنى - الفلسطينى" والمؤتمر الدولى نفسه. وقد قدم الرئيس "مبارك" اقتراحًا لعقد لقاء بين ممثلى إسرائيل والفلسطينيين لمناقشة كيفية تنظيم الانتخابات فى الأراضى المحتلة. ولكن تعطل تنفيذ خطة "مبارك" بسبب الخلافات التى ظهرت فى أثناء المناقشات الخاصة بتشكيل الوفد الذى سيتفاوض مع إسرائيل، فقد أصرت إسرائيل على اختيار شخصيات غير مرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية، فاقترحت مصر تشكيل وفد من الأردنيين ومن الفلسطينيين يضم ممثلى الأراضى المحتلة والفلسطينيين فى الخارج.

صاحب عودة مصر إلى جامعة الدول العربية فى ٢٤ مايو عام ١٩٨٩ فى اجتماعها الذى عقد فى "الدار البيضاء" نشاط دبلوماسى للقاهرة لحل المشكلة العربية - الإسرائيلية بالوسائل الدبلوماسية. وقد لقى موقف مصر الإيجابى ترحيبًا من أعضاء "مجلس الدول العربية فى الخليج العربى"، ومن الولايات المتحدة الأمريكية. وغيرت واشنطن رهانها بخصوص شئون الشرق الأوسط من عمان إلى القاهرة. لم يرض هذا الوضع بغداد، ولم يناسب مصالح عمان التى اقتربت عدة خطوات من القيادة العراقية بهدف إحداث تغيير فى التقارب بين القوى، أما قادة الراديكالية العربية فى كل من ليبيا وسوريا فقد اتخذوا مواقف معتدلة نسبيا.

ثم نظمت فى ربيع عام ١٩٨٩ لقاءات فى كل من لندن ومصر بين القادة الفلسطينيين بالأراضى المحتلة وممثلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لمناقشة شروط إجراء الانتخابات فى الأراضى المحتلة، تم اتخاذ قرار فى هذه اللقاءات بالامتناع عن إجراء الانتخابات فى ظل الاحتلال، ولكن قدم فيها اقتراح احتياطى للعمل به ينص على إجراء الانتخابات على أن تتبعها مفاوضات منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل.

طالب الفلسطينيون بإجراء الانتخابات تحت الإشراف الدولى مع ضمان الحصانة لمن يتم تفويضه، واشتراك الفلسطينيين المقيمين فى القدس الشرقية ومن كان مقبوضا عليه منهم أو تم ترحيله فى التصويت. ونظرًا لرفض إسرائيل التعامل مع منظمة

التحرير الفلسطينية فقد طرح أيضًا اختيار للتفاوض على السلام مع الجانب الإسرائيلى بواسطة أعضاء المجلس الوطنى الفلسطينى من ممثلى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وافقت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بعد ذلك بقليل فى فبراير عام ١٩٩٠ على الحوار بين ممثلى الأراضى المحتلة والفلسطينيين فى الخارج مع حكومة إسرائيل، بشرط أن يكون ذلك "جزءًا من عملية السلام الهادفة للحل الشامل والنهائى".

كما نرى، وافقت منظمة التحرير الفلسطينية على المفاوضات المباشرة مع إسرائيل، ولكنها استمرت فى الإصرار على أن يتم اختيار الممثلين من كل الفلسطينيين، بما فيهم سكان القدس الغربية والفلسطينيون المقيمون فى الخارج.

بذلك أيدت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فكرة "جورج بيكر" للحوار بين إسرائيل والفلسطينيين، وعن الانتخابات فى الأرض المحتلة، مع أخذ خطة "مبارك" فى الاعتبار. كان من المفهوم أنه لن يتم تمثيل منظمة التحرير الفلسطينية فى الحوار السابق للانتخابات.

وفى ربيع عام ١٩٨٩ وضعت إدارة "بوش" الجديدة سياستها تجاه الشرق الأوسط التى كانت تعتمد على التحرك تجاه السلام فى الشرق الأوسط بين الأطراف المتنازعة "خطوة خطوة". ألقى سكرتير الدولة الأمريكية "جورج بيكر" كلمة فى ٢٢ مايو عام ١٩٨٩ فى الاجتماع السنوى للجنة العمل السياسى الأمريكى- الإسرائيلى عرض فيها موقف الحكومة الأمريكية من حل المشكلة بين العرب وإسرائيل، كما أعلن ضرورة أن يترك الوضع المعلق مكانه للعملية السياسية، وأن على الأطراف المتنازعة أن تقوم بعمل خطوات محددة للتصالح. واقترح على العرب أن ينهوا مقاطعتهم السياسية والاقتصادية لإسرائيل، وأن يتخلوا عن سياسة المواجهة.

وتوجه أيضًا للقادة الإسرائيليين باقتراح التخلى عن التصور غير الواقعى "لإسرائيل العظمى" وأن يتم استنكار ضم الأراضى الفلسطينية والتوقف عن إقامة

المستوطنات الإسرائيلية على الأراضى العربية المحتلة، والتعامل مع الفلسطينيين على أنهم جيران لهم حقوق سياسية. وأكد رئيس السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية تأييد الإدارة الجديدة للحل الشامل للمشكلة العربية الإسرائيلية عن طريق المفاوضات على أساس المبادئ التى تحقق السلام والأمان فى مقابل الأرض، والتى ينص عليها قرارا مجلس الأمن للأمم المتحدة رقما ٢٤٢ و٣٣٨ .

ركزت إدارة "بوش" اهتمامها فى سياستها فى الشرق الأوسط لحل المشكلة العربية الإسرائيلية على إجراء انتخابات فى الأراضى المحتلة، وزيادة مكانة قادة الفلسطينيين فيها (مع التقليل من مكانة منظمة التحرير الفلسطينية)، وفى نهاية عام ١٩٨٩ أدت جهودها إلى ظهور خطة "ج. بيكر" لتسوية مشكلة الشرق الأوسط. اقترح "ج.بيكر"، باعتبارها خطوةً أولى، عقد لقاء لوزراء خارجية كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية بهدف الاتفاق على شروط تنظيم الحوار بين إسرائيل والفلسطينيين لإجراء الانتخابات فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة، وكذلك تقرير من سيمثل الفلسطينيين فى المفاوضات من أجل السلام، وكيفية الانتقال إلى عملية أوسع لحل المشكلة. وفى الوقت الذى كانت تلح فيه مصر على توسيع جدول الأعمال، كانت إسرائيل تقترح قصره على مناقشة إجراءات الانتخابات.

كانت وزارة الخارجية بالولايات المتحدة الأمريكية تحاول بإلحاح الحصول من مصر ومن إسرائيل على موافقتهما على تفاصيل الحوار بين إسرائيل والفلسطينيين والانتقال إلى مفاوضات أشمل على السلام، ولكن عاكس ذلك تدخل الكثير من العوامل السلبية، يمكن أن نذكر منها الأزمة السياسية الطويلة التى ظهرت فى الكنيست (أبريل – مايو ١٩٩٠). كان سبب الأزمة الصراع بين معارضى ومؤيدى الحوار مع الفلسطينيين، انتصر "المتشددون" أعضاء كتلة ليكود وتمكنوا من تكوين تحالف جديد مع الأحزاب اليمينية الدينية المتطرفة فى يونية ١٩٩٠ ، لم يعط الأولوية لمفاوضات السلام، ولكنه أعطاها لموضوع "احتواء اليهود السوفييت وحماية المستوطنين فى الأراضى المحتلة". وظهرت فى إسرائيل بيانات عن ضرورة توطين ما لا يقل عن ربع

إجمالى عدد اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفيتى المنتظرين فى الأراضى المحتلة، مما هدد بترحيل الفلسطينيين إلى الأردن، وإلى زيادة توتر العلاقات بين العرب وإسرائيل.

ولكن لم يتحقق أيٌ من الأمرين، ففى خلال التسعينيات وصل عدد من يهود الاتحاد السوفيتى السابق، بحيث أصبح كل خامس من مواطنى إسرائيل يتحدث الروسية، ولكنهم لم يرحلوا الفلسطينيين إلى الأردن أو إلى أى مكان آخر. بالإضافة إلى ذلك بدأت مفاوضات طويلة بين العرب وإسرائيل نتيجة لتدخل مصر، وانتهت بتوقيع وثائق معروفة فى عامى ١٩٩٣ و ١٩٩٤ خاصة بالحكم الذاتى للفلسطينيين وبانسحاب القوات الإسرائيلية من العديد من الأراضى العربية.

فى هذه المرة لم يكن هناك أشخاص يلبسون الخوذات، ولكن دبلوماسيون "يحاربون من أجل السلام" فى الشرق الأوسط... من أجل السلام الذى لم يتم تحقيقه حتى بداية القرن الحادى والعشرين، ولكنه سمح لكل من مصر وإسرائيل أن تصبحا دولتين تملكان مفاتيح الحل فى المنطقة...

الباب الخامس عشر

"قطار مدريد السريع" بين أهرام من الأسلحة

انتظر الجميع – منذ لحظة بدء تسيير "قطار صناعة السلام السريع" الذى كان من المقدر له أن يمر بين كل تعقيدات التوتر فى الشرق الأوسط – طلوع فجر السلام الذى طال انتظاره على المنطقة.

ولكن للأسف لم يستتب السلام الذى تحدث عنه كثيرًا الديمقراطيون الأمريكان والروس والخطباء العرب ودعاة السلم فى إسرائيل وكثيرون غيرهم، ويبدو أنه لن يستتب قبل نهاية القرن العشرين.

تسبح سحب عدم الثقة وتبادل الاتهامات منخفضة فى سماء الشرق الأوسط، وأصبح الآن ما يقال وما يكتب عن مدريد وعمن زين قطاره السريع بغصن الزيتون يقل مع مرور الزمن؛ فقد رجعت عملية صنع السلام إلى نقطة البداية تمامًا، وتوقفت عند علامة أسوأ مما كانت عليه قبل بداية المفاوضات بين العرب وإسرائيل.

طبعًا ليس السبب فقط فى العرب أو فى إسرائيل، ولكنه أيضًا يوجد فى الاتجاهات العامة الجديدة المتولدة فعلاً من العدم، من التاريخ الدموى للفراعنة والقياصرة والخلفاء والرؤساء، ويبدو أن رؤساء العالم الكبار يريدون استخدام السلاح مرة أخرى كما فعل الأجداد و"آباؤهم الروحيون وأجدادهم". هؤلاء أقاموا تحالفات لكى يغيروا العالم أجمع، بحيث يناسبهم هم وحلفاؤهم، وانشغلوا بذلك، ففى الولايات

المتحدة الأمريكية يهتمون أولاً بتوسيع مجال "مصالحهم الحياتية" لأن نموذجهم هو عالم بقطب واحد، جبل الثلج هذا البارد الذى ينصهر أمام أعيننا. انتشرت تماماً كما فى الأزمنة السيئة سياسة "فرق تسد"، تم ذلك بتوسع حلف الأطلنطى إلى الشرق تجاه حدود روسيا، وفى الوقت نفسه إلى الجنوب نحو الشواطئ العربية المليئة بالبترول. توسع الغرب إلى الشرق بإدخال دول أوروبا الشرقية الحليفة السابقة للاتحاد السوفيتى فى اتحاده، أما التوسع إلى الجنوب فقد خطط لإتمامه بمساعدة قوى التدخل السريع "يوروماrفور" و"يوروفور" التى كونتها كل من إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال فى عام ١٩٩٦ للقيام بعمليات "على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط". ما الذى بقى إذاً للعرب أن يفعلوه ؟ بالطبع أن يتسلحوا. وماذا كان على جارتيهما إسرائيل وإيران؟ الشىء نفسه. شىء محزن ولكن هذا هو الواقع.

ينظر إلينا واقع الشرق الأوسط من خلال الجدول التالى: العرب يتفوقون على إسرائيل ٣٨ مرة بتعدادهم، وبعدد ٩,٤ مرة بإجمالى دخلهم القومى، وبعدد ٤,٥٦ مرة من ميزانية التسليح وبعدد ١٥,٥ بعدد القوات المسلحة. كما أن العرب يمتلكون ٤,٧ ضعف من الدبابات، و٤,٥ ضعف من العربات المدرعة، و٨,٦ ضعف من السفن الحربية، و٦,٣٦ ضعف من الطائرات والهليكوبتر الحربية. وتحتل مصر المركز الأول من حيث تعداد السكان، ومن حيث تعداد القوات المسلحة، والمركز الثالث (بعد كل من السعودية والجزائر) من حيث إجمالى الدخل القومى والمركز الثانى (بعد السعودية) من حيث ميزانية التسليح، والمركز الثانى (بعد سوريا) من حيث عدد الدبابات والمدرعات وأسلحة المشاة الحربية وكذلك الطائرات والمروحيات. أى إن مصر وهى على مشارف انتهاء القرن العشرين تعد مركزاً للقوة فى المنطقة لا يمكن تجاهله. بالطبع هذا يخص إسرائيل أولاً الجار الشرقى لمصر. ونحن نعتقد أنه لا يمكن ألا تعمل "النمور" المحلية الأخرى مثل إيران والعراق والعربية السعودية حساب مصر، خاصة إذا - لا قدر الله - نشبت الحرب مرة أخرى فى المنطقة.

فلنركز الآن على إسرائيل وجيرانها . من منهم يجب أن يخاف الآخر؟

جيران إسرائيل هم مصر وسوريا والأردن ولبنان والحكم الذاتى الفلسطينى. إجمالى ما يمتلكون معًا من قوات مسلحة : ١٠١٨,٤ ألف فرد أى ٧,٣٥ ضعف تعداد الجيش الإسرائيلى، و٩٥٧١ دبابة أى ٢,٣ ضعف ما يوجد لدى إسرائيل ، ١٢٦٧١ من مدرعات وعربات المشاة الحربية أى ضعف ما عند إسرائيل ، و٢٢٢ من السفن الحربية أى ٢,٢ مرة ضعف ما عند إسرائيل، و١٥٢٤ من الطائرات والمروحيات أى ٢,٧ ضعف ما لدى إسرائيل.

يتضح لنا من هذه الأرقام أن نسب الكميات تميل بشدة فى صالح العرب جيران إسرائيل بتعداد القوات المسلحة وبالتسليح. ولكن لم ينتصر تمامًا أحد فى الحروب الخمسة السابقة، لأن الأمر كما يبدو لا يتوقف على جبال الأسلحة ولكن على شىء آخر، عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ونفسية وعوامل أخرى تؤدى إلى عدم تأثير تفوق أحد الطرفين بمخزون السلاح (فى هذه الحالة العرب) على الآخر (إسرائيل).

جدول (١) : القوى العسكرية فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا (عام ١٩٦٦)

البلد	التعداد (مليون فرد)	إجمالى الدخل القومى (مليار دولار)	ميزانية التسليح (مليار دولار)	عدد القوات المسلحة (ألف فرد)	عدد الدبابات	عدد المدرعات	السفن الحربية	الطائرات والهليكوبتر الحربية
الجزائر	٢٨,٢	٤٨,٣	١,٣٣	١٢١,٧	٩٦٠	١٤٩٥	٢٦	٢٣٠
البحرين	٠,٥٧	٤,٦	٠,٢٥	١٠,٧	١٠٦	٢٨١	٢٥	٣٤
مصر	٥٧,٧٤	٤٦,١٥	٢,٩٦	٤٣٦,٠	٣٥٠٠	٥٣٢٧	١٢٣	٦٦٧
الحكم الذاتى الفلسطينى	٢,٩	٢,٤	٠,٠٩	١٦,٥	—	—	—	—
العراق	٢١,٠٤	١٨,٥	٢,٧	٣٨٢,٥	٢٧٠٠	٤٤٠٠	٢٢	٤٨٣
الأردن	٤,٤	٦,١	٠,٤٥	٩٨,٦	١١٤١	١٣٠٤	٥	١٠٦
الكويت	١,٥	٢٥,٤	٢,٩١	١٦,٦	٢٢٠	٢٨٣	٤	٩٢
لبنان	٤,٠	٧,١	٠,٣٤	٤٤,٣	٣٣٠	٦٩٠	٢٠	٧٢
ليبيا	٥,٤	٢٩,٧	٠,٩٦	٨٠	٢٢١٠	٢٦٢٠	١٠٣	٤٦٩
موريتانيا	٢,٣	١,٣٤	٠,٣٧	١٥,٦	٣٥	١٠٥	١١	١١
المغرب	٢٧,٧	٢٨,٧	١,٢١	١٩٥,٥	٦٢٤	١٢٩٠	٩٢	١٢٣
عمان	١,٨	١٢,٢	١,٥٩	٤٣,٥	١٢٨	٣٩	٢٤	٤٦
قطر	٠,٦	٧,٨	٠,٣٢	١١,١	٢٤	٢٣٨	٢٣	٣٢
العربية السعودية	١٨,٦	١٢٨,١	١٣,٢	١٠٥,٥	١٠٥٥	٢٩٠٥	٨٨	٢٩٥
سوريا	١٤,٣	٢٨,١	٢,٦٢	٤٢٣	٤٦٠٠	٥٣٥٠	٧٤	٦٧٩
تونس	٩,١	١٦,٤	٠,٢٦	٣٥,٥	١٦٩	٣٢٧	٤٧	٣٩
الإمارات العربية المتحدة	١,٨٣	٣٦,٧	١,٨٨	٧٠	٢٤٧	٨٨٢	٤٥	١٣٩
اليمن	١٤,٢٤	٧,٩	٠,٣٤	٣٩,٥	١١٢٥	١١٤٠	١٥	٧٧
إجمالى العرب	٢١٥,٣٢	٦٧٠,٨١	٣٣,٧٨	٢١٤٦,١	١٩١٧٤	٢٨٦٧٦	٧٦٠	٣٥٩٤٥٦٣
إسرائيل	٥,٧	٧١,١	٧,٤	١٣٨,٥	٤٠٩٥	٦٣٠٠	٨٨	٢٩٥
إيران	٦٤,٨	٥٩,٨	٢,٣	٥١٣	١٠٥٥	٩٥٠	١١٩	

المصدر : Military Balance, 1995-1996,L, 1995,p.128-150

العلاقة الداخلية بين الإخوة العرب

ليس التوازن العسكرى بين العرب وإسرائيل وحده هو ما يحدد حالة "الجو العسكرى" فى الشرق الأوسط، فقد تكونت هنا فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين بؤرتا توتر على الأقل بين العرب وإيران من ناحية ، وبين العرب بعضهم البعض من ناحية أخرى.

أمسكت كل من الحرب بين إيران والعراق التى امتدت ثمانى سنوات (١٩٨٠ - ١٩٨٨)، وأزمة الكويت (١٩٩٠-١٩٩١) بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بكل الدول الواقعة على خليج السويس، حيث تلقت الأنظمة الحاكمة فيها أقوى هزة أثرت عليها فى القرن العشرين كادت أن تكلفها استقلالها أو حتى وجودها.

ولم تنقذ هذه الأنظمة قواها الذاتية، ولكن أنقذها من كانوا هم أنفسهم يطلقون عليهم لعدة قرون ألقاب "الاستعماريين والإمبرياليين والمخادعين"، أو ألقابًا أخرى كثيرة. ولكن لم تسر أية من هذه النظم، بعد زوال أتربة الحرب، فى طريق المفاوضات السياسية أو الحلول الوسط، كما لم يجلس أى منها على مائدة المفاوضات مع جيرانهم المتوعدين إسرائيل وإيران، ولكنها اهتمت مرة أخرى بتحديث قواتها المسلحة التى لم تظهر لا فى الحرب مع إيران ولا فى الحرب مع العراق. وفى الحقيقة كما يمر فى الخليج الفارسى خط المواجهة بين العرب وإيران يمر أيضًا فى الصحراء خط للمواجهة بين العرب بعضهم البعض. وهو يثير القلق عند النظر إليه من بعيد، حيث يسمع من عنده ضجيج الآلة الحربية العراقية مرة أخرى.

لو تم التعبير عن هذا التوازن الصامت بين مجموع القوات المسلحة بالدول العربية فى الخليج الفارسى (العربية السعودية، وعمان، والإمارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، والكويت) وكل من العراق وإيران تتضح الصورة كما فى الجدول التالى. يتفوق جيران دول الخليج عليهم من ناحية تعداد القوات المسلحة، ولكن تتفوق دول الخليج من ناحية حجم التسليح سواء فى البحر، أو على الأرض.

جدول (٢) : توازن القوى بين العراق وإيران ودول الخليج الفارسى (عام ١٩٦٦)

الدولة	عدد القوات المسلحة (ألف فرد)	عدد الدبابات	عدد المدرعات	السفن الحربية	الطائرات والهليكويتر الحربية
دول الخليج	٢٥٧,٤	١٧٨٠	٤٦٢٨	٢٠٩	٦٣٨
العراق	٣٨٢,٥	٢٧٠٠	٤٤٠٠	٢٢	٤٨٣
النسبة	٠,٦٧	٠,٦٦	١,٠٥	٩,٥	١,٣
إيران	٥,١٣	١٥٥٥	٩٥٠	١١٩	٢٩٥
النسبة	٠,٥	١,١٤	٤,٨٧	١,٨	٢,٢

المصدر: Military Balance, 1995-1996,L, 1995,p.128-150

إذًا ما السبب فى هذه الحالة ؟ لماذا أصاب القلق بهذه الدرجة الشيوخ والسلاطين العرب ؟ حدث ذلك لأن توزيع القوات والإمكانيات العسكرية داخل "الاتحاد الخليجى" غير متجانس على الإطلاق، فإذا كان تعداد القوات المسلحة للعربية السعودية أقل من قوات حلفائها فإنها تتفوق عليهم من حيث عدد الدبابات والمدرعات وتسليح المشاة على الرغم من أن ما تملكه من سفن وطائرات أقل قليلاً مما لديهم. ويجب ملاحظة أن العربية السعودية والعراق وعمان لا يملكون فى تسليحهم طائرات هليكوبتر.

جدول(٣) : توازن القوى بين العربية السعودية ودول الخليج الفارسي الأخرى (عام ١٩٦٦)

الدولة	عدد القوات المسلحة (ألف فرد)	عدد الدبابات	عدد المدرعات	السفن الحربية	الطائرات والهليكوبتر الحربية
العربية السعودية	١٠٥.٨٠	١٠٥٥	٢٩٠٥	٨٨	٢٩٥
البحرين، الكويت عمان، قطر، الإمارات العربية المتحدة (معًا)	١٥١.٩	٧٥٥	١٧٢٣	١٢١	٣٤٣
النسبة	٠.٧	١,٤	١,٧	٠,٧	٠,٩

المصدر:Military Balance, 1995-1996,L, 1995,p.128-150

يمكن أن نستخلص مما سبق ما يلي: لو كان الحكام العظام لدول الخليج الفارسي الصغيرة قد كونوا دولة متحدة لقلّت معاناتهم من الأخطار القادمة من جهة الصحراء العربية أو من السواحل. (نذكر بالتاريخ : منذ منتصف القرن الثامن إلى بداية القرن التاسع عشر كانت توجد هنا دولة إمام عمانى واحدة تمثل إمبراطورية قوية. وقد أدى انهيار هذه الإمبراطورية إلى تقسيمها بين عدد من الشيوخ وإلى فقدها لاستقلالها الذى استعيد مرة أخرى بعد قرن ونصف). أصبح الآن بالطبع أهم

موضوع عند عرب الخليج الفارسى تأمين أنفسهم. ولكن كما نرى لا تسير كل الأمور بسلاسة، ليس فقط مع المنافس القديم إيران، ولكن أيضًا مع العراق المحاربة، وكذلك العلاقات بين "الإخوة" ليست أخوية تمامًا (حيث توجد خلافات على الحدود، وصراع من العربية السعودية لكى يكون لها دور الريادة فى الخليج الفارسى، كما يوجد خلاف ذلك الكثير الذى يمنع هذه الدول من الاتحاد فى جبهة واحدة).

ويبين تاريخ الأزمات والحروب الإقليمية التى امتدت عدة شهور أنه لا يمكن بناء شرق أوسط جديد عن طريق الحلول الدبلوماسية فقط، ولكن للأسف فإننا نرى ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين أن الحل ما يزال عبارة عن "حلم" فى هذه المنطقة.

تتطاير "الدولارات النفطية" فى مدخنة الحرب

على الرغم من استمرار انخفاض دخل العرب فى التسعينيات من القرن العشرين فإن ما يتم صرفه على التسليح فى ٢٢ دولة من أعضاء "جامعة الدول العربية" يتزايد باستمرار، ففى عام ١٩٩١ مثلت هذه المصروفات ٢٤,٧٪ من إجمالى ما تم صرفه. أما فى عام ١٩٩٢ فقد وصلت ٢٥,٧٪ وكانت نحو ٢٥٪ فى أعوام ١٩٩٣-١٩٩٥ . كما أن إسرائيل أيضًا تصرف نحو ١٩-٢٢٪ للغرض نفسه. وعندهم كلهم لا يختلف أى عام كثيرًا عن العام الذى سبقه، ولكن يؤكد كل من الجانبين باستمرار ادعاءهم أنهم يحصلون على السلاح طبقًا لاتفاقيات تم توقيعها فى السنوات السابقة.

ولكن فى الواقع يصعب تمامًا تحديد كم تصرف هذه الدول على الأهداف العسكرية بدقة، وقد نشر - على سبيل المثال - "معهد لندن للدراسات الإستراتيجية" تقريرين مختلفين: تقريرًا رسميًا طبقًا للاعتمادات فى الميزانية كما أوضحنا أعلاه، ومصروفات منفصلة لشراء السلاح. وكانت هذه المصروفات بالمليار دولار فى عام واحد كما يلى:

الدولة	المصروفات	الدولة	المصروفات
الجزائر (عام ١٩٩٣)	١,٣٦	البحرين (عام ١٩٩٣)	٢,٥١
مصر (عام ١٩٩٣)	٢,٤٨	إيران (عام ١٩٩٣)	٤,٨٦
العراق (عام ١٩٩٤)	٢,٧	إسرائيل (عام ١٩٩٣)	٦,٢
الأردن (عام ١٩٩٤)	٠,٤٣٣	الكويت (عام ١٩٩٤)	٣,٠٩
لبنان (عام ١٩٩٣)	٠,٢٧٥	ليبيا (عام ١٩٩٣)	١,٠٩١
موريتانيا (عام ١٩٩٣)	٠,٠٣٦	المغرب (عام ١٩٩٣)	١,٠٩
قطر (عام ١٩٩٣)	٠,٣٣	العربية السعودية (عام ١٩٩٣)	١٦,٥
سوريا (عام ١٩٩٣)	٢,٣٨	تونس (عام ١٩٩٣)	٠,٢٣١
الإمارات العربية المتحدة (عام ١٩٩٣)	٢,١١	اليمن	٠,٣٥٥

وبالإضافة إلى ذلك فإن العرب يصرفون على القوات المسلحة ٣٨,٨٧١ مليار دولار، طبقًا للنشرة السنوية للتسليح Military Balance، بالإضافة إلى اعتمادات الميزانية.

إذا نظرنا إلى ما سبق يتضح أن ما عرضناه يوضح لنا من أين حصلت جامعة الدول العربية البيانات التى وردت فى تقريرها عن عام ١٩٩٣ على سبيل المثال. فطبقًا لحسابات جامعة الدول العربية كانت مصروفات الدول العربية على التسليح فى عام ١٩٩٣ بالنسبة إلى إجمالى المصروفات تمثل:

الدولة	المصروفات، ٪	الدولة	المصروفات، ٪
عمان	٤٥,٧	اليمن	٤٤,٥٥
قطر	٣٦	البحرين	٣٤,٥٣
العربية السعودية	٣١,٣٧	الكويت	٣١,٣٧
مصر	١٩.٥٨	الإمارات العربية المتحدة	٣٦

لم تنشر جامعة الدول العربية بيانات عن ليبيا ولا عن العراق، حيث كانت الأمم المتحدة قد فرضت على كل منهما عقوبات اقتصادية، كما أن جامعة الدول العربية اعتبرت البيانات عن سوريا غير كاملة (٢٩,٠٣٪).

بالطبع لم يكن من الممكن ألا يكون للمصروفات غير العادية للدفاع تأثيرٌ على التنمية الاقتصادية فى الدول المشاركة فى سباق التسليح بسبب "درس الكويت" الذى قدمه العراق. ووصل إجمالى العجز فى ميزانية الدول الأعضاء فى "مجلس التعاون العربى لدول الخليج" فى عام ١٩٩١ إلى ٦٥ مليار دولار محققًا رقمًا قياسيا. وفى عام ١٩٩٣ كان ٢٩ مليار. وعلى الرغم من العجز الهائل فى الميزانية فما زالت هذه الدول المشاركة فى القوى الموحدة " فى نسيج شبه الجزيرة" تصرف نحو ٨٠ مليار دولار كل عام على الاحتياجات العسكرية. وكان إجمالى مصروفات الدول العربية على التسليح يقدر، طبقًا لبيانات جامعة الدول العربية فى عام ١٩٩٣، بمقدار ١٩٦٢,٩ مليار دولار. كما أنه تعدى ١٨٠ مليار دولار فى عام ١٩٩٥ . يمكن مقارنة هذه الأرقام التى لم تحدث من قبل بأكثر "الفترات حرارة فى الدراما الشرق أوسطية".

لا يمكن استخلاص أية نتيجة أخرى من عجائب هذه الأرقام غير ما توصل إليها مؤلف هذا العمل، وهى أنه لا يمكن أن نشم رائحة السلام فى الشرق الأوسط ولكن منه نحس برائحة الحرب. ومن المنتظر ألا تكون من جانب إسرائيل، كما هو مألوف، ولا طبعًا من جانب مصر التى تفوق جهودها لتحقيق السلام إمكانياتها، ولكن يحتمل أن تأتى من الساحل الشمالى للخليج الفارسى، فهناك على جزيرة "سيرى" على بعد ٧٠ كيلومترًا من حدود إيران شيدت محطة صواريخ "هوك" تغطى مدى مضيق "هرمز". كما أن إيران قد زادت من وجودها الحربى فى الجزر الثلاث التى استقطعتها من الإمارات العربية المتحدة عند مدخل الخليج الفارسى فى عام ١٩٩٣ . كان يوجد على هذه الجزر فى أكتوبر عام ١٩٩٤ ٧٠٠ من القوات المسلحة الإيرانية، وفى خلال عامين زاد عددها عن ٤٠٠٠ فرد. كما وضعت هناك صواريخ ومدافع ودبابات. على الأرجح هذا هو ما دفع الولايات المتحدة الأمريكية وبعض دول الخليج إلى القيام بتدريبات حربية بصفة دورية، وإلى الاحتفاظ بقوى بحرية ضخمة، وإلى القيام بدوريات حراسة عند هذه الجزر.

وقد هب أيضًا هواء الحرب البارد مرة أخرى من ناحية العراق الذى استعرض قوته المتزايدة، مرة عند حدود الكويت، ومرة عند حدود تركيا وسوريا ضد الأكراد. كما قامت تركيا بدورها باجتياز حدود العراق، وقامت بعمليات عسكرية على أرضه بحجة القضاء على هؤلاء الأكراد أنفسهم.

والجميع صامتون: الأمم المتحدة، وحلف الأطلنطى، وآخرون. فالكل ينتظر حدوث شىء ما هنا مرة أخرى. هل هى حرب جديدة على الرمال العربية ؟ أو فى جبال كردستان؟ أو فى مكان آخر فى هذه المنطقة ؟

الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا تدعوان العرب إلى السلام، وتبيعان لهم السلاح

استنتجت الولايات المتحدة الأمريكية من كل ذلك أن رفع عقوبات الأمم المتحدة عن العراق لن يؤدى إلى تحسين حياة الشعب العراقى، ولكنه سيؤدى إلى إحياء القوى العسكرية به، مما يهدد بقيامه بمغامرات عسكرية جديدة مثل تلك التى شاهدناها فى الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين.

اعتبارًا من عام ١٩٩٥ لم يكن الشغف يتعلق فقط بسباق التسلح بالسلاح التقليدى، ولكنه امتد إلى الأسلحة ذات التدمير الواسع. وقد وصل ذلك إلى صورة تذكرنا بأيام المواجهة بين حلف الأطلنطى وحلف وارسو. يمكن أن نقول إنه حدث استبدال "العفريت النووى" بـ "عفريت الشيوعية" الذى كان يجول فى منطقة الشرق الأوسط. أصبح اقتراح واشنطن لدول منطقة الشرق الأوسط الانضمام إلى اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية ، التى وقعها أكثر من ١٦٠ من أعضاء الأمم المتحدة، هو" التفاحة المختلف عليها". وجاء رد العرب على عرض الولايات المتحدة الأمريكية بتوقيع الاتفاقية قويا جدا، فقد أعلن وزراء خارجية كل من سوريا ومصر وست من دول الخليج الفارسى فى اجتماعهم بالقاهرة "أنهم ينتظرون من إسرائيل أن تصفى مخزونها من

السلاح النووى". بالطبع اتهمت إسرائيل فوراً عدداً من الدول العربية بالإضافة إلى إيران بأنها تعمل بهمة لتكوين مخزون من السلاح النووى، ودون إعلان إسرائيل من المعروف أن العديد من الدول العربية تمتلك أسلحة الدمار الواسع من كيميائية وبكتيرية (على سبيل المثال العراق وليبيا). وبينما كان الرؤساء والوزراء يتشاورون فى كيفية الخروج من هذا المأزق، فإن السياسيين المرموقين بدأوا فى دعوة العرب لكى يوحدوا ما لديهم من مخزون لإنتاج سلاحهم "العربى" النووى الخاص. ولكن ماذا يمكن أن يحدث للمنطقة إذا تم الاستماع إليهم؟.

ومن المحزن أنه بينما تدخل دول الشرق الأوسط فى مفاوضات من أجل السلام فهى تشترى، وتبيع، وتنتج أسلحة بحجج متنوعة تماماً. ومن المحزن أكثر أن المشرفين المشاركين فى البحث عن السلام فى الشرق الأوسط- الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا- كانا وسيظلان أكبر مصدر للسلاح. ويتم ذلك على خلفية "عرض مداهن للعمل على استقرار السلام" تقوم به كثيراً كل من واشنطن وموسكو.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية دائماً تنتج السلاح وتبيعه وفى الوقت نفسه تنتقد الآخرين لأنهم يفعلون الشىء نفسه. وقد كان النقد سهلاً نسبيًّا مثلاً عندما كانت حصة الولايات المتحدة الأمريكية من تصدير السلاح فى العالم تمثل ١٣٪، ولكن أصبح ذلك من الصعب عام ١٩٩٥ عندما وصلت حصة الولايات المتحدة الأمريكية إلى نحو ٧٠٪. كانت واشنطن قد وقعت اتفاقيات لتصدير السلاح بقيمة إجمالية ٢٢,٣ مليار دولار ، وهى قيمة تفوق حصة روسيا بكثير جدا، إذ كانت تمثل ٢,٨ مليار دولار . وكذلك حصة بريطانيا العظمى التى تحتل المركز الثالث لتصدير السلاح بقيمة وصلت إلى ٢,٣ مليار دولار. وقد مول البنتاجون صفقات بيع السلاح لعدد ٨٦ دولة كما أنه وافق على توريد سلاح قيمته ٢,٢ مليار دولار لخمسين دولة بلا مقابل ، كما أنه فرض حظر بيعه لـ ١٤٦ دولة أخرى.

ليس من الصعب استنتاج أن زيادة حصة الولايات المتحدة الأمريكية فى السوق العالمى لتجارة السلاح كانت على حساب المنافسين. فعلى سبيل المثال، فى الفترة بين

أعوام ١٩٨٦ و١٩٨٩ وبين ١٩٩٠ و١٩٩٣ انخفض حجم ما صدرته بريطانيا من سلاح بنسبة ٧٦٪. أما التصدير من كل من روسيا ومن الصين فقد انخفض بنسبة ٦٨٪، وفى خلال هذه الفترة ارتفعت قيمة صفقات السلاح التى وقعتها الولايات المتحدة الأمريكية بنسبة ١٣٤٪ كما يتضح من الإحصائيات التى قام بها "ريتشارد جريميت" الخبير بمكتبة الكونجرس.

كانت الكوارث الاقتصادية فى روسيا والسذاجة السياسية لمن كان فى موسكو وسمح للبنتاجون بأن يقدم نفسه بأحسن وجه فى أثناء حرب الخليج هى أسباب النمو الزائد لدور الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن توريدات السلاح الأمريكى ما زالت تغرق السوق العالمية (على الرغم من أنها تتأخر فترات متفق عليها بمعرفة تامة من قبل الزبائن) فقد أصبح من غير المعقول تجاهل إمكانيات روسيا. وقد أعطت الحرب الشيشانية، سواء كانت جيدة أو سيئة، الفرصة لروسيا لتجربة الكثير، وإجراء التعديلات، واستخدام الكثير من السلاح. وقد أعيد بناء مجموعة الصناعات الحربية فى روسيا بحيث إنها بدأت تستعيد سمعتها تدريجيا باعتبارها قوةً عالميةً كبيرةً يخشاها منافسوها لأسباب موضوعية. ويبين ذلك على أحسن وجه اشتراك روسيا فى صالونات السلاح التى نظمت فى "أبو ظبى" "إيدكس – ٩٣" "IDEX-93" ، و"إيدكس – ٩٥" "IDEX-95" ، و"إيدكس – ٩٧" "IDEX-97" ؛ فقد تم – على نطاق واسع – عرض كل ما هو جديد وغير موجود، عند أحد حتى لدى الأمريكان على الأرجح، بحيث يفتخرون به. فقد تم عرض لنش حامل للصواريخ المضادة للسفن "موسكفيت – إى" MOSKVIT-E التى تعمل باستخدام الموجات فوق الصوتية، واللنش متعدد الأغراض "جيوبارد" GUEPARD الذى يتحرك على وسادة هوائية، وسلاح المدفعية المضاد للطائرات "تونجوسكا – إم" TUNGUSKA-M، وعربة النقل المدرعة "بى تى أر – ٨٠ إيه" BTR-80A المزودة بمدفع عيار ١٠٠ مم، وخرطوش طلقات ١٢٠ مم، وعناصر حربية أخرى. وقد عرض بجانب ذلك فى "أبو ظبى" الأسلحة الصامتة التى تجهز بها القوات الخاصة. والمعدات اللازمة للتعامل مع غواصات التجسس والصواريخ المضادة للطائرات طراز سى ٣٠٠ فى ، وسى ٣٠٠ ، وبى إم يو – ١ ، وبى زد آر كيه "إجلا" "IGLA" C-300V,C-300,PMU-1,PZRK، ودبابة "تى – ٨٠ يو" T-80U، ومدافع هوتزر "ماستا – سى" Msta-C

و "نونا – سي في كيه" Nona-CVK، وغيرها من الأسلحة. وقد حجزت روسيا نصف الوقت المخصص لتجربة رماية الميدان في أثناء عمل المعرض لكي تبين إمكانيات المعدات الحربية الروسية.

ماذا يعني كل ذلك؟... وفي الوقت نفسه ولأول مرة أصبح من الممكن أن يمثل التنافس في مجال بيع السلاح مشكلة مهمة في العلاقات بين روسيا وأمريكا، ثم إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تستطع أن تحل محل روسيا باعتبارها مورداً رئيسيا للسلاح في أي بلد من تلك التي تعتبر من أكبر مستوردي السلاح السوفيتي (العراق، والجزائر، وإيران، وسوريا، وليبيا). ومن الجدير بالملاحظة أن الغرب ينظر إلى هذه الدول بالذات على أنها لا تُستأمن، ثم إنه لا يمكن لأية دولة التفاوض على شرق أوسط جديد يعم فيه السلام في الوقت الذي تقوم فيه بتنمية قوتها العسكرية. جبال السلاح تمثل عائقا لا يمكن تجاوزه في الطريق إلى السلام بالمنطقة، سباق السلاح عبارة عن تيار قادر على جرف أية نبتات لاتفاقيات سلام إلى البحر. لهذا يبدو أنه بجانب البحث عن قرارات سياسية تناسب كل الأطراف فقد جاء الوقت للتفاهم على مستوى القدرة الدفاعية، وعلى النموذج الجماعي للأمان في المنطقة، وكذلك على الإجراءات المشتركة ضد الإرهاب والتطرف وعلى الكثير الذي يستحيل حله بواسطة القوة فقط.

لكن الآن مازالت عسكرة السلام مستمرة في الشرق الأوسط ومازالت مفردات التعامل متطرفة. والأفعال تكاد تنسف اتفاقيات السلام. ومن النادر أن يذكر أحد أن "قطار مدريد السريع" محجوز في مكان ما من طريقه عند إشارة مرور عربية أو إسرائيلية بين جبال من الأسلحة، ومازال هناك من يأمل في المنطقة وفي العالم كله أن يقوم بمهمته.

الباب السادس عشر

على مشارف نهاية القرن العشرين

لا يخفى المصريون هدفهم الأساسى – وهم على الخط المستقيم لنهاية القرن العشرين – استقبال الألفية الجديدة وهم يقومون بدور القوة الرائدة فى الشرق الأوسط، وتحويل بلدهم إلى مركز اهتمام، ووضع جهود الشرق والغرب والشمال والجنوب فيه. يمكن أن نشعر بذلك فى كل شىء ، فى السياسة والاقتصاد والثقافة والأعمال والأنشطة المختلفة، وكذلك فى الجهود الضخمة لتوسيع العلاقات الخارجية، ولاستقرار الأوضاع داخل البلد وفى المنطقة.

فعلى سبيل المثال لخص وزير خارجية جمهورية مصر العربية "عمرو موسى" أولويات السياسة الخارجية المصرية فى حديث له مع مؤلف هذه السطور فى عام ١٩٧٢ كما يلى:

- إستراتيجية السلام، ورفض استخدام القوة.
- الحل العادل للمشاكل التى يوجد حولها جدل، مثل احتلال إسرائيل لأراضى عربية ومشكلة الفلسطينيين.
- تنمية العلاقات الاقتصادية عن طريق التعاون بكل صوره.
- الاهتمام بكل الأمور الآسيوية والأفريقية، وبصفة خاصة بالدول المجاورة لمصر.
- عدم الانضمام للأحلاف والتحالفات الإقليمية.

● تبادل الاستشارات وعمل الاتفاقيات اللازمة.

أوضح "عمرو موسى" ذلك ثم أضاف: عمل الاتصالات النشطة الخاصة بكثير من سمات العلاقات السياسية والاقتصادية، كما يحتاج الأمر إلى تصور جديد لبناء عالم ما بعد المواجهات، ونحن نعتقد ضرورة مشاركة كل دول العالم الأخرى أيضًا فى عملية دراسة القرارات السياسية والاقتصادية بجانب الدول المنتقاة (الولايات المتحدة الأمريكية ودول الشمال)، الغنية منها والفقيرة، والكبيرة والصغيرة، وكذلك روسيا.

يحاول المسئولون المصريون أن يجربوا هذا التصور بدايةً فى داخل بلدهم فى ظل سياسة تعدد الأحزاب واقتصاد السوق، فمازالت سياسة "الانفتاح" التى بدأها "السادات" فى عام ١٩٧٤ مستمرة، ولكن أدخل عليها الرئيس "حسنى مبارك" تعديلات مهمة. الأبواب مفتوحة لرءوس الأموال ورجال الأعمال الأجانب بما لا يعاكس تنمية الشركات والبنوك المحلية، كما أن القطاع العام يتقلص باستمرار، وتمنح فرص متنامية للقطاع الخاص لكى يقوى مكانته. كذلك جارى التحام رءوس الأموال الحكومية والخاصة، وعمل كل ما يمكن لكى يتم استخدامهما داخل البلد، وكذلك تشجيع كل صور الخصخصة ونشاط الأعمال.

حدثنا رئيس هيئة الاستعلامات فى ذلك الوقت الدكتور "ممدوح البلتاجى" (أصبح فى عام ١٩٩٣ وزيرًا للسياحة)، ورئيس مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بجريدة الأهرام "السيد ياسين" عن ذلك بقدر من التفاصيل، فقد تم فى يوليو عام ١٩٩٤ فى جمهورية مصر العربية الانتهاء من الخطة الخمسية الخامسة للتنمية (١٩٨٧/١٩٨٨-١٩٩١/١٩٩٢)، وتم تحليل نتائجها بالتفصيل. كانت مرضية؛ فقد كان معدل النمو فى مجال الخدمات الإنتاجية يمثل ٥,٦٪ وفى غير الإنتاجية ٦,٢٪. وقد زاد إجمالى الإنتاج القومى تقريبًا ٣٣٪ من ٣٩,٨ مليار جنيه مصرى (طبقًا لأسعار العام المالى ١٩٨٦/١٩٨٧) إلى ٥٣,١ مليار جنيه مصرى فى عام ١٩٩٢ (كان الدولار يعادل ٣,٢ جنيهًا مصريا). ولأول مرة تخطت حصة رأس المال الخاص حصة القطاع العام على مدار سنوات تنفيذ خطط التنمية (٥٣٪ مقابل ٤٧٪). وقد وصلت استثمارات القطاع الخاص فى التسعينيات بسرعة إلى ٤٠٪ من إجمالى

قيمة الاستثمارات فى الاقتصاد القومى. وتصل فى الوقت الحالى استثمارات رجال الأعمال المصريين إلى نحو ٦٤٪ من إجمالى استثمارات القطاع الخاص فى مصر (٤ مليار دولار)، بينما ١٩٪ عبارة عن استثمارات من الدول العربية، و١٧٪ رءوس أموال من الدول الغربية ومن الهيئات الدولية. كما تم الإبقاء على مراقبة الحكومة لعمليات التجارة الخارجية التى تنفذ عن طريق نظام تحديد التعريفة عن طريق مصلحة الرقابة النقدية والترخيص.

قدم الرئيس "حسنى مبارك" فى نهاية عام ١٩٩٠ للبلد برنامج "ألف يوم" الذى يمنح للشركات الخاصة الكثير من الميزات التى كانت تستمتع بها حتى ذلك التاريخ هيئات القطاع العام فقط. وقد تم تحويل كل ما لا يحقق ربحًا فى القطاع العام طبقًا لهذا البرنامج إلى القطاع الخاص.

كما حدثت مبادرة أخرى فى عام ١٩٩٥ ، وهى الخصخصة العامة التى تقابل على أساسها مصر القرن الحادى والعشرين.

اقترح علينا الدكتور "البلتاجى" التجول فى البلد لمشاهدة كيف يعاد بناء مصر من جديد وكيف أنها تتحول إلى الرأسمالية باستخدام كل ما هو حديث مما يمنحه كل من الغرب والشرق لبلد الأهرام.

أتيحت لنا فرصة أخرى لمشاهدة كيف تسير مصر إلى خط نهاية القرن العشرين بعد الحرب والحصار والدمار والمصائب التى عانت منها بلد الأهرام، خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين.

المدن الجديدة فى الصحراء

ظهرت فى الخريطة الجغرافية لمصر ثمانٍ من هذه المدن، هى العاشر من رمضان (على بعد ٦٠ كم من القاهرة على الطريق إلى الإسماعيلية)، والسادس من أكتوبر (بين القاهرة وواحة الفيوم)، وبدر (بين القاهرة والسويس)، والسادات (فى الصحراء بين القاهرة

والإسكندرية)، والعامرية (بالقرب من الإسكندرية)، و١٥ مايو (عند حلوان)، والعبور (على طرف القاهرة [الشمالي الشرقي])، والنوبارية (في محافظة البحيرة). تقوم الحكومة ببناء وتنمية البنية الأساسية اللازمة لإسكان ١٢٠ ألف نسمة، بينما تتولى شركات خاصة تشييد المشاريع الصناعية فتحصل على قروض وفترة سماح لدفع الضرائب لمدة ١٠ سنوات وكذلك ثمن الأرض في هذه الأماكن.

قمنا بزيارة المدينة الأولى من المدن التي ذكرناها أعلاه، وهي مدينة العاشر من رمضان (هذا التاريخ يوافق بداية حرب عام ١٩٧٣ طبقًا للتقويم الهجري). بعد ساعة من السفر من القاهرة رأينا مدينة شيدت مبانيها من الحجارة البيضاء، روى لنا "فاروق السنباطي" رئيس مجلس المدينة ما يلي:

"الهدف الأول من إنشاء المدن الجديدة استغلال الصحراء، وتفريغ القاهرة المزدحمة بالسكان. في الواقع فاق ذلك كل ما كان متوقعا، فقد تم بناء المصانع وجذبت رءوس الأموال الأجنبية والمحلية وأنشئت أماكن للعمل، وقد تم في مدينة العاشر من رمضان وحدها إنشاء ١٢٢٠ شركة إنتاجية مختلفة وفرت ٣٠ ألف فرصة عمل على مساحة ١٠٧٣٨ متر مربع. وفي عام ١٩٩٢ أصبحت ١٠٠ ألف (حصة القطاع العام فيها ١٤٪، والباقي مشاريع استثمارية مشتركة، منها ٧٧٪ بالاشتراك مع شركات أوروبية و٤٪ مع الأمريكان، و٢٪ مع اليابان ودول أخرى) وصناعات صغيرة.

تجولنا في الشوارع الواسعة الممتدة المزروع على جانبيها أشجار النخيل والمزينة بالنجيل الأخضر. توجد في هذه المدينة أربعة شوارع مماثلة موازية للطريق الرئيسي السريع (الأوتوستراد) الذي يربط بين القاهرة والإسماعيلية، يقطعها بالعرض شارع رئيسي واسع. وفي كل مجاورة ٨-٩ مبانٍ ومركز تجاري وحضانة ومدرسة، ويصل الماء إلى المدينة من ترعة الإسماعيلية، وكذلك من الآبار الارتوازية، أما الكهرباء فتصل إلى المدينة من الشبكة الرئيسية للجمهورية، كما توجد شبكة صرف صحي وأفران أكسوجينية لحرق القمامة ومحطة لمعالجة المخلفات.

خصص مكان محدد لكل المصانع الكبيرة على الجانب الأيمن من "الأوتوستراد"، ويصل العمال إلى هناك بواسطة سيارات الشركات، حيث لا توجد وسائل نقل بالمعنى المفهوم لنا فى المدينة. ولكن كل أسرة تقريبًا تملك سيارة، كما أن شبكة الاتصالات التليفونية المتطورة متصلة بالقاهرة، ويمكن استقبال عدة قنوات تليفزيونية فى المدينة. قمنا بزيارة عدة شركات.

كانت الأولى مصنعا لإنتاج الملابس الجاهزة من القطن المصرى. يبلغ إجمالى الإنتاج السنوى للمصنع نحو مليون قطعة ملابس للرجال والنساء، يصنعها ٣ آلاف عامل (٨٠٪ منهم من النساء)، ويصدر المصنع ٢٢٪ من الإنتاج إلى الخارج، خاصة إلى أوروبا وإلى دول الشرق الأوسط. وقد تكلف بناء المنشآت وشراء المعدات فى عام ١٩٨٤ نحو مليون جنيه مصرى، وكان الإيراد فى عام ١٩٩٢ نحو ٣٤ مليون جنيه مصرى. تجولنا فى العنابر، أماكن العمل نظيفة، والكل مستغرق فى عمله. يتم تصميم الموديلات فى مبنى منفصل به أكثر من عشرة فنانين، وعدد من الحاسبات الآلية. وترأس هذا القسم ابنة صاحب المصنع التى تلقت دراسة خاصة فى باريس. يتم تغيير الموديلات باستمرار، حيث يتم البيع بلا مشاكل نظرًا للجودة العالية للتفصيل. وقد أحصينا فى منفذ البيع الموجود فى موقع المصنع نحو ١٠٠ موديل من تلك التى ستباع فى اليوم التالى. يتراوح ثمن القميص الرجالى من ٤٥ إلى ٨٠ جنيهًا مصريا. ليست رخيصة الثمن ولكنها رائعة، فهى تناسب كل الأذواق وبكل الألوان والمقاسات، كلها صنعت بإخلاص.

شرح لنا المدير الفنى للمصنع الثانى الذى ينتج مضخات "فتحى زناتى" أن الشركة مشتركة مع إحدى الشركات الألمانية (٥٠٪ من رأس المال)، وقد بدأ الإنتاج فى عام ١٩٨٤ بتصنيع ٣ آلاف مضخة فى العام، وصلت إلى ٣٠ ألف قطعة متنوعة فى عام١٩٩٢ تستخدم فى المصانع المختلفة. المعدات أحدث ما يمكن، فهى آلية، ويعمل بالمصنع ١٠٠ عامل فقط يحصل كل منهم على مرتب يصل إلى ٦٠٠ جنيه مصرى فى الشهر. أما المهندسون العاملون على الحاسبات الآلية فيحصل كل منهم على ١٠٠٠ جنيه مصرى فى الشهر. ويتم تصدير نحو ٥٠٪ من منتجات المصنع إلى الخارج.

زرنا أيضًا فى هذا اليوم مصنعا للأثاث ومصنعا للبلاط المصقول ومصنعا للسجاد ومصنعا لمنتجات الألبان والفواكه، فلاحظنا أن المعدات فى كل مكان على أحدث ما يمكن، ويتم تجديدها كل عام بنسبة ١٥٪، كما أن إنتاجيتها عالية، كما تدفع مرتبات جيدة فى مقابل العمل. لاحظنا أيضًا أن بيئة العمل نظيفة. ويتم تصدير منتجات هذه المصانع إلى كل من أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية والدول العربية وأفريقيا وأسيا.

وذلك كله من مدينة واحدة من المدن الجديدة، وأنا أكرر إنها ثمانٍ، ثمانٍ حتى الآن.

مدينة السويس التى أعيد إحياؤها

كان المنظر العام لمدينة السويس فى سنوات الحرب مع إسرائيل محزنا، بقايا منازل مهجورة ورماد، وما زالت هذه الصورة تقف أمام عينى. وها أنا مرة أخرى فى السويس، ميلاد جديد للسويس فى التسعينيات.

يظهر خليج السويس الأزرق اللون من نافذة مبنى المحافظة التى تطل على الكورنيش، وعلى يساره "بور توفيق" الجزء الفاخر من المدينة المولودة من جديد من الأنقاض، وعلى اليمين سلسلة جبال، ومجمع تكرير البترول "نصر"، أما فى الأمام فيظهر النصب التذكارى للجندى المجهول الذى أقيم هنا فى عام ١٩٧٥ .

"تولد المدينة من جديد من الأنقاض" كما قال لنا مستشار المحافظ للتخطيط والتنمية اللواء "حسنى نجيب دسوقى"، ثم أضاف:"لقد ساعدنا كل من الأمريكان والإنجليز بصفة خاصة، أى من كنا ننتقد بسبب مساندتهم لإسرائيل فى حربها معنا. فقد خططنا المدينة الجديدة بمساعدة المهندسين الأمريكان، وبدأت الأعمال فوراً بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع إسرائيل فى ٨ أغسطس عام ١٩٧٠ ، فقد أعدنا بسرعة بناء شبكة توصيل الماء والمجارى والطرق، فمكننا ذلك من إعادة المهجرين (ترك المدينة ٣٠٠ ألف شخص). وقد تولى اليابانيون إعادة بناء الجزء الشمالى من الخليج، كما بنوا فى

منطقة "عطا"، فيما بين السويس والعين السخنة ميناء لصيد الأسماك وطرق موازية للساحل وإلى منطقة الجبال، بالإضافة إلى محطتين لتوليد القوى ومحطات ضخ الماء. توجد الآن بضعة قرى سياحية فى العين السخنة وعيون موسى، وفتحت هناك عيون مياه، كما يعمل نادى اليخت. اختلفت مدينة السويس عما كانت عليه، فقد أعيد بناؤها بالكامل، وأصبحت تنبض بالحياة.استمتعنا بحمامات الشمس فى نادى شركة قناة السويس ببور توفيق على شاطئ رائع، وسبحنا فى القناة على الرغم من التوقيت بين المواسم، وسعدنا بمشاهدة السفن المارة بالقرب منا. بقيت فى ذاكرتنا صور الطراز المعمارى الحديث لفنادق "بليتس" و"سامر- بالاس" و"ريد سى" و"جرين هاوس". شارع وسط المدينة عبارة عن كورنيش واسع زرعت فيه أشجار نخيل زينة.

كان "حسنى نجيب دسوقى" يتطلع من الآن إلى خطط جديدة، فسوف تنشأ منطقة حرة بين السويس والعين السخنة فى المنطقة المحصورة فى المثلث "القاهرة - الإسكندرية - السويس" قبل عام ٢٠٠٥ ، كما ستظهر عشرات من المدن الصغيرة التى ستنشأ بها مصانع يوفر كل منها ٣٦٠ ألف فرصة عمل. بعد ذلك بقليل فى جنوب السويس يجرى بناء مجمع فريد لليخوت على البحر الأحمر سيسع ١١٠٠ يخت للسائحين والرياضيين.

وبالطبع يتحدثون هنا كثيرًا جدا عن العمل (فقد سافر إلى الخارج أكثر من ٨ مليون مصرى للبحث عن عمل)، ويبدو أن ذلك أدى إلى صرخة تشييد المصانع المحلية منها والمختلطة، وبالمشاركة مع الشركات الأجنبية، ومصانع أجنبية تمامًا بشروط ميسرة. شاهدنا فى السويس شركة مصرية - إيرانية مشتركة "مصر - إيران تكستايل كومبانى" لإنتاج الغزل، تقع هذه الشركة على بعد عدة كيلومترات من مدينة السويس عند سفح الجبل ، ويعمل بها ٤ آلاف عامل (٨٠٪ منهم فتيات). ميزانية الأجور بها ٨ مليون جنيه مصرى فى العام ، ورأسمالها الأساسى ٥١ مليون جنيه مصرى، منها ٥١٪ للمصريين و٤٩٪ للإيرانيين. العمل فى المصنع بنظام الورديات الثلاث. كل منها ٨ ساعات دون توقف. يقدم الغذاء بعد العمل فى المطعم على حساب الشركة، كما يتم نقل العاملين إلى مكان عملهم على نفقة الشركة، ويتم تصدير المنتجات

إلى ٣٢ دولة. حدثنا عن ذلك المدير التجارى للشركة "على فاروق بليميل" الذى عزمنا على وجبة غذاء لذيذة.

هل نتذكر مدينة السويس التى أعيد تعميرها بعد الحرب ؟ نعم نتذكرها، فكل من شارك فيها يحصل على راتب كما لو كانوا حتى الآن يخدمون بالجيش، وفى كل عام يحتفل بتواريخ الحرب، وتوضع الزهور على النصب التذكارية. أما على "الضفة الأخرى"، على "خط بارليف"، فقد ترك مركزان شاركا فى القتال بقوة للأحفاد على لسان "بور توفيق" وفى منطقة "موسى"، حيث بدأت قوات الجيش الثانى فى يوم ٦ أكتوبر (العاشر من رمضان) فى اختراق خط الجبهة. وقد شارك فى هذه العملية مرافقنا "حسين نجيب دسوقى"، الذى استمر فى الخدمة حتى حصل على رتبة لواء، ثم تقاعد وحصل على منصب نائب وكيل وزارة الدفاع المصرية.

سيناء - مصرية

أقام المصريون فى عام ١٩٩٢ احتفالاً كبيراً بمناسبة مرور عشر سنوات على استرجاع شبه جزيرة سيناء سلميا (حدث ذلك فى ٢٥ أبريل ١٩٨٢).

قال لنا محافظ جنوب سيناء "عبد المنعم سيد" الذى استقبلنا فى منزله بمدينة "الطور": إن محافظتى سيناء الشمالية والجنوبية قد نفذتا ثلاث خطط خماسية وعليها أن تنفذ الخطة الرابعة حتى عام ٢٠٠٠ ، تمنح شبه الجزيرة مصر ٢٥٪ من إجمالى إنتاج جمهورية مصر العربية من البترول و٢٨٪ من الخامات المعدنية، ويحضر نحو مليون سائح إلى ٥٥ مركزاً سياحيا كل عام، كما أن تعداد السكان المقيمين فى سيناء قد تضاعف (أصبح ٤٠٠ ألف فرد فى عام ١٩٩٢)، ويجرى إنشاء عشر مدن جديدة فيها هى: رأس سدر، وأبو زنيمة، وأبو رديس، وطور سيناء، وشرم الشيخ، ودهب، ونويبع، وسانت كاترين، ورأس محمد. وتوجد اثنتان من المحميات العشر المصرية فى سيناء، كما يوجد بها خليجا السويس والعقبة اللذان يعتبران نقاطا إستراتيجية مهمة.

ولا تبعد عنها كل من إسرائيل والأردن والعربية السعودية. المياه الإقليمية ليست غنية فقط بالأسماك، ولكن بها أيضًا بترول...

وأهم شىء تحدث عنه المحافظ قليلاً هو أنه بعد استلام المصريين لمنطقة طابا (٣٠ سبتمبر ١٩٨٩) حصلت إسرائيل على موافقة مصر لكى يمكن للإسرائيليين زيارة منطقة شبه جزيرة سيناء بحرية ، وأن يمارسوا بها الأعمال التجارية، وينفذ ذلك بالفعل. فيحصل أى إسرائيلى يظهر جواز سفره فى طابا على تأشيرة دخول لمدة ١٥ يوما ، ويتحرك بحرية فى سيناء (وحتى على أرض جمهورية مصر العربية). يحضر إلى هناك كل عام ما لا يقل عن ١٠٠ ألف إسرائيلى (ليس فقط للاستجمام، ولكن أيضًا للأعمال التجارية)، وهذا يساعد على تنمية المنطقة، بغض النظر عن أنه بقيت بها قوات متعددة الجنسيات وقوات الأمم المتحدة (تضم فى تشكيلها ١٨ من العسكريين الروس) التى تراقب تنفيذ اتفاقية السلام. وفيما يلى مقتطفات من الحديث مع المحافظ:

– هل هناك برنامج للتنمية الاجتماعية لسيناء ؟

– نعم يوجد، ففى عام ١٩٨٢ كانت توجد فى سيناء ١٥ مدرسة، أصبحت ٩٠ مدرسة فى عام ١٩٩٢ ، وسوف يرتفع هذا العدد إلى أكثر من ١٠٠ ، كما لم يكن بها مستشفيات فأصبح بها ٩ ، وقد تم افتتاح مركز اجتماعى فى كل تجمع سكانى، وكذلك نوادٍ للشباب ودروس للسيدات ومعسكرات رياضية.

– ومن أين تحصلون على الماء ؟

– نضخها من الآبار الجديدة التى نحفرها ، كما نحسن الآبار القديمة، كما أننا أنشأنا خطوط مواسير لتوصيل الماء من السويس ومن أبو رديس، ونبنى محطات لتحلية المياه على الساحل.

– التليفزيون، هل يمكن هنا استقبال برامج التليفزيون القاهرية ؟

– نستقبل هذه البرامج فى كل التجمعات السكانية، ويمكن الاتصال بالقاهرة تليفونيا من أى مكان، وليس فقط بالقاهرة، ولكن بأية مدينة أخرى.

- هل يحضر إليكم الناس للعمل ؟

- يحضرون، فالحكومة تدفع مرتبات مرتفعة هنا لمن يحضر للعمل، كما أنها تبنى المساكن، وتملكها بالتقسيط، كما أنها تمنح أراضى على أساس قطعة أرض وفيللا للأسرة الواحدة.

- هل يوجد الكثير من البدو؟

- منذ عشر سنوات كانوا يمثلون ٥٠٪ من تعداد السكان فى سيناء ، أما الآن فإن عددهم ١٥ ألفًا. ونحن نحافظ على عاداتهم، ولا نلمسهم، فهم يعيشون فى عائلات فى السهول ، أو فى الواحات، حياتهم ليست سهلة، ولكنهم اختاروها بأنفسهم.

حكاية أسوان

أصبحت أسوان اليوم مدينة يسكنها ٧٥٠ ألف فرد ، وتستقبل مليون سائح فى العام ، هكذا بدأ حديثه معنا رئيس مصلحة الاستعلامات بجنوب مصر "آدم محمد". كنا فعلاً نرى النيل مليئًا بالسفن متعددة الطوابق (تسير بين الأقصر وأسوان فقط ٢٨ سفينة)، والكثير من السائحين، ومراكب شراعية بيضاء من نافذة مكتبه الواقع على كورنيش النيل. وتسمع طَرْق حوافر خيل الحنطور، وأصوات الباعة العالية وهم يعرضون بضاعتهم على الأجانب.

كانت كل المدينة فى وقت ما تتحدث الروسية. كما كان العرب والروس يغنون أغانى عن نهرى الفولجا والنيل معًا، وهم يبنون السد العالى، حتى إن السلطات خافت من إمكانية "احمرار" مواطنيها. ولكن خوفهم لم يكن فى محله فقد تم بناء السد، وسافر الروس، ولم "يحمر" أحد بسبب اعتناق الماركسية.

أما الآن فيخيل لنا أن البعض "يحمر" بسبب نسيان اللغة الروسية، ومرة أخرى يطلبون البقشيش، على الرغم من أن مواطنينا كانوا قد جعلوا المتشردين المحليين يقلعون عن ذلك.

وكيف حال السد الآن ؟ وجهنا هذا السؤال لرئيس مجلس السد المهندس "حمدى الطاهر"، الذى استقبلنا فى فيلته، حيث جلسنا على مقاعد مذهبة منجدة بالقطيفة البنية اللون، وقد ظهرت لنا من خلف النافذة نباتات غير مألوفة لنا.

أجاب: "أنتج السد العالى فى ٣٠ سنة أكثر من مليار كيلو وات / ساعة. وحمى مصر من الجفاف فى أعوام ١٩٧١-١٩٨٨ . ويصل ارتفاع مستوى مخزون الماء خلف السد ١٦٧ متراً فوق سطح البحر الأبيض المتوسط، وهذا أقل ١٥ متراً من حده الأقصى ويزيد ١٧ متراً عن حده الأدنى. وهذا القدر يكفى لكى يوصل المياه إلى التربينات ولرى ٧,٥ مليون فدان من الأرض (الفدان= ٠,٤٢ هكتار) طوال العام. وقد وقع فى مصر زلزال فى عام ١٩٨١ وصلت قوته إلى ٦ وحدات بمقياس ريختر، ولكنه لم يؤثر على السد، ولا على أداء محطة توليد الكهرباء الهيدروليكية. ويقوم بالخدمة فيه الآن ٢٧٠٠ مهندس وعامل. قيل إن الإنجليز قد عدلوا المعدات، ولكن هذا غير صحيح، فالتربينات الاثنتا عشرة تعمل كلها جيداً كما فى السابق. الميزانية المخصصة للعاملين ٧٧٨ مليون جنيه مصرى فى العام، يخصص ٢٥٪ منها، لتوسيع سكن من يعمل هنا. كما يستهلك مليار متر مكعب فى السنة، لتقوية جسم السد بالأسمنت. والبحيرة نفسها (فى البداية سميت بحيرة ناصر ثم النصر، أما الآن فهى بحيرة السد العالى) فتمتد على ٣٣٥ كيلومتر، منها ١٦٥ كم فى السودان. وطبعاً كلما ضحلت يتم ملؤها.

يقوم المصريون بتنمية طاقتهم الكهربائية بنشاط، وقد حدثنا عن ذلك رئيس المنطقة الجنوبية "مصطفى الغنانى". وهو أيضًا قد دعانا إلى فيلته، حيث قدم لنا الشاى السودانى "الكركديه"، ونحن جالسون تحت مظلة ضخمة تحمى من أشعة الشمس، ولكن لا تمنع الحر. وكان يقول لنا باستمرار باللغة الروسية: "تفضلوا كوبا آخر من الكركديه فهو يشفى أمراض الأوعية الدموية".

قال: "تعطى الآن محطة أسوان الهيدروليكية لتوليد الكهرباء ٢٥٪ من الطاقة الكهربائية فى البلد، أما الكمية الباقية فتنتجها المحطات الحرارية والهيدروليكية الأخرى. ولكن هل كان من الضرورى بناؤها؟ بالطبع كان ضروريًا، فلو بدأنا كل شىء من جديد لكنت قمت بالشىء نفسه، فإننا نوفر الكهرباء لمصر بالإضافة إلى أننا قد انضممنا إلى الشبكة الدولية، وأصبحنا نعطى الأردن وتركيا وسوريا والعربية السعودية (عن طريق طابا) كهرباء. ونحن نفخر بذلك، ولم نتوقف عن ذلك ولو مرة واحدة، ومازلنا نبنى ونبنى محطات هيدروليكية أخرى لتوليد الكهرباء ، كما نقوم بتحديث القديم منها، ونحن نأمل فى مساعدتكم لنا.

ذهبنا بعد ذلك إلى المسلة التى أقيمت لتخليد بناة السد العالى وصداقتنا مع جمهورية مصر العربية. شاهدنا السد العالى وما حوله من على ارتفاع ٤٦ مترًا من شرفة المشاهدة للنصب التذكارى. واستمتعنا بمشهد البحيرة التى لم تعد تظهر بالضخامة والامتلاء الذى كانت عليه من قبل. لقد أصبحت ضحلة، ولكنها مازالت تدهش من يراها بحيويتها. تصميم السد جميل والطرق رائعة والحراسة عليه قوية. قال لنا السائق الذى نقلنا " حامد عبد الله محمد" الحامل لميداليتين إحداهما مصرية، والثانية روسية لمشاركته فى بناء هذه الأعجوبة الهندسية ذات التقنية الهيدروليكية "السد يعيش ويتذكر الروس".

العامل الإسلامى

لم نلاحظ تقريبًا فيما سبق فى عهدى الرئيسين "عبد الناصر" و"السادات" ما نحس به الآن فى كل مكان تَمَسُّك السكان بصرامة بالحياة الإسلامية. لقد شاهدنا ونحن نزور مبنى تحرير جريدة "الأهرام" كيف أن كل العاملين به بمجرد أن ارتفع صوت المؤذن من مكبر المئذنة المجاورة بالدعوة إلى الصلاة تركوا عملهم، وخرجوا إلى الممر ووقفوا فى صف (الرؤساء فى الأمام)، ثم مدوا أيديهم إلى السماء وبدأوا فى ترديد الصلاة. وبعد عدة ساعات عندما دوى مرة أخرى الأذان من المئذنة تكرر الشىء نفسه

في صـمت، وبلا أي تعليق أو تـأفف. ويحـدث هذا في الجـريدة التي تتـبع الأسلوب الغربي. أما "عبد الفتاح الشيخ" رئيس جامعة الأزهر الإسلامية فقد قطع حديثه معنا، وذهب إلى ركن حجرته حيث فرش سجادة وقف عليها وقرأ لفترة طويلة سورة من القرآن الكريم. ومن الصباح إلى المساء تدعو آلاف من المساجد المصريين بانتظام وفي وقت واحد إلى الصلاة...

لا نبالغ إذا قلنا إن الهيئات الإسلامية قد تخللت بمعنى الكلمة المجتمع المصري في يومنا هذا بصورها المختلفة الرسمية وغير الرسمية والسرية المتشابكة مع بعضها البعض، هذا بالإضافة إلى وجود أحزاب علمانية، ومختلف الهيئات الاجتماعية والشبابية والنسائية.

لا يواظب الإسلاميون فقط على أداء الصلاة، ولكنهم يشاركون أيضًا بنشاط في الحياة السياسية ويحققون فيها نجاحًا ملحوظًا. فإذا كانت جماعة "الإخوان المسلمين" القديمة والتي كانت تعمل لفترة طويلة في السر قد حصلت في انتخابات مجلس الشعب عام ١٩٨٤ على ٨ مقاعد من إجمالي ٤٤٨ مكان، فإن" تحالف الجماعات الإسلامية" والإخوان المسلمين قد فاز بعدد ٤٠ مقعدًا في انتخابات ٦ أبريل عام ١٩٨٧ ، ومنذ ذلك الحين أصبحوا أكبر تجمع معارض في مجلس شعب البلد.

خيل لنا أن الإسلاميين يضعـون نصـب أعينهم هدفًا أكبر، ليس فقط النضال من أجل السلطة في جمهورية مصر العربية، فهم يتحدثون علنًا عن "اختراقهم" للمنطقة ومن الممكن حتى خارج حدودها أيضًا. فعلى سبيل المثال يدرس ٨٥ ألف دارس، منهم ٢٨ ألف فتاة ، في ٤٥ كلية تابعة لجامعة "الأزهر" في مصر. ويدرس اللغة العربية والعقيدة الإسلامية وعلم اللاهوت في هذه الكليات بجانب المصريين شباب من الكثير من الدول الإفريقية والآسيوية مجانًا... بُعد ليس له مثيل.

أعلن لنا "عبد الفتاح الشيخ" أن على كل المسلمين أن يقرأوا القرآن باللغة العربية فقط، وأن ينطقوا السُّوَر بالعربية، بما في ذلك من في روسيا، أو في دول الاتحاد السوفيتي السابق الأخرى. وأنهم على استعداد لمساعدة وتعريب كل من يرغب في ذلك... فقد جاء الوقت لذلك.

وقد كرر ذلك وزير الأوقاف "محمد أحمد محجوب" الذى استقبلنا فى مقره ذى الجدران والأسقف وقطع الأثاث المزخرفة بالنقوش العربية: "مصر على استعداد للتعاون مع مسلمى روسيا فى كل المجالات بما فيها أعمالهم الإبداعية والخلاقة، ونحن ندعو كل شعوب روسيا للاتحاد وللسلام فى ظل ظروف جديدة، ونأمل أن يقدم المسلمون مثالا على ذلك على أساس عقائدهم والثروات الإنسانية. السلام والخير والاحترام المتبادل هو ما ترى فيه مصر دورها لخلق روسيا المولودة من جديد، وهى على استعداد لتقديم أى شىء لهذا الهدف."

فى رأينا أن اتساع مدى نشاط الإسلاميين المصريين، وزيادة قوة العامل الإسلامى فى جمهورية مصر العربية، وزيادة تأثيره على الحياة الاجتماعية والسياسية فى مصر، لا يعنى أن الإسلاميين سيتمكنون من تخطى الهرم العلمانى الحالى للسلطة فى مصر، وبالأحرى أن يقووا مراكزهم فى العالم الإسلامى الآسيوى.

ما زالت هذه رغبة الإسلام "الرسمى" المصرى فقط، الذى يسىء إليه بشكل غريب من يشاركهم فى العقيدة على الجانب الآخر. التنظيمات الإسلامية المتطرفة التى تراهن على أساليب الإرهاب والقوة فى نضالهم، فهم الذين قتلوا فى عام ١٩٧٧ وزير الأوقاف الشيخ "الذهبى"، وفى عام ١٩٨١ الرئيس "أنور السادات". والآن التفتوا إلى السائحين "الكفرة" فهم يرون أنهم يتسببون فى الغلاء و"يدنسون" الأماكن المقدسة فى البلاد.

ومن الجدير بالذكر أن أعمال المتطرفين تلاقى احتجاجًا واستنكارًا فى أوساط الرأى العام، فقد أعلن الصحفى الشهير "محمد حسنين هيكل" بوضوح أن من يستخدمون الإسلام تحت شعارات سياسية عبارة عن مغامرين ليس لهم مستقبل.

أهم ما تواجه به السلطات المصرية المتطرفين هو اتباع أسلوب إستراتيجى لا يعتمد على استخدام القوة، ولكن عن طريق الحوار السياسى. هذا هو ما رفع من سلطة "حسنى مبارك" بهذا الشكل فى البلد وأدى دائمًا إلى انتصار الحزب الوطنى الديمقراطى، والسلطة صبورة أيضًا مع الإسلاميين. قد يكون هذا سبب ازدهار التعددية الحزبية فى مصر واكتسابها تدريجيا اللون الأخضر الإسلامى.

هذا لا يمنع الرئيس من تطبيق سياسته بقوة كافية وبإقناع، يزيد الاعتماد على كل من رأس المال المحلى وعلى الجيش اللذين تتسع امتيازاتهم باستمرار، وكذلك على أسلوب التهدئة الداخلية وتفادى المواجهة الاجتماعية، واحترام التاريخ وما قام به الرؤساء الذين سبقوه. كل هذا يقوى باستمرار موقف "حسنى مبارك"، ويسحب الأوراق الرابحة من أيدى معارضيه ومنهم المعارضون الإسلاميون.

... الواقع المصرى صاخب تماماً مثل الحياة نفسها، فيتم هناك عقد عشرات المؤتمرات والندوات ولقاءات العمل، ويتمكن المصريون من أداء ما يليق بمكانة الله، ومن القضاء على المتطرفين الإسلاميين ومن التفاهم على المواضيع العامة مع المجتمع الدولى مع الاحتفاظ بموقفهم، وكذلك من إظهار "صورتهم الغربية" إذا كان الأمر يتعلق بالعلاقات مع العالم الغربى، وبيان انتمائه من ألف سنة للشرق عندما يتم التعامل مع شئونهم الشرقية. تعمل مصر باستمرار على تقوية علاقاتها، وعلى تقديم أفكار جديدة فى علاقاتها مع "البلدان الأجنبية القريبة" (مع العالم العربى، والإسرائيلى، والتركى بصفة خاصة)، وفى الوقت نفسه تقوم بتوازن كامل بتطوير علاقاتها مع "البلدان الأجنبية البعيدة" مما يزيد من مكانة بلد الأهرام فى المنطقة وكذلك فى العالم كله، فقد أصبحت مصر مركزاً، بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، للاهتمام ولجذب جهود كل من الشرق والغرب غير منتظرين حتى نهاية القرن العشرين.

الباب السابع عشر

القاهرة من فجر إلى الفجر التالى

القاهرة تنبض بالحياة فهى لا تنام أبدًا، وهى مدينة لا تكتئب أبدًا، وقد احتفلت بعيدها الألفى فى عام ١٩٧٠ . هذه المدينة "بوابة الدخول إلى الشرق"، ومكان التقاء حضارات آسيا وإفريقيا وأوروبا. وهذا شىء فريد خاص بها لا يمكن خلطه بشىء آخر.

الله أكبر

يصل ضجيج المدينة عبر النافذة وكأنه صوت البحر، السماء داكنة تمامًا بها نجوم لامعة، تبدو كما لو كانت رءوس مسامير مضاءة من أسفل بالنجوم اللامعة فى الشرق، والتى بدأت قليلاً فى اكتساب اللون الأزرق. اقترب طلوع الفجر فهو الآن فى مكان ما خلف الأفق، شروق الشمس على وشك ملامسة الفندق بلونه الوردى الهادئ.

ولكن كان الصوت الشجى للمؤذن قد وصل إلينا من مئذنة بعيدة فأيقظنا قبل ذلك: "الله أكبر"، ثم دوى مرة أخرى "الله أكبر" فى مكان ما أقرب، ثم بعد ذلك دوى فى هذه المرة من مكبر صوت قريب مركب على الجامع المجاور:"الله أكبر".

بدأ الآلاف من الأئمة تقريبًا فى اللحظة نفسها فى الدعوة إلى صلاة الفجر. يؤدى هذا الكورال متعدد الأصوات، والذى يشدو دون مايسترو، وفريق منظم ولا موسيقى، إلى نهوض النائمين من فراشهم، ويذكر المستيقظين بحلول وقت الصلاة. ويدوى فوق القاهرة "الله أكبر لا إله إلا الله!". نظرنا من النافذة فرأينا أن الليل

لم ينقشع بعد، فما زالت آلاف من المصابيح على أعمدة الشوارع مضاءة، ومازالت السيارات لم تطفئ كشافاتها، ولكن دبت الحياة فى كل شىء تحت السماء التى بدأت تضىء. ها هو بائع الخضار يصلى بجانب محله وهو يتمتم بعض الكلمات لنفسه. لا يقاطع المارة طقوسه بأية حال. فرد أيضًا جاره بجانبه سجادة ووقف عليها على ركبتيه، ويداه مرفوعتان إلى السماء ، ثم مال على الأرض. يصلى وهو يلامس تقريبًا بجبهته السجادة، وهو أيضًا يتمتم بضعة كلمات. ماذا يطلب من الله يا ترى ؟ لن يقول لأحد ذلك، فالإيمان والأمل بداخله. وهى فى داخل أحد عشر مليوّن مسلم آخر من سكان عاصمة مصر، ويتكرر ذلك خمس مرات فى اليوم.

عبر شارع التحرير إلى وسط المدينة

خرجنا من الفندق، ووقفنا نشاهد المدينة بعد طلوع الفجر. ظهر فجأة صبى يحمل صندوقًا يخبط عليه بفرشاة أحذية قائلا: "بربع جنيه بس (الدولار الأمريكى يعادل ٣,٥ ثلاث جنيهات مصرية ونصف فى ذلك الوقت) ألمع الحذاء". توقفت سيارة أجرة بجانبنا، وصدر منها صوت الكلاكس، السائق يعرض خدماته علينا. أشرنا إليه بيدنا سلبيا فانصرف، ولكن جاء فوراً إلى مكانه سائق سيارة أجرة آخر، ثم ثالث... لا يتركونا هادئين. غادرنا هذا المكان.

تحركنا فى اتجاه وسط البلد إلى ميدان التحرير، رأينا كشكًا لبيع الصحف وبه جرائد اليوم "الأهرام"، و"الأخبار"، و"الجمهورية". كان مظهر البائع يبين عدم مبالاته لأنه نصف نائم: إذا أردت.... اشترِ، وإن لم تشأ... لا تشترِ.

"هل توجد أخبار جديدة؟" دبت الحياة فى أوصال البائع: "طبعًا". وبدأ يحكى الأخبار فهى مختلفة فى مختلف الجرائد، لا تكرر إحداها المعلومات نفسها التى فى الثانية، حيث لا تنقلها بالنص كما ترسلها لها وكالات الأنباء، فلكل جريدة أسلوبها، وقارئها، ومن يفضلها. اهتم بائع الجرائد بمعرفة "من هؤلاء؟" أجبناه: روس.

"انظروا، هنا فى الأهرام يوجد نقد لكم، أما فى الأخبار فيكتبون عن مستقبلكم الرأسمالى، أما الجرائد الأخرى فلا تتحدث عنكم كثيرًا".

حضر الأوتوبيس الذى يشبه أوتوبيس السفر عندنا، الفرق أنه ليس مصنوعًا فى المجر ولكن فى ألمانيا. فتحت الأبواب، يصعد الركاب من الباب الخلفى، وينزلون من الباب الأمامى، وهم يبرزون التذكرة مسبقًا للسائق. وإذا لم تكن معك تذكرة، ادفع للسائق. اختم التذكرة التى اشتريتها من المحطة، ولكن ليس من الواضح فى الأوتوبيس قائمة الغرامات عند الخروج عن النظام وقواعد التصرف داخل الأوتوبيس، ولكن الزحام شديد، خاصة فى ساعة الذروة، كما فى موسكو.

يجب عبور جزيرة الزمالك للوصول إلى ميدان التحرير. أولاً عبر كوبرى الجلاء للوصول إلى الجزيرة، ثم عبر كوبرى آخر - قصر النيل - لعبور النيل. المنظر جميل كما فى الصور، بجانب النيل وخلفه، ففى الزمالك يفصل النخيل الفنادق الجميلة تمامًا عن بعضها البعض.

وسط المدينة (ميدان التحرير) قريب جدا من كوبرى قصر النيل، ويوجد بعد الكوبرى على اليسار مبنى جامعة الدول العربية الأصفر اللون، وفى مواجهته قصر وزارة الخارجية. أما فى الأمام فنجد الميدان نفسه مزدحمًا بالسكان وبالسيارات والأوتوبيسات. ازدحام من ناس مختلفين، فبعضهم ينتظر والآخرون يسرعون إلى وجهة ما. الباعة الجائلون فى كل مكان يبيعون السجائر، واللبان، وسلاسل المفاتيح، والتذكارات. يحدث ذلك فى الوقت الذى لم يستيقظ فيه الجميع بعد، مثلاً فى موسكو. ولكن هنا تكون قد بدأت التجارة ويسرعون إلى المكاتب. بدأت كل الأماكن التى يمكن فتحها تعمل فى هذا المكان المزدحم بالناس، حتى "المبانى الضخمة" مثل "المتحف المصرى"، و"الجامعة الأمريكية"، و"وزارة الداخلية". وأيضًا تعمل القهاوى المتعددة المنتشرة هنا، كما يقف الطباخون المتجولون هنا فى الزحام، أو يحركون عرباتهم. ليست الأطباق عندهم بهذه الدرجة من التنوع، خبز بلدى، وخضرة، وفول أو فاصوليا، وسلاطات. يفتح البائع العيش البلدى بالعرض ويضع داخله بعض قطع اللحم الصغيرة، والفاصوليا

والسلاطات، ويكون الإفطار جاهزًا. يكلف هذا الإفطار جنيهًا مصريا أو جنيهًا ونصف جنيه تبعا للشهية، وهو ليس فاخرًا بالطبع وليس رخيصًا أيضًا، ولكن يبدو أن لابسى الجلابية العمال يأكلون هنا.

ماذا يريد الأستاذ ؟

شارع قصر النيل أطول، وأفخر الشوارع فى وسط المدينة، ويقسمه إلى نصفين، به المحلات الفاخرة وعدة بنوك وشركات السياحة. عند تقاطعه مع شارع طلعت حرب يقف تمثال "سليمان باشا" (العقيد الفرنسى فيرى) الذى قام بتحديث جيش "محمد على" فى ذلك الوقت على الطريقة الأوروبية. بعد ذلك قليلاً يقف تمثال برونزى "لمصطفى كامل" (أحد أبطال حركة التحرير الوطنية المصرية البارزين). يساعد هذان التمثالان الموجودان فى شارع قصر النيل على تمييز الطريق، لأنهما يكونان علامتين للاسترشاد بين العديد من الشوارع والأزقة الأخرى.

الفترينات مصممة بذوق رفيع وبسخاء. أدهشتنا وفرة الأحذية الرجالى والحريمى والمصنوعات الجلدية. ولكن... كيف نقاوم الدخول إلى المحلات ؟

الزحام شديد فى الشارع، أما داخل المحلات فلا يوجد إلا بضعة مشترين. قد يكون ذلك بسبب "القرف" أو بسبب الغلاء، على الأرجح للسببين معا. البائع متحفز "حضرتك عايز إيه؟". حذاء أسود على سبيل المثال. ها هو فى الفترينة. "حاضر" (مستعد سوف ينفذ طلبك). يجرى بسرعة صعودًا إلى المخزن وهبوطًا على السلم ومعه علبة. يدعوك للجلوس، يضع بنفسه قدمك على المداس ويخلع بنفسه الحذاء القديم من قدمك ويلبسك الجديد. "كويس؟" (جيد؟). نظرنا إليه وهززنا كتفينا. طبعًا جيد. وإذا قمنا بقياس زوج آخر. "مافيش مانع". أى لون تريد أن تقيس البنى أو البيج أو الأزرق أو الأبيض؟ صعد إلى أعلى مرة أخرى ونزل ومعه علبة. "تفضل". قد لا يعجب الإبزيم من أعلى؟ نغيره. لا تحب الرباط؟ يعرض أحذية دون رباط. جلد طبيعى أو بديل؟ يوجد كلا الاثنين. نفكر. البائع واقف وهو مستعد لعرض شىء آخر. يجلس صاحب المحل عند الخزينة ويعتنى بتقديم القهوة للضيوف ، الزبائن . من الواضح أنه

لن يتمكن من الخروج من المحل وأيديكم فارغة والثمن؟ ٣٠-٤٠ جنيهًا (نحو عشرة دولارات للزوج).

ترتفع الشمس لأعلى فيزداد الحر. توجد رغبة لشرب شيء... أي شيء. يتم هنا تجهيز عصير طبيعي أمامكم من البرتقال والجريب فروت والجزر والطماطم... كما أن المشروبات المثلجة (بيبسي، وكولا، وسيفن أب) تباع في الشوارع في صناديق مليئة بالثلج، وفي بارات صغيرة. هل تريدون الجلوس وشرب بيرة أو شيء آخر "يسخن"؟ يمكن أن تدخلوا إلى مطعم صغير، أو تجلسوا إلى مائدة في الشارع، وسوف يحضر إليكم النادل في جلباب أبيض وحزام أحمر، ثم ستسمعون للسؤال التحذيري نفسه: "حضرتك عايز إيه ؟".

دخلنا إلى "جروبي" في ميدان طلعت حرب، تقدم به حلويات فاخرة وقهوة رائعة، ويمكن أيضًا شرب الويسكي والجين طبعًا مخففين طبقًا لرغبتكم. ولكن لا أحد، حتى الأجانب يسمح لنفسه بذلك في منتصف النهار الحار (يشير الترمومتر في الساعة العاشرة صباحا إلى ٤٠ درجة مئوية). طلبنا "أيس كريم" من كريات مختلفة الألوان، لذيذ.

بينما تشرب وتستمتع بالأيس كريم يظهر فجأة ماسح الأحذية من تحت الأرض، لا يضايقك، ولكنه يدق على صندوق: هيا أصلحها لك. يخلع عنك الحذاء إذا أردت. يأخذه ويلمعه ثم يرجعه، ويعطيك خفا مؤقتا تلبسه بينما يعمل.

في المدينة القديمة

تبدأ المدينة القديمة فوراً بعد منطقة وسط البلد في الجنوب الشرقي، وهي تحتل نصف مساحة القاهرة تقريبًا. قدمت لنا نصيحة بألا نذهب إلى هناك عن طريق ميدان الأوبرا ولكن عن طرق آخر الكورنيش في اتجاه حلوان أمام بقايا مجرى العيون التي أنشأها فيما مضى عبيد الرومان.(*)

(*) مجرى العيون: قناة أنشئت في عهد صلاح الدين الأيوبي لتزويد القلعة بالمياه . (التحرير)

ذهبنا من هذا الطريق، شاهدنا فندق "سميرا ميس"، والسفارة الأمريكية ومكتبة "كنيدى" بسرعة على يسارنا، بينما مرت جزيرة الروضة على اليمين، وهاهى القنطرة الفرعية التى كانت تجرى فيها الماء قديماً إلى القاهرة. كانت المدينة القديمة قد بدأت بالفعل. الحوارى الضيقة، الأحياء المزدحمة، كثير من الأطفال، نساء تغطى مفاتنها تحت ملايات بيضاء أو سوداء (فى حالة الحداد)(*). على جانبى الطريق الكثير من الناس، وكذلك حمير وخيل تحمل الأحمال، وسيارات لانهاية لها تتجول. يقال إن كثيراً ما يرمى المعدمون، أو المشوهون أنفسهم تحت عجلاتها ليحصلوا فيما بعد من السائق على "بقشيش" ترضيةً، وقد يكون معاشاً مدى الحياة.

يصعد الطريق إلى أعلى قليلاً، على اليمين توجد "مدينة الموتى"، وهى عبارة عن مقابر بنيت فوقها منشآت "للأرواح". هنا كان وما زال يدفن المصريون الأغنياء، وقد بنيت فوق بعض المقابر جوامع صغيرة. توجد فى هذه المدينة شوارع خاصة تحمل أسماء مميزة، ومبانٍ صغيرة يعيش فيها من ليس له مسكن فى هذه المبانى. يمكن أن يختفى هنا المجرمون والخارجون على القانون وكثيراً ما يتم تبادل إطلاق النار فى "المدينة الميتة"، ولكن لا يتم ذكر ذلك سواء فى نشرات الشرطة، أو فى أخبار الحوادث، كما أنه لا أحد يعرف كم عدد سكانها.

بعد ذلك تظهر إحدى أشهر معالم المدينة "القلعة" على بعد على اليسار فى مكان مرتفع يعتبر "مكان إعلان أوامر الحاكم، وتنفيذ عمليات الإعدام". وقد تم بناء هذه القلعة فى عام ١١٧٦ فى عهد "صلاح الدين"، وقد بقى من الأسوار الخارجية لهذا البناء الجزء الجنوبى والجزء الغربى فقط.

تؤدى بوابتان إلى الساحة الرئيسية. يوجد جامع "النصر" على اليسار، أما فى الأمام فيقف جامع "محمد على"، أو جامع "الألبستر"، وقد صنعت جدران وأعمدة الجامع الفريدة من الألابستر المصرى. وقد أصبحت قببها الكبيرة، ومآذنها الرشيقة ترمز إلى القاهرة.

(*) استخدم النساء المصريات الملايات السوداء فى حالتى الفرح والحداد وكانت تسمى "الملاية اللف" لالتفافها حول جسد المرأة ، ولم تعرف الملايات البيضاء فى أوساط المجتمع المصرى . (التحرير)

يوجد إعلان عند مدخل القلعة يبين أن ثمن تذكرة دخول الزوار الأجانب هو ١٠ جنيهات، أما بالنسبة للمرافقين المصريين فهو خمسة جنيهات. ولكن في الحقيقة يستحق التاريخ أن نضحى فى سبيله. ها نحن نسير من الجانب الشمالى إلى الساحة المركزية المحاطة بالدهاليز المغطاة. توجد "فسقية" (أى نافورة) فى وسط الساحة مخصصة لعملية الوضوء. كما شيد ضريح "محمد على" فى داخل جامع "الألبستر" وهو محاط بحاجز مصنوع من البرونز.

شاهدنا الجامع ثم درنا حوله، ظهر لنا "بانوراما" للقاهرة من الساحة الموجودة عند الجدار الغربى. توجد فى الأسفل جوامع أخرى، على اليسار جامع "السلطان حسن" الذى تم بناؤه منذ ٦٢٥ عامًا، وعلى اليمين مسجد "الرفاعى"، وغير بعيد عنهما أقدم جامع فى المدينة جامع "ابن طولون". ويظهر جبل المقطم عن بعد ومنازل متجاورة تظهر من ورائها أهرام الجيزة شامخة باعتزاز، كما يوجد على يسار بوابة الدخول مسجد "النصر" الذى تم بناؤه فى عام ١٣١٨ .

تم بناء قصرين فى عهد "محمد على"، "الجوهرة" فى جنوب المسجد، وقصر الحريم عند الشمال. وقد تم افتتاح المتحف الحربى فى القصر الأخير فى نصف القرن الماضى على أرض القلعة....

أصبحت الشمس الآن عمودية فأصبحنا لا نرى ظلنا تقريبًا. الجو حار، ولكنه ليس خانقًا لأن الهواء جاف.

سرنا قليلاً، ثم انحرفنا إلى اليسار فى اتجاه جامعة "الأزهر" التى تعتبر أقدم وأكثر المراكز الدينية تأثيراً فى العالم الإسلامى. وقد تم بناؤها بعد سنة من دخول الفاطميين مصر وبمجرد تأسيس "جوهر الصقلى" للقاهرة فى عام ٩٧٠ . توجد خلف السور الحجرى ساحة مساحتها ٩٠٠ ياردة مربعة، وخمسة مآذن وساحة للصلاة بها ٣٧٥ عموداً. يمكن الدخول من إحدى البوابات الست بعد خلع الحذاء ، والتصوير هنا ممنوع تماماً.

فى خان الخليلى

أما فى خان الخليلى فيمكن التصوير قدر ما تريد، وهو عبارة عن سوق ضخم مسقف أسسه السلطان "الأشرف الخليل" منذ ٧٠٠ عام بالضبط. يقع السوق عبر الميدان أمام الأزهر. نوضح لمن لم يزر هذا المكان أنه عبارة عن سلسلة ممتدة من المحلات على مئات من الأمتار. يسهل الدخول إلى خان الخليلى، ويمكن أن تضل فيه بالسهولة نفسها، ولكن تقريبًا من غير الممكن الخروج منه دون مرافق. تتعب العينان بسرعة بسبب البضاعة التى تزغلل العينين بلا نهاية، وتبدأ رأسك فى الدوران من كل شىء.

لهذا المكان الفريد من نوعه فى المدينة ستة مداخل ونحو ١٢ سوقًا مستقلة متخصصة فى بيع بضائع معينة يجب معرفتها، كما يعرفون هنا تمامًا بلا خطأ أين توجد على سبيل المثال سوق "النحاسين"، أو سوق "الصاغة"، أو السوق التى يملكها تجار الذهب والفضة، وسوق "الجواهرجية"، وهى نفسها حارة اليهود التى يبيع فيها التجار اليهود المنتجات المصنوعة من الذهب، ومن المعادن النفيسة الأخرى، وسوق الخياطين حيث تجارة الأقمشة، وسوق السكرية، حيث توجد بضاعة متنوعة بلا حدود من الأدوات المنزلية ... إلخ.

الحياة فى خان الخليلى خاصة، فقد يكون هنا من يدرس احتياجات السوق من البضائع ويحدد حدود ثمنها، كما توجد قوانين أخرى غير مكتوبة لا يعرفها إلا هذا العالم. ولكن فى هذا المكان يوجه الاهتمام كله للمشترى، فيتم النداء عليك، وإذا أعجبك قميص تدعى لقياسه، وإذا أعجبك شىء يتم وزنه بالميجرام... أقصد ما يتم بيعه بالوزن (مثل الذهب).

توجد فى الفترينات سلاسل وأساور ومختلف الحلى اللامعة مرصوصة ومعلقة بعناية، ويجلس أصحاب المحلات فى تراخٍ خلف الحاجز يراقبون دون اهتمام المشترين الذين يمرون بين المحلات. قررنا دخول أحد هذه المحلات الصغيرة.

لبس صاحب المحل نظارته وفحصنا بعناية. سألناه "بكام ده"؟، ونحن نرفع أسورة. "دقيقة واحدة". أخذ المنتج الذى أعجبنا ووضعه على كفة ميزان، دفعت الأوزان مؤشر الميزان إلى الوسط، تناول عدسة لكى يتأكد من عدد الجرامات المبينة على التدريج. غالبًا هو يعرف مسبقًا الوزن الحقيقى لهذه الأسورة ، ولكن اتباع الطقوس المعتادة تمنحه متعة وفرصة لكى يقدر إمكانياتنا.

طبعًا لم يمنحنا الثمن الذى نطق به أى أمل للشراء، لم يتضايق صاحب المحل، ولكنه نصحنا بأخذ أسورة أخرى. مرة أخرى عملية وزن والتأكد من الثمن، ثم أول تخفيض "للأصدقاء"، ولكن ما زال الثمن مرتفعًا. عرض علينا قطعة أخرى أقل ثمنًا. "خذوا مثلاً سلسلة بدلاً من الأسورة: أحدث عمل من إيطاليا". وكان "آخر عمل" يفوق قدراتنا أيضًا. تناول سلسلة أرفع. "معلهش، لا يهم خذوا هذه بنصف ثمنها، فقط لكم" وهو يشيح بيده. هنا يتم الفصال لمدة طويلة وبإصرار...

الباعة الجائلون يعرضون بضاعة مقلدة للذهب والفضة، شكلها الخارجى يوحى بأنها جيدة الصنع، وأن ثمنها "معقول". حذرنا دليلنا بألا ننخدع فهم محترفون فى عملهم، فلا تدفعوا فى "حلق رائع من الفضة" حتى دولارًا واحدًا، فهو من الحلى الزائفة".

البعض يبيع والآخرون يصنعون، حيث يوجد فى مصر صناع ممتازون للنحاس والبرونز ونحت العظام، يعملون بجد ليلاً ونهارًا لكى يربحوا قدرًا قليلاً من المال يسد جوعهم. إنتاجهم مكدس فى المحلات ولكن أصحابها لا يخفضون الأسعار، وإذا خفضوها يكون ذلك إلى حد لا يتنازلون بعده أبدًا. هذا هو القانون السائد هنا بين التجار.

عند خروجنا من خان الخليلى انقض علينا بعض الصبية بنشاط خاص عارضين علينا "شراء أكواب بخمسة عشر قرشًا، لا يلزم ؟ فلتكن بعشرة ، لا يلزم ؟ تسعة... ثمانية... سبعة". لا يتوقفون، يجرى صبى آخر بجانبهم... ثم ثالث، هنا يشقون طريقهم بين الناس.

علـى طـول سـياج المآذن

تتجه مـآذن الجوامـع القاهرية إلى أعلى مثل الجنود الحارسة للقاهرة الإسـلامية، فتفتن من يشاهدها بجمال وعقيدة القيم الإسلامية. جاءت هذه الأفكار إلى رأس مؤلف هذه السطور بصفة خاصة عندما كنا نودع المدينة القديمة، فاستمتعنا بمشاهدة المنظر العام للقاهرة من منصة المشاهدة عند القلعة، ثم بعد ذلك زرنا أهـم المعالم الإسلامية فى العاصمة المصرية. أعطينا "ضريح محمد على" فى جامع "الألبستر" حقه ثم نزلنا من المرتفع المبنى عليه المسجد لكى نشاهد التحفة التى لا يمكن التفوق عليها، مسجد "السلطان حسن" (القرن الرابع عشر)، وكذلك المسجد الذى أمامه مسجد "الرفاعى" الذى استمر بناؤه لفترة طويلة انتهت فى القرن العشرين (وقد تم دفن أفراد العائلة الملكية التى أزيحت من الحكم فى عام ١٩٥٢، وكذلك آخر شاه لإيران "محمد رضا بلوى" الذى لجأ إلى مصر بعد قيام الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٩)، والجامع الأزهر (القرن العاشر) بمآذنه الزوجية المشهورة ، ثم جامع "ابن طولون" الذى يمثل أحد أكبر جامعين فى المدينة (تم بناؤه فى أعوام ٨٧٦-٨٧٩ بأسلوب كلاسيكى)، وكذلك مجموعة جوامع "قلاوون" و"الناظر" و"برقوق" (تحف شيدها فى القرون الوسطى ثلاثة من سلاطين المماليك)، و المسجد الأزرق (أقونقور) المغطى بالألواح الزرقاء ، وبوابة "باب زويلة" المبنية فى عام ١٩٠٢ ، حيث كانت جزءًا من حصن جدار القاهرة (كانت عمليات الإعدام العلنية تنفذ فى الساحة التى أمام هذه البوابة، كما كانت رءوس من تم إعدامهم تعلق على أسياخ لإرهاب الأحياء ، وكان الإعلان عن أسماء من تم إعدامه يُعلن من أعلى أبراج المآذن).

توجهنا إلى المدينة "الجديدة" لأننا لم نكن نستطيع الامتناع عن مقابلة العاملين فى المتحف الإسلامى الذى يضم إحدى أكبر مجموعة المقتنيات الفنية، والمعمارية والخزفية والمخطوطات من العالم الإسلامى كله، كما قمنا بتقديم احترامنا لذكرى أول رئيس لمصر "جمال عبد الناصر"، وزوجته التى دفنت بجانبه فى جامع تم بناؤه خصيصًا لهما بالقرب من منزلهما المتواضع الذى عاشا فيه فى القاهرة. يوجد حرس شرف على المسجد طوال الأربع والعشرين ساعة، وهو دائمًا مفتوح لاستقبال الزوار. وقفنا قليلاً

بجانب شاهد القبر المصنوع من المرمر، ثم عرض علينا خادم الجامع كتابة بضعة كلمات فى دفتر خاص، وقد قمنا بذلك بسرور. كتب مؤلف هذه السطور: "حتى لا تمحو القرون أبدًا ذكرى ابن شعب مصر العظيم "جمال عبد الناصر" الذى قدم جهدًا لا يمكن نسيانه لتنمية الصداقة والتعاون مع روسيا". كتبت ذلك بمنتهى الإخلاص، حيث إنى قضيت ست سنوات (١٩٦٥-١٩٧١) فى فترة حكم "جمال عبد الناصر" فى مصر، كما أنى حضرت دفنه.

عندما خرجنا من جامع "ناصر" إلى الشارع الملىء بالضجيج وصل إلينا النداء المألوف:"الله أكبر، الله أكبر". كان صوت المؤذن يدعو فى هذه المرة لصلاة الظهر. ينطلق هذا النداء كما بالأمس، وقبل الأمس، وكما يمكن أن يكون منطلقًا الآن بينما تقرأ هذه السطور.

فى المدينة الجديدة

بعد شوارع المدينة القديمة الضيقة والمتعرجة تترك شوارع مصر الجديدة (القاهرة الحديثة) أو هليوبوليس (مدينة الشمس) عند مشاهدتها انطباعًا لا يمحى بشوارعها الواسعة وعمارتها الغنية. كانت مدينة هليوبوليس القديمة التى بناها اليونانيون توجد هنا فى يوم ما، ولكن لم يتبق منها شىء. تقع هليوبوليس الجديدة على بعد عشرة كيلومترات تقريبًا من وسط المدينة، ففى بداية القرن العشرين حضر إلى هنا المليونير البلجيكى "أمبان" فى عام ١٩٠٥، وبدأ فى عمليات بناء نشطة غير عادية. وبعد عدة سنوات ظهرت أحياء أوروبية الطراز فى الصحراء التى لم تكن بها طرق ممهدة من قبل، وروعى فيها التوافق مع ما يحيطها، حيث كانت تراعى الدمج بين الطراز المصرى القديم والطراز الإسلامى.

نظر إلينا دليلنا متسائلاً: "ماذا تريدون أن تشاهدوا؟ قصر رئاسة الجمهورية بالقبة؟ أو محل إقامة ناصر؟ أو الساحة التى قتل فيها "السادات"؟ أو متحف حرب ١٩٧٣؟

أو "قصر الموتى"؟ أو مضمار سباق الخيل؟ أو أكبر إستاد فى إفريقيا؟" بالطبع كنا نرغب فى رؤية كل شىء بقدر ما يسمح لنا الوقت (كذلك فى الحر الشديد...)

طبعًا يترك قصر القبة انطباعًا مؤثرًا على من يزوره. وقد أطلق عليه هذا الاسم نظرًا لوقوعه فى مدينة القبة الصغيرة التى بنى على أطرافها القصر فى عهد الخديو إسماعيل فى عام ١٨٦٣، وقد حضر هنا المؤلف استقبال "ناصر" الضيوف الكبار من الاتحاد السوفيتى. مبنى القصر به نحو ٤٠٠ حجرة ، وتصل مساحته إلى نحو ٧٠ هكتار، أما حديقة القصر الخاصة فتمتد على ١٢٥ فدانًا. كانت حفلات الاستقبال تقام فى هذه الحديقة. وكان يدعى إلى هنا مئات من الضيوف. وكان كل شىء يوجد على الموائد ما عدا لبن العصفور. صدرت إشارة من مكان ما فظهر جيش من الجرسونات فى ملابس بيضاء يرفعون الصوانى فوق رءوسهم وساروا بين الموائد يستبدلون بالأطباق غيرها. أكل الضيوف أولاً، ثم استمعوا إلى خطبة عن الصداقة، وفى النهاية استمتعوا بالموسيقى وبالرقص الشرقى، كما كان يحدث أيام السلاطين وأيام الملوك والحكام الآخرين. وقد استغرقنا ٢٠ دقيقة للسير حول السور المحيط بالقصر.

زرنا أيضًا الساحة التى قتل فيها "السادات" فى عام ١٩٨١ وما زالت آثار الطلقات موجودة على كتلة الخرسانة التى وضعت أمام المنصة، كأن بناتها كانوا يعرفون أنها ستفيد... ولكنها لم تساعد.

فى وقت ما كنا ندين "السادات" لأنه "باع نفسه لكل من أمريكا وإسرائيل"، ولكننا لم نسمع هنا أن المصريين كانوا ينتقدونه بهذه الطريقة، فهم يقولون: إن "السادات" قد أعاد سيناء لمصر دون سفك الدماء ، وإنه قام "بالانفتاح" الذى جلب الاستثمارات الأجنبية إلى ضفاف النيل ، و"ملأ الأسواق". ويمكن – من النظر إلى المكان الذى قتل فيه "السادات"، وكيف تمت المحافظة عليه كأنه متحف – الاستدلال على أن المصريين يتعاملون مع تاريخهم باحترام.

عند أندريه في مواجهة الأهرام

كانت الشمس تتجه نحو الغروب، ونحن لم نتناول غذاءنا بعد. أين يمكن أن نذهب للغذاء ؟ لا يطرح في القاهرة مثل هذا السؤال، ففي كل مكان تعرض الأطعمة. ماذا تريدون أكله ؟

استمعنا إلى المرافق. إذا كنتم تحبون المطبخ الصيني هيا بنا إلى وسط المدينة، إلى شارع طلعت حرب، حساء زعانف أسماك القرش، ولحم مكشوط، وفودكا مصنوعة من الأرز... كما توجد كافيتيريا يونانية غير بعيدة عن هنا، يقدم بها النبيذ اليوناني الشهير "ريتسينا" وكابوريا وجمبرى وإستاكوزا مسلوقة أو مقلية مع النبيذ. وفي جزيرة الروضة يمكن أكل حمام مشوى والاستمتاع بالنيل. أما عند "أندريه" بالقرب من الأهرام فهم متخصصون في وجبات الدجاج... فلنذهب إلى أندريه ؟ وإلى الأهرام.

"بيراميدز رود" أو "شارع الهرم" عبارة عن طريق يؤدى إلى أهرام الجيزة، الجيزة جزء من القاهرة له إدارته ومحافظته. مرة أخرى نسير عبر وسط المدينة، ثم ننحرف إلى اليمين إلى "أندريه". هذا هو اسم المطعم الذى يبعد عدة مئات من الأمتار عن الأهرام العظيمة. توجد على الأرض إنشاءات من فروع النخيل التي تم تقليمها، وبجانبها تجد كل ما يلزم للمطعم: عشة الدجاج، والأفران المختلفة. يصنعون هنا أكثر من مائة صنف من الدجاج الطازج اللذيذ. جلسنا في إحدى الحجرات جدرانها عبارة عن نباتات متسلقة، موائد خشبية عادية، وبدلاً من السقف توجد تكعيبة عنب بها أعشاش عصافير. الموسيقى عربية لبعض الوقت ثم أوروبية، وبالطبع لا يمكن تذوق كل الأصناف التي تقدم. يحضرون أولاً بعض الأطباق مشكلة من الكبد والقوانص، ثم لحم في صلصة، ثم لحم مشوى على الفحم، ثم أطباق متعددة أخرى، ثم يقدم النبيذ الأحمر، ويمكن تقديم النبيذ الأبيض بالطلب. النبيذ بارد ولذيذ، إنتاج محلي. ويمكن اختيار العصائر، والفواكه، وكل أنواع الخضروات حسب الطلب.

تنزل الشمس ببطء إلى الأفق، وهي تضيء مربعات الأرض المزروعة الخضراء وتتجه نحو الصحراء القريبة تماماً، وبعد ذلك بقليل تظهر الأهرام الضخمة الصامتة...

وهى تقع على بعد ١٣ كيلومتراً من ميدان الأوبرا فى جنوب غرب القاهرة. أهرام الجيزة هى الأعلى.

الهرم الذى فى أقصى اليسار هرم "خوفو" (الفرعون الثانى فى الأسرة الرابعة) الذى بناه فى عام ٢٦٩٠ قبل الميلاد بارتفاع ١٤٦ متراً، وقد أصبح ارتفاعه الآن ١٣٧ متراً. فى بداية الأمر كانت جوانبه مغطاة بالحجر الجيرى الأبيض، ولكن الزمن أزال هذه الطبقة السطحية. الهرم الأوسط هرم "خفرع" الذى تم بناؤه فى عام ٢٦٥٠ قبل الميلاد. وقد شيد على مرتفع لذلك يبدو أكبر على الرغم من أن ارتفاعه ١٣٦ متراً. وعلى بعد قليل يوجد الهرم الثالث الضخم، هرم "منقرع" الذى بنى فى عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد. وتوجد مقابر حول الأهرام لأقارب الملك والنبلاء المقربين. يمكن الصعود على هرم "خوفو" فقط (يستغرق ذلك نحو ٢٠ دقيقة بمساعدة دليل) أما تسلق الأهرام الأخرى فهو خطر جدا.

فى الماضى لم يكن يمنع الاقتراب من الأهرام، فقد كان يحضر إلى هنا الكثيرون فى المساء، وكانوا يسمحون لأنفسهم بالكثير. كانوا يتسلقون الأهرام لأعلى لمشاهدة منظر القاهرة. كما كانوا يصيحون عند هرم "خفرع": "تحية لك يا عجوز"، وكان يرد عليهم بصدى الصوت "تحية" (ولسبب ما لم يكن يرتد صدى الصوت من الأهرام الأخرى). كما كانت تقطع أجزاء صغيرة من حجارة الأهرام "للذكرى"، كما كانت تحدث حوادث سرقة السائحين.

أما الآن فلا يمكن الاقتراب من الأهرام بحرية. إذا اقتربت ادفع عشرة جنيهات عن السيارة والمبلغ نفسه عن كل راكب، وإذا كنت تريد الاقتراب أكثر فعليك أيضاً أن تدفع. وقد تمت إزالة كل ما يمكن إزالته من مبانى اللهو من حول الأهرام، ولكن يوجد هناك الكثير من الترجمانات وجمالهم وخيلهم (كل ذلك مخصص لسحب النقود من السائحين). فى الماضى كان هنا ملهى ليلى اسمه "صحارى سيتى" خلف الأهرام. كانت راقصات شابات ترقص هناك طوال الليل، وكنا نرقص معهن... ولكن كل ذلك بقى ذكريات.

انتهى النهار، وأضيئت الأنوار على البعد عند الأهرام، وظهرت العمالقة الحجرية الصفراء فى الظلام أضخم وأكثر جمالاً.

صيام المسلم فى رمضان

يحتفل الناس فى القاهرة بشهر رمضان ويتبعون كل التعاليم والعادات المتعلقة به تمامًا، وقد حضرنا هذا الشهر. يحتفل الناس بأول ليلة فى هذا الشهر احتفالاً كبيرًا ويأكلون طعامًا كثيرًا، ثم تستمر الاحتفالات وفيها فقرات تقدمها راقصات، ومهرجون وموسيقى ورقصات. أضواء وضجيج ودموع وضحكات "طوال الليل وحتى الفجر".

ما الذى يمثله على أية حال شهر رمضان الإسلامى؟ هو شهر صيام يجب أن يتبعه كل مسلم طبقًا لما جاء فى القرآن فى شهر رمضان طبقًا للتقويم القمرى، فيحظر فى النهار على الصائم الأكل والشرب أو ملامسة النساء طوال الشهر منذ شروق الشمس إلى غروبها. كما يحظر عليه أيضًا التدخين أو تناول الأدوية أو الحقن. وكذلك ذكر الكلمات البذيئة والكذب والقيام بأعمال خادعة أو قول السوء أو التشهير بالآخرين أو النظر بشهوة إلى كل ما حوله...

فى الحقيقة يتحول اليوم بالنسبة لكل مسلم إلى نهار، والنهار إلى ليل. وعندما يصبح من غير الممكن التفرقة بين الخيط الأبيض والخيط الأسود(*) تدوى فى القاهرة طلقة مدفع، وتهدأ المدينة الضخمة فجأة، فالكل يأكل ويشرب، كل فى مكانه. الشرطى فى مركز الشرطة، والمجرم فى السجن، والغنى بين أسرته، والفقير فى مكان ما. لا تضىء إشارات المرور فى الشوارع، وتقفل كل المحلات والمكاتب.

جلست ونظرت إلى كل ذلك فى شارع الهرم فى مقهى. ها هو رجل يجلس أمامى، أشار بيده فجاء إليه النادل صائحًا "أيوه". ثم اندفع إلى المائدة وبيده صينية عليها زجاجة مياه معدنية، وأطباق السلاطة، ومأكولات باردة فى صحون مختلفة، وقطعة لحم يتصاعد منها الدخان مغطاة بغطاء مستدير حتى لا يبرد أى شىء، بالإضافة إلى أطعمة محلية. يشرب أولاً الماء، ثم يقطع قطعة من الخبز ويغمسها فى طبق الطحينة (عبارة عن خليط من زيت طعام به جوز صلب). ثم يتولى أمر المأكولات الباردة

(*) إمكانية التفرقة بين "الخيط الأبيض والخيط الأسود" كناية عن بزوغ الفجر إيذانًا ببدء الصوم ، وليس لذلك ارتباط بموعد الإفطار عند غروب الشمس ، وقد ورد ذلك فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ (البقرة ١٨٧) . (التحرير)

واللحم والسلطات، يأكل على مهل ولا ينظر إلى أحد. فرغ من كل شيء ثم رفع يده، في اللحظة نفسها يظهر صوت من مكان ما يقول: "أيوه". ويظهر النادل قرب المائدة كما لو كانت الأرض انشقت عنه. يقول الزبون بكلمات سريعة: "والله، هات كمان..." ويطلب حلويات وفواكه، بعد نصف ساعة يطلب قهوة، ثم يطلب إحضار شيشة ويدخنها باستمتاع وفخر وهو يشد أنفاسها بعمق.

بعد ساعتين أو ثلاث تبدأ المدينة في الحركة، الكل يصدر ضجيجًا، يصيح، يومض، يغني، يصرخ ، يمرح. الجميع في الشارع، المحلات مفتوحة، يستمتع الناس على قدر ما يمكنهم. يحين وقت الصلاة في منتصف الليل، ويليها "الغداء" (كانت المرة السابقة تمثل الإفطار). ثم يستمر الناس مستيقظين حتى موعد الصلاة التالية، وقبل أن يتميز الخيط الأبيض من الأسود، أي قبل طلوع الشمس يجب أن يتمكنوا من الأكل مرة أخرى. وبهذا ينتهي ما يمكن وصفه بأنه اليوم "الليلي" الرمضاني.

يجب على الإنسان أن ينام، ثم يذهب إلى عمله الذي يبدأ متأخرًا ساعة في يوم الصيام. في أول أسبوعين يكون ذلك سهلاً، أما في نهاية الشهر فأنا أعتقد أنه يصبح صعبًا بعض الشيء. بعض سكان القاهرة يفقدون من سبعة إلى تسعة كيلوجرامات من وزنهم، وبعضهم يمرض، ولكن الجميع يتحملون ذلك.

يختلف اتباع قواعد الصيام في القاهرة عن كل العواصم الإسلامية الأخرى التي قمت بزيارتها ، فهي ليست صارمة بهذه الدرجة. قد يكون ذلك لوجود مسيحيين، وممثلي ديانات أخرى بها ، ولكني لم أر أحدًا ينتقد علنًا عدم اتباع أي من قواعد الصيام في رمضان، أو أنه تمت محاكمة أحد بسبب ذلك طبقًا للشريعة، فالقاهرة مليئة بالسائحين بجانب المصريين وكذلك الأجانب الذين حضروا إليها .

طبعًا يشعر الأوروبيون بضيق ما في أيام رمضان خاصة في أثناء النهار (حيث إنهم يجب ألاّ يظهروا بشكل واضح عدم احترامهم للعادات المحلية، فعليهم الامتناع عن التدخين وشرب الماء...إلخ). ويكون القيام بالأعمال أبطأ بالطبع، ولكن بشكل عام يمكن تحمل ذلك عندما يهل هلال رمضان في الخريف، أو في الشتاء، ويكون ذلك أصعب قليلاً عندما يكون رمضان في الصيف.الصيام هو الصيام، فهو عندنا نحن المسيحيين مماثل لذلك تقريبًا ، كما عند المسلمين.

هذه الحياة الليلية الدنيوية

نزل الليل على المدينة، ولكنها ما زالت حية ومائجة. بحر من الأضواء، آلاف من السيارات فى الشوارع، كتل بشرية تتجول خاصة فى وسط البلد، المحال تعمل حتى العاشرة تقريبًا فى وسط البلد، ثم تقفل بعد ذلك كما لو كانت تصدر لها أوامر. من تكون محفظته غير خالية يسعى إلى اللهو، وإلى الراحة. أية راحة فى القاهرة؟

هز دليلنا كتفيه، فكل يتصرف "تبعًا لجيبه". توجد ملاهٍ ليلية فاخرة تعمل بها فرق استعراضية أوروبية خاصة فى الفنادق من الدرجة الممتازة مثل "الهيلتون" و"سميراميس" و"كونتيننتال" وعدد من الملاهى الليلية الجيدة بشارع الهرم، كما توجد مطاعم أرخص تقدم فيها الموسيقى العربية، والراقصات العربيات. يمكن أيضًا الاستجمام على السفينة "سندباد"، المطعم العائم فى النيل التى تقدم عروضًا استعراضية. كما يمكن الصعود إلى أعلى، إلى جبل المقطم، حيث يمكن الاستمتاع على ارتفاع ٨٢٠ مترًا بالليل القاهرى، واستنشاق الهواء النقى، وكذلك تجربة الحظ فى "كازينو". كما يمكن قضاء الوقت فى القلعة، فى "بيت الفن"، ومشاهدة الفنون الشعبية...

على أية حال، أغوانا المقطم قبل أى شىء آخر، سرنا قليلاً عبر المدينة القديمة صعدنا بسيارتنا طريقا معرجًا، فى الأعلى يوجد موقف للسيارات وبعض الكازينوهات والمطاعم وشرفة للمشاهدة. يمكن هنا رؤية القاهرة فى المساء من على ارتفاع مماثل لما تطير عليه الطيور. على اليسار تظهر المعادى بجانب النيل، وهى حى يفضل الأوروبيين العيش فيه. وها هى المدينة القديمة ووراءها تومض أضواء الشوارع الرئيسية، وتمتد منها سلسلة لامعة إلى الأهرام. هذا هو شارع الهرم.

ظهرت لنا على ما يبدو قوى جديدة مع برودة الجو بعد سخونته فى النهار، فدخلنا إلى "الكازينو الكبير- المقطم" طبعًا. دخلنا وكأننا وصلنا إلى "موناكو"، فالزوار يلبسون البدل "السموكنج" الرسمية، ومظهر البوابين صارم. سأل أحدهم يلبس زى خدمة خاص: "من هؤلاء؟". " صحفيون من روسيا". "مرحبًا بكم". ولان العامل قليلاً، "حضر إلى هنا من قبل صحفيون روس، بل إنهم حتى لعبوا، أتذكر السيد كونستانتين..."

(فكرنا، هل هذا ممكن؟ لقد مضى ربع قرن، وما زالوا هنا يتذكرون زميلنا "فيشنيفتسكى" الذى "افتخر" فى يوم ما بخسارته فى الكازينوهات). أجبنا:"إننا لا ننوى اللعب". أحس بنا العامل فقال:"روس، مافيش فلوس". أشحنا بأيدينا: "ما، هو نعم، هو نعم".

سألنا فجأة دليلنا:"هل سمعتم عن سهير زكى؟" كيف لم نسمع! إنها راقصة مصرية شهيرة "هل ما زالت ترقص؟". "نعم فى الأريزونا".

ذهبنا إلى "الأريزونا" فى شارع الهرم. "الأريزونا" أحد أقدم الملاهى الليلية فى القاهرة، صالة واسعة جدا، بار، حلبة للرقص وخشبة مسرح. كل هذا مستعد لملاطفة الزبائن حتى الصباح. اشترينا تذاكر دخول، وجلسنا بالقرب من خشبة المسرح. يعزف هنا موسيقيون رحالة حتى العاشرة مساءً، ومن العاشرة مساءً حتى بعد منتصف الليل تقدم هنا عروض موسيقية وفرق أوروبية. كان يُنتظر حضور سهير زكى فى هذا المساء بعد ثلاث ليالٍ رقصت فيها جميلات من راقصات الباليه الثانويات حتى السادسة صباحًا. من الخصائص المميزة للأريزونا أنك يمكن بشرائك لتذكرة الدخول أن تطلب مرطبات بلا حدود، أما إذا طلبت أيًا من الأطباق الساخنة فسوف تقوم بدفع ثمنه بعد خصم ثمن تذكرة الدخول من سعره، أى إنه يمكن أن تجلس حتى الثالثة صباحًا مع زجاجة بيرة أو بيبسى إذا طبعًا تمكنت من ذلك، وعادة يكون هذا غير ممكن.

عزف الموسيقيون بلا توقف وبصورة جيدة للغاية، ولكننا لم نسمع أيًا من موسيقانا فى برنامج "ألحان العالم". نبهنا النادل إلى ذلك، وقد همس الأخير للعازفين بكلمات ما فإذا بموسيقى معروفة لنا تدوى: "العيون السوداء"، و"سرنا بالترويكا ذات الجلاجل". لا يمكن أن تقول شيئًا، الخدمة...

كان عرض الفرقة الفرنسية رائعًا تمامًا، فقد كانت عروضه مليئة بأشياء مزدوجة المعانى، كان به "ستربتيز" وأشياء أخرى جعلت الحياة تدب فى الصالة.

بدأ بعد ذلك البرنامج العربى. غنى أولاً المطرب "عماد عبد الحليم" ذو الشعبية الكبيرة فى القاهرة بمصاحبة فرقة "الحرية"، ثم رقصت النجمة البدوية "دينا" وراقصة شابة "نافى صبرى"، وقد رقصت بعدهم "هيام" رقصًا شرقيا (رقص البطن). ثم تلا

ذلك استراحة موسيقية صغيرة. كان الحاضرون منهمكون مع الفرقة، ثم جرت إلى خشبة المسرح "سهير زكي" في ملابس خفيفة يصاحبها التصفيق. تقدم عروضها في المسارح القاهرية منذ الستينيات، ولكن رقصها الشرقي صارم ومرن جدا! أمضت على خشبة المسرح أكثر من ساعة ونصف، ثم بدأ التقاط الصور لها عند موائد الزبائن، وتلقت الهدايا والنقود، وعندما خرجت أُلقيت الزهور خلفها.

انتهى العرض، والآن أصبح الزبائن محط الاهتمام. بمجرد أن بدأ الرقص اقتربت من مائدتنا شابة مصرية جميلة قائلة: "مستر، هيا نرقص؟". "فلنرقص، لماذا لا؟"."وهل ستطلب شمبانيا ؟ كأس واحدة فقط". أقنعتنا، كانت ترقص بدهاء وببراعة، وعلى الأرجح لا يمكن إضافة شيء إلى ذلك. عند عودتنا إلى مائدتنا لقينا هناك النادل ومعه كأس الشمبانيا:"هذا لك يا آنسة". "شكراً" قالتها المصرية. وبمجرد ابتعاد النادل ألقت بمحتويات الكأس بصراحة على الزهور قائلة:"النقود لصاحب المحل، والماء للزهور". ابتسمت وقالت مرة أخرى:"شكراً"، ثم انصرفت. كم كان عدد من رقصن من مثيلات هذه الفتاة ؟ لم نتمكن من إحصائهن، لقد أحضروا لكل منهن "شمبانيا"، وقد وقعت كل منهن عقداً يلزم كلاً منهن أن تجلب ربحاً للمحل بأن "تستخرج" من كل زبون يحضر إلى "الأريزونا" مبلغاً محدداً. هذه، أيضاً، "خطة"...

اقتربت منا فتاة أخرى، بينما كنا نتفهم "اختيار" الشمبانيا. "اسمي زيزي، هل أنا أعجبكم؟". "جميلة". "وهكذا؟". واستدارت بظهرها لنا. "كويسة والله". "ممكن أجلس معكم". ابتسمنا: "الاختيار" رقم ٢ . وهناك عند البار كانت قد بدأت عملية استخلاص نشط للدولارات من "خواجات" (أجانب).

تركنا "الأريزونا" عندما بدأت السماء كالحة السواد في اكتساب اللون الأزرق قليلاً، خرجنا كلنا مع بعضنا البعض، مع الزبائن الذين جلسوا بجوارنا. البعض كان سعيداً بالليلة التي قضاها، أما الآخرون فقد تعبوا منها. سمعنا من المئذنة المجاورة النداء المألوف: "الله أكبر". بدأت الصلاة وكذلك بدأ يوم آخر.

لم ننم في هذا اليوم، أما القاهرة فهي لم تنم منذ أكثر من ألف عام.

الباب الثامن عشر

الإسكندرية التى فى ذاكرتى

الإسكندرية هى اللؤلؤة المصرية على البحر الأبيض المتوسط، وهى تحمل اسمها تخليداً للفاتح العظيم "الإسكندر المقدونى" الذى أسس المدينة فى عام ٣٣١ قبل الميلاد، وقد حفظ المصريون اسم الفاتح لعدة قرون دون أن يغيروا اسم المدينة ولو مرة واحدة إلى اسم آخر. ولكن لم يتبق أى أثر لمؤسس مدينة الإسكندرية نفسه سواء فى الآثار أو فى أسماء الشوارع أو الأحياء. وعلى ما يبدو تم دفن الإمبراطور نفسه فى الإسكندرية. ولكن أين؟ ومتى وكيف تمت بعد ذلك إعادة دفنه؟ لم يتمكن المؤرخون من تحديد ذلك.

كما لم يترك أيضًا أى من الإسكندريين الذين جاءوا بعد المقدونى الجبار أية آثار ملموسة. حكم هذه الأماكن "بطليموس الأول" أحد القادة الذين تلقوا هذه المدينة هديةً من الإمبراطور واثنتا عشرة أسرة من نسله لأكثر من ثلاثة قرون. وكانت آخر هؤلاء الحكام "كليوباترا" الشهيرة، وقد أخذوا معهم أسرارهم عند موتهم، فأسماء البطالسة بما فيها اسم "كليوباترا" لم تظهر بأية صورة فى الإسكندرية، حتى إنه لا أحد يعرف إلى أين يذهب لتقديم تحية رمزية لهم. حقيقة لقد وجد فى بداية التسعينيات الغواصون المحليون فى قاع ميناء الصيادين أمام منتصف الكورنيش تمامًا بقايا قصر يعتقد أنه قصر "كليوباترا"، ولكن كان هذا افتراضًا، وبقى حتى الآن الاجتهاد من أجل "إعادة هذا القصر إلى الحياة" حتى يمكن العثور على شىء فيه يخص الملكة الجميلة...

بالطبع، هذه حكاية أو مقدمة لتاريخ المدينة التى عاشت كل الأحداث التى مرت على مفترقات الطرق فى البحر الأبيض المتوسط منذ إنشائها.

عند ملتقى الأزمنة

تم الاستيلاء على مدينة الإسكندرية ثلاث مرات على مدى التاريخ : فى عام ٣٠ قبل الميلاد استولى عليها الرومان، وفى عام ٦٤٣ ميلادية دخلها العرب، ثم فى عام ١٥١٧ الأتراك.

أصبحت الإسكندرية فى عهد "بطليموس الأول" (فى الأعوام ٣٢٣-٢٨٥ قبل الميلاد) بمكتبتها العظيمة ومتحفها وسيرابيومها مركزًا للحضارة الهيلينية، فقد عاش هنا أحسن علماء ذلك العصر، حيث قاموا بأعمالهم.

وعلى الرغم من الحروب الداخلية التى نشبت بين البطالسة فقد استمرت الإسكندرية مركزًا للفن والعلم اليونانى، بالإضافة إلى كونها ميناءً تجاريا.

منذ بداية العهد الجديد تقريبًا تم تقسيم الإسكندرية إلى خمسة أقاليم كبيرة، كان أهمها المقر الملكى فى وسط المدينة. كان به المسرح والمكتبة والأكاديمية والمبانى العامة الأخرى، وكانت الأحياء التى يعيش فيها المصريون غير بعيدة عن وسط المدينة فى جنوب الميناء، وبالقرب منها الجبانة - المقابر - والحدائق، أما الأحياء اليهودية فكانت تقع فى الجزء الشرقى من المدينة، وبعدها فى اتجاه الشرق خارج حدود المدينة كان مضمار لسباق الخيل ومسرح.

يفترض أنه فى فترة حكم "كليوباترا" كان يعيش فى الإسكندرية ٥٠٠٠٠ نسمة من اليونانيين والمصريين واليهود. أما عن أهمية الأكاديمية السكندرية العلمية فى ذلك الوقت فيكفى أن نحكم على ذلك بقدر ما إذا عرفنا أن الأباطرة كانوا يهتمون بزيارتها، وكانوا يشاركون حتى فى المناقشات، وقد قرر الإمبراطور "كراكولا" فى إحدى المرات وهو فى حالة غضب أن ينتقم من سكان الإسكندرية بإغلاق الأكاديمية.

أصبحت الإسكندرية بسرعة مركزًا للمسيحية بعد ظهورها. ويعتقد أن المسيحية قد دخلت إلى مصر عن طريق الإسكندرية، فقد كان المسيحيون يطاردون هنا بقسوة فى القرنين الثانى والثالث، ولكن على الرغم من القمع استمرت الإسكندرية فى كونها حصنًا للمسيحية، ثم أصبحت المسيحية ديانة الدولة فى فترة حكم "فيودوسى الأول"

وبدأت مطاردة عبدة الأصنام، وفى هذه الفترة بالذات قام المسيحيون بهدم الكثير من معابد عبدة الأصنام والآثار والتماثيل القديمة.

وقد احتل أسقف الإسكندرية المكانة الشرفية الثانية بعد أسقف روما، فقد امتد سلطانه القضائى إلى ليبيا ومصر وبنتابوليس، وضم أكثر من ١٠ أسقفيات.

ترتبط الأهمية الخاصة للبطريركية السكندرية من ناحية بنشاط مدرسة تعليم أصول الدين، وبالتقاليد اللاهوتية التى نمت على أساسها (كليمانت، وأوريجان، والقديسان أفاناسيا وكيريلس السكندريان)، ومن ناحية أخرى مازالت تعمل فى وادى النطرون بين الإسكندرية والقاهرة أربعة أديرة للرجال منذ ظهور الرهبنة ونموها فى الصحراء المصرية فى القرن الرابع وحتى اليوم ، وبكل منها ٢٠٠ كاهنٍ، ويحيط بالأديرة جدار حجرى، ولا يمكن دخولها ببساطة.

حدث التقسيم الكبير للبطريركية السكندرية بعد اجتماع "هالكيدون" (عام ٤٥١) الذى استنكر الكنية الواحدة. وقد تبع غالبية المسيحيون ما وضعه البطريرك "ديوسكور" ونشأت الكنيسة القبطية . وقد وصل عدد الأوفياء للأرثوذكسية للإمبراطور البيزنطى قبل بداية القرن السابع إلى نحو ٢٠٠-٣٠٠ ألف يونانى بينما كان أتباع الكنية الواحدة الأقباط نحو ١٨ مليونًا، ولم يصب النجاح محاولات الأرثوذكس للتصالح.

أصبح ارتباط الأرثوذكس اليونانيين ببيزنطة سببًا إضافيا للمشاكل بعد فتح العرب لمصر (عام ٦٤٢)؛ فقد بقى كرسى البطريركية شاغراً لفترة طويلة. وقد اضطر البطاركة السكندريون إلى الهروب أكثر من مرة للنجاة بحياتهم والعيش فى قسطنطينية فى فترة الوجود اللاتينى فى مصر (القرن الثانى عشر)، وكذلك بعد فتح الأتراك لها فى عام ١٥١٧ .

تحسن وضع الأرثوذكس فقط فى عهد حكم "محمد على" (أعوام ١٨٠٦-١٨٤٨) الذى أقر الحرية الدينية، وقد سمح للبطريرك "يوروفى الثانى" بشغل كرسيه، ولكن لم يتعد عدد أعضاء الكنيسة السكندرية ألفين حتى ذلك الوقت.

و قـد زاد هـذا الرقـم جدا نتيجة لهجرة اليونانيين، وكذلك الأرثوذكس العرب فى بداية القرن العشرين، حيث وصل قبل بداية عام ١٩٣٠ إلى ١٥٠ ألف، وعند بداية عام ١٩٩٧ كان يعيش فى مصر ٣ آلاف من اليونانيين الأرثوذكس و١٥ ألف من العرب (بعد عام ١٩٥٥ هاجر الكثير من الأرثوذكس من ذوى الأصول العربية إلى لبنان، أما اليونانيون فقد هاجروا إلى الغرب).

تحتل السلطة القضائية للبطريركية اليونانية الأرثوذكسية السكندرية (١٤ أسقفية) المكانة الثانية بعد كنيسة القسطنطينية، وتضم كل الأرثوذكس على الأرض الإفريقية، وغالبيتهم من اليونانيين، وكذلك من العرب.

ويصل عدد رعايا الكنيسة السكندرية إلى نحو ٢٠٠-٣٥٠ ألف فرد. فى أثناء إقامة المؤلف فى مصر (١٩٦٥-١٩٧١) كان ممثل البطريركية الروسية فى الإسكندرية وفى كل إفريقيا الأب "أناتولى" (المعروف فى العالم باسم: "وزنوفتسكى أناتولى سيرافيموفيتش"). وقد كانت كل "الجالية الأرثوذكسية" الروسية تتجمع فى الكنيسة الروسية فى أثناء قيامه بأداء خدمة أيام الأحد.

و بعد وفاة البطريرك "بارفنيا الثالث" فى يولية عام ١٩٩٦ تم فى فبراير ١٩٩٧ انتخاب المطران "بيتر" (البابا بترو) للكرسى السكندرى باشتراك العلمانيين والمؤمنين.

ولد البطريرك "بيتر السابع" فى أسرة يونانية فى قبرص، ودرس اللاهوت فى "أثينا"، والتبشير فى "دبلن"، وقد أمضى فترة خدمته كاهنًا فى كل من القاهرة وجوهانسبرج، وكان أسقفا فى الكاميرون وعزل لفترة مؤقتة فى وسط إفريقيا (كنيا، وأوغندا، وتنزانيا).

اتخذ البطريرك الجديد، الأصغر فى السن بين الأساقفة - بالاشتراك مع المجمع الكنائسى - العديد من الإجراءات الخاصة بإعادة تنظيم قيادة الكنيسة، واستبدال الكراسى الأسقفية بسرعة بعد انتخابه. وظهر عند العرب الأرثوذكس أسقفهم الخاص، فقد تم إدخال عربى هو الأرشيمندريت "جيورجى عزار"فى رتبة أسقف هليوبوليس، وقد كان قبل ذلك يرأس أرشيف البطريركية الخاص بشئون الجاليات العربية.

وقد وافق البطريرك الجديد على مشاركة كنيسته فى المجلس العالمى للكنائس، ومجلس الكنائس الإفريقية، وكذلك فى المناقشات الدينية مع ممثلى المذاهب المسيحية والأديان الأخرى.

تحرص الكنيسة السكندرية على المحافظة على تقاليد اللاهوت العلمى، وعلى الاستمرار فيها. وفى عام ١٩٥٢ احتفلت بالعيد الألفى للمكتبة البطريركية التى تحفظ بها مخطوطات ثمينة وكتب نادرة، وصدر قرار بإعادة نشاط "معهد الدراسات الشرقية" فى المكتبة، وكذلك بإصدار جريدة "أنالكتا" (يرجع لجريدة "روسكايا ميسل" أى الفكر الروسى، باريس، رقم ١٩،٤١٧٥-٦-١٩٩٧).

كانت الإسكندرية مركزًا للتجارة وللحضارة على البحر الأبيض المتوسط على مدى نحو ١٠٠٠ سنة، ولكن بعد أن نقل العرب عاصمة دولتهم إلى مدينة القاهرة، بدأت الإسكندرية تتقهقر تدريجيا، وأصبحت على مدى ألف ومائتى السنة التالية عبارة عن مدينة عادية.

وقد تمت استعادة أهمية الإسكندرية فى تطوير البلد فى أثناء حكم "محمد على"، وأصبح ميناء الإسكندرية مركزًا مهمًا للتجارة البحرية. فإذا كان تعداد سكان المدينة فى عام ١٨٠٥هو ٧٠٠٠ نسمة فقط، فقد نما إلى ١٠٠ ألف نسمة فى عام ١٨٤٩ ، أما فى مائة وخمسين العام التالية فقد زاد بأكثر من ٥٠ ضعف، وفى عام ١٩٩٧ وصل إلى ٥ ملايين نسمة.

معالم المدينة

بقيت فى الإسكندرية آثار تلك الفترة التى كانت فيها مركزًا للحياة الروحية اليونانية الرومانية أقل مما حفظ فى أية مدينة أخرى لعبت فى الماضى دورًا مماثلاً لدورها، ومن الصعب تصور الشكل العام الذى كانت عليه المدينة فى العصر اليونانى أو الرومانى بناءً على الآثار المعمارية السليمة ، على الرغم من أن العالم القديم "سترابون" قد ضمن كتابه "جغرافية" وصفًا دقيقًا للإسكندرية فى آخر عشر سنوات قبل الميلاد.

وتعتبر المعالم الرئيسية للإسكندرية وهى تقترب من خط نهاية القرن العشرين هى:

عمود السوارى (بومبى): عبارة عن عمود صنع من الجرانيت الأسوانى، وهو يعتبر أقدم الآثار المتبقية من عصر البطالسة وأحسنها حالة، ويقف فى جنوب غربى المدينة على تل بين أطلال قديمة غير بعيدة عن الجبانة العربية، ويعتقد أن "السيرابيوم" العظيم الذى بنى لتمجيد "سيرابيا" (يعتبر الإله الرئيسى للبطالسة) كان يوجد فى هذا المكان بالذات. وقد مر على "السيرابيوم" فلاسفة وعلماء وفنانون وشعراء ومتصوفون من العالم كله، وقد نقل إلى هنا نحو نصف البرديات التى تبقت بعد حريق "مكتبة الإسكندرية" العظيمة، وبعد ذلك أقيمت هنا "المكتبة البرجمكية" التى أهداها "أنطونيو" "لكليوباترا" مقابل قبلة واحدة منها، وقد تم القضاء على هذا "المخزن للحكمة" فى أثناء حكم الإمبراطور "فيودوس". وكان المسيحيون هم المسئولون عن ذلك، فقد استولوا على السيرابيوم تحت قيادة البطريرك "فيوميل"، وأتلفوا الوثائق الثمينة باعتبار ذلك نوعًا من "الكراهية" لبقايا الوثنية.

لقد تبقى فقط عمود "بومبى" من المبنيين اللذين ضما مكتبة الإسكندرية، ويقف فى وسط "السيرابيوم"، حيث حوفظ عليه رمزًا للخلود وللمعرفة القديمة بالإسكندرية. يبلغ ارتفاع العمود ٢٧ مترًا، وقطر قاعدته ٢,٧ من المتر. وفى الجزء العلوى عند تاج العمود نحو ٢ مترين.

توجد نقوش باللغة اليونانية على الجانب الغربى للعمود، وطبقًا لما ورد فيها فقد تم تشييد هذا العمود بمعرفة الحاكم المصرى "بومبى" (تحكى قصة أخرى أنه بوبلى) لتخليد الإمبراطور "ديوكليبيان".

طبقًا للأسطورة فقد اشتعلت ثورة فى الإسكندرية فى عام ٢٩٧ وتمكن "ديوكليبيان" من الاستيلاء على الإسكندرية بعد حصارها لمدة تسعة أشهر. حدثت مجاعة خطيرة فى المدينة ووزع الإمبراطور على السكان خبزًا، وقد تم تشييد هذا العمود تعبيرًا عن شكرهم له على كرمه.

وقد تمت تسمية العمود باسمه الحالى فى القرون الوسطى، حيث يعتقد أنه كان يوجد على قمته إناء يضم رفات "بومبى".

فاروس : لم يتبق أى شىء من منارة "فاروس" العظيمة المقامة فى الجزء الشرقى من جزيرة "فاروس"، وطبقًا لما كتبه" سترابون" وصل ارتفاع المنارة إلى ١٥٠ مترًا. لقد تم بناؤها فى عهد "بطليموس الثانى" فى عام ٢٨٠ قبل الميلاد، واعتبرت إحدى عجائب الدنيا السبع.

كان المصريون يعادون الغرباء، وكانوا سعداء بأن صخور ومضاحل سواحل شمال إفريقيا تمنعهم من القيام بعمليات الإنزال، ولكن "بنى اليونانيون الذين استقروا فى مصر المنارة، وأشعلوا فيها النيران". وتقول إحدى الروايات العربية إنه قد تم تركيب مرآة صنعها صينى ماهر فى قمة المنارة، وأنها كانت تعكس صورة "كل السفن المارة فى البحر الأبيض المتوسط". ويفترض بعض العلماء وجود تليسكوب فى منارة الإسكندرية، أما الكتابات القديمة فأنها تبين أن تكبير صور الأشياء بواسطة مجموعة من المرايا كان معروفًا حتى قبل اكتشاف "جاليليو" ذلك.

وقد هدم زلزال قوى المنارة تمامًا فى عام ١٣٧٥ ، وبنيت فى القرن الخامس عشر فى هذا المكان "قلعة قايتباى" التى يسمح حتى الآن بزيارتها، حيث إنها شيقة جدا. لقد تم توصيل جزيرة "فاروس" بالأرض بجسر طوله ١٣٠٠ كم، وقد تم توسيع هذا الجسر سبع مرات ، وحاليًا يوجد هنا حى كامل من أحياء المدينة وكذلك "متحف الأحياء المائية".

متحف الأحياء المائية: يعتبر متحف الأحياء المائية أحد معالم الإسكندرية التى تكثر زيارتها، فتوجد هنا أنواع كثيرة من أسماك البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، وكذلك من أسماك نهر النيل، كما توجد سلاحف ضخمة فى أحواض مفتوحة خلف المبنى الرئيسى، ويوجد هيكل عظمى طوله ١٧ مترًا لحوت عثر عليه فى عام ١٩٣٦ عند شاطئ فرع النيل برشيد. ويظهر من جانب المتحف منظر رائع للإسكندرية، ومن هنا يتم التقاط أجمل الصورالفوتوغرافية.

جبانة "كوم الشقافة": تقع هذه الجبانة على بعد ١٥ دقيقة من عمود السوارى سيرًا على الأقدام، وتعتبر من أهم مدافن الإسكندرية التى بقيت من الأزمنة القديمة، وقد تم اكتشافها بالصدفة فى عام ١٩٠٠ فى أثناء العمل فى محجر. تتكون الجبانة من ثلاثة طوابق، وقد تم إنشاؤها غالبًا فى نهاية القرن الثانى أو الثالث بعد الميلاد، ثم توسعت بعد ذلك تدريجيا. وتمثل هذه الجبانة تراكبًا مدهشًا لعناصر ثلاثة أساليب تميز المعمار بالإسكندرية: المصرى واليونانى والرومانى، ويعتقد أن القسم السفلى كان مخصصًا لعبادة الإله "أبيس".

المتحف اليونانى الرومانى: أنشئ المتحف اليونانى الرومانى فى عام ١٨٩١، وهو يضم بصفة أساسية معروضات تمثل الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن الثالث بعده، وقد عثر على هذه المعروضات فى الإسكندرية، أو فى ضواحيها.

قصر رأس التين: يقع بالقرب من الميناء الغربى، حيث كان يعتبر المسكن الملكى الصيفى، ومنه غادر مصر آخر ملوكها فى عام ١٩٥٢ ، أما الآن فهو مفتوح للزيارة (ماعدا فى الأوقات التى ينزل فيه أحد الضيوف الرسميين). فى عهد الملك "فاروق" كانت كل غرفه الثلاثمائة تقريبًا مخصصة لحاشيته، ويوجد فى قاعة الاستقبال الكثير من الثريات الضخمة، ويتميز الجزء الداخلى من القصر بالثراء بصفة خاصة أكثر من تميزه بالفن وبالذوق الرفيع.

قصر المنتزه: يوجد مقر صيفى آخر للملك "فاروق" فى الطرف الشرقى للإسكندرية تحول حاليًا إلى مقر "لمبارك".

توجد هنا حديقة وزهور وأكشاك صغيرة كثيرة جميلة جدا، ويظهر منظر جميل جدا للبحر من شرفة القصر، وتصل الحديقة إلى خليج يوجد به أحد أحسن بلاجات الإسكندرية التى تم بناؤها بتميز. لا يتميز أثاث غرف القصر ذى الطوابق الثلاثة بأية زخارف لها أهمية كبيرة فنية أو تاريخية، وتعرض هنا الأشياء الخاصة بأسرة الملك "فاروق" وآخر الملوك لكى يشاهدها الجمهور.

ميناء الإسكندرية: لا يوجد كثير من الموانى يمكنها أن تفخر بالميزات المتوفرة لميناء الإسكندرية، والمتمثلة فى سهولة دخولها و"حمايتها" واتساع مساحتها وسهولة اتصالها بباقى أنحاء البلد، وكذلك بمناخ رائع متجانس، بالإضافة إلى موقعها الجغرافى عند مكان تلاقى ثلاث قارات.

كان الميناء مركزًا تجاريا مهما فى عهد البطالسة، فقد كان يصدر منه الأقمشة الرقيقة، وورق البردى، ومنتجات الصناعة المحلية والحبوب. كانت الإسكندرية أهم المراكز الاقتصادية فى مصر ومركزًا تجاريا يتم فيه تبادل البضائع بين الشرق والغرب، وكان لإعلان "القاهرة" عاصمة للدولة أثر سلبى على تنمية الميناء. وقد بدأت الإسكندرية تنمو مرة أخرى بسرعة فى القرن التاسع عشر فقط، ففتحت الميناء للتجارة الخارجية، وفى عام ١٨٣٠بنيت حواجز للأمواج، وقد بنى "مجل بك" أرصفة جافة. وإذا كان إجمالى حمولات السفن التى رست فى الميناء فى خلال عام ١٨٣٢لم يتعد ١٤٠ ألف طن فقد وصل هذا الرقم إلى مليونى طن بعد توسيع الميناء فى عام ١٨٨٠ ، وقد تم اتخاذ عدة إجراءات لتحسين الميناء ونظام الجمارك، كما تم بناء أرصفة لاستقبال شحنات الفحم، وكذلك تم بناء حاجزٍ للأمواج.

وقد أصبح ميناء الإسكندرية بوضعه الحالى يحتل المكانة الثالثة فى العالم من حيث إجمالى حمولات السفن التجارية، والمركز الأول من حيث اتساع سطح المياه الهادئة، كما أنه يعتبر أهم مركزٍ تجارىٍ فى مصر، ففى كل عام تدخله سفن مختلفة الجنسيات يصل عددها إلى ٦ آلاف سفينة، تحمل بضائع تمثل ٧٠٪ من حجم الاستيراد والتصدير فى البلد.

وماذا أيضًا ؟ أولاً هذا الكورنيش الرائع للمدينة الممتد بطول ٣٠ كيلومترًا والملىء بالشواطئ والتماثيل والميادين، والأبنية المستديرة ذات القباب، والفيلات الجميلة جدا. وهذا الكورنيش المكان المفضل لتجول السكندريين وكل زوار المدينة.

ومن المثير زيارة المقابر الكاثوليكية الحديثة التى تزخر بالشواهد التذكارية الجميلة، والتى يعتبر الكثير منها أعمالاً فنية مميزة.

كما يستحق المتحف الذى تعرض فيه اللوحات والتماثيل الحديثة الزيارة، وهذا المتحف يقع فى وسط المدينة تقريبًا بالقرب من الإستاد، كما تعتبر حديقة الحيوانات والحديقة الكبيرة الملحقة بها مكانًا رائعًا للاستجمام.

ماذا أحببنا فى الستينيات ؟

لو تحدثنا بصراحة فإن صورة الإسكندرية التى بقيت فى ذاكرتى لا تمثل عمود "السوارى"، ولا الأنقاض الملقاة فى مكان ما بقاع البحر من أجزاء قصر "كليوباترا"، ولا منارة "فاروس"، ولكن صورة مدينة الاستجمام والترفيه، كما كانت عليه هذه المدينة التى تقع على البحر الأبيض المتوسط فى سنوات الستينيات التى عشتها فى مصر. كان الصيف فيها يمثل جنة للسائحين، وهى التى تحول فيها "الضباط البيض" الذين هربوا من روسيا مع البارون "فرانجل" (أحد جنرالات الجيش الأبيض فى أثناء الحرب الأهلية التى أعقبت ثورة أكتوبر فى روسيا) إلى جرسونات فى المطاعم.

بالطبع كانت توجد أيضًا أماكن أخرى مثل مطعم "مكسيم" فى المعمورة ومطعم "نصار" على الكورنيش، ولكنها كانت تقع فى مستوى على "مقياس الأفضليات".

كنا نذهب إلى ذلك المطعم فى "أبوقير" التى تبعد ٣٠ كم عن المعمورة التى كنا عادة نستحم فى بحرها ونستلقى تحت شمسها. كنا نطلب هناك أولاً قنافذ البحر وأسماك "سلطانة" مقلية، تلك الأسماك الحمراء اللذيذة مثل صديقاتنا فى ذلك الوقت. لماذا كنا نذهب إلى هناك؟... لأننا كنا نستطيع أن "نطلق لروحنا العنان" هناك عند المهاجر الروسى "سيرجى إيفانوفيتش" ذى البشرة السمراء من فعل الشمس والرأس الشائبة. كان يقطع القنافذ البحرية إلى نصفين ويضيف عصير الليمون إلى مادة حمراء عجينية الشكل يقال إنها كافيار بداخل القشرة، مرددًا دائمًا: "كلوا هذه يا سادة وسوف تقدركم النساء فى يوم ما كرجال". كانت نساؤنا يقهقهن عند سماعهن ذلك، وكنا نطلب دستة قنافذ أخرى تليها أخرى حتى تمدحنا نساؤنا أكثر من أى وقت آخر.

كان الضابط السابق بالجيش الأبيض يمسح على ذقنه مبتسمًا، ثم يجلس بجانبنا وينظر إلينا نحن الشباب الذين لفحتهم الشمس نحن بلدياته، أمام سطح الماء الهادئ، حيث أغرق الأميرال "نيلسون" أسطول نابليون فى نهاية القرن "الثامن عشر". أما الشرطة الروسية فقد طاردت بحارة المدمرة المتمردة "بوتمكين" فى بداية القرن العشرين.

لم يسمح "سيرجى إيفانوفيتش" لنفسه أن يخبط على كتفنا، ولكنه كان يردد غالبًا لنفسه كثيرًا: "نعم، الزمن اختلف، ليس نفسه". لم يعد أبدًا إلى روسيا، حيث إنه كان يخاف من ألا يغفر له أحد قتله لفرسان الجيش الأحمر فى السابق، كما أنه لم يتزوج، وعاش فى بنسيون فى مكان ما. كان معه جواز سفر ممنوح من الأمم المتحدة، به فى خانة الجنسية خط (كانت الأمم المتحدة تخاف تمامًا من أن يتم خلطه مع الروس الحقيقيين) وهذا لم يمنحه الأمل فى الحصول على معاش فى مصر، ولكن منحه الفرصة لكى يعمل. كان ينظر إلينا قائلاً: "يا إلهى! الحمد لله أن البلاشفة حافظوا على الدولة الروسية، كم كنا نخاف أن ينهار كل شىء، كم خفنا ذلك". وكان كثيرًا ما تلمع فى عينيه الدموع.

عندما رأى أننا قد شبعنا من أكل القنافذ، ولكننا لم نبدأ بعد فى تناول المشروبات القوية عرض علينا اختيار السمك الذى كان يسبح فى حوض. كان يوجد هناك كل ما يخطر على البال من أسماك، من أسماك القرش الصغيرة الرمادية اللون إلى الأسماك السوداء عريضة الجبين، بالإضافة إلى أنواع أخرى كبيرة وصغيرة من سكان البحر. كنا نفضل نوعًا من السمك الأحمر صغير الحجم يسميه العرب "سلطان". كان "سيرجى إيفانوفيتش" دائمًا ما يعرض علينا أن نجربه، كان العقيد المتقاعد يقول مازحًا: "إنها حمراء اللون ولكن لا يسيل منها الدم الأحمر".

إذا أردنا أن نأكل السمك مقليا كان يتم اصطياد أسماك "سلطان" وتوزن ويتم إلقاؤها فورًا فى مقلاة معدة مسبقًا، أو كان يتم سلقها إذا رغبنا فى حساء السمك، وكان يسبق ذلك ظهور السلطة الخضراء وكل فاتحات الشهية التى يمكن تصورها

والبيرة أو مشروب أقوى على المائدة، وكنا نجلس هنا لفترة زمنية ما ننسى فيها كل شيء على خلفية من الموجات اللازوردية المتلاحقة فى اتجاه الشاطئ.

كانت جالية المهاجرين الروس قد أصابها الهرم، وتناقصت بوضوح قبل قضائى فترة فى مصر (١٩٦٥-١٩٧١). ولكن كثير من المسنين "خفاف الحركة" كانوا لا يزالون نشطاء ويغالبون سنوات عمرهم ويرضون نقاط ضعفهم المعتادة. وقد زرت ما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت "البيت الروسى" الذى كان على من يدخله أن يدفع عند بابه جنيهًا مصريا واحدًا (كان ثمن زوج جيد من الأحذية فى ذلك الوقت جنيهًا واحدًا)، وكان يمكن فى مقابل ذلك تناول الغذاء الذى كان يتضمن حساء "البورش" الروسى والفودكا فى مطعم البيت الروسى، أو الاطلاع فى المكتبة على كتب ألفها المهاجرون الروس. كان من ضمنها كتاب مكون من أربعة أجزاء يحظى بأكبر شعبية ألفه جنرال الجيش الأبيض "ب.ن.كراسنوف" ويحمل اسم" من صقر مزدوج الرأس إلى العلم الأحمر". كان هذا الكتاب يتناول (طبعًا بأسلوب أدبى) الأحداث الروسية فى أعوام ١٩١٤-١٩١٩ . كانت الرواية تحتذى بمؤلف تولستوى "الحرب والسلام" وكانت تقرأ بشغف.

لم نكن نتعامل تقريبًا مع "الروس الذين ليسوا منا" فى خلال النهار، ولكن كنا فى المساء نذهب إلى هناك، إلى المكان نفسه الذى يذهبون إليه، إلى ملهى "مونسنيور" الذى نحبه. كانت تعزف هناك فرقة من الروس ومن أولادهم، بقيادة شخص اسمه "نيكولاى أوبولينسكى"، وقد كان "عازف كمان عزيز" كما كان يطلق عليه الزبائن الدائمون. كان يقدم عزف الفرقة الروسية بالتبادل مع عرض للموسيقى العربية التى كان يصاحبها دائمًا "رقص البطن"، ورقص آخر (وليس فقط رقص) مع الراقصات. كان كل ذلك يتم بتكلفة بسيطة و"بشجن" وبحرية. وكان الروس المسنون و"الروس البلاشفة" يتقابلون هناك كثيرًا لكى يطلقوا العنان لروحهم على الطريقة الروسية، ولكن دون مشاكل ودون الحاجة لتدخل الشرطة...

وقد حاز هذا الملهى الليلى "الروسى" على شهرة معينة، ففى إحدى المرات طلب منى زميلى العربى فى المكتب "لانسن": "أناتولى، أنا أعمل معكم منذ مدة طويلة. وأعرفكم جيداً، أرنى من فضلك بلدياتك الذين تطلقون عليهم اسم البيض".

وقد ذهبنا أنا و"لانسن" إلى "مونسنيور"، وهو عبارة عن قاعة متوسطة الحجم بها ثلاثة صفوف من الموائد مرصوصة بدقة، ومنصة فى الوسط مخصصة للفرقة، أمامها مساحة للراغبين فى الرقص. كانت الفرقة تبدأ فى العزف من السابعة مساءً عندما كان الزبائن يبدأون فى الحضور. كان العشاء ينتهى قرب العاشرة، وكان الرواد ينتظرون بشغف العرض المثير. كانت تبدأ العرض راقصات مصريات شابات وجميلات وكن يغمزن بأعينهن للرواد الروس. فى ذلك الوقت كان يمكن مشاهدتهن فقط ولكن لا يمكن التعرض لهن، ثم بعد ساعتين أو ثلاث كنَّ هن أنفسهن يتعرضن لكم...

كان الجميع يختلط من رواد وفنانين بعد انتهاء العرض، وكان يمكن الجلوس فى البار مع الراقصات المصاحبات للراقصة الأولى وطلب الأغنية أو الرقصة المفضلة من الفرقة أو أى شيء آخر.

"أى شيء آخر" فى "مونسنيور" هو عزف على الكمان "لنيكولاى أوبولنسكى" للموسيقى الروسية التى تستخرج إن آجلاً أو لاحقًا (على أية حال إلى السادسة صباحًا) من جيوبنا آخر جنيهات مصرية، وقد يتم إرسال أى من الفتيات الموجودات معك إلى "حجرة" فى مكان ما.

وقد عزف فى تلك الليلة "نيكولاى" التانجو الأرجنتينى من فيلم "والدتى المسكينة، الحبيبة" بإحساس عميق. كان البعض يصفق والبعض يبكى، وألقى الجميع نقوداً للعازف (على الرغم من أنه كان يتقاضى فى كل مرة جنيهًا واحداً) طالبين منه إعادة عزفها طالما أن القاعة مليئة على وجه الخصوص ببلدياتنا "الروس السابقين" (بالإضافة طبعًا إلى رواد آخرين من الأوروبيين ومن العرب). صاح أحد الحاضرين: "يا مسكينة يا أمى الحبيبة روسيا".

بدأت المجموعة التى كانت تجلس على المائدة المجاورة لنا، والتى كانت تصاحب الموسيقى بالغناء، فى الصياح: "هيا اعزف يا ضابط الخيالة"، وفى تلك اللحظة قام رجل بشوارب واقترب بخطوات متأرجحة من عازف الكمان، وأعطاه رزمة من الجنيهات الورقية، ثم وضع يده على قلبه قائلاً: "نيكولاى، لآخر مرة أطلب مصاحبة خيالتنا"...

نظر نيكولاى إلى مكان ما فى الجانب، على الأرجح إلى صاحب المحل، حصل على موافقة وبدأ كل شىء...

كانت افتتاحية عازف الكمان جميلة اللحن، لم يكن يستعجل الدخول فى الموضوع الرئيسى، ولكن هنا دوى صوت البداية، وبدأت فتاتان شابتان جالستان على مائدة فى إلقاء الكلمات التى تحمل معنيين لأغنية ضباط الخيالة المنسية بصوت أجش:

كيف حدث لى أنا

أنى أعطيت أنا

لصديقى الوسيم...

تبع ذلك وقفة صغيرة، ولولت خلالها الكمان بطريقة غير طبيعية ثم واصلت البكاء، وملأت الفراغ، وقام اثنان من رفاق الفتاتين أكملا الكوبليه بصوت عميق:

...قسم الوفاء

انفجرت القاعة بالتصفيق وبالصراخ.

سألنى "لانسن" مندهشًا: "لماذا يصرخون بينما الفتاة طبقًا لكلمات الأغنية منحت صديقها قسم الوفاء، هذا جاد". أجبته: "بالطبع يا لانسن هذا جاد، ولكن الكلمات تحمل معنيين يفهمهما الروس فقط". سأل مرة أخرى:"أى ازدواج فى المعنى؟" أجبته بطريقة أكثر شعبية:"ليس الوفاء وحده الذى يمكن منحه، ولكن يمكن أن تمنح الصديق نفسها، وهذا ازدواج للمعانى فى اللغة الروسية، يا لانسن العزيز. استمع إلى البقية فقد تفهم".

فى هذا الوقت نفسه أكمل الفرسان الغناء منفردين، خاصة ذو الشوارب الذى قدم النقود للعازف:

أما الآن فهو ليس نفسه

لم يعد يقف

فى السروال الأزرق...

وقفة مرة أخرى. ثم نواح الكمان ومرة أخرى هياج فى الصالة. وهنا تستكمل الفتاتان الكوبليه الصغير:

...الخادم عند الباب.

ومرة أخرى يتساءل "لانسن": "ما الذى لا يستحق؟" كيف يمكن أن أجيبه؟ قلت: "لا يستحق الخادم ذو السروال الأزرق". طرف "لانسن" بعينيه وهو لا يفهم، فقلت له: "يا لانسن ازدواج المعنى يتعلق بالسروال".

هنا فهم "لانسن" ومسح العرق من على جبهته، أحس بالحرج ولكنه أصبح الآن يوجه أسئلة أقل. وكانت فى ذلك الوقت المجموعة التى تحت تأثير الخمر تكمل الأغنية بمصاحبة أنين الكمان:

كيف حدث أنه

كيف كسرنى هو

تحت نافذة الغير...

شجيرة ليلاك

أما الآن، فهو لم يعد

لم يعد يقف

فى السروال الأزرق...

الخادم عند الباب.

قام الجمهور المتحمس من على الموائد، واقترب من الفرقة، وأكمل الجميع معًا:

كيف حدث أنه

أدخل لى

فى ضفيرتى السوداء...

شريطا قرمزيًا.

كانت عدة سيدات يغنين الكوبليه الآن، وكان يصاحبهم بضعة رجال غير فائقين تمامًا بصوت عميق:

أما الآن، فهو لم يعد

لم يعد يقف

فى السروال الأزرق...

الخادم عند الباب.

عاصفة من التصفيق، اندفع أحدهم يقبل عازف الكمان، وصاح شخص ما: "جارسون، شمبانيا!". مسح نو الشوارب دموعه وهو يتمتم: "كانت هذه أيام مختلفة!".

أشارت فجأة السيدة التى كانت الأكثر حماسًا، وهى تغنى بيدها طالبة من الجميع الجلوس إلى موائدهم. جلسوا مستكينين، أما هى فقد صعدت إلى خشبة المسرح فى ردائها الأسود، وشعرها الأشقر الشائب مسدل على كتفيها، وبدأت - بصوت وضح عليه تأثير التدخين - تلقى قصيدة شعرية للشاعر الروسى "س.ى.نادسون" الذى كان مشهورًا فى هذه الفترة:

ماذا يمكن أن نفعل،إذا كان قد خدعنا

هذا الحلم، مثل أى حلم آخر

إذا كانت الحياة ضربتنا بلا رحمة

بحبل كرباجٍ غليظٍ

لا تعيرنا هذه الحياة المتعجلة اهتماماً

والقدر على حق فى أنه كذب علينا

على أى حال كنت فى زمن ما سعيدة

ألم أكن معك؟

وانخرطت فى البكاء. اندفع نو الشوارب إليها من مكانه وناولها فى يدها كأسًا من الشمبانيا. "كنت يا عزيزتى، كنت سعيدة". قبلها ثم ألقى للقاعة: "باى باى يا سادة، إلى اللقاء!". ثم بالفرنسية: "أوريفوار". ثم توجه إلى النادل: "جارسون، اطلب لى يا صديقى حوذيا! بسرعة!".

اندفع النادل العربى إلى المدخل حيث كان يعرف مسبقًا أن الحناطير كانت تنتظر زبائنها.

صفقت القاعة لهذين الشخصين، انصرفا فى نحو الرابعة صباحًا، بدأ الجمهور فى التفرق، توجهت أنا و"لانسن" أيضًا إلى باب الخروج، سألته فى الشارع: "هل قارنتنا بما كان فى الماضى؟" نظر إلى "لانسن" بجدية: "طبعًا قارنت، على الرغم من أن..." وتوقف قليلاً ثم أكمل: "ولكن صحيح، يقال إنه من الصعب فهم روسيا بالعقل، أيهما كنتم... سواء حمر أو بيض". أجبته: "هذا صحيح". وامتنعنا عن أية تعليقات إضافية. علمت فقط فى عام ١٩٩٦ بوفاة صديقى الطبيب الخجول "لانسن"، وقد ظل حتى نهاية حياته أخلص صديق لنا.

كان روس "الموجة القديمة" يحظون باحترام كبير من المصريين بسبب روحهم المفتوحة، و كما جرت العادة أن يقال الآن بسبب عقليتهم الفريدة. تناقص عددهم، وقد تقدموا فى السن وناضلوا من أجل الحياة، واعتنوا ببعضهم البعض. كانت الكونتيسه "بليتسكايا" تعتنى بأضعفهم فى بيت للمسنين، ولكنها هى نفسها توفت عن ٨٠ سنة، واحدة من الأخيرين.

ترك هؤلاء الروس الحياة، وقد حاولوا أن يهدوا أى شيء لروسيا وهم يودعونها. قدموا لها الهدايا، فقد أحضروا إلى القنصلية العامة بالإسكندرية كتبًا ومشغولات ذهبية وغير ذهبية وحتى لوحات فنية وحيوانات حية. أذكر أننى حضرت إلى القنصلية العامة فلم أجد أيًا من العاملين فيها فى مكانه. سألت رئيس الوردية: "أين الجميع؟". أجابنى: "يستمعون إلى الببغاء، اذهب إلى القبو، وسوف ترى". ذهبت إلى الطابق رقم صفر.

كان المنظر لا يوصف، حيث كان يجلس ببغاء كبير فى قفص ضخم، ويطلق شتائم روسية سوقية بحيث إنه جمع الجميع من حوله. تبين أنه بالأمس قام رئيس نوتية روسى عجوز بزيارة القنصلية العامة وعلى كتفه ببغاء. قال للقنصل: "أنا أموت... خذ من فضلك صديقى... فإنه سوف يضيع من دونى". فصرخ الببغاء: "سوف أضيع، أكيد".

أخذوا الطائر وصنعوا له قفصًا. ثم كتبوا خطابًا لحديقة الحيوان فى موسكو. فى البداية كان الببغاء هادئًا، فقد كان ينتظر صاحبه طوال الوقت. بالطبع كانت تتم العناية به، وقال أحدهم معلقًا: "حذار، لقد ترك هدية، ماذا سنفعل بها؟".

عندما سمع الببغاء كلمة "حذار" زاد نشاطه وبدأ يعدو فى القفص. ثم بدأ كل شيء...

وجه الببغاء الشتائم للجميع ولكل شيء، تمامًا كما لو كان على سطح سفينة، حيث كان الطاقم يقوم بتنظيف شامل. كانت الشتائم الروسية عند الببغاء منتقاة، بحيث إنها أدهشت كل الحاضرين، وكان ذلك يؤدى إلى إثارة الطائر، فكان يوجه شتائم أكثر تهذيبًا، واستمر ذلك طوال اليوم. ماذا كان يجب أن يتم عمله معه؟ تمت تغطية القفص ببطانية فهدأ. قال أحدهم: "لا يجوز أن يختنق". فى الصباح رفع البطانية من عطفوا عليه. استيقظ الببغاء ونظر بهدوء إلى الحاضرين، وطبعًا لم يستطع أحدهم أن يمنع نفسه من أن يصرخ: "حذار!". فبدأ مرة أخرى مثل الأمس. ثم مثل قبل الأمس... وبعد ثلاثة أشهر من الشتائم المستمرة أرسل الببغاء إلى حديقة حيوان موسكو، ثم إلى إحدى حدائق الأقاليم. ولكنى لا أعرف كيف انتهى هذا الأمر، وما زال الحديث عن رئيس النوتية الذى أهدى روسيا ببغاء، ما زال حتى الآن يتداول من جيل إلى آخر بين جاليتنا بمصر.

لقد ترك لنا بلدياتنا الذين هرموا فى مصر بالإضافة إلى الببغاء كل اشتياقهم للوطن، لقد تركوا أشياء أكثر جدية، فقد توجه إلىَّ فى إحدى المرات أحد "الروس البيض"، كما كان يطلق على نفسه، غير المعروفين، وأهدانى مؤلفه عن القوزاق مكتوباً بخط صغير فى أربع كراسات سميكة (بإجمالى ١٧٦٠ صفحة مكتوبة). بالطبع كانت دهشتى بلا حدود، أما هو فقد هز كتفيه وقدم نفسه: "بيتر إيفانوفيتش بيتشينيف"، وقد حضر إلى مصر على السفينة المستشفى الإنجليزية "بارون بك" فى يناير عام ١٩٢٠ . كان عنوان الرواية "الشوريون القوزاق فى المصانع والشركات (أعوام ١٨٩٥-١٩٢٠)، وقد كتبت استناداً على العديد من المستندات والمشاهدات الشخصية، وقد استهلكت فعليا كل حياة المؤلف فى المهجر. سقط فى يدى وصمت... أرسلنا روايته إلى موسكو، ولكن لم أسمع أى شىء عنها بعد ذلك.

كان يوجد الكثير من أمثال "ب.ن.بيتشينيف" فى مجتمع المهاجرين. لقد استسلموا فى صمت لقدرهم، وحملوا صليبهم فى صمت وهم يحاولون أن يوصلوا ما عرفوه عن روسيا لأحد، آملين فى أن روسيا سوف تتذكرهم فى يوم. أتذكر بالخير أيضًا آخر قنصلٍ عامٍّ لروسيا فى الإسكندرية "سميرنوف ألكسى أللكسندروفيتش" (خريج جامعة بيتربورج، عمل فى القسم الآسيوى لوزارة الخارجية من عام ١٨٨١ إلى ١٨٨٥، ثم فى القنصلية الروسية بالقسطنطينية منذ عام ١٩٠٥، ثم ممثلاً دبلوماسيا وقنصلاً عاما لروسيا فى مصر من أغسطس عام ١٩١٩ إلى فبراير ١٩٢٤- ثم وزيراً مفوضًا وسفيراً فوق العادة ، ولم يعترف حتى وفاته بالحكومة السوفيتية)، فقد حافظ (حتى وفاته فى عام ١٩٢٦) على مصالح مواطنى روسيا الذين وجدوا أنفسهم مثله فى المهجر، كما أنه حافظ للأحفاد على مبنى القنصلية العامة الكائنة بشارع رشيد رقم ٦٨ .

كانت القنصلية العامة فى التسعينيات فى الإسكندرية تحتل نحو خمسة هكتارات، وما زالت فخراً لنا، وقد بنى حولها سور من الطوب طوله كيلومتراً واحداً، وسمكه نصف متر، وارتفاعه أكثر من ثلاثة أمتار. ويعتبر مبنى هذه القنصلية العامة

أثرًا معماريا من القرن التاسع عشر، تحفظ به مجموعة فريدة من اللوحات الفنية، كما يوجد فى حديقة القنصلية مائة نوع من النباتات الفريدة التى يمكن أن نفخر بها وأن نستمتع بها.

ذهب الروس الذين أطلقنا عليهم "البيض" وجاء آخرون سوفييت، ساعدوا المصريين فى السنوات الممتدة من الخمسينيات إلى السبعينيات فى تنفيذ المشاريع الصناعية وغيرها، وفى الوقت نفسه شاركوهم حروبهم، وهؤلاء الروس أيضًا ذهبوا، "ضاع بعضهم واحتل الآخرون مراكز مرموقة".

وعلى مشارف نهاية القرن العشرين وصلت من روسيا إلى الإسكندرية موجة أخرى، موجة "الروس الجدد".

"أليكس" فى التسعينيات

أليكس، كنا فى ذلك الوقت نسميها كذلك باختصار، هكذا يسمون هذه المدينة حتى الآن فى العالم كله ولا يتم خلط ذلك بأى شىء آخر...

مرت سنوات، عشرات من السنوات. وها هى فكرة جاءتنى فى التسعينيات بأن أزور مدينة شبابى "أليكس". سافرت إليها لكى أعمل وأستجم وأشاهد وأقارن وأتذكر ما كان، وأن أرى الجديد. اشتركت فى التسعينيات فى المؤتمر العلمى "الحوار العربى الروسى" الذى نظمته جامعة القاهرة، وألقيت به محاضرة عن "مأزق القوى فى الشرق الأوسط"، بعده قمت برحلات إلى الإسكندرية، والإسماعيلية، وبورسعيد. وفى عام ١٩٩٢ قمت مع "فلاديمير توراديجيف" بعمل عدد خاص من مجلة "آسيا وإفريقيا اليوم" عن مصر، كما صورنا فى عام ١٩٩٤ مع فريق البرنامج التليفزيونى "جيراننا فى كوكبنا" ثلاثة أفلام عن مصر عرضها التليفزيون الروسى. أما فى أبريل فقد كنت فى ضيافة مصلحة الاستعلامات، وفى سبتمبر كنت أستجم هناك. فى عام ١٩٩٧ تم تصوير فيلم آخر اسمه "على أرض الفراعنة" عرض فى "نادى الرحالة" فى أبريل من العام نفسه.

لا أريد أن أغضب المصريين، ولكن بعد فترة ٢٥ سنة قد تكون قد بقيت في الذاكرة فقط ذكريات وردية، أو أني أصبحت شاهداً على شيء ما زال غير مفهوم ويمثل ظاهرة مصرية مرتبطة بهجوم شرس للأصوليين الإسلاميين على مبادئ الإسكندرية العلمانية.

بالطبع لقد تم بناء الكثير من المباني الجديدة الجذابة على طريق الكورنيش، كما أصبحت الأسواق مليئة بالبضائع المحلية والأجنبية التي كانت تعتبر نادرة في عهد "ناصر"، ولكن بقي المصريون كما هم مبتسمون وهم يسألون بطريقة شبه آلية: من أين الخواجة؟ روسي؟ أهلاً وسهلاً. أمريكي؟ أهلا وسهلا. أسود، أبيض، أصفر؟... لا يوجد فرق، فالأجنبي يمثل مصدراً للدخل، لذلك فهو مرغوب فيه.

ذهبنا للسباحة من الصباح الباكر. كان ذلك في الماضي يمكن تحقيقه بلا مشاكل بالقرب من طريق الكورنيش مباشرة في البلاجات العامة كما تسمى، ولكن تبين أن ذلك أصبح الآن غير ممكنٍ للجميع، فعلى سبيل المثال يجب على النساء أن يلبسن رداء ثم بعد ذلك يمكنهن أن ينزلن في البحر، أو يجب الذهاب إلى بلاجات بعيدة خاصة. ولكن ما السبب؟ يصمت معظم المصريين، وهم يشيحوا بأيديهم، ثم يجيبوا في هدوء: "هكذا أراد الله".

قمنا في المساء بجولة على طول الكورنيش. للأسف لا توجد أضواء، ولا أحد يزعق عليك، الملاهي الليلية مغلقة. سألت أحد المارة:"هنا في مكان ما بالقرب من تمثال "سعد زغلول" كان يوجد نادي "مونسنيور" الليلي؟". الجواب:"نعم كان يوجد في ميدان سعد زغلول رقم ١٥، ولكنه أصبح أثراً، إذا قمنا بالترجمة المباشرة من اللغة العربية بحرية. ركبنا الترام لكي نتنزه، لم نصعد في المكان السليم، فالسيدات الوحيدات يركبن عربة خاصة منفصلة، أما من مع زوجها فيمكن أن تركب مع زوجها أياً من العربات الأخرى. ولكن ما العمل مثلاً مع الفتيات اللاتي يطلق عليهن الرجال "متحررات على هواهن" أو "صديقاتهم في الحب"؟ ها هن يجلسن مزينات في الترام مع أصدقائهن من الشبان وفي الوقت نفسه تشاغلن آخرين، هؤلاء هن "كليوباترات" اليوم. قال أحد

المصريين المسنين وهو ينظر إليهن "فليلتففن بالأسود ويهدأن" ثم سأل الله "الرحمة"... قسمة ونصيباً.

يعتقد المصريون أن الرجال الذين توجد على جبهاتهم ندبة أكثر سواداً نتيجة للمواظبة على الصلاة أكثر من الآخرين، هم الأكثر إيماناً. ولكنى عرفت بعضاً منهم محبين كبار للشرب واللهو...

فى أيام الجمعة وفى وقت صلاة الجمعة (من الساعة ١٢ إلى ١٣) يجلس كل سكان المدينة خمسة الملايين فى صفوف يصلون. لا تسير وحدات الترام، وتعانى الحناطير من الملل. يصلون حتى فى كل أماكن العمل، حيث يصطف العاملون ويصلون جماعة، ويرتفع صوت المؤذن من كل المآذن "الله أكبر!".

إن مصر "اخضرت" فى عهد جيلٍ واحدٍ من المصريين بسبب الإسلام، كما اخضرت بسببه "لؤلؤة البحر" الإسكندرية، فلم يعد تدفق السائحين إليها كما كان، ولم تعد مواقف السيارات على الكورنيش مكتظة بالسيارات، ولم تعد الشوارع مضاءة كما فى السابق، ولكنى لم أصدق أن كل شىء أصبح كئيباً هكذا وأنه لم يعد هناك أحد فى المساء على الكورنيش غير السيارات المسرعة...

ذهبنا إلى الميناء لكى نشاهد التجار وبضائعهم عن قرب، ذهبنا إليها. يبدأ عالم الأعمال هذا من بعد "نصب الجندى البحرى المجهول" وخلف تمثال موحد الأراضى المصرية "محمد على الكبير" الذى يبعد عنه مئة متر. يبدل حراس نصب الجندى البحرى المجهول كل ساعة، أما "محمد على" الحجرى فينظر فى صمت إلى ما حوله من فوق قاعدته المرتفعة، أما فى الأسفل...

يبدأ فى الأسفل ما أردنا مشاهدته: المحلات والبضائع والهرج ، والكثير من الوافدين من تجار الشنطة من كل دول "كومنولث الدول المستقلة" الذين ما زالوا يسمون بالروس هنا. الإسلام بالنسبة لهم "لا يعنى شيئاً"، وأنا واثق أن رجالنا لن يخضروا أبداً "بسببه" حتى لو كانوا يجبرون على اعتناقه بالقوة. الفتيات صبغن

شعورهن باللون الرمادى، بعضهن يلبسن الملاءة وبعضهن "الجينسات". يشترين كل شىء بالجملة، يفاصلن ويقبلن الباعة فقط حتى يخفضوا الثمن. أسماء المحلات مكتوبة بكل من اللغات العربية والإنجليزية والروسية. يزعقون بالروسية: "زينة، ادخلى هنا" إذا مرت إحدى سيداتنا، وإذا مر رجل شعره قصير، يلبس جاكيتا طويلاً، مجعد الوجه، ويبدو عليه أنه "مندوب تجارى متجول"، فيزعق عليه: "إيفان، إيفان"، يسرع إليه صبى عارضًا سجائر ويصيح بالروسية "تشترى" أو "اذهب إلى...". نلتزم الصمت. آخر يعرض أكوابًا، وثالث يعرض سلاسل، "سأعطيك فى مقابل زجاجة فودكا علبة ملابس داخلية..." ويضع فى يدى لفافة ما، ثم رابع، واستمر ذلك. لا ترى الشرطة هنا، فليس هناك حاجة لها على الرغم من إمكانية حدوث أى شىء هنا، بدءًا من السرقة حتى العراك، ولكن يقوم "بحفظ النظام" هنا كل من يبيع ومن يشترى.

فى نهاية هذا "الممر" التجارى يقف فندقان من الحجارة البيضاء حارسين على بوابة، رخيصان ومتواضعان مثل زبائنهم الروس. أثارا اهتمامى فدخلت أحدهما، كل شىء كما فى فنادق المدن الصغيرة الروسية، تسمع هنا كيف يغنون ويضحكون ويشربون ويشتمون، والكل يتحمل الكل. هاهى كلمات أغنية تصل إلينا من حجرة بعيدة:

بسبب عيونى الخضراء

تسمينى ساحرة

تقول لى هذا

لأنى أخذت قلبك

تغنى مغنية صوتها عالٍ وأجش أثر عليه التدخين، تلتقط الأغنية فورًا بعض الحجرات المجاورة ويغنون معها، يخرجون إلى الممر يرقصون، ويصفق لهم شبان مصريون ظهروا من مكان ما...

– "تعالى هنا يا بنت". هكذا يدعو أحد الرواد الدائمين المغنية بلغة تقريباً روسية.

– ليتنى كنت "بنت". تجيبه بعصبية. ولكن ماذا كنت سوف تفعل معى أيها العربى الصغير ؟

– حسنا لست "بنت" ولكن "ليدى"!

– ليدى!– تقهقه – مثل هذه "الليدى" التى هى أنا... عددهم لا يحصى...

يصفق لها الجمهور.

– حسنا أيتها الساحرة. لا يثوب إلى رشده "العربى الصغير".

يجيئه الرد بكلمات الكوبليه:

أنا لست ساحرة أبداً

لقد أحببت وما زلت أحب

لقد أرسل لى القدر

حبى الآثم...

تتوقف، وتربت على الشاب... ثم تقول له:

– ولكنى لا أحبك أنت، أيها العربى الصغير...

ثم جرت بسرعة إلى حجرتها. وتلحقها كلمات:"طيب يا زينا، احترسى!". صرخ وراءها "العربى الصغير"، كما فى أفلام الكرتون الروسية الشهيرة، منتزعا التصفيق.

كان يمكن وصف العديد من المناظر الأخرى وسرد عدة أغانٍ أخرى لتجار الشنطة الذين انطلقوا للحرية خارج وطنهم. هم راضون عن أنفسهم، ولكنهم يفهمون تماماً أن زمنهم ينتهى...أين سوف ينزل سائحونا عندما ينتهى فى مصر زمن الرحلات السياحية الرخيصة والفنادق الرخيصة؟

شاهدت نوعًا آخر من الروس على شاطئ فندق "شيراتون" ذى النجوم الخمس، فالسلاسل الذهبية الغليظة حول أعناقهم، والخواتم فى أصابعهم، كانوا يشربون الويسكى بالثلج الذى قدمه لهم جرسون الفندق، ثم يرقدون عدة ساعات تحت الشمس عارضين للناس الرسوم التى على أجسادهم - الوشم - كان مكتوبًا على صدر أحدهم فوق قلبه باللون الأزرق "لن أنسى أبدًا أمى التى ولدتنى". أما الآخر فقد كانت العبارة نفسها مكتوبة على يده. أية أم يقصدون؟... روسيا؟... أو تلك الأم التى ولدتهم فى إحدى مدن كالوجا أو بريانسك؟ أو تلك "الزينة" و"الناتاشا" اللاتى لهون معهم "طوال الليل وحتى الفجر"، والآن ينمن فى الفندق؟ فلأذهب لكى أستفسر.

انتهوا من النوم، فلبس هؤلاء الفتيان أروابًا بيضاء، أحضرت هى أيضًا من الفندق، وقاموا وهم مضطجعون على أسرتهم بتوقيع عقود مع المصريين لتوريد بضائع بالملايين، وشربوا مرة أخرى...

هكذا تسير أعمالنا فى "البيزنس"، وهو لا يشبه فى الوقت الحالى ما يحدث فى البلدان الأخرى، فنصفه إجرامى والنصف الآخر بدائى.

ولكن تجار الجملة هؤلاء يطردون بالتدريج تجار الشنطة، وهنا المطاردون يمثلون الرأسماليين الروس المتوحشين، وسوف تبكى بسببهم الإسكندرية ومصر، بل ربما سيبكى العالم كله.

هذه هى الإسكندرية كما أتذكرها، سواء كانت مرحة أو غير مرحة، تقوم أو لا تقوم بالأعمال التى كانت وما زالت تستقبل بلدياتنا بكل نقاط ضعفهم وقوتهم، وبكل ما يوجد لدينا فى دمائنا.

الباب التاسع عشر

لا يمكن أن تصفق بيد واحدة

يحبون في القاهرة تذكير الزائر الذي يحضر إلى ضفاف النيل مرة بأنه من المؤكد سوف يعود إليها مرة أخرى، ففي كل مرة عندما تعود إلى هناك تجد لنفسك شيئًا ما جديداً في كرم القاهرة التي لا تنام والتي يسكنها الملايين وفي العلاقات الدافئة الدائمة مع الأجانب، وفي المنشآت المرتفعة التي تتميز بطرازها الفريد (على الرغم من أنه قد بقيت بها بعض من الأحياء القذرة والفقيرة)...

المقابلات القاهرية في التسعينيات من القرن العشرين

زرت مصر مرة أخرى ولكن هذه المرة في التسعينيات، هبطت من الطائرة فوجدت نفسي كما في حمام البخار. تحبس أنفاسك إن لم تكن معتاداً على ذلك، أما إذا كنت معتاداً، فإنك على الرغم من ذلك لا تتأقلم فوراً مع هذه الساونا الإفريقية، ولكن على أية حال تتعود على ذلك بسرعة.

ضمني صديقي "فتحي" الذي عمل معي في مكتب وكالة "نوفوستي" للأنباء، والذي شاب شعره محاولاً رفعي لأعلى.

– "أناتولي"، أنت، أيضًا، "ابيضيت" (و لمس شعري الشائب)، ولكن أنت في داخلك ما زلت أحمر كما في السابق، أو...؟

نظر إلىّ "فتحى" بجدية مستفسراً.

– "يا عزيزى "فتحى"، لقد أصبحت الآن أبيض، أزرق، أحمر مثل علم روسيا الجديد. لقد ابيضّ صديقك الأحمر بفعل الزمن وازرقّ بفعل المشاكل.."

واحتضن كل منا الآخر. وكررنا ذلك عدة مرات. أهدانى "فتحى" صورة لنفرتيتى محفورة على طبق من النحاس ثم أخرج فجأة كرة من الجبن الهولاندى قائلا: هذه للمدام من "فتحى".

– ماذا بك يا "فتحى"؟ الآن أصبح عندنا كل شىء فى روسيا. إذا كان معك نقود.

– كف يا "أناتولى" عن دعايتك، ففى الصحف يكتبون شيئًا آخر.

قابلت فتحى عند مدخل فيلا وكالة أنباء "نوفوستى" التى ذهبت إليها متذكراً الماضى، وبينما كنا نتبادل الحديث حضرت "نجاة" سكرتيرتنا الدائمة، ومرة أخرى تبادلنا الأحضان.

– "نجاتك" (كنت دائمًا ما أدعوها كذلك)، أنت لم تتغيرى على الرغم من مرور نصف قرن من الزمن.

– يا سيدى الأستاذ "أناتولى"، أصبح عندى الآن ابنان وزوج مهندس. كما أن مكتبنا أصبح خاليًا.

– أين "أنس" و"ثريا" محررا نشراتنا؟– سألتها– وأين المدير التجارى؟ أين "سليمان" ناشر"المجلة السوفيتية"؟ وأين كل الباقين؟

– اختلف الزمن – وأشاحت نجاة بيديها – أصبح المكان هنا الآن هادئًا كما فى المتحف، حتى رنين التليفون أصبح نادراً.

سمعت جلبة، أحدهم يصرخ، رأيت رجلاً أشيب طويلاً ونحيفًا، أسود اللون مثل حذائى، نوبيا، يجرى فى اتجاهنا – ياه – هذا "مخلوف" البواب.

– "مخلوف ... مازلت على قيد الحياة؟" ألقيت عليه هذا السؤال وأنا أستقبله.

احتضننى بقوة حتى إنه خيل لى أنه سوف يحطم ضلوعى، كما أن شفتيه التى يصل حجمها إلى ضعف مقاس قبضتى شوهت تمامًا وجهى وشفتى...

كان هذا الاستقبال الذى لا يمكن نسيانه، الذى قابلنى به المصريون البسطاء الذين كانوا يعملون فى مكتبنا بوكالة أنباء "نوفوستى"، والذين أنجزنا معهم أعمالاً كبيرة فى مصر، أو كنا واثقين من أدائها.

ربتوا على كتفى، وكرروا ذلك غير مصدقين أن من يقف أمامهم هو فعلاً "أناتولى – نفسه – الشاب المتحمس" ... ليس "الخواجة" ولكن حبيبهم "الروسى".

نظروا إلىَّ طويلاً قبل أن يقرروا سؤالى: "الهزة التى حدثت عندكم... لم يتمكن العالم كله من فهمها... ما الذى أصبحت عليه روسيا الآن ؟ وكيف ستكون فى المستقبل القريب؟"

لم يوجه لى هذا السؤال فقط مرءوسى العرب السابقون، ولكن وجهه إلينا أيضًا من مجموعة علماء معهد الاستشراق الموجودين فى مصر بناءً على دعوة من جامعة القاهرة. أمضينا يومين من المناقشات فى مركز الدراسات السياسية، كما استضافتنا الجامعة الأمريكية وكذلك مركز جريدة الأهرام للدراسات الإستراتيجية والسياسية. وفى خلال أسبوع التقينا بالعديد من الشخصيات السياسية والاجتماعية المهمة وبرجال أعمال فى كل من القاهرة والإسكندرية وبورسعيد.

سأبدأ باللقاء مع المحلل السياسى المعروف "محمد سيد أحمد" الناطق بلسان اليساريين فى البلد. قال ملاحظًا بانفعال:"لقد أفشلتم البريسترويكا، كما انهار المجتمع الاشتراكى فى الجمهوريات المختلفة، والمسئولون عن ذلك ليسوا الشيوعيون، أو الصراع بين الطبقات، ولا تصعيد المواجهة بين النظم ولا الشمولية. السبب فى ذلك هو هدم نظام الحكم بأسلوب ليس مبنيا على برنامج على الإطلاق، ولم يمكن العثور على نمط قياسى جديد، وقد وجدنا أنفسنا معكم فى وعاء واحد. لم تعد روسيا دولة اشتراكية، ونحن نريد أن نفهمها اليوم".

كان "محمد سيد أحمد" قد أمضى سبع سنوات فى السجن فيما مضى بسبب "تأييده للاتحاد السوفيتى"، حيث إنه كان يؤمن بنموذجه كما يقول هو نفسه، وها هو ما يؤمن به ينهار. يتساءل:"هل من الممكن الآن أن يجتمع كل من روسيا وماركس معا؟ لقد انهارت إمبراطورية الشيوعيين الروس، ومرحبًا الآن بالإمبراطورية الروسية المجددة؟... دون أفكار اشتراكية، بحالتها كما هى؟". وهو لا يخفى خيبة أمله، ولكنه ما زال مؤمنًا بشكل الاشتراكية الماركسية" التى تمت الإساءة إليها بالتصرفات فى الاتحاد السوفيتى السابق"...

أما الليبراليون المصريون والأوساط الجامعية فقد قيمت الوضع بأسلوب أكثر اتزانا، فعلى سبيل المثال يرى رئيس مركز الدراسات السياسية الأستاذ "على هلال دسوقى" أن الوضع يسير فى روسيا على الطريق الأوروبى الآسيوى، التى تمكنت فيه الإنسانية من تجربة كل بهاء وفضائل ورذائل "الجنة الرأسمالية" من ناحية، ومن ناحية أخرى كل بهاء وفضائل ورذائل "المجتمع الشمولى الاشتراكى". يعتقد "دسوقى" أن ذلك حتمى على الأرجح، وأن روسيا تحاول الآن أن تجد لنفسها شكلاً مناسبًا أكثر يصلح لأن يكون أساسًا لتنمية الدولة الفيدرالية متعددة القوميات. من هنا يمكن أن يؤدى توحيد الجهود، وليس تفريقها، إلى الإسراع بهذه العملية.

يرى "إبراهيم صقر"- الدكتور بكلية الاقتصاد بجامعة القاهرة - أنه توجد على الأقل ثلاثة اختيارات لتنمية الدول أعضاء "كومنولث الدول المستقلة": الأوروبى، حيث سبق الوحدة السياسية عمل صعب للتكامل الاقتصادى بين الدول المستقلة فى آلية واحدة. والعربى- الآسيوى- الذى ما زالت الدول المستقلة تتوحد فيه فقط فى تجمعات إقليمية اقتصادية محاولة التخلص من قيود السوق الرأسمالية العالمية. ثم فى النهاية، التلاحم الأوروبى الآسيوى بين علاقات السوق الحرة التى تتجه إليها جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق. هذه الخيارات موجودة، ولكن الجهود التى تبذل لتعميم "كومنولث" الدول المستقلة قليلة من أجل خير مؤسسى المجتمع الجديد والمشاركين فيه بسبب الخوف من العودة للمواجهة التى مازالت توجد قوة لاستمرارها فى المناطق المختلفة.

وفى الوقت نفسه عند مناقشة الاتجاهات النابذة التى تظهر بوضوح فى المساحات الضخمة للإمبراطورية السوفيتية السابقة من الطبيعى أن يوجه فى مصر سؤال عن مدى انعكاس كل ذلك على مشكلات الشرق الأوسط التى لم يوجد لها حل حتى الآن، وكذلك على أمنه وعلى مستقبله. فى الماضى كان كل شيء يبدو بسيطًا: فقد كان فى المنطقة أصدقاء للاتحاد السوفيتي يحصلون منه - من أجل هذه الصداقة - على الكثير من الامتيازات، كما كان يوجد أيضًا أصدقاء للولايات المتحدة الأمريكية تعودوا، هم أيضًا، على الحقن الأمريكية. ففى مصر وحدها تم بناء أكثر من مئة مشروع بمساعدة الاتحاد السوفيتى، منها سد أسوان العالى ومجمع الحديد والصلب فى حلوان ومشاريع أخرى، كما أن الاتحاد السوفيتى أعاد - ثلاث مرات - تسليح الجيش المصرى الذى دخل فى حروب غير متكافئة مع إسرائيل. وحتى الآن ما زال هناك دين على مصر يبلغ ٣ مليارات دولار متبقيًا من مبلغ ١١ مليار دولار صرفت على شراء السلاح. وعندما أصبحت مصر بالنسبة لنا بلدًا "غريبًا" بعد موت الرئيس "ناصر"، انهالت المساعدات الأمريكية على ضفاف النيل، ووصلت إلى ٢-٣ مليار دولار كل عام. واقتربت الآن ديون مصر للولايات المتحدة الخاصة بتوريد السلاح من ٥ مليارات دولار. وهذا بعد أن أسقطت الولايات المتحدة الأمريكية الديون السابقة التى على مصر بعد أزمة الكويت فى عامى ١٩٩٠ و ١٩٩١ .

وما الذى يمكن عمله فى ظل انتهاء "الحرب الباردة"؟ أسقط فى يد الجميع فى القاهرة، فقد استقبلنا زملاؤنا من الجامعة الأمريكية بسرور أمام المصريين الذين لم يكونوا بصراحة سعداء لذلك. لقد تجولنا معهم على يخت فى النيل، كما نظم لنا عشاء دافئ فى موقع الجامعة، وكان الأمريكان يحاولون فى كل تصرفاتهم وأحاديثهم أن يظهروا جدية التقارب بين واشنطن وموسكو واستمراريته لأجل طويل. وقد بدا لى أنه أضاف إلى ذلك المظهر المكتئب للمصريين أنه سبق أن راقبوا مثل هذا الدفء فى العلاقات بين من يطلق عليهم "الجماعات الديمقراطية" السوفيتية والأوروبية الشرقية التى كانت تسير متعانقة فى شوارع القاهرة، وكان ذلك أكثر شبهًا بمسرحية هزلية. ولكن فى هذه المرة أجبر الأمريكان الواقعيون المصريين على الاقتناع بأن هذه ليست

مسرحية هزلية، فقد عرض علينا على سبيل المثال توقيع اتفاق للتعاون بين علماء المصريات الأمريكان والروس، وتنظيم البعثات المشتركة لدراسة الحضارات المصرية القديمة، وتبادل العلماء، وأشياء أخرى. ونظراً للصعوبات المالية التى نواجهها فقد أخذ الأمريكان على عاتقهم تحمل الجزء الأكبر من المصروفات، ولم يفعل ذلك فى الماضى لا من يطلق عليهم "الجماعات الديمقراطية" من دول أوروبا الاشتراكية السابقة ولا زملاؤنا المصريون.

بالطبع لا يعنى التقارب على المستوى العالمى تنسيق الأداء فى المنطقة، خاصة فى منطقة الشرق الأوسط، ففعلاً توجد هنا للولايات المتحدة الأمريكية مصالح "حيوية"، أما روسيا فالمسألة تعنيها فى الدرجة الأولى من ناحية كرامتها وتأمين حدودها أيضاً.

وقد حلل كل ذلك الإعلامى الشهير المصرى والشخصية العامة المهمة "محمد حسنين هيكل" الذى التقينا به فى منزله. جلسنا فى شرفة يحيطها الزجاج، وتطل على النيل، كان أمامنا منظر عام لأجمل منطقة فى القاهرة: برج التليفزيون وهو الأعلى فى إفريقيا، وجزيرة الزمالك بفيلاتها الفاخرة البيضاء، وميدان التحرير فى وسط المدينة، ومجموعة الفنادق ومن بينها "الشيراتون" و"الجزيرة" اللذان كانا يتطلعان إلينا بمعنى الكلمة، ونحن كنا نتطلع إليهما. كان "هيكل" يتأرجح ببطء على كرسى مجدول ممسكا فى يده اليسرى سيجاراً ويتحدث بلا عجل وهو ينظر إلى الميكروفون الذى وضعه مساعده أمامه. كتب هيكل الكثير من الكتب المثيرة، كما أنه كان وزيراً للإعلام فى عهد "ناصر"(*) ورئيساً لتحرير جريدة "الأهرام". كما أنه طورد فى عهد "السادات". وشاهد نجاحات، كما أنه شاهد أيضاً بعض الإخفاقات، وهو الآن كاتب يتمتع بشهرة ونفوذ كبيرين، وهو ملهم.

روسيا وأمريكا أصبحتا الآن شريكتين، ولكن لا تملك موسكو ولا واشنطن الحق فى التدخل فى شئون الشرق الأوسط معاً أو منفردتين، فيجب أن تكون القرارات العربية حرة وأن تتخذ دون تدخل من المبعوثين الروس أو الأمريكان، أنا لست واثقاً أن

(*) سبقت الإشارة إلى أنه تولى وزارة الإعلام فى عهد السادات. (التحرير)

لروسيا أية مصالح فى الشرق الأوسط، ولكنكم متجاورون جغرافيا مع العالم العربى. ومن المدهش أنكم سلبيون لهذه الدرجة. أنا أتفهم زملاءكم، فهم الآن ليسوا فى أحسن حال، ولكن تمت تجربة الكثير على مدى عشرات السنوات فى مشكلة الشرق الأوسط، وقد تمت تجربة السياسة السوفيتية أيضًا. كانت التجربة سلبية، ولم تكن فى صالح الاتحاد السوفيتى، خاصة فى وقت أزمة منطقة الخليج العربى، فقد ظللتم مُصِرين على سياستكم. والآن فقط غيرتم أصنامكم، فلتتخذوا على الأقل مثالاً منا. لقد أخطأت مصر كثيراً وكانت معزولة، تمامًا مثل وضع روسيا الآن فى الشرق العربى، ولكننا وجدنا لنا مكانًا فى تحديث الشرق الأوسط. نحن حتى الآن لا نعطى مثالاً للديمقراطية، ولكننا أيضًا لا نتخبط بين أقصى الطرفين. وأنا لا أعتقد فى "التأثير الديمقراطى" لأمريكا على العالم العربى، فهم أحيانًا يتحدثون عنا بالخير وأحيانًا بالسوء، ولكن المطلوب الاتزان..."

سألته: فى أى شىء على وجه الخصوص؟ هل كانت سياسة روسيا فى الماضى متزنة، على سبيل المثال فى عهد "الصداقة العربية الأخوية" بين "ناصر" و"خروشوف"؟

أشار "هيكل" إلىَّ: لم تكن العلاقة بيننا خالية من العواطف، كان الترحيب بينهما رسميا بصَنيحة مديح، ولكن كان الكثير من أفكارهما مختلف فيما يتعلق بمختلف المواضيع، كما يتضح من مراسلاتهما المتبادلة. هذا معروف تمامًا فى العالم العربى، ولكن فى موسكو فقط كان يتم التظاهر بأن كل شىء طبيعى، أى كان يتم إخفاء الحقائق عن الناس. يتعدى عدد الخطابات المتبادلة بين "ناصر" و"خروشوف" ١٨٠ خطابًا بما فيها البرقيات والرسائل العاجلة، ومن المعروف أن عندكم فقط البعض منها وليست كلها، ومهما حدث فقد كانت روسيا والاتحاد السوفيتى دائمًا أصدقاء للعرب. العالم العربى يسير فى طريقه وسوف يحقق الكثير فى تقدمه، وسوف يصنع المستقبل. مصر أيضًا فى مكانها الذى اكتسبته قوة عربية عظمى، ومهما حدث فى بلدكم فسوف يتعاون العرب دائمًا معكم، ولن يساعدكم الغرب، ولكننا نحن على الأرجح نستطيع أن نساعدكم أكثر لأنكم لم تتركونا نعانى عندما كنا نواجه الصعاب، ونحن نتذكر ذلك.

تمت، أيضًا، مناقشة موضوع نشاط الإسلاميين فى الشرق الأوسط، وهو يرى أنه عند تقييم الوضع فى الشرق الأوسط (والوضع الداخلى بها أيضًا) تهتم روسيا جدا بذلك، ويعتقد "هيكل" أن الأسلمة باعتبارها إعلانا موجها لأوساط معينة لها مصالح فى الوصول لأهداف معينة.

وقد تمت المبالغة فى المفاهيم الحديثة لهذه العملية، وفى فهم النشطاء الإسلاميين، فبرنامجهم غير واقعى ويتعامل معهم غالبية المسلمين بحذر، والقوة الحقيقية لا تتمثل فى الإسلاميين ولكن فى الجيش.

أنا لا أثق فى الإسلاميين، ولا أعتقد فى وجود مستقبل لهم، فهذه ظاهرة لا يمكن شرحها بلغة السياسة. فإن إدخال الدين فى السياسة ليس له مستقبل. هكذا كتب "هيكل" بالضبط وما قاله بجرأة غير عادية حتى لهيكل، ولكن هذا هو الواقع.

تحدثنا أيضًا عن تعدد الأحزاب، فقدم "هيكل" لنا مثالا، لم يكن هناك أحزاب فى عهد "ناصر"، ولكن كان يوجد برنامج للعمل القومى التف حوله الشعب. أما فى عهد "السادات"، والآن فى عهد "مبارك" فإن تعدد الأحزاب نضج، ولكنه لا يضمن الحرية الديمقراطية، ولا يقى من أخطار الشمولية. وقد فهمت من "هيكل" أنه يرى أن أساس اختيار طريق التنمية لا يتلخص فى تعدد الأحزاب، ولكن فى درجة تحضر المجتمع الذى يختار نظام الحكم المناسب له.

يتم تحليل العلاقة بين ما يحدث فى كلٍّ من روسيا والعالم العربى بجدية تامة فى جامعة الدول العربية التى عاد مقرها ثانية إلى القاهرة. وقد التقينا هناك فى ميدان التحرير مع "عدنان عمران" نائب أمين عام هذه المنظمة الإقليمية الرائدة، وقد شارك فى المناقشة بعض من المسئولين العاملين فى جامعة الدول العربية، ولكن "عمران" الدبلوماسى السورى المهم والسفير الذى وصف التغييرات الحادثة فى العالم، وفى المنطقة بأنها "اتجاه جدلى للزمن"، أعرب على أية حال عن القلق من تعاقب هذه التغييرات مع الماضى. وهو يرى أن إلقاء تاريخ الماضى إلى مزبلة التاريخ، أو التعامل معه بإهمال ليس أسلوبًا حضاريا، فلروسيا الكثير من الأصدقاء فى العالم العربى

والكثير ممن ليسوا أصدقاء لها، كما توجد مشاكل مشتركة يمكن حلها على المستوى الدولى، وكذلك يوجد اهتمام فى بعض البلاد بتنمية علاقات الصداقة مع الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتى السابق. وهذا سوف يقرب ولن يفرق بين العالم العربى وشعوب البلد العظيم الذى كان الاتحاد السوفيتى، ففى جامعة الدول العربية يعتقدون أنه يجب التعامل مع العلاقات العربية على مستوى المنظمات الإقليمية ومباشرة مع من له مصلحة فى أحد الحلول، ولا يمكن الاختلاف مع ذلك الفكر.

وهناك اعتقاد فى مركز الدراسات الإستراتيجية بجريدة "الأهرام" أنه نظراً "لخروج روسيا من لعبة الشرق الأوسط" ظهر العديد من المشاكل الشائكة يحاول العاملون فى المركز تحليلها. يعمل هناك ٢٨ موظفًا فقط تجمعوا كلهم معًا فى مبنى دارالتحرير وتبادلوا معنا طوال اليوم الآراء. من وجهة نظرنا تستحق التقارير المكتوبة التى قدمت لنا تقديراً عاليًا، كانت هذه التقارير عن "تسابق القوتين العظميين فى سباق التسليح بالشرق الأوسط" (تأليف: باهر طه محمد السيد)، و"القوى العظمى والنزاع العربى الإسرائيلى" (جالا سعودى)، و"إسرائيل والقوتان العظميان: بين هجرة اليهود من روسيا ومشكلة تمويل الولايات المتحدة الأمريكية لإسكانهم" (شادى داود أحمد). ناقشنا مواضيع كثيرة، وقد استمرت المناقشات حتى على مائدة الغداء فى مطعم دار التحرير التى أعدت لنا فيه مائدة مسبقًا. كان الطعام لذيذًا، وكثيراً ما كانت الأسئلة لاذعة ومرة. الأهم كما فهمنا أن ما يثير قلق الغرب هو: هل ستورد روسيا السلاح للشرق الأوسط؟ وبأية كميات؟ وعلى سبيل المثال عرض "ب.ت.محمد السيد" البيانات التالية: فى الفترة من عام ١٩٨٥ إلى عام ١٩٨٩ ورد الاتحاد السوفيتى لدول "العالم الثالث" سلاحًا قيمته ٨-١٠ مليارات من الدولارات كل عام (وللمقارنة: وردت الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الفترة نفسها ما قيمته ٤ مليارات من الدولارات، وفرنسا ٢-٣ مليارات، وكلٌ من الصين وإنجلترا ٢ ملياريْ دولار). والآن يوجد سؤال: هل خرجت روسيا من اللعبة أو لا؟ الجواب: لم تخرج روسيا من اللعبة، ولكننا نريد أن نعرف متى سنحصل على ثمن ما وردناه، فالعالم الثالث مدين لنا بنحو ٩٠ مليار دولار، كما أن دين الدول العربية المستوردة

للسلاح السوفيتى يشكل أكثر من ٣٠ مليار دولار، ونحن محتاجون تماماً لهذه النقود فى الوقت الحالى، خاصة أن هذه عملة صعبة، وهذه البلاد لم تملكها بعد. هنا يطرح سؤال "ما هو ذنب الروس إذا كان لا يوجد عند العرب نقود يدفعون بها ثمن توريد السلاح؟".

الآن بخصوص "المظلة النووية"، لقد أحست كل الدول الأوروبية الشرقية والعربية بالرضا وهى تستظل بها. ولكن كنا نحن الذين نتحمل تكلفتها. أما الآن، وفى "فترة ما بعد البرود، أصبح الوضع غير مريح دون مظلة، بل ومؤلم. مرة أخرى تساءلنا: هل نحن مذنبون فى ذلك أيضاً؟

أشاح محدثونا بأيديهم ردا على ذلك، ونحن أيضاً قمنا بذلك.

وفى النهاية تحدثنا عن درجة الكفاية العسكرية، فعلى سبيل المثال: "لماذا تحتاج مصر إلى آلاف من الدبابات، منها أكثر من ١٥٠٠ دبابة صناعة سوفيتية؟"

الإجابة: "يوجد جزء كبير من السلاح السوفيتى كاحتياطى، بما فيه من دبابات وطائرات حربية أساسية".

– ولكن يجرى تجهيز الجيش المصرى بالمعدات الغربية والصينية وبالإنتاج المحلى. هل هذا يعنى أن رياح السلام لم تهب بعد على المستوى الإقليمى؟

الإجابة: "ما زلنا فى الوقت الحالى نحلم فقط بذلك، لذلك نسلح أنفسنا".

رددنا على ذلك: "على أية حال نحن لسنا على استعداد لأن نخبط بقبضتنا على المائدة، خاصة تلك التى يمثلها الشرق الأوسط".

لست أدرى، هل أمكننا إقناع محدثينا، أو لا، بأنه قد جاء وقت الحلول السلمية وليس حماس استخدام القوة؟ يبدو أننا لم نتمكن من إقناع الجميع، وعندنا أيضاً فى بلدنا مثل هؤلاء ما يكفى، والقاهرة تعرف ذلك تماماً، وهم (معنا) يأملون أننا سنكون أعقل مما كنا عليه فى الماضى.

كانت تنتظرنا مفاجأة فى النهاية، فقد دعانا مجلس مدراء الشركات الواقعة فى منطقة المدينة الجديدة "العاشر من رمضان" (سميت بهذا الاسم تكريمًا لحرب أكتوبر ١٩٧٣ مع إسرائيل) التى تبعد ٦٠ كيلومترًا عن القاهرة، لزيارة "أولادهم". ذهبنا إلى هناك على الطريق المؤدى إلى الإسماعيلية، الصحراء على اليمين وعلى اليسار، وفجأة ظهرت مدينة شوارعها مستوية، وبها نخيل، وشبكة مياه، ومحلات. يسكن المدينة ١٢٠ ألف نسمة يعملون فى مصانع حديثة تراعى المحافظة على نظافة البيئة وتنتج السجاد والأثاث والسيراميك ومنتجات استهلاكية أخرى.

أول مصنع زرناه ينتج السجاد. أوضح "محمود خميس" نائب رئيس مجلس إدارة المصنع "أن الشركة تشكل من ستة مصانع، لقد اشترينا من الحكومة قطعة من الصحراء، وحصلنا على قرض، وتم إعفاؤنا من الضرائب لمدة عشر سنوات، واشترينا المعدات من الولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا واليابان وكندا وألمانيا الغربية، هذه المعدات على أحدث ما يمكن، ويتم تجديدها باستمرار. كل العاملين مصريون، عددهم ٤ آلاف فرد. تقوم الآلات بأداء ٨٥٪ من العمل، و١٥٪ منه يؤديه العمال. تصل المرتبات إلى ١٠٠٠ جنيه مصرى فى الشهر (نحو ٣٠٠ دولار). توفر الشركة شققًا سكنية، والعلاج الطبى كذلك على نفقتها. يوم العمل ١٢ ساعة، لا يتم الإعلان عن تشغيل العمال، ولكن يعتمد على أبناء العمال ويتم تعليمهم فى الموقع لمدة عام دراسى واحد، ويتم التدريب وتحسين مستوى الكفاءة فى الخارج. الإدارة بما فيها الرئيس وكبير المهندسين ورئيس الحسابات ويعمل معهم مجلس يتكون من ٢٨ عاملاً كلهم شركاء فى ملكية الشركة، وهم يقررون كل ما يتعلق بالعمل. يتحقق كل عام ربح مقداره مليون دولار يتم التصرف فيه كما يرى أعضاء المجلس، وهم يتولون شئون تصدير المنتجات واستيراد الخامات دون أية قيود.

الشركات الأخرى مماثلة. استمتعنا بمشاهدة رسوم السجاد والسيراميك والأثاث، ولاحظنا أنه لا يوجد فى أى مكان أتربة أو قمامة أو نفايات.

ثم ذهبنا لتناول الغداء، وهناك حدثونا عن سبب دعوتنا باعتبارنا مشتغلين بالعلوم الأدبية إلى هذه الشركات الواقعة فى الصحراء.

قال لنا "أحمد عرفة" مدير عام شركة "جولدن تكسوول كومبانى" عندنا أحدث المعدات، ولكن تقابلنا فى أوروبا على سبيل المثال منافسة شرسة، أما سوقكم فليست لها نهاية. فى التعامل فى التجارة معًا يمكن أن تصدروا لنا ما لا تستطيعون تصديره للغرب لتشبع أسواقه به، ونحن من ناحيتنا سوف نرسل إليكم منتجاتنا. ستكون الفائدة متبادلة، ونحن على استعداد لمنح قروض، نرجو أن تعلنوا عن ذلك فى صحافتكم.

كما قال لنا "محمود خميس" نائب رئيس مجلس إدارة شركة السجاد: نحن نريد أن يكون لنا اتصال مباشر بشركاتكم، فنحن نتشابه إلى حد ما. عندنا انفتاح (سياسة الأبواب المفتوحة) بدأ فى عام ١٩٧٤، وعندكم، أنتم بدأتم فى فتح الأبواب لرءوس الأموال الأجنبية، افتحوها أولاً لنا.

لم نعترض... حيث لا يعترض على ذلك أى أحد من السياسيين أو الاقتصاديين أو التجاريين سواء فى موسكو أو فى القاهرة. فقد بدأ من قبل، فى بداية التسعينيات، "الانفتاح الثانى" بين روسيا الجديدة ومصر التى نهضت هى أيضًا من جديد بعد حروب الشرق الأوسط المنهكة.

تأريخ "الانفتاح" الروسى المصرى المتبادل

عام ١٩٩١

اعترفت مصر فى ٢٥ ديسمبر عام ١٩٩١ باستقلال "روسيا الاتحادية".

عام ١٩٩٢

٢٠-٢١ يناير، قام وفد رسمى مصرى يرأسه نائب رئيس الوزراء "كمال الجنزورى" بزيارة لروسيا، وقد استقبل نائب رئيس حكومة روسيا الاتحادية "إ. جيدار" هذا الوفد،

وتمت مناقشة مواضيع تنمية العلاقات الاقتصادية الثنائية. وقد توصل الجانبان إلى الاتفاق على مواصلة التبادل التجارى بين البلدين طبقًا للاتفاقية الموقعة بين الاتحاد السوفيتى السابق وجمهورية مصر العربية.

٢٧ يناير، تم لقاء فى موسكو بين وزير خارجية روسيا الاتحادية "أ. كوزيريف" ووزير خارجية جمهورية مصر العربية "عمرو موسى" الذى رأس الوفد المصرى. تم تبادل الآراء بخصوص مجموعة المسائل المتعلقة بإشكالية الاتفاقيات متعددة الجوانب والأمور المستقبلية المتعلقة بإنتاجها نتائج إيجابية، كما قام الوزيران بتحليل موقف العلاقات الروسية المصرية فى مختلف المجالات موضحين أنه توجد إمكانيات جيدة لتنميتها فى المستقبل لصالح كلٍ من الجانبين.

٢٨ - ٢٩ يناير عقد لقاء تنظيمى روسى مصرى فى موسكو لتحضير الاتفاقيات متعددة الجوانب الخاصة بالشرق الأوسط.

أول مارس، زيارة وزير خارجية روسيا الاتحادية "أ. كوزيريف" للقاهرة، وفى خلال اللقاء مع رئيس جمهورية مصر العربية "حسنى مبارك" ووزير الخارجية "عمرو موسى" تمت مناقشة المسائل المتعلقة بتنمية العلاقات الثنائية وجوانب حل مشكلة الشرق الأوسط.

١ - ٣ مايو، زيارة عمل قام بها نائب رئيس روسيا الاتحادية "أ. روتسكوى" للقاهرة، وقد استقبله رئيس جمهورية مصر العربية "حسنى مبارك" ورئيس الوزراء "عاطف صدقى"، وتمت مناقشة المسائل المتعلقة بمشكلة الشرق الأوسط والمواضيع الخاصة بتنمية العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية الثنائية، وفى خلال هذه الزيارة تم توقيع مذكرة خاصة بالتعاون العلمى والفنى فى مجال تكنولوجيا الزراعة.

١٤ مايو، تم فى القاهرة توقيع اتفاقية خاصة بالتجارة وبالتعاون الاقتصادى والعلمى والفنى، وقد تضمنت الاتفاقية أسس العلاقات الاقتصادية الثنائية الخاصة بالتوقف عن استخدام المعادل الحسابى والتحول إلى استخدام "العملات القابلة للتحويل" فى الحسابات المشتركة.

٢١ - ٢٤ مايو، زيارة رسمية لوفد برلماني من المجلس الأعلى لروسيا الاتحادية يرأسه نائب رئيس المجلس الأعلى "ف. شوميكو"، وقد عقدت في خلال هذه الزيارة لقاءات مع رئيس مجلس الشعب المصرى "فتحى سرور" ورئيس مجلس الشورى "مصطفى كمال حلمى" ووزير الخارجية "عمرو موسى"، وتمت مناقشة المواضيع المتعلقة بتنمية العلاقات الثنائية والعلاقات البرلمانية بين البلدين.

١٧ - ٢٠ نوفمبر، زيارة قام بها لموسكو وفد مجلس الشعب المصرى برئاسة رئيسه "فتحى سرور"، وقد استقبل كلٌ من رئيس المجلس الأعلى لروسيا الاتحادية "رسلان حسبولاتوف" ونائب رئيس الوزراء "أ. روتسكى" الوفد، وتمت مناقشة المواضيع المتعلقة بتنمية العلاقات الثنائية البرلمانية بين جمهورية مصر العربية وروسيا الاتحادية، وكذلك المسائل الخاصة بالتعاون الاقتصادى .

عام ١٩٩٣

٩ - ١٠ يناير، قام وفد من المجلس الأعلى لروسيا الاتحادية بزيارة للقاهرة رأسه رئيس المجلس "روسلان حسبولاتوف" بناءً على دعوة من رئيس مجلس الشعب المصرى، وقد استقبل رئيس جمهورية مصر العربية "حسنى مبارك" الوفد، وكذلك كلٌ من "فتحى سرور" رئيس مجلس الشعب ووزير خارجية مصر "عمرو موسى"، كما عقدت لقاءات مع رؤساء العديد من لجان مجلس الشعب المصرى، وتمت مناقشة مواضيع تنمية العلاقات البرلمانية بين البلدين، ومواضيع تنمية التعاون فى مجال الاقتصاد.

عام ١٩٩٤

٢٦ أكتوبر، عقد لقاء قصير فى مدينة العقبة (الأردن) بين وزيرى خارجية روسيا الاتحادية "أ. كوزيريف" وجمهورية مصر العربية "عمرو موسى" بعد مراسم توقيع اتفاقية السلام بين إسرائيل والأردن.

٦ – ١٢ نوفمبر، زيارة لمصر قام بها وفد حكومى من روسيا الاتحادية رأسه نائب رئيس الوزراء "أ. دافيدوف". جرت مفاوضات مع "ماهرأباظة" وزير الكهرباء والطاقة المصرى، وقد استقبل رئيس جمهورية مصر العربية "حسنى مبارك" رئيس الوفد "أ. دافيدوف"، ونوقشت مجموعة كبيرة من الموضوعات المتعلقة بالعلاقات الثنائية. وفى خلال هذه الزيارة تم توقيع:

– اتفاقية بين حكومة روسيا الاتحادية وحكومة جمهورية مصر العربية بخصوص تصفية الديون المتبادلة بين الاتحاد السوفيتى السابق وجمهورية مصر العربية (مع مراعاة تسديد الديون على مدى ١٩ عامًا عن طريق عمليات بنكية).

– اتفاقية خاصة بالتعاون الاقتصادى والفنى (تراعى اشتراك الجانب الروسى فى بناء، وإعادة بناء العديد من المشروعات فى جمهورية مصر العربية، وتحديث المشاريع الزراعية ومشاريع الرى).

– البروتوكول الروسى المصرى الخاص بالاتجاهات المستقبلية للتعاون فى مجال الطاقة.

عام ١٩٩٥

٢١ – ٢٢يناير، زيارة قام بها نائب رئيس مجلس روسيا الاتحادية "ر. عبد اللطيبوف" بناء على دعوة من مجلس الشعب، وأيضًا بهدف استيضاح الجانب المصرى للوضع فى الشيشان وسبب إرسال القوات المسلحة إلى هناك. وقد استقبل "فتحى سرور" رئيس مجلس الشعب المصرى "ر. عبد اللطيبوف"، وتمت مناقشة مستقبل تنمية العلاقات الثنائية.

٢٨ – ٢٩ مارس، زيارة رسمية للقاهرة قام بها وزير خارجية روسيا الاتحادية "أ. كوزيريف"، وقد استقبله كل من وزير خارجية جمهورية مصر العربية "عمرو موسى" ورئيس جمهورية مصر "حسنى مبارك"، ونوقشت مواضيع تنمية العلاقات الثنائية والمشاكل المتعلقة بتسوية مشكلة الشرق الأوسط. وفى خلال هذه الزيارة تم توقيع:

- بروتوكول الاستشارات بين وزارتى خارجية روسيا الاتحادية وخارجية جمهورية مصر العربية.

- اتفاقية روسية مصرية خاصة بالتعاون الثقافى والعلمى.

١٩ - ٢١ مايو، زيارة إلى القاهرة قام بها وفد برلمانى رأسه نائب رئيس مجلس روسيا الاتحادية "ر.عبد اللطيبوف"، وقد نوقشت خلال المباحثات مع رئيس مجلس الشعب المصرى "فتحى سرور" أمور العلاقات البرلمانية الثنائية.

٢٨ - ٣٠ مايو، زيارة رسمية للقاهرة قام بها وفد من "دوما" روسيا الاتحادية (الغرفة السفلى للبرلمان الروسى) برئاسة نائب رئيس الدوما "أ. تشيلينجاروف". استقبل كل من "فتحى سرور" رئيس مجلس الشعب المصرى، و"عمرو موسى" وزير خارجية جمهورية مصر العربية الوفد. نوقشت مواضيع تنمية العلاقات الثنائية، ومشاكل تسوية أزمة الشرق الأوسط.

٢٦ - ٢٨ مايو، قام وفد برئاسة نائب وزير الخارجية الروسى "كوكوشين" بزيارة للقاهرة، وجرت مباحثات مع وزير الدفاع "م. طنطاوى" ورئيس أركان الحرب "س. حلبى" نوقشت فيها موضوعات الدور الروسى المصرى فى إقرار السلام العالمى والموضوعات المتعلقة بتنمية العلاقات الثنائية.

٧ - ٨ أكتوبر، زيارة نائب وزير الدفاع الروسى "ب. كولوكولوف" للقاهرة، وقد ناقش مع وزير الخارجية "عمرو موسى" الموضوعات الخاصة بالمشاكل الداخلية لإفريقيا فى إطار بروتوكول الاستشارات بين وزيرى الخارجية المصرى والروسى.

١٦ أكتوبر، تم فى القاهرة توقيع الاتفاق الروسى المصرى المتعلق بالمشاريع المشتركة فى مجال السياحة وتبادل تشجيع الاستثمار وتسهيل إجراءات عبور المجموعات السياحية للحدود.

عام ١٩٩٦

٥ – ١٨ يناير، قام بزيارة القاهرة وفد من روسيا الاتحادية يرأسه وزير الوقود والطاقة "ى. شافرانيك"، وقد ناقش مع رئيس الوزراء المصرى "كمال الجنزورى" وسائل تنشيط التعاون الثنائى، وبصفة خاصة موضوع إعادة بناء سد أسوان. وقد تم الاتفاق على إعادة عمل اللجنة الروسية المصرية للشئون الاقتصادية والتجارية والتعاون العلمى والفنى.

١٣ مارس، قبل بداية مؤتمر قمة "صناع السلام فى شرم الشيخ" عقد لقاء بين رئيسى روسيا الاتحادية وجمهورية مصر العربية "بوريس يلتسين" و"حسنى مبارك" تمت فيه مناقشة المواضيع المتعلقة بالحل السلمى لمشكلة الشرق الأوسط، كما تبادل الرئيسان الدعوات للقيام بزيارات رسمية لكل من موسكو والقاهرة.

عام ١٩٩٧

٢٣ – ٢٥ سبتمبر، قام رئيس جمهورية مصر العربية "حسنى مبارك" بزيارة لروسيا، وتم توقيع بيان عن السلام متعدد الأقطاب، واتفاقيات للتعاون العلمى والفنى وإعادة عمل اللجنة الروسية المصرية للتعاون الاقتصادى والعلمى والفنى، والتعاون فى مجال الثقافة، والقيام بالاستشارات بصفة منتظمة بين البلدين. وقد أعلن "حسنى مبارك" أن مصر كانت وستبقى دائمًا شريكًا إستراتيجيا لروسيا.

مناقشات فى مكاتب المسئولين

أريد أن أضيف إلى كل ما سبق أن العلماء أيضًا قاموا بدورهم فى إحياء العلاقات القديمة بين موسكو والقاهرة، فقد قدم "عمرو موسى" فى أبريل عام ١٩٩٢ لمؤلف هذه السطور و"لف. تورالجيف" المراسل الخاص لجريدة "آسيا وإفريقيا" حديثا

صحفيا خاصا تناول فيه عددا كبيرا من الموضوعات. وفيما يلى تسجيل لحوارنا مع وزير خارجية جمهورية مصر العربية.

● يتحدث نشاط الدبلوماسية المصرية عن أن القاهرة، بعد فترة من القطيعة بسبب "كامب ديفيد"، عادت مرة أخرى زعيمة للعالم العربى. ما مفهومكم لدورها هذا؟

– يتحدد الموقف المصرى بناءً على الواقع الدولى الجديد، فنحن فى القاهرة نحاول العثور على مكان خاص بنا فى العالم المتجدد، وبهذه الطريقة نعيد تنظيم علاقاتنا الدولية، فنحن وإخواننا العرب نقول إننا فى حاجة لأن نضع معًا أسسًا للعلاقات الخارجية فى ظروف التغييرات السريعة للأوضاع.

وقد أجبرتنا أزمة الكويت على إعادة النظر إلى الأوضاع فى المنطقة، ففى الماضى وحد العرب النضال ضد الإمبريالية والحرب مع إسرائيل، وقد مرت الوحدة العربية بتجربة جادة عندما ابتعدت مصر بسياستها الخارجية عن العقائد الجامدة القديمة وبدأت عملية "كامب ديفيد". بالطبع كان يوجد فى الماضى أيضًا اختلاف فى تعامل البلاد العربية مع المواضيع العالمية، ولكن كان ذلك على الأرجح تعددًا فى الآراء وليس تعارضا، وقد أدى طمع العراق فى أراضى جيرانه إلى تغيير الوضع؛ فبعد أغسطس عام ١٩٩٠ أصبح الموقف فى المنطقة مختلفًا تمامًا، وقد وضعنا أمام ضرورة عمل اختيار: إما الموافقة على العدوان، أو الدفاع عن العدالة. وقد أكدت مصر قبل أى شىء على موقفها الخاص. لقد وجدنا أنه لا توجد وحدة بين العرب، أو أن هذه الوحدة خيالية، فلم تحقق الأشكال الموجودة للدفاع المشترك أمان أية دولة بصفة منفردة، أو أمان العالم العربى ككل، وأصبح من الواضح ارتباط المشاكل العالمية بالإقليمية، وقد تم اتخاذ مواقف جماعية ضد العراق أعيدت بواسطتها العدالة.

بالنسبة لنا وبالنسبة للعالم أجمعه أصبحت أزمة الكويت درسًا تعلمنا منه. يتلخص هذا الدرس فى أنه فى ظل الأوضاع الراهنة ليس هناك بديل للعمل الجماعى لضمان أمن أية دولة عربية منفردة أو لحل مشاكل المنطقة التى ما زالت الأزمة مع إسرائيل هى الأهم فيها. لن نستطيع أن نحل هذه المشاكل المتداخلة وحدنا، فيجب أن

تساعدنا الأمم المتحدة والهيئات الإقليمية السياسية والاجتماعية، ورغبة كل دول المنطقة فى حل المشاكل التى بها خلاف، وذلك ليس عن طريق القوة ولكن بالطرق السياسية. وفيما يخص مصر، فإن موقفها واضح تماماً فنحن نؤيد العمل الجماعى فى البحث عن حلول يتقبلها الجميع.

● وفيما يتعلق بهذا، ما هى أسبقيات مصر فى المنطقة؟

- أولاً : هى إستراتيجية السلام، أى تغيير طريقة تفكيرنا نفسها والتى كانت موجهة لعشرات السنوات نحو الصراع بالقوة.

- ثانياً : الحل العادل للمشاكل المختلف عليها مثل احتلال إسرائيل لأراض عربية والموضوع الفلسطينى. هذا هو ما يمثل أكبر أهمية لنا فى المنطقة، وليس بالنسبة لنا فقط، فأنا أعتقد أنه مهمٌ لكل العرب مهما كان بعدهم عن بؤرة الأزمة. والسودان هو شرق أوسط، والعراق أيضاً، بناءً على ذلك فإن البحث عن وسائل سياسية لحل النزاع العربى الإسرائيلى والوصول إلى حل عادل للمشكلة الفلسطينية هما - فى الوقت الحالى - الأولويتان الأساسيتان فى سياسة كل دول المنطقة، وإلا فإننا نجازف بأن يتم تركنا فى الماضى، وبالعودة إلى طرق استخدام القوة، مما يعنى أن نجد أنفسنا مرة أخرى فى طريق مسدود.

- ثالثاً : العلاقات الاقتصادية، فإن مصر تحاول أن تبنيها بالتفاعل مع المجتمع الدولى عن طريق هيئاته، وعن طريق التعاون، وعن طريق تنمية العلاقات الجماعية والثنائية.

وبعد ذلك تهمنا المنطقة الآسيوية الإفريقية والتعاون فى جميع المجالات مع كل دولها ، وبصفة خاصة مع الدول المجاورة لنا.

ففى السنوات الأخيرة، على سبيل المثال، زار الرئيس "حسنى مبارك" العديد من دول البحر الأبيض المتوسط المهتمة بتنمية علاقات الأعمال معنا، وهذه الدول هى تركيا والبرتغال ودول شمال إفريقيا، فإنه توجد لنا معهم الكثير من المشاكل المشتركة، والتى تتطلب حلولاً جماعية. وهذا يعنى أنها تتطلب التعاون فى أمور كثيرة خاصة بالتنمية الاقتصادية.

● ما الذى يحدد توجه مصر فى ظروف عالم ما بعد المواجهة؟

– نحن ننطلق كما فى الماضى من مبادئ عدم الانحياز، وهى معروفة، ونحن لا نستبدلها ولكننا نريد أن نراعيها فى ظل الوضع الحالى. لقد بقى الكثير من المشاكل الدولية دون حل، وإذا بقى الكثير من المواجهات على المستوى العالمى كما فى الماضى فمن المهم جدا أن تحدث التغييرات الإيجابية، وعلى المستوى الإقليمى أيضًا، خاصة فى الشرق الأوسط. ويتطلب ذلك تبادلاً للآراء على نطاق واسع، بحيث يساعد على توضيح موقف كل طرف للآخر وإيجاد حل سلمى للمشاكل على أساس المصالح العامة، وليس بأسلوب الضغط بالقوة. من الضرورى أن يتم تبادل الاستشارات والتفاهم وأن تكون هناك اتصالات نشطة فى كل أوجه العلاقات السياسية والاقتصادية، كما توجد حاجة لمفهوم جديد لتشكيل عالم ما بعد المواجهة. يبدو أنه يجب عمل ذلك فى إطار الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى، وكذلك باستخدام آلية العمل التفاوضى باشتراك الدول الكبرى وكذلك الصغرى.

تنطلق مصر فى سياستها من الواقع الحالى مع مراعاة مصالح المجتمع العالمى كله، ونحن نعتقد فى ضرورة مساهمة مصر فى عملية اتخاذ القرارات السياسية بجانب الدول المختارة، الولايات المتحدة ودول الشمال، كل دول العالم الأخرى.

● يقول بعض الخبراء بهذا الخصوص إن الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أصبحت القوة العظمى الوحيدة، وبما أنها قد جربت قوتها فى خلال حرب الخليج، تنفذ سياسة السيطرة على المنطقة. هل تشعرون بذلك فيما يخص الأحداث الدائرة حول ليبيا؟.

– هذا سؤال متمين، فبعض الدول تتخذ موقف إدانة دول أخرى، وفى هذه الحالة ليبيا متهمة بأن بعضا من مواطنيها قد قاموا بعمل إرهابى.

نحن نعتقد أنه على كل دولة أن تراعى قواعد القانون الدولى، وأنه يجب على المواطنين أن يحترموا القانون، وقد طلب مجلس الأمن تسليم الليبيين المتهمين بتنفيذ جريمة، وبعد رفض ليبيا لذلك نفذ سياسة العقوبات تجاهها. بالطبع هذا الأمر يخص

ليبيا، هل تسلم مواطنيها؟ أو لا تسلمهم؟، وهل تقدمهم للمحاكمة الدولية؟ أو يحاكمون طبقًا لقوانينها؟ ومصر تدين تمامًا كل صور الإرهاب وكل من يسانده، كما أنها تنفذ قرار مجلس الأمن بهذا الخصوص، ولكننا نرى أنه يجب حل أية خلافات دولية بالطرق السياسية فقط على أساس القواعد المعترف بها فى القانون الدولى.

● لقد مضت عدة جولات من المباحثات لحل مشكلة الشرق الأوسط، وهى قد بدأت فى مدريد فى أكتوبر عام ١٩٩١، ولكن لم نر لها تقريبًا أية نتائج حتى الآن. فى رأيكم، يا سيدى الوزير، على أى أساس يمكن أن تتم العملية؟، وكيف يمكن أن تحل المشكلة الفلسطينية؟

– المشكلة الفلسطينية، مشكلة مزمنة، وقد جرت محاولات لحلها على مدى عشرات من السنوات على المستوى العالمى وعلى المستوى الإقليمى، وكذلك عن طريق المفاوضات وبالوسائل الحربية، ولكن لم يحدث أى تقدم حتى الآن، فإسرائيل لا تريد أن تخرج من الأراضى المحتلة، ولا تريد حلا عادلاً لتقرير مصير الفلسطينيين، وكذلك الحال بالنسبة للقدس، ويؤدى عنادها إلى تعطيل حل المشكلة.

● كيف ترون مستقبل العلاقات الروسية المصرية؟ وفى رأيكم أى دور يمكن أن تلعبه روسيا لحل مشكلة الشرق الأوسط؟

– إن لعلاقات الصداقة بين مصر وروسيا جذور تاريخية عميقة، ونحن فى مصر ننطلق من مفهوم أن روسيا التى خلفت الاتحاد السوفيتى ما زالت تلعب دورًا مهمًا على الساحة الدولية، وأن القاهرة تحافظ على الاتصالات المستمرة مع موسكو، كما يجرى تبادل مستمر للآراء بين الرئيسين "حسنى مبارك" و"بوريس يلتسين".

لروسيا ماضٍ مجيد، ونحن نقدر علاقات صداقتها مع الدول العربية تقديرًا عاليًا وكذلك علاقاتها التاريخية مع مصر، لذلك فى اعتقادنا أن علاقاتنا بروسيا يجب أن تنمو للأمام، وأن تعاوننا الاقتصادى يجب أن يقوى، وأن التفاهم بيننا يجب أن يصبح أكثر اكتمالاً، ونحن نتوقع أن روسيا بصفتها عضوًا دائمًا فى مجلس الأمن بالأمم

المتحدة، وأحد رؤساء المؤتمر العالمى للشرق الأوسط، سوف تستمر فى العمل على حل مشاكل المنطقة، وبما أنها قوة عظمى سوف تستمر فى أداء الدور نفسه الذى أداه الاتحاد السوفيتى على الساحة العالمية.

* * *

بالمناسبة، لقد رافقنا أحد العاملين بمصلحة الاستعلامات المصرية هو "على ليحة" فى هذا اللقاء مع الوزير، وعندما كان "عمرو موسى" يتحدث كان "على" ينظر باهتمام إلى فم الوزير ويهز رأسه باستمرار موافقًا. ولكن بعد ذلك...

فى البداية كان يريد أن يأخذ الشريط المسجل عليه الحديث، وقد اضطررنا لأن نقوم بمناورة كاملة حتى يبقى الشريط معنا. ثم أطلق عنانه، فى أسوان...

كنا نتحدث مع كبير مهندسى السد العالى عن "المساهمة الروسية" فى مشروع السد العالى فتدخل "على ليحة" بصورة مفاجئة قائلاً:

– لم تكن هناك أية مساهمة، فقد قام المصريون بكل العمل، أما أنتم فقد كنتم على أحسن الأحوال مشرفين على أعمال البناء...

وقد منعنا من تصوير السد، حتى إنه حاول أن ينتزع فيلم التصوير من "ف.ك. توراديجيف"، وغضب حيث إنه لم ينجح فى ذلك، كما أعلن "على ليحة" لنا : أنتم تستغلون "عهد حكم ناصر" وتاريخنا لأغراضكم الخاصة، وقد كان "السادات" على حق حين وضع كل شيء فى مكانه الصحيح.

قال ذلك رجل عمل فى موسكو فى الفترة من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٩٠ مستشاراً للسفير.

فى أبريل عام ١٩٩٥ استقبلنى رئيس مصلحة الاستعلامات المصرية "نبيل عثمان" الذى حل محل الدكتور "البلتاجى" فى مكتبه فى القاهرة. تطرق الحديث معه إلى نشر كتاب فى روسيا عن مصر الحديثة يكتب ليكون موجهًا "للروس"، وقد اقترح أن أقوم

بذلك، أنا المواطـن الروسي الذى جـاء إلى أرض الفراعنـة. كانْ الحـديث طـويلاً، وأنا لا أرغب فى أن أكرره. كان "نبيل عثمان" معتزا بنفسه وببلاغته فى الحديث، وقد تحدث طويلاً عن الإنجازات التى حـقـقتـها بلده، وعن عظمـتـها، وعن سـيـاسـتـها المرنة على مشارف نهاية القـرن العشـرين. فهمـت أن هـذه الكلمات لم تكن موجهة لى أساسًا بل لبعض موظفى مصلحة الاستعلامات الموجودين فى مكتب الرئيس.

- "هيا ندير معًا صفحة القرن العشرين وندخل إلى القرن الواحد والعشرين".

أجبته: " هيا نفعل ذلك، ولكن كيف؟"

نظر نبيل عثمان إلىَّ ، وتوقف قليلاً ثم قال:

- "بالطبع إذا اقترحت أن ندفع عربة، فمن الممكن ألا نتفق، وإذا طلبت أن نجرها فقد يتبين أنها ثقيلة..."

قاطعته قائلاً: "هذا يتوقف على من يجلس فى العربة..."- ثم أشرت إلى صورة رئيس جمهورية مصر العربية المعلقة على الحائط- "إذا لزم الأمر، سوف نجر، وسوف ندفع العربة معا، بحيث تتقدم إلى الأمام على أية حال..."

يمكن أن أقول بصراحة إن الحديث مع "نبيل عثمان" لم يكن شيقًا فى تلك المرة، فنحن لم نتفق على أى شىء، لا على محتويات الكتاب، ولا على تمويل نشره، ولا على موعده، وأنا أتذكر أننى قلت للزملاء بمصلحة الاستعلامات عند وداعهم:

"فى الأساس نحن نريد منذ زمن بعيد أن ننشر تاريخ علاقاتنا، فليكن، فى القرن العشرين، فقد كان "الأثر الروسى" فى مصر واضحًا جدا فى آخر مئة سنة، فإذا أردتم أن نفعل ذلك سويا فعلى الرحب والسعة، أما إذا لم تريدوا، فسنفعل ذلك بأنفسنا، وسوف نصدر كتابا أو عدة كتب"...

وانتهى الأمر على ذلك.

وبلا تباطؤ أخذنا الأمـر عـلى عاتقنا. أحب هنا أن أوضح على وجه الخصوص أن "فلاديمير بيليكوف" قد سبقنا كلنا، فهو مستعرب وصحفى نشر وهو فى القاهرة

فى عام ١٩٩٤ كتابًا رائعًا "على أثر بريسفيتا" (الباخرة الحربية الروسية التى زارت بور سعيد) عن الروس فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. أما محاربونا القدماء فى الجبهة الذين شاركوا فى العمليات الحربية المصرية فى الفترة من عام ١٩٦٧ إلى عام ١٩٧٠- "الأبطال المصريون"- فقد نشروا فى عام ١٩٩٧ كتابًا عن ذكرياتهم بعد أن رفعت السرية عن وجودهم هناك. وها هو، أيضًا، مؤلف هذه السطور قد قام بجهد، وتحركت العربة بمعنى الكلمة لتلاقى المصريين. يبدو أنها قد تحركت.

حدث لقاء آخر فى يناير عام ١٩٩٧ ، فقد استقبلنا وزير السياحة المصرى "ممدوح البلتاجى" الذى نعرفه منذ زمن طويل، استقبلنا نحن مجموعة العاملين فى الإبداع من علماء وصحفيين، وهو قد رأس فى الثمانينيات وفى بداية التسعينيات مصلحة الاستعلامات المصرية. ومنذ النصف الثانى من التسعينيات أصبح هو مصمم "النموذج الجديد للسياحة" وحقق الكثير من النجاحات فى هذا المجال أيضًا، ففى عام ١٩٩٦ وحده حققت المصلحة التى يرأسها ٣ مليارات دولار أضافتها للدخل القومى لجمهورية مصر العربية، كما زار البلد أكثر من أربعة ملايين سائح أجنبى، أغلبهم من ألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وإسرائيل. وكان عدد السائحين الروس نحو مائتى ألف، وهو رقم غير كافٍ فى رأى الدكتور "البلتاجى".

أجاب الدكتور "البلتاجى" على سؤالنا عن اتجاهات تنمية السياحة المصرية بأن خلق قاعدة حديثة مريحة للاستجمام، واختيار مسارات لرحلات سياحية جديدة مرتبطة بالحضارة المصرية القديمة، وتوسيع مجال الخدمات وتحديثها، هى العناصر الأساسية فى سياسة جمهورية مصر العربية فى مجال السياحة.

اقترحنا على الدكتور "البلتاجى" مسارات رحلاتنا. فعلى سبيل المثال، من المناطق التى كان بها "الإسكندر المقدونى" والملكة "كليوباترا" (الإسكندرية - واحة سيوة)، إلى آثار أعظم الفراعنة (التى غرقت والتى لم تغرق من سد أسوان إلى "أبو سمبل")، وعلى طريق الحجاج الروس (صعيد مصر وشبه جزيرة سيناء)، إلى الأديرة المسيحية

في وادى النطرون في الصحراء ما بين القاهرة والإسكندرية. وقد أثار ذلك اهتمامًا واضحًا لدى الدكتور "البلتاجي".

و بدوره أوضح الوزير أنه يعطى اهتمامًا كبيرًا لمشاريع "القرى السياحية" سواء على البحر الأبيض المتوسط، أو على البحر الأحمر أو في مصر كلها، وأوضح أنه قد تم إنشاء ٢٦٣ من هذه المشاريع السياحية في عام ١٩٩٦ وحده. وهذا رقم غير صغير.

سألته: "و ماذا عن التعاون في مجال إنشاء مثل هذه المشاريع باستخدام رءوس أموال روسية، ومع تلك الشركات التي بنت عشرات من المشاريع في مصر؟"

أجاب الدكتور "البلتاجي": نحن نسعى لتنسيق الجهود، وعلى وجه الخصوص نحن عرضنا على الشركات الروسية وعلى بعض البنوك أن تستثمر أموالها في تعمير تلك الأماكن التي يحب السائحون الروس زيارتها، وسوف يتم إنشاء العديد من المجمعات السياحية، وتحديث البنية الأساسية في منطقة الغردقة وعلى ساحل البحر الأحمر كله بمساعدة شركات روسية، ونحن سعداء أن نرى في مصر بجانب "مكوكاتكم" وحجاجكم هؤلاء الذين يرغبون في كسب المال هنا، ومن يريد أن يستثمر أمواله في مجال الصناعة السياحية المصرية، وأنا أؤكد لكم أن هذه الأموال سوف تسترجع بسرعة جدا...

في رأينا، كان الحديث مع الدكتور ممدوح البلتاجي بناءً، فبعد أسبوعين بدأنا الرحلات التي اقترحناها، ثم صورنا بعد ذلك فيلمًا وثائقيا عن تلك الرحلات تم عرضه عدة مرات في القناة التليفزيونية الروسية الأولى في برنامج "نادى الرحالة"، واقتنعنا مرة أخرى بأن علاقاتنا مع المصريين "لم تأفل بعد"، وبالإضافة إلى ذلك ما زال الكثير أمامنا...

بالطبع عند مشارف نهاية القرن العشرين، لم تبق مصر على الصورة نفسها التي بقيت في ذاكرة الروس الذين حاربوا وعملوا على أرض الفراعنة القديمة في الخمسينيات إلى السبعينيات من القرن الذي شارف على الانتهاء. كانت تلك أيام انتصار مميز للتعاون السوفيتي المصري. وقد كان تأثيرنا في الحقيقة كبيراً جدا يخطف الأبصار مثل الشهب في السماء... ولكنه كان قصير الأجل للأسف في التاريخ.

لقد عايشت جمهورية مصر ثلاثة ألوانٍ في عهود كل من "جمال عبد الناصر"، و"أنور السادات"، و"حسني مبارك". وأصبح العلم الروسي، أيضًا، ذو ثلاثة ألوانٍ يرفرف على أنقاض الإمبراطورية السوفيتية.

تقود الليبرالية بصورتها الخاصة مصر، كما أن روسيا انغرست في أتون اقتصاد السوق، وهي تبحث عن نموذج تنميتها. و على خلفية كل ذلك تسمع من موسكو، ومن القاهرة، في مشارف نهاية القرن العشرين آراء متشككة، منها الإيجابي والسلبي، عن مستقبل العلاقات بين المصريين والروس. وأنا أريد أن أقول لهؤلاء الذين يطلقون السهام من على ضفاف النيل في اتجاهنا المثل الروسي"لا تبصق في البئر، فقد تحتاج أن تشرب ماءها". والشيء نفسه أقوله لمواطني بلدي الذين انتفخوا فأداروا وجههم عن مصر، وأذكرهم بالمثل العربي الحكيم " يد واحدة لا تصفق"...

كانت مصر وستبقى في ذاكرة الروس، بكل أفراحها وأحزانها، بالحب وبالخلافات، بالتشابه المذهل في العقلية، وبالقدر التاريخي غير المتماثل. سوف يزول كل شيء ولكن سيبقى الزمن الذي عاشته مصر معنا أو من دوننا في القرن العشرين، سوف يبقى إلى الأبد. سيبقى بالنسبة للمعاصرين وللأحفاد... سيبقى للتاريخ.

المؤلف فى سطور:

أناتولى زاخاروفيتش ييجورين

- متخصص فى التاريخ الحديث للدول العربية.
- نائب مدير "معهد الاستشراق" بأكاديمية العلوم فى روسيا الاتحادية.
- عضو اتحاد الصحفيين الروس بالاتحاد السوفيتى من عام ١٩٦١ .
- حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة عام ١٩٧٤، وعلى درجة الدكتوراه فى التاريخ عام ١٩٨٦ .
- يعمل نائب مدير "معهد الاستشراق" فى أكاديمية العلوم فى روسيا الاتحادية من عام ١٩٩٤ .
- عضو الأكاديمية الدولية للإعلام اعتباراً من عام ١٩٩٦ .
- ممثل وكالة أنباء "نوفوستى" السوفيتية فى مصر فى الفترة من عام ١٩٦٥ إلى عام ١٩٧١ .

- يرأس برنامج الدراسة الأساسية "مصر و الشرق. الوضع الحالى ومستقبل تنمية العلاقات".

- له أكثر من ٢٥٠ دراسة علمية فى مجال التخصص، منها ٣٠ كتاباً نذكر هنا بعضها:

- الثورة فى ليبيا، عام ١٩٨٩ .
- الاشتراكية فى البلاد العربية فى إطار الفكر السياسى الحديث، عام ١٩٩٠ .

- الحرب من أجل السلام فى الشرق الأوسط، عام ١٩٩٥ .
- مصر فى عصرنا الحديث، عام ١٩٩٨ .
- رئيس تحرير العديد من الأعمال العلمية مثل: "الإسلام والمجتمع"، و"تاريخ بلدان الشرق الأوسط فى القرن العشرين"...
- ألف أكثر من عشرين فيلمًا علميًا عن دول الشرق الأوسط.
- عمل نائبًا لرئيس جمعية الصداقة الروسية - المصرية، فى أبريل ٢٠٠٥ ، ورئيسًا للمركز الدولى للحوار الروسى- العربى.

المترجم فى سطور:

على فهمى عبد السلام

• بكالوريوس الهندسة فى الميكانيكا من جامعة الإسكندرية (١٩٧٠) ، وماجستير سباكة المعادن من معهد التبين فى حلوان (١٩٧٢) . ثم دكتوراه الفلسفة فى تكنولوچيا السباكة من معهد موسكو للصلب والسبائك فى روسيا - الاتحاد السوفيتى سابقًا - (١٩٨٠) .

• عين مدرسًا مساعدًا (١٩٨٠) وتدرج حتى أستاذ ورئيس قسم السباكة فى معهد التبين للدراسات المعدنية (١٩٩٢) ثم رئيس تخصص الفلزات غير الحديدية (١٩٩٨) ورئيس قسم هندسة التعدين والفلزات فى المعهد نفسه (٢٠٠٤) .

• مساعد مدير مركز الوثائق الفنية والجامعية فى بعثة التعاون العلمى لسفارة فرنسا (١٩٨٠) .

• مدرس وباحث فى كلية علوم الشمس والأرض والتعدين فى جامعة يولا فى نيجيريا (١٩٨٣) .

• عمل مدير مكتب جلاسكو فى القاهرة (يناير ١٩٩٦) ، ثم نائب مدير فوسيكو (يناير ١٩٩٨) .

• مؤسس معمل "الفرن الشمسى" فى معهد التبين للدراسات المعدنية.

• تولى مهمة الترجمة الفورية من الروسية إلى العربية والعكس فى العديد من المؤتمرات، واللقاءات الرسمية أهمها مؤتمر "صناع السلام فى شرم الشيخ".

• عضو عدد من الأكاديميات والمجالس واللجان العربية والدولية فى علوم البيئة وحماية الإنسان والطبيعة ، والجمعيات العلمية والنوعية فى سباكة المعادن وعلوم الجوامد وتآكل الفلزات والتنمية الصناعية .

• رئيس تحرير النشرة العلمية لمعهد التبين للدراسات المعدنية،

ورئيس تحرير مجلة "السباكة"،

ومشرف على إصدارات "تكنولوجيا السباكة".

• له أكثر من خمسين كتابًا منشورًا بين المؤلفات العلمية، وقواميس المصطلحات العلمية، والترجمات من الروسية إلى العربية، ومن الروسية إلى الإنجليزية، ومن الفرنسية إلى العربية. بالإضافة إلى العديد من المقالات والأبحاث العلمية المنشورة فى الدوريات والمؤتمرات العالمية .

المراجع فى سطور:

أوليج إيفانوفيتش فومين

– ممثل المركز الروسى للتعاون العلمى والثقافى الدولى التابع لوزارة الخارجية الروسية، والمدير العام للمراكز الثقافية الروسية، ومستشار سفارة روسيا الاتحادية فى مصر من عام ٢٠٠٣

– تخرج فى معهد الدراسات الدولية الحكومى فى موسكو فى عام ١٩٦٢ ، ثم فى معهد اللغات الشرقية عام ١٩٦٦

– حصل على الدكتوراه فى العلوم التاريخية عام ١٩٧٨ من أكاديمية العلوم الاجتماعية.

– مستشرق، وخبير فى التاريخ الحديث للبلدان العربية، ويتقن اللغتين العربية والفرنسية .

– عمل مترجماً فى إدارة السياحة التابعة لمجلس وزراء الاتحاد السوفيتى، ثم فى الجمهورية العربية اليمنية من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٦ .

– فى الفترة من ١٩٦٦ إلى ٢٠٠٣ عمل فى وظائف مهمة منها : مشرف لجنة منظمة الشباب، ومسئول عن العلاقات مع البلدان العربية (مدينة موسكو)، وممثل اتحاد جمعيات الصداقة السوفيتية ، ومسئول الإعلام عن البلدان العربية .

– نائب رئيس الجمعية الفلسطينية الأرثوذكسية الإمبراطورية منذ عام ١٩٨٢ حتى الآن.

– نائب رئيس جمعية الصداقة "السوفيتية– السورية" فى أعوام ١٩٧٥–١٩٩١ .

– نائب رئيس اتحاد جمعيات الصداقة الروسية مع البلدان العربية منذ عام ١٩٩٨ حتى الآن.

– عضو اتحاد الصحفيين الروسي.

– عضو اتحاد المترجمين الروسي.

– نشر له ٦ كتب وكتيبات وأكثر من ٤٠٠ مقالة عن: قضايا حركة التحرر الوطنية العربية، ونزاع الشرق الأوسط، ونضال الشعب الفلسطيني، والعلاقات الروسية العربية.

– حصل على عدد من الشارات والميداليات والشهادات التقديرية منها:

- شارة استحقاق "للصداقة بين الشعوب" .
- ميدالية الجمهورية الألمانية الديموقراطية "للصداقة بين الشعوب" .
- شارة استحقاق من الجمهورية العربية السورية "للتلاحم الكفاحى" .
- شارة استحقاق للمركز الروسى للتعاون العلمى، والثقافى الدولى "للمساهمة فى توطيد الصداقة" .
- شهادات تقديرية من بطريرك/أليكسى الثانى فى الفترة من عام ١٩٩٦ حتى ٢٠٠١ "مباركة للعمل المجتهد من أجل الكنيسة المقدسة" .

التصحيح اللغوى : سماح محمد

الإشراف الفنى : حسن كامل